

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الخليل  
عمادة الدراسات العليا  
قسم اللغة العربية

## المدينة في شعر سمير القاسم

إعداد:

إيمان غالب شعبان مرقه

إشراف:

الدكتور نادر قاسم

أستاذ الأدب الحديث المشارك

تمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير بقسم اللغة العربية بمعاودة  
الدراسات العليا في جامعة الخليل.

نشرين أول/ 2006

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2006/10/1 وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة :

- |   |                 |               |                                |
|---|-----------------|---------------|--------------------------------|
|  | مُشرفاً         | جامعة الخليل  | 1- الدكتور نادر قاسم           |
|  | ممتحناً خارجياً | جامعة بير زيت | 2- الدكتور عبد الكريم أبو خشان |
|  | ممتحناً داخلياً | جامعة الخليل  | 3- الدكتور ياسر أبو علوان      |

الدهر

إلى أسرتي، وخاصة هبة، مع كل الحب والتقدير

### الشكر

كل الشكر والتقدير إلى أستاذي الدكتور ناور تاسم الشرف على هذا البحث، الذي كان له الفضل الأول في إخراج هذا العمل إلى النور. كما أشكر أستاذة قسم اللغة العربية في جامعة الخليل ثا أبروه من دعم ومساندة فان لها أثرها في تخليص الصعوبات التي واجهتها.

## المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
- اللهم.....راء	٢
- اللهم.....شكر	٢
- القمر.....ة	و
- سرخل، المرونة مفهوم وامتدادو	1
- الفصل الأول: المرونة الفلسطينية في شعر سمير القاسم، حضور وامتدادو	23
- القيس الثبور والقراءة	24
- حيفا الانتماء القلق	70
- نابلس شلة التفجر	80
- يافا الأم.....ل بالعودة	94
- عكا .....صو الثم	105
- غزة مزج.....ة الأعراء	111
- رفح بطول.....ة الأطفال	125
- الخليل أهل العون	133
- الناصرة النراء المسجود	135
- أرمحا التاريخ الشرق	139
- جنين صيحة الغاضبين	142
- الفصل الثاني: المرونة العربية في شعر سمير القاسم، واقع وطموح	148
- بمر سيدة العوى	149
- بغدلو القطة المرتقة	166
- صنعاء الثرة	179
- عرب التنرو والغضب	186

- 192 - القاهرة ..... التتأخي
- 197 - بورسعيد ..... النجمة الحمراء
- 200 - أسوان ..... الأبحار الوطني
- 204 - عمان ..... الالتزام المطلوب

### 206 - الفصل الثالث: المدينة الأجنبية في شعر سمير القاسم، صموه وهينة

- 207 - برلين ..... الفكر الاشتراكي
- 218 - بريست ..... التجربة الثيرة
- 224 - أتينيا ..... المستقبل المشرق
- 229 - تل أبيب ..... المدينة اليهودية على أرض فلسطينية
- 234 - نيويورك ..... الظلم والاضطهاد
- 239 - إسطنبول ..... تجاهل الوجود العربي
- 245 - هروشيا ..... المرح في ضمير الإنسانية
- 249 - ثرميول ..... الثيان الصهيوني
- 253 - ولشنتون ..... ساحة الوجود الإنساني
- 256 - باريس ..... المدينة العمياء
- 259 - لندن ..... المرائم ضرورية
- 263 - ويترويك ..... التمييز العنصري
- 264 - لاهاي ..... القرارات غير الفاعلة

### 267 - الفصل الرابع: المدينة التاريخية في شعر سمير القاسم، إحداد ورموز

- 268 - أدوروك ..... الميزور المتيرة
- 270 - بابل ..... المربار والقهر
- 273 - طيبة ..... الشموع والتجدي
- 275 - سرور وعمورة ..... الطغيان المتجرو
- 275 - مكة ..... الحجر والعزة

280	.....	روما	الأرض الخالصة
283	.....	الدينونة المنيرة	الأمل بالتحمر
287	.....	إرم	الوطن وأهل الوطن
289	.....	شمران	الفاضي الجير
291	.....	قرطبة	جدة العرب الفزينة
295	.....	طليطلة	الانعاط بالفاضي
296	.....	قشتالة	الامتداد الحضاري
298	.....	الخاتمة	
301	.....	الصور والخرائج	
316	.....	ملخص باللغة العربية	
319	.....	ملخص باللغة الإنجليزية	

## المقدمة

موضوع هذه الدراسة هو (المدينة في شعر سميح القاسم)، وقد اختارت الباحثة هذا الموضوع، نظراً لأهمية المدينة في الشعر العربي الحديث، ولأثرها في وجدان الشعراء الفلسطينيين وتفكيرهم، فقد احتلت المدينة مكانة خاصة لدى هؤلاء الشعراء، فهي المكان الذي احتضن الأحداث السياسية والوطنية، وأظهر الواقع الاجتماعي والاقتصادي للشعوب، وعكس صورة السلطة الحاكمة والشعب المحكوم، ومن خلالها انطلق الشعراء الفلسطينيون ليعبروا عن رؤاهم الخاصة، ومواقفهم تجاه كل ما يحدث فيها، وما يربط بها من قضاء، فجاءت المدينة أحياناً امتداداً لهم، وخاصة إذا كانت مدلبهم، وظهرت أحياناً أخرى معادية لذاتهم، وخاصة إذا كانت مواقفها لا تتلاءم ومواقفهم الوطنية والفكرية.

وقد حددت الباحثة الشاعر سميح القاسم من بين الشعراء الفلسطينيين، لأن للمدينة حضوراً بارزاً في شعره، ولأنه عرض من خلالها مواقفه السياسية، ورؤياه الفكرية، وانتساءه القومي والإنساني، ومن خلالها تحدث عن تحولات المكان وأثرها في شعره، كما ركز على الهم المورق الذي يشغل باله، وهو قضية الوطن المسي.

ولهذه الأسباب مجتمعة، ارتأت الباحثة اختيار هذا الموضوع.

وقد اعتمدت المنهج التحليلي، لأنه يتناسب وموضوع هذه الدراسة، وقد أفادت أيضاً من المنهج الجمالي، عند رصد الظلال الفنية في النصوص الشعرية.

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة ومداخل وأربعة فصول وخاتمة.

وقد خصصت الباحثة المدخل لإعطاء فكرة عامة عن المدينة، فعرفتها من خلال عدة علوم، ثم تحدثت عن نشأتها والسمات العامة لها، وتناولت مستقبلها، وقد تحدثت عن موقف الفلاسفة والمفكرين منها، فعرضت لأراء كل من أفلاطون وأرسطو والقديس أوغسطين والفارابي وابن خلدون، ثم تناولت المدينة في الشعر العربي القديم، وذلك لتؤكد أن موضوع المدينة لم يكن جديداً في الشعر العربي الحديث، ثم توقفت عند مجموعة من الشعراء المعاصرين وأظهرت مواقفهم تجاه المدينة.

وقد جاء الفصل الأول عن المدينة الفلسطينية، عرضت فيه الباحثة إحدى عشرة مدينة وهي (القدس وحيفا ونابلس ويافا وعكا وغزة ورفح والخليل والناصرة وأريحا وجنين)، وقد



درست كل مدينة منها على حدة، وتناولت جميع الجوانب التي طرقها الشاعر لكل منها، لإعطاء صورة واضحة ومحددة المعالم عن كل مدينة، وللتركيز على خصوصية كل منها، ولإظهار الفرق بين صورة كل مدينة وأخرى.

وقد عبرت المدينة الفلسطينية في هذا الفصل عن وجهها البطولي من خلال بعدها الوطني، وجاءت تحمل صورة أبنائها المناضلين، وتكشف سياسة المحتل الصهيوني.

أما الفصل الثاني، فقد تناولت فيه الباحثة المدينة العربية، وقد جاءت من خلال ثماني مدن، ظهر حضورها بشكل واضح في شعره، وهي (بيروت وبغداد وصنعاء وعدن والقاهرة وبورسعيد وأسوان وعمان) وقد عرض هذا الفصل صورة عن المدينة العربية من خلال واقعها وأمانها، فظهرت المدينة العربية ذات البعد السياسي كبيروت وبغداد، والمدينة ذات البعد الثوري كصنعاء وعدن، والمدينة المحاربة ذات الصورة الإيجابية في نفوس الأمة العربية كبورسعيد، وقد أظهر القاسم علاقته بهذه المدن، وأثر أحداثها في نفسه.

وقد عرض الفصل الثالث صورة المدينة الأجنبية من خلال ثلاث عشرة مدينة، وهي (برلين وبريست ليوغست وأثينا وتل أبيب ونيويورك وإسطنبول وهيروشما وكرميل وواشنطن وباريس ولندن وديترويت ولاهاي)، وقد جاءت المدينة الأجنبية من خلال بعدها الوطني وانتمائها الفكري، فبدت مدينة ذات صورة إيجابية لدى الشاعر، وقد عبرت عنها برلين وبريست ليوغست، وقد أظهر القاسم علاقته الحميمة بها.

وقد جاءت بعض المدن الأجنبية تحمل رمزاً للقهر والهيمنة واستلاب الوجود العربي/ الفلسطيني، كنيويورك وتل أبيب، وقد رفضها القاسم وعبر عن عدائته تجاهها.

وقد رتبت الباحثة المدن في الفصول الثلاثة حسب درجة حضور المدينة وثقافتها في شعر القاسم، لذا جاءت فصول هذه الدراسة متفاوتة في الطول.

وقد خصصت الباحثة الفصل الرابع للمدينة التاريخية، وقد جاءت من خلال ثلاث عشرة مدينة، وهي (أوروك وبابل وطيبة وسدوم وعمورة ومكة وروما والمدينة المنورة وإرم وشيراز وقرطبة وطليطلة وقشتالة)، ونظراً لعلاقة هذه المدن وأصلاتها تاريخياً، فقد رتبها الباحثة حسب قدمها، وقد جاءت هذه المدن المكتنزة بظلال تاريخية ودينية لتعبر عن واقع المدينة المعاصرة، وقد حمل بعضها قضايها وهمومها وآلامها، وقد جاءت المدينة الأكندسية محفزة الأمة العربية على ضرورة استعادة أمجادها السابقة.

ومن الجدير بالذكر أن الباحثة في هذه الفصول الأربعة، قد درست المدينة دراسة موضوعية وفنية، ولم تتصل بينها، لأنها رأت أن هدف الدراسة يتحقق من خلال هذا الربط.

وفي الخاتمة عرضت الباحثة لأهم النتائج التي توصلت إليها.

وقد كانت دواوين القاسم هي الأساس الذي اعتمدت عليه الباحثة لرسم صورة المدينة كما رآها الشاعر، فقد عمدت إلى استنطاق النصوص الشعرية، واستقاء المادة الموضوعية والفنية منها، وقد جاء عدد من المراجع ليكون عوناً لها في هذه الدراسة، ومن هذه المراجع، المدينة في الشعر العربي المعاصر لمختار علي أبو غالي، واتجاهات الشعر العربي المعاصر لإحسان عباس، وعن بناء القصيدة العربية الحديثة لعلي عشري زايد، والبنىات الأسلوبية لمصطفى السعدني، ومراجع أخرى كثيرة.

هذه الدراسة هي ثمرة جهد الباحثة المتواضع، تضعه بين أيدي المتخصصين والقراء، فإذا أصابت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسها.

وختاماً لا يفوت الباحثة أن تشكر أستاذها المشرف الدكتور نادر قاسم على نصائحه وتوجيهاته الهادفة، وعلى ما أبداه من ملاحظات نقدية قيمة، وعلى متابعته المتواصلة التي كان لها أثرها الفاعل في إخراج هذه الدراسة في صورتها الحالية.

## مدخل

المدينة مفتوحة ومتداخلة

## - مفهوم المدينة لغة

جاء في لسان العرب "مَنْ بِالْمَكَانِ، أَقَامَ بِهِ، وَقَلَّ مَدَنَ الْمَدَائِنَ: كَمَا يَقَالُ مَصَرُ الْأَمْصَارِ، وَالْمَدِينَةُ: الْحَصَنُ يُبْنَى فِي أَصْطِنَةِ الْأَرْضِ، وَكُلُّ أَرْضٍ بُنِيَ بِهَا حَصَنٌ فِي أَصْطِنَتِهَا فِي مَدِينَةٍ، وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهَا مَدِينِي، وَالْجَمْعُ مَدَائِنُ وَمَدَنٌ"<sup>(1)</sup>. ويستشف من هذا التعريف، أن مفهوم المدينة لغة قد ارتبط بالاستقرار وبوجود قوة عسكرية تدافع عن المدينة، وتوفر الحماية لسكانها.

## - مفهوم المدينة اصطلاحاً

المدينة ظاهرة تولدت عن تفاعل مجموعة من العوامل المتشابكة، لهذا لم يحدد العلماء والباحثون مفهوماً واحداً للمدينة، فقد وجدت تعريفات مختلفة لها، حسب وجهة نظر كل عالم.

"فمنهم من تصور المدينة امتداداً للقرية، على افتراض أن هناك تدرجاً مستمراً بين ما هو ريفي وما هو حضري"<sup>(2)</sup>.

ومن العلماء من تصور المدينة "أنها مجتمع محلي يتميز بمجموعة مركبة من السمات، التي يمكن إدراكها، إذ حاول البعض تعريف المدينة على أنها المكان الذي أصبح من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضاً"<sup>(3)</sup>، وقد رفض هذا التعريف "لأن كثيراً من المدن الصغيرة يعرف سكانها بعضهم بعضاً"<sup>(4)</sup>.

وقد عرفت المدينة في ضوء اصطلاحات قانونية "وذلك أن مكاناً ما قد يطلق عليه اسم مدينة عن طريق إعلان أو وثيقة رسمية تصدر عن سلطة عليا، ومع أن هذا التعريف واضح جداً إلا أنه غير مرض، لأن المكان لا يمكن أن يكون مدينة بمجرد ظهور إعلان بذلك، كما أن هذا لا ينطبق على كثير من المدن الموجودة في كثير من بلاد العالم التي نشأت وتطورت دون إعلان رسمي، أو دون صدور وثيقة بذلك من الجهات المختصة"<sup>(5)</sup>.

وهناك تعريف للمدينة تناوله الإحصائيون "يقوم على الأساس العددي وحجم السكان

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (مدن) ج 13 / 402.

(2) حسين رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، 43.

(3) نفسه، 44، محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 127.

(4) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 128.

(5) نفسه، 127.

وكثافتهم، وهم يتخذون عدداً معيناً يصبح بعده التجمع السكاني مدينة<sup>(1)</sup>.

وهذا التعريف يقابل احتياجات الإحصائيين، وقد رفض من قبل الباحثين، "لأنه لا يوجد هناك اتفاق على هذا العدد في كثير من بلاد العالم، ولأن كثيراً من القرى ربما يكون لها نفس كثافة المدن، بل تريد عنها في بعض الأحيان<sup>(2)</sup>".

وقد تناول (لويس مفورد) المدينة باعتبارها "حقيقة تراكمية في مجموعة من التراكمات التاريخية، وفي تطورها من حيث الزمان تأخذ شكلاً تنابعياً من حيث الوجود التي مرت بها، وهي كنتيجة لذلك للتتابع الزمني تعد تراكمية في المكان<sup>(3)</sup>".

ويذكر (لويس ويرث) في تعريفه للمدينة "أن العالم المعاصر لم يعد هذا العالم الذي يتكون من جماعات صغيرة معزولة من الناس، ينتشرون على رقعة واسعة من الأرض كما كان (سمر) يصف المجتمع البدائي، إن المظهر المميز لأسلوب حياة الإنسان في العصر الحديث، هو تركزه في تجمعات هائلة تقام فيها مراكز محددة تعمل على إشباع الأفكار والممارسات التي تطلق عليها اسم المدينة، ..... المدينة ليست مجرد المكان الذي يعمل فيه الإنسان الحديث أو يأوي إليه، بل إنها المكان أو المركز الذي يضبط ويمسك بزمام المبادأة الاقتصادية والسياسية والثقافية<sup>(4)</sup>".

وقد حدد (ويرث) عدداً من الخصائص التي تميز المدينة "مثل اللاتجانس واعتماد السكان الكثير بعضهم على الآخر، والطابع الجزئي للعلاقات الاجتماعية، والاتجاه إلى استخدام العقل، والتبرير المنطقي عند السكان<sup>(5)</sup>".

ويعتبر عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) من أوائل الذين حاولوا تعريفاً محدداً للمدينة، حين يقول: "إن هناك عنصراً واحداً مشتركاً بين التعريفات العديدة للمدينة هو أنها تتكون من مجموعة أو أكثر من المساكن المتفرقة، ولكنها نسبياً تعتبر مكان إقامة مطلق، وعادة ما تبني المنازل في المدن قريبة بعضها من بعض<sup>(6)</sup>".

فهر يرى المدينة "على أنها ذلك الشكل الاجتماعي الذي يسمح بظهور أعلى درجات

(1) محمد أحمد غنم، المدينة، دراسة في الأنثروبولوجيا الحضرية، 153.

(2) انظر محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 127.

(3) حسين رشوان، المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، 44.

(4) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 130.

(5) نفسه، 129.

(6) نفسه، 134.

(الفردية)<sup>(1)</sup>.

ولعل محاولة كل من (سوروكن وزيمرمان) من أنق المحاولات لتحديد مفهوم المدينة، لأنها كما تعريفا للمدينة أكثر شمولاً من خلال افتراض نظري يستند إلى شائبة معايير هي:

1. المهنة: حيث يرتبط معظم السكان بالصناعة والتجارة.
2. البيئة: والتي يسيطر عليها الإنسان في محاولة التكيف معها.
3. حجم المجتمع: والذي يميل إلى الكبر نسبياً.
4. كثافة السكان: حيث تتزايد في المدينة عن الريف.
5. تجانس السكان أو تمايزهم حيث يندمج التجانس إلى حد كبير.
6. التنوع والتدرج الطبقي: حيث يتنوع السكان، ويتدرجون على عكس الحال في القرية.
7. الحراك الاجتماعي: حيث يبدو الحراك أكثر وضوحاً.
8. نسق التفاعل: حيث يتميز بمسط من العلاقات المتعددة والحزبية والتعاقدية<sup>(2)</sup>.

وهناك من ذهب إلى أن المدينة ليست مجرد تجمعات من الناس مع ما يجعل حياتهم فيها أمراً ممكناً، مثل الشوارع والمباني والكهرباء ووسائل المواصلات، كما أنها ليست مجموعة من النظم والإدارات، مثل المحاكم والمستشفيات والمدارس والشرطة والخدمات المدنية من أي نوع، إن المدينة فوق هذا كله، اتجاه عقلي، مجموعة من العادات والتقاليد إلى جانب تلك الاتجاهات المنظمة والعواطف المتأصلة في هذه العادات والتي تنتقل عن طريق هذه التقاليد، إن المدينة بمعنى آخر ليست مجرد ميكانيك فيزيائي أو بناء صنعه الإنسان، ذلك لأنها متضمنة في العمليات الحيوية التي تنظم الناس الذين يكونون لها إنتاج الطبيعة وذات طبيعة إنسانية على وجه الخصوص<sup>(3)</sup>.

ويعتبرها الباحث محمد عاطف حيث من الناحية السوسولوجية التقنية الجثة عبارة عن فكرة مجردة ولكن العناصر التي تتكون منها مثل الإقامة والبنات الداخلية ووسائل المواصلات ... الخ، عبارة عن موجودات مشخصة لها طبائع مختلفة، ولذلك فإن ما يجعل المدينة شيئاً محدداً هو ذلك التكامل الوظيفي لعناصرها المختلفة على هيئة وحدة كلية، ومع

(1) محمد أحمد غنم، المدينة دراسة في الأثر وبيولوجيا الحضرية، 160.

(2) نفسه، 154، 155.

(3) محمد عاطف عيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 132.

ذلك لا يكون للمدينة وظيفة واحدة ... بل عدة وظائف، وليس معنى هذا أن كل وظائف المدينة توحد في المدن دون استثناء<sup>(1)</sup>.

وتعرف المدينة من ناحية اقتصادية بأنها مكان إقامة يعيش السكان فيه أساساً على التبادل والتجارة أكثر مما يعيشون على الزراعة، ومع ذلك فليس صحيحاً دائماً أن نطلق على كل المحليات مصطلح المدن إذا كانت طبيعة الحياة فيها تقوم على التبادل والتجارة، لأن بعض المستوطنات تتكون من عائلات تقوم أساساً بالتجارة<sup>(2)</sup>.

وأما من ناحية جغرافية، فقد عرف (رائزل) المدينة بأنها مجموعة دائمة من الناس والمساكن، تغطي مساحة كبيرة من الأرض، توجد على مفترق الطرق التجارية الكبرى، ويتبعه (فاجنر) ويقول: إن المدن هي مواضع تركز النشاط التجاري، وعلى الرغم من أهمية التجارة في نشأة بعض المدن، فإن التجارة في بعضها الآخر لا تحتل إلا جانباً ثانوياً من نشاطها<sup>(3)</sup>.

وبهذا فقد اتخذ علماء الجغرافيا مؤشرات قوى العمل، وعلاقته بالانتاج، في تحديد مفهوم المدينة.

وهذه التعريفات المتعددة للمدينة، تؤكد أن كل باحث حاول أن يعطي مفهوماً محدداً للمدينة، من خلال العلم الذي ينتمي إليه.

وهذه التعريفات تؤكد أيضاً أن وضع معيار واحد للمدينة يُحد من خلاله مفهومها، لا يمكن أن يعطي مفهوماً حقيقياً وشاملاً للمدينة، فلا بد من تدخل هذه التعريفات جميعاً، لإعطاء تعريف واضح لها.

## 2 - نشأة المدن ونموها

مما لا شك فيه " أن المدن انبثقت تعبيراً عن ظروف روحية ومادية واجتماعية وسباسبية، كما تأثرت بمختلف التقاليد والقيم والأفكار المنظمة للعلاقات الاجتماعية، وكذلك بوسائل الإنتاج وأنساق الاتصال، وتطورت المدن والعمارة معها، وانعكست صور هذا التغير الاجتماعي على تغير المدن ونمو العمارة"<sup>(4)</sup>.

(1) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 126

(2) نفسه، 135.

(3) دولت أحمد صائق ومحمد السيد علاب، جغرافية المدن، 21.

(4) حسين رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، 55.

وتؤكد الشواهد التاريخية، أن الحياة الحضرية ظهرت في العصر القديم، وخاصة في المناطق التي شهدت فائضاً غذائياً، وقد ظهرت المدن القديمة في السهول أو الهضاب أو على ضفاف الأنهار، ومن هذه المدن ممفيس وطيبة في مصر القديمة، ومدينة حريشكو عند نهر الأردن، ومن المدن القديمة أيضاً مدينتا صور وصيدا، وغيرهما<sup>(1)</sup>.

وقد ظهرت في هذه المدن خصائص مشتركة، فقد خططت شوارعها تخطيطاً جيداً، وأقيم فيها المساكن، وصالات عقد المؤتمرات والقصور والأبنية الحكومية، والصور الذي يحيط بالمدينة ويشكل الحماية لها، وقد اشتغل الناس بالتجارة داخل هذه الأسوار، وعاشوا ضمن أسواق اجتماعية وسياسية واقتصادية معتمدة<sup>(2)</sup>.

أما مدن العصور الوسطى، فقد قامت على أساس العمل والتجارة، وكانت القوى الروحية الخالصة هي المسيطرة على هذه المدن، وقد تركزت الأنشطة الدينية والسياسية تمثل هذه المدن في وسط المدينة أو مركزها<sup>(3)</sup>.

وقد تأثرت المراكز الحضرية في عصر النهضة بالاكتشافات الجديدة، وظهور العلوم والفنون، وكان لهذا تأثيره أيضاً على شكل المدن والمباني فيها<sup>(4)</sup>.

وتتمو المدن في العصر الحديث نتيجة العمل الصناعي، وتأثر بالتغير السريع في العوامل القومية والإقليمية ومستويات اقتصادية ومادية ودولية<sup>(5)</sup>.

من الذين عرضوا لنشأة المدينة المؤرخ الإنجليزي (توينبي)، و (لويس مفورد) الذي يرى أن المدينة تمر بالمراحل الآتية:

1. مرحلة للنشأة.
  2. مرحلة المدينة.
  3. مرحلة المدينة الكبيرة.
  4. مرحلة المدينة العظمى.
- وقد حدد لكل مرحلة ميزات وأخصائصها<sup>(6)</sup>.

(1) انظر حسين رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، 56، 57.

(2) انظر حسين رشوان، مشكلات المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، 16.

(3) انظر نفسه، 18.

(4) انظر حسين رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، 60.

(5) انظر نفسه، 60.

(6) انظر نفسه، 61، 62، 63.



رأى الباحثون أن هناك خمسة عوامل تستخدم لتفسير نمو المدينة ودرجة التحضر فيها، وهذه العوامل هي الثورة الزراعية، والثورة التكنولوجية، والثورة التجارية، والكفاية المتزايدة في وسائل النقل، والثورة الديمغرافية<sup>(1)</sup>.

## — السمات العامة للمدن

من الصعوبة إطلاق سمات عامة للمدن، ولكن الباحثين حاولوا ذلك، ومن هذه السمات:

1. المهنة: فقد تخصصت المدينة خلال مراحل التاريخ في وظيفة أو أكثر من الوظائف التالية:
  - أ- الوظائف الاجتماعية: الدفاع، الدين والثقافة، الإدارة، الترفيه.
  - ب. الوظائف الاقتصادية: التجارة، الصناعة، الإنتاج، الخدمات.
- ومن الجدير بالذكر، أن المدينة في العصر الحديث لم تقتصر خدماتها على وظيفة واحدة، بل تداخلت مجموعة من الوظائف لتقدم خدماتها لسكانها.
2. المظاهر الثقافية: تمتاز المدينة باختلاط الأجناس والثقافات، وحركتها العمرانية وسواها وسائل المواصلات والحركة والأزدحام، وهي تشجع الفروق الفردية بين ساكنيها.
3. البيروقراطية: حيث تتركز الإدارة في العواصم الكبرى، واعتماد كل مشروع أو نشاط سياسي أو تربوي أو اقتصادي على التنظيم الإداري في المدن.
4. التشريعات القانونية: فمن خلالها تنظم علاقات سكان المدن وحياتهم الاقتصادية.
5. حدود المدينة: تمتد المدينة خارج حدودها، وتؤثر وتسيطر على المناطق المجاورة لها.
6. الإنسان الحضري: علاقات هذا الإنسان سطحية ومؤقتة وغير شخصية، ومسلخه عقلاني، ويتحمل مسؤولية أعماله ونتيجة أخطائه<sup>(2)</sup>.

## — مستقبل المدينة

لقد تشاعم الكثيرون من مستقبل الحياة في المدينة لما لها من آثار سيئة على حياة البشر، وما يؤدي إليه من تدمير للقيم الإنسانية، وإهدار لمبادئ الحياة الكريمة، واحتفاظ

(1) لمزيد من المعلومات عن هذه العوامل انظر محمد عاطف غيث والسيد عبد الحامدي السيد، المجتمع الحضري، 197، 201.

(2) انظر حسين رشوان، المدينة دولة في علم الاجتماع الحضري، 38-42.

النفس الإنسانية<sup>(1)</sup>، فقد رأها (لويس مملورد) وعاء للعنف المنظم ودوراً ناقلاً للحرب<sup>(2)</sup>، أما (شبلنجر) فرأها 'عبارة عن شر يدمر كل شيء، وفي النهاية تغرق المدينة موتاً في أاثامها، ويقول: إن موت المدينة يحمل في نفس الوقت علامة موتها'<sup>(3)</sup>.

ولكن بعض الباحثين يخالفون هذا الرأي، ويرون أن المدينة "لا يمكن أن تكون مسؤولة عن مثل هذه الكوارث، لاقتارها إلى الدليل العلمي، حقيقة أن المدينة قد تسببت في وجود أنواع جديدة من الجرائم، وزيادة في انحراف الأحداث، وزيادة كبيرة في تصدع الأسر، واحتمالات كثيرة للمرض النفسي والاضطراب العصبي، وقيام فرص كثيرة لظهور التفكك والقلق والاضطراب في المجال الفردي والجمعي، إلا أن جذور هذه المشاكل جميعاً، كانت موجودة قبلاً في الحياة الريفية، وتضخمت أو ظهرت واضحة في المدينة، تبعاً لزيادة حجمها وازدحام السكان فيها"<sup>(4)</sup>.

#### — موقف الفلاسفة والمفكرين من المدينة

اكتسبت المدينة أهمية خاصة في المنظور الفلسفي عند الإغريق، فقد رأى أفلاطون أن التعاون أدى إلى نشوء مدينة استعانت بالتجارة والملاحة، لسد حاجاتها المتزايدة، وقد سيطرت القناعة على سكان هذه المدينة الأولى الفطرية<sup>(5)</sup>، هذه هي المرحلة الأولى للمدينة.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الانغماس في الترف، والاهتمام بالكماليات، وإنشاء صناعات مستحدثة تتفق والحضارة، وأدى ذلك إلى اشتداد التنافس، وإثارة الأحقاد، فألفت الجيوش، وأشعلت الفتن، واختل النظام، وفسدت مقاييس العدالة، وجمهوريته ترمي إلى بعث العدالة الصحيحة في مدينة ترتكز أنظمتها على الفلسفة<sup>(6)</sup>.

وقد رأى "أن الاستقرار المتكامل للمدينة هو الهدف الأعلى الذي يحافظ على الانسجام والتناغم بين السكان، فجعل المدينة شبه مستقرة، خوفاً من تعرضها للتغيير والهزات الاجتماعية والحروب الأهلية لمدينته الفاضلة، فدعا إلى وضع التحديات الصارسة ضد زيادة النمل، وأراد أن يتخلص من الاضطرابات الاقتصادية، فنسم السكان إلى أصحاب الأصناف

(1) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 100.

(2) انظر لويس مملورد، المدينة على مر العصور، 82.

(3) محمد عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، 100.

(4) نفسه، 100، 101.

(5) انظر عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وأثر رجائها، 33.

(6) انظر نفسه، 34.

من المهن والحرف تقسيماً وراثياً مغلقاً، وأرجع سبب القلق الاجتماعي إلى الروح المبدعة، الروح الشعرية<sup>(1)</sup>، لذلك طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته.

والأرجح أن هذه المدينة الفاضلة التي دعا إليها أفلاطون لا يمكن أن تتحقق في عالم الواقع، لذلك بقيت عبارة عن فكرة مجردة، ونصور عقلي بعيد عن التحقيق.

أما أرسطو فقد رأى أن المدينة مكونة من عدة فرى، وعدها أرقى الجماعات، لأنها مكثفة بنفسها، مستغنية عن سواها، وقد رأى أن مهمة المدينة تركز على توفير أسباب السعادة الخلقية والعقلية لأفرادها، وهي تعاونهم على اكتساب الفضائل وتطبيقها في مجتمعهم، وهي توفر لهم إمكانية الاهتمام بالعمل العقلي من خلال محافظتها على السلم، ونشر الطمأنينة والرخاء، واهتمامها بالتربية والتعليم، وهي لا تشارك في الحرب إلا دفاعاً عن نفسها، أو من ترقية شعوب أخرى، وهو يؤكد أن مقياس عظمة المدينة يكون بما يحققه أبنائها من علم وأخلاق، وليس من خلال خوضها الحروب وجمع الأموال، أما هدف الاجتماع فيها فهو تحقيق الحياة الفاضلة، وقد أوضح أنه لا يجوز أن يتجاوز عدد سكان المدينة عن 100,000 نسمة، وأن موقعها يجب أن يكون منيعاً، وذلك لصد الأعداء، ومتصلاً بالبحر ليسهل الاتصال مع المناطق المجاورة<sup>(2)</sup>.

وقد اهتم (القديس أوغسطين) بفكرة المدينة الفاضلة في العصور الوسطى، وتتجلى مقابله في موازنته بين مدينة الله القائمة على المحبة وبذل الذات، ومدينة الإنسان القائمة على الروح المادية، وهو يرى أن العقيدة الدينية هي المثال الأعلى الذي يحرك الإنسان نحو الوصول إلى الأكمل، وأن الاجتماع المرتكز على رباط العقيدة والمثال الأعلى هو الاجتماع الأكمل، وهو يرى أن مدينة الله غاية الحكم فيها هو إحلال العدل بين الناس<sup>(3)</sup>. وبهذا يكون (القديس أوغسطين) قد ربط المدينة الفاضلة بالعقيدة الدينية.

والمدينة الفاضلة عند الفارابي هي التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون لنيل السعادة في الحقيقة، وإذا تعاونت كل مدن الأمة كانت الأمة فاضلة، وإذا انتشر هذا التعاون في كل الأمم كانت المعمورة فاضلة<sup>(4)</sup>، وهو يشبه المدينة الفاضلة بالجسم التام الصحيح الذي يتعاون أعضاؤه في خدمة العضو الرئيس، وأجزاء هذه المدينة يخدم الواحد منها الآخر، ولكل منها

(1) للسيد حفي عروص، سكان المدينة بين الزمان والمكان، 51.

(2) انظر عده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، 70، 71.

(3) انظر حنا القنفوري وخليل الجبر، تاريخ الفلسفة العربية، ج2/ 486، 487.

(4) عده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، 256.

مرتبة<sup>(1)</sup>، فالتعاون هو أساس هذه المدينة.

ويرى ابن خلدون في مقدمته أن المدن والأمصار "موضوعة للعموم لا للخصوص"<sup>(2)</sup>، ولذا فهي بحاجة إلى "اجتماع الأيدي وكثرة التعاون"<sup>(3)</sup>، وأنه "لا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك"<sup>(4)</sup>.

ويذهب ابن خلدون إلى "أن المدن قرار تتخذ الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون. وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها"<sup>(5)</sup>.

وقد ربط ابن خلدون خراب المدينة بفساد أهلها فقال: "وأما فساد أهلها في ذلهم ولحدأ واحدا على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلويح بألوان الشر في تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها، فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، ..... فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الإيمان، والزبا في البياعات، وإذا كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن لله بخرابها ونقضها"<sup>(6)</sup>.

ومن الجدير بالذكر، أن ابن خلدون قد أفرد في مقدمته باباً خاصاً تحدث فيه عن المدينة بعنوان (في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض ذلك في الأحوال).

هذه هي المدينة في نظر الفلاسفة والمفكرين.

## - المدينة في الشعر العربي

عرف الشعراء العرب القدامى موضوع المدينة، وقد جاء الحديث عنه في ثاباً قصائدهم، فـ "التراث الإنساني قد لمن من قريب أو بعيد معنى المدينة والحضارة، بما

(1) انظر عبد الشامي، لرنسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، 256.

(2) ابن خلدون، مقدمة، ج 2/ 844.

(3) نفسه، ج 2/ 844.

(4) نفسه، ج 2/ 844.

(5) نفسه، ج 2/ 851.

(6) نفسه، ج 2/ 889.

يرمز أن إليه من تغيرات ترغب النازح على التخلي عن شكله القديم، وعلى أن يلبس للمدينة الجديدة ثوبها<sup>(1)</sup>.

فقد صرخت ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان الذي نقلها من حياة البادية إلى حضرة الشام بهذه الأبيات:

أحببت تخفق الأرواح فيه	أحب إلى من قصر مئيف
وكلب ينبج الطراق عني	أحب إلي من قبط الوف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إلى من لبس الشفوف
خشونة عيشتي في البجة أشبه	إلى نفسي من العيش البطرف
فما أبغض سوى وطني بجيلاً	فحبسي بأهلك من وطن شريف <sup>(2)</sup>

وقد عبرت ميسون في هذه الأبيات عن موقف خاص بها، تابع من صراعها مع الحياة ومظاهرها في المدينة، وقد وصلت بها درجة الوعي حداً جعلها تفاضل بين حياة البادية وحياة المدينة، فأتت البادية موطنها الذي تحن له وتشعر بالانتماء إليه، وهذا ما جعلها تشعر بالغربة ونقل الحياة في المدينة، فأعلنت بكل صراحة رفضها لتلك الحياة برغم ما فيها من مغريات، فقد رأت في المدينة المكان الذي يسلبها ثقافتها واتصالها بوطنها (البادية)، "وهي في هذا أقرب إلى الروح الرومانسي في موقف الشاعر للمعاصر من المدينة"<sup>(3)</sup>.

وترخر كتب التراث العربي بشواهد تؤكد علاقة الشاعر بالمدينة، وقد تبلورت هذه العلاقة في العصر العباسي "حيث كانت المدينة سمة الحياة في عصرهم أكثر من أي عصر مضى"<sup>(4)</sup>، "وذلك عند اكتمال النموذج المجتمعي الحضاري العربي الإسلامي الذي تجلت ملامحه الراقية في الحواضر للزاهرة، مثل بغداد ودمشق وغيرهما من المدن والممالك الأندلسية"<sup>(5)</sup>.

وقد اتخذت العلاقة بين الشاعر العربي القديم والمدينة متحيين.

### المنحى الأول: قبول المدينة

وقد ظهر هذا المنحى من خلال علاقة الألفة والانسجام التي أحسها الشاعر تجاه المدينة، فقد

(1) مخار على أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، 9.

(2) لادادي، خزنة الأوب لب لسان العرب، ج 8/ 503، 504.

(3) مخار على أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، 10، 19.

(4) منافع منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، 34.

(5) إدريم رمالي، المدينة في شعر العربي، الجزائر: نموذج، 1925-1962، 20، 21.

رأها المكان الذي انتمى إليه، وارتبط به، وحقق له السعادة والحياة المترفة، فنظم شعراً عبّر فيه عن عواطفه تجاه ذلك المكان.

قال عمارة بن عقيل في بغداد:

أعابتني طول من الأرض أو عرس  
بعفا العيش هي بغداد واخضر عوده  
تطول بها الأعمار إن غداها  
مريء وبعض الأرض أمراً من بعض<sup>(1)</sup>

فالشاعر معجب بالحياة في هذه المدينة لأنها وفرت له الحياة الكريمة الرغدة.

وقال شاعر آخر في البصرة:

يا جنة فاقت الجناق فيما  
الفتها فاتخذتها وطناً  
يمد لها قيمة ولا ثمن  
إن فؤادي لمثلها وطن<sup>(2)</sup>

فقد رأى البصرة المكان الذي ينتمي إليه جنة، وقد اختارها وطناً له.

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي في النجف:

لم ينزل الناس في سهل ولا جبل  
جفت بئر وبجر من جوانبها  
أنصف هواء ولا أنجدي من النجف  
وما يزال نسيم من يمانية  
فالبر في طرف والبحر في طرف  
ياتيك منها برياً روحه أنف<sup>(3)</sup>

فالشاعر معجب بهذه المدينة، وقد فضلها في جوها على غيرها من المدن، وقد تطرق إلى الحديث عن موقعها الجغرافي وذلك ليؤكد طيب هوائها.

ونظم الصنوبري قصيدة عن دمشق قال فيها:

جفت دنيا بدمشق لقاظيها  
تضيئ جداول البلور هيها  
فلمست ترى بخير بدمشق دنيا  
جلال حدائق ينبتن وشيا<sup>(4)</sup>

فالشاعر يصف تلك الطبيعة الجميلة في هذه المدينة.

وقال شاعر في بغداد

(1) نفوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ 460، 461.

(2) نفسه، ج1/ 437، 438.

(3) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج5/ 325.

(4) الصنوبري، النجف، 456.

دخلنا كارهين لها فلما ألقاهما خرجنا مكرهين<sup>(1)</sup>

فقد ارتبط الشاعر بعلاقة الألفة والمحبة مع هذه المدينة مما صعب عليه تركها.

وهذه الشواهد الشعرية تؤكد ارتباط الشعراء بالمدن والعلاقة الإيجابية بينهما، ومع هذا فإن موضوع المدينة لم يكن ظاهرة شائعة في الشعر العربي القديم.

### التمني الأخير: النور من المدينة

ظهر هذا المنحى من خلال إحساس الشاعر العربي القديم بعدم الألفة مع المدينة، وعجزه عن التواصل معها والعيش فيها، ومن الجدير بالذكر، أن هذا المنحى كان صدى لإحساس أني تعرض له الشاعر في موقف معين، ولهذا فهو لم يؤصل فكرة أو موقفاً للشعراء في تلك الفترة.

فقد قال الشاعر العربي:

بغداد أرض لأهل المال طيبة  
والمضاليس دار الضنك والضيق  
أصبحت فيها مضافاً بين أظهرهم  
كأنني مصدق في بيت رنديق<sup>(2)</sup>

فالإحساس بالضيق والغربة يتغلغل كاهل الشاعر، مما جعله يطلق حكمه على هذه المدينة بأنها دار الضنك والضيق.

وقال شاعر آخر:

إلا يا غراب البين مالك ثاوي  
ببغداد لا تمضي، وأنت صحيح؟  
إلا إنما ببغداد دار بليّة  
هل الله من سجن البلاد مريح؟<sup>(3)</sup>

فالشاعر قد أبدى كرهه لهذه المدينة التي رآها تحرق حريقه وانطلاقه، وهو يتشوق لمغادرتها وال خلاص من قيدها.

وقد تطرق الشعراء إلى أهل هذه المدن، فقد وصف أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي أهل البصرة بالبخل والكذب

أبغضت بالبصرة أهل الغنى  
إنني لأمثالهم باعس  
قد جاوروا في الشمس أعناقها  
كأنهم جملهم نافس<sup>(4)</sup>

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ 463.

(2) نفسه، ج1/ 464.

(3) نفسه، ج1/ 466، 467.

(4) نفسه، ج1/ 437.

فالشاعر ينم هذه المدينة لسوء أخلاق أهلها.

وقال أبو الفضل محمد بن محمد في أهل بغداد:

إِذَا سَقَى اللَّهَ أَرْضًا بِصُوبِ غَابِيَةِ      فَلَا سَقَى اللَّهَ غَيْثًا أَرْضَ بَغْدَادِ  
أَرْضَ بِهَا الْحَرُّ مَحْدُومٌ كَأَنَّ لَهَا      قَدْ قِيلَ فِي مَثَلٍ لَا حَرَّ بِالْوَادِ  
بَلْ كُلُّ مَا شَتَّتْ مِنْ عِلْقٍ وَزَانِيَةٍ      وَمَسْتَحْدٌ وَصَفْحٌ وَقَوَادِ<sup>(1)</sup>

أظهر الشاعر وجه المدينة السلبي من خلال الشرائح الاجتماعية التي تقطن فيها.

ولعل هذا المنحى السلبي تجاه المدينة لم يكن إلا تعبيراً عن انتماء الشاعر الحقيقي لوطنه الأصلي (البادية/الريف)، فهو يراه موطن الأخلاق، والمكان المثممي الذي يرتبط به، وقد رأى المدينة مرآة معاكسة لتلك الصورة الزاهية للبادية/الريف، مما جعله ينفر من المدينة ويعبر عن إحساسه بكل تلقائية.

ولعل الشاعر أبا نواس قد وقف من المدينة موقفاً مغايراً لأمثاله من الشعراء، فهو في حنبه إلى المدينة، وتعلق بها وبأهلها لم يكن يؤكد إلا شكلاً من أشكال النقمة على الصحراء وأشقياتها وأصنام حياتها، فهو شاعر حضري بقدر ما يكره البادية<sup>(2)</sup>.

وقد كانت للمدينة أدية المعادل للتمرد على المعيار الفني السابق وهو المقدمة الطليقة، فالمدينة عند أبي نواس هي التمرد على القواعد الثابتة التي حرص عليها الشعراء منذ العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي.

أَحْبَبَ إِلَيَّ مِنْ وَخْذِ الْمَطَايَا      بِمَوْعِدَةِ يَتِيهِ بِهَا الظَّلِيمِ  
وَمِنْ نَعْتِ الْحَيَارِ وَوَجْهِهِ رِيحِ      تَلُوحُ بِهِ عَلَى الْقَدَمِ الرَّسُومِ  
رِيَاضٌ بِالشَّقَائِقِ مَوْثِقَاتُ      تَكْنُهُ نَبْتُهَا نُورُ عَمِيمِ<sup>(3)</sup>

فأبو نواس يطالب بأن يكون المحور المكاني الذي يتمتع فيه بشرب الخمر هو المدينة، وقد تغنى بحياة الليل والتمتع في أكثر من موضع في ديوانه<sup>(4)</sup>.

وقد اتسع الحديث عن المدينة من خلال ما عُرف في الأدب العربي (شعر رثاء المدن)، ومن خلال هذا النوع من الشعر، كُتف الشعراء حديثهم عن المدينة التي تعرضت للغزو سواء الداخلي أو الخارجي.

(1) تاجوت الحموي، معجم البلدان، ج1/ 467.

(2) منافع منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، 35.

(3) أبو نواس، النيران، 187.

(4) انظر نفسه، 148، 161، 174، 199، 208.



فقد رثي ابن الرومي البصرة وذكر ما نالها من النورزيني صاحب الزنج، وذلك من خلال قصيدة أظهر فيها ألمه وحزنه على هذه المدينة، وأبدى تعاطفه مع أهلها، وقد ذكر جرائم الزنج وبطشهم بأهلها، حاثا المسلمين على النهوض والدفاع عن المدينة.

خادع عن مقلتي لذيذ المنام  
أي نوع من بعد ما حل بالبص  
أى نوم من بعد ما انتهك الزن  
لهذه نفسي عليك أيتها البص  
لهذه نفسي عليك يا قبة الإس  
شغلها عنه بالدموع السجام  
رة من تلجم الهنات العظام  
ج جهاراً محارم الإسلام  
رة لهفا كمثل لهيب السخام  
لاء لهفا يطول منه غرامي<sup>(1)</sup>

وقال الشيخ شمس الدين الكوفي الواعظ يذكر واقعة بغداد، ويرثي أهلها، ويذكر خرابها إثر الغزو المغولي على يد هولاكو سنة 656هـ:

ما لامنازل أصبحت لأهلها  
وحيا تكلم ما طسها من بعدكم  
ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم  
أهلي ولا جيرانها جيرانني  
غير البلي والهدم والسيراف  
ووقفت فيها وقفة الجيران

ناديتها يا دار ما ضيع الآلي  
كانوا هم الأوطار في الإطمار<sup>(2)</sup>

فالشاعر يبدي تحسره وألمه على ما حل بالمدينة وأهلها، نتيجة تلك الهجمة الشرسة عليها من قبل المغول.

وقال في قصيدة أخرى له يذكر خراب بغداد، وقتل الخليفة:

يا دار أين الساكنون وأين ذبي  
يا دار من أفلت نجومك عما  
فمتى قبلت من الأعاجي ساكننا  
أهك البهلاء وذاهك الإعظام  
والله من بعد الخياء ضلالم  
بعد الأجابة لاسقايك غمام<sup>(3)</sup>

وقد رثي الشعراء الأندلسيون المدن، وذلك إثر سقوط الخلافة الإسلامية فيها، فقد رثي أبو البقاء صالح بن شريف الرندي الأندلس عمدة في قصيدته التي يقول فيها:

لكل شيء إنا ما تم نقصان  
هي الأمور كما شاهدتها دول  
فلا يغمر يطيب العيش إنسان  
من سره زمن ساءت له أزمان

(1) ابن الرومي، ديوان، ج/ 2377.

(2) للكتني، فوات الوفيات، ج/ 234.

(3) نفسه، ج/ 232.

فاسال بنسبة ما شاق مرسية  
وأين قرطبة دار العلوم، فيكم  
وأين شاطبة أم ابن جياق  
من عالم قد سما فيها له شاق<sup>(1)</sup>

فالشاعر من خلال توقفه عند هذه المدن، يؤكد الواقع المرير الذي تحياه، ويتحسر على ذلك الواقع.

وقد أورد المقرئ قصيدة طويلة لشاعر لم يذكر اسمه يندب فيها طليطلة

لثكلك كيه تبتسم النخور  
كليلة أبلح الكفر منها  
سروراً بعد ما سبيت نخور  
جماها إن ذا نبأ كبير  
وكانت دار إيمان وعلم  
معالمها التي طمست تنيو  
فماجت دار كفر مصطفاة  
قد اضطربت بأهلها الأمور<sup>(2)</sup>

فالشاعر متألم على الواقع المأساوي الذي آلت إليه هذه المدينة.

وقد كان المحور الرئيس الذي دارت حوله مراثي المدن هو الحزن والتحسر والألم على ما حلّ بهذه المدن، وقد ركز الشعراء على مكانة هذه المدن في نفوس المسلمين، وقد أزنوا بين ما كانت عليه وما آلت إليه، في دعوة منهم لاستئارة هم الأمة الإسلامية، وتحريضها على استرجاع ما فقته من عز ومجد وحضارة بفقدها هذه المدن، فقد جاء شعر رثاء المدن يرثي المكن والإنسان والحضارة.

أما في مطلع القرن العشرين فقد احتل موضوع المدينة مكانة خاصة لدى الشعراء العرب، وقد ظهر في مساحة واسعة من دواوينهم الشعرية<sup>(3)</sup>، وقد نالت المدينة الأجنبية في هذه الفترة اهتمام الشعراء، فتوقفوا عندها في شعرهم، وتحدثوا عن ملامحها، وأبدوا إعجابهم بها، وبحضاراتها وإنجازاتها، ومن المدن التي فاقت غيرها في هذا الاهتمام باريس، إذ كان الارتباط الروحي والثقافي بينها وبين المثقفين العرب، يمهّد لبوابة صورتها باعتبارها مدينة النور<sup>(4)</sup>، ويبدو أنه كان لكتاب الطهطاوي (تخلص الإبريز في تلخيص باريز) أثر في ذلك، وقد صدر الطهطاوي في هذا الكتاب "عن اعتقاد قوامه أن يعث مصر لا يتحقق إلا بالأخذ بأهم مقومات الحضارة الأوروبية"<sup>(5)</sup>.

(1) المعري، نفع الطيب من عصن الأندلس الرطية، ج6/ 233.

(2) نفسه، ج6/ 288.

(\*) نظار أحمد شوقي، التوقيف، ج1/ 251، ج2/ 85، 100، 178، 251. معروف الرمالي، الليوان، ج79، 201، خليل.

سمران، الليوان، ج2/ 71، ج3/ 81، 83، 97، 113.

(3) خليل الشيب، باريس في أدب العربي الحديث، 188.

(4) متاف منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، 36.

وقد كان لكتب أحمد فارس الشدياق (الساق على الساق في ما هو الفارياق) أثر في نقل صورة عن المدينة الأجنبية، فهو ينقل في هذا الكتاب نتائج تجربته مع حياة المدن الأوروبية التي تنقل فيها، ويرى أن ظواهر المدينة الصحية والطبيعية مرتبط أساسياً بالتقويم الاجتماعية والأخلاقية والأدبية المتطورة، وهو يفهم الحياة المدنية بأنها شكل أرقى من أشكال الحياة الإنسانية<sup>(1)</sup>، وقد توقف الشدياق في كتابه عند مدينة باريس، وأفضل في وصفها<sup>(2)</sup>.

وقد كان لكتابات كل من علي مبارك وقاسم أمين ومحمد حسين هيكل وحنه حسين وغيرهم، دور في إضفاء الطابع المثالي على مدينة باريس، على نحو يضفي عليها طابع القداسة، لأن عملية تشكيل المكان تالية ومنبثقة عن الموقف الفكري والوجداني للفنان<sup>(3)</sup>.

ومن الشعراء الذين توقفوا عند مدينة باريس أحمد شوقي، وقد نظم قصيدة بعنوان (باريس)، يصور فيها حبه العميق الذي يكنه لباريس، وهي تحاول صد هجمات الألمان في الحرب العالمية الأولى، يقول:

ولقد أقول وأنجمي منهل	باريس لم يعرفك من يغزوهم
ما جلت جنات النعيم ولا الجمي	ترمي بمشهود النار سفوحهم
زعموهم دار خلاعة ومجانة	ودعارة يا إفاك ما زعموهم <sup>(4)</sup>
ويقف الشاعر في غاب بولونيا ويقول:	
يا غاب بولوون وبني	وجدت مع الجنكري برؤيد
خفقت لرؤيتك الجلو	ع وزلزل القلب الحميم <sup>(5)</sup>

فالشاعر يختار من معالم المدينة، غاب بولون أحد متزهات باريس الشهيرة، لكي يعبر عن شوقه وحبه لهذه المدينة.

وقد أشاد الشاعر حافظ إبراهيم بهذه المدينة عندما قال:

غرست من زهرات الشرق طائفة	في أرض الهيرو فجاءت طرفة الجاني
---	
سل العريجا والإميرتيا هل جريا	مع الوليد أو الطائي بميدان
بلغ إذا جئت باريزا! فأضلها	عنا التحيات وأشفعها بعشكران

(1) منافع منصور، الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، 38.

(2) نظار أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق في ما هو الفارياق، 623.

(3) نظار خليل التلويج، باريس في الكتب العربية، حديث، 188، 189.

(4) الشوكيات، أحمد شوقي، ج 2/ 81.

(5) نفسه، ج 2/ 83.

وخص كاتبهم (ولوليا) بأطيبها كحما يقابل إحساناً بإحساناً<sup>(1)</sup>

فالشاعر منجذب إلى هذه المدينة باعتبارها مدينة الأدباء والمفكرين.

وقد وقف الشاعر خير الدين الزركلي عند هذه المدينة، من خلال قصيدة بعنوان (غابة بولوليا)، يقول:

نحكت لي غابات بولول يومها  
تسقت بوحها ظللاً لاسراً  
فرش السجس البهيج بساطاً  
زانه لؤلؤه من الخرداء

هي باريس يا أمة جل  
هي باريس يا أمة ما تشد  
للمجبر في جامها التجاني  
توما شاءه الهوى شرعاً<sup>(2)</sup>

فالشاعر يقف عند هذه الغابة، ليتذكر أياماً قضاها في هذه المدينة.

إن ممة الثقيل العربي الأول للمدينة الأوروبية في هذه المرحلة، كانت تتلخص في الصراع المتوتر ما بين الأصولية السلفية، والتكنولوجيا الغربية، الذي راوح ما بين التبنّي والرفض، وهو سيتحول في فترة الحرين إلى صراع ما بين الريف والمدينة<sup>(3)</sup>.

والموقف من المدينة من أهم القضايا الإنسانية التي عرّضها الشاعر المعاصر، حيث كانت صدى مباشراً للصدمة الحضارية التي زعزعت ثقته بنفسه وبالوجود من حوله، فكان تعبيره عن تضايقه من المدينة، تعبيراً عن تضايقه من الحضارة الحديثة، حيث كانت رمزاً لتلك الحضارة<sup>(4)</sup>.

ولعل الدافع الأول وراء اهتمام الشعراء العرب المعاصرين بموضوع المدينة، كان نتيجة تأثرهم بتجربة الشعراء الغرب تجاه المدينة والحضارة المادية، وخاصة قصيدة (الأرض الخراب) لإيلوت، وما عكسته هذه القصيدة من نقمة وحقت على وجه الحضارة الغربية الحديثة، الحضارة المدنية التي تسحق الإنسان، وتقضي على مشاعره، وتوسع الفجوة بين العلاقات الإنسانية بين الناس<sup>(5)</sup>.

(1) حافظ إبراهيم، ديوان، ج 1/ 64، 66، 67.

(2) خير الدين الزركلي، ديوان، 293، 294.

(3) انظر منادى منصور، الإنسان وعلم المدينة في الشعر العربي الحديث، 39.

(4) انظر إسماعيل عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، 89.

(5) انظر عن الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر - قضايا وفواغره الفنية والمعنوية، 326.

أما الدافع الأخر، فهو الرؤيا الحديثة للشاعر إزاء واقعه واتصاله بالعالم، فقد وعى الشاعر حدود زمانه ومكانه الذي يعيش فيهما، ولذلك فقد اتسعت رؤيته للمجتمع وخاصة مجتمع المدينة، فنظر إليها من كونها الأساس لحركة الحياة والقيم، فهي الباعث عليهما، وهي المحصلة لهما<sup>(1)</sup>.

وقد اختلف موقف الشعراء العرب المعاصرين من المدينة، فمنهم من هاجمها بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال موقفهم الرومانسي، فرأوا فيها المكان السالب لوجودهم وحريتهم وبراءتهم، ولهذا فقد انطلقوا إلى الطبيعة هرباً من المدينة، ليحققوا وجودهم ويستعيدوا براءتهم المفقودة، وقد التحموا بالطبيعة ومظاهرها وكأنها القوة الحامية التي تمنحهم الشعور بالأمان أمام الكيان الساحق لإنسانيتهم، فالمدينة لديهم الصورة المناقضة للطبيعة/ الريف، ولهذا فقد ظهرت في شعرهم ثنائية المدينة والريف، وقد كان الخط الرئيس لشعرهم هو تمجيد الريف وإدانة المدينة.

ومن هؤلاء الشعراء نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وصالح عبد الصبور وغيرهم.  
يقول أحمد عبد المعطي حجازي:

وقريتنا بحصن المغرب الشفقي  
رؤى أفق:

تنام على مشارفها ظلال نخيل  
ومشكاة تلوي ظلها في صفحة التروعة  
رؤى مسجورة تمثني  
وكنيت أرى عناق الزهر للزهر  
واسمح غمضات الطير للطير

ونازعني إليك حين

غريب في بلاد تاكل الغرباء<sup>(2)</sup>

فالشاعر ملتحم بالقريّة، ويرأى المكان الأليف الذي يشعره بالحمية، أمام تلك المدينة القاسية التي تاكل الغرباء.

(1) علي حيدر الملاي، المدينة في شعر، دراسة في موقف الشعراء العراقيين الحديث من المدينة، مجلة الأتلاذ، ع5، 1986، 46.

(2) أحمد عبد المعطي حجازي، الديوان، 108-110.

ومنهم من رفض المدينة وأظهر نغمته عليها وكرهه لها بشكل واضح ومباشر، وذلك بسبب رفضه للوجه الحضاري المادي لها، فقد رأى فيها عتصرا ضاغظاً على وجوده وأفكاره وقيمه، ورأى أنها السبب وراء اختلال العلاقات الإنسانية، وأنماط الحياة والقيم الأخلاقية، وقد كان الشاعر في هذا الموقف من المدينة يصدر عن رؤية فردية خاصة به، ويعبر عن تجربة شخصية خاضها في المدينة، ومما ساعد في تشكيل هذه الرؤية أن عدداً من الشعراء المعاصرين كانوا "ريفيي النشأة ثم هاجروا إلى المدن"<sup>(1)</sup>، فصدموا بطبيعة تلك الحياة المادية فيها، ومن هؤلاء الشعراء السياب وصلاح عبد الصبور وغيرهما، يقول أحمد عبد المعطي حجازي:

ههنا أنا  
وههنا مدينتي،  
عند انتحاف الليل  
حاجبة الميادين والجدران تل  
تبين ثم تختفي وراء تل  
وريقة في الريح حارت ثم حطت ثم  
ضاعت في الجروب  
ظل يحوب  
يمتد ظل  
.....  
لقد طرحت اليوم  
من عرفتني  
وصرت ضائعا بدون اسم  
ههنا أنا  
وههنا مدينتي<sup>(2)</sup>

فالشاعر قد فقد وجوده في هذه المدينة التي أشعرته بالغربة والضياع.

ومنهم من رفضها بسبب فكره السياسي وموقفه الأيديولوجي، فرأها مكاناً سائياً للحرية، وبؤرة مركزية للسلطة الحاكمة، ومكاناً للظروف السياسية والاجتماعية السيئة، مما نفرد من المدينة وجعله يرفض وجهها القاتم، ويحاول الثورة عليه.

ومن هؤلاء الشعراء أمل دنقل وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي وغيرهم.

يقول بدر شاكر السياب:

(1) إسمان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، 90.

(2) أحمد عبد المعطي حجازي، الديوان، 188، 189.

بغداد كابوس: لرجي فاسد  
يجرعه الراقع  
ساعاته الأيام، أيامه الأعوام، والعالم نير:  
العام جرح ناغر في التميمير

أهذه بغداد  
أم أن عاموره  
عاجت فكاك المعاد  
موتاً؟ ولكنني في رقة الأصفا  
أحسست - ماذا؟ صوت ناغوره  
أم صيحة التمسح الذي في الجذور؟<sup>(1)</sup>

فالشاعر يرى مدينته كابوساً وموتاً محققاً لأنها، وذلك بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية الميئة التي تسودها.

ومن الجدير بالذكر، أن موقف العداء للمدينة العربية لم يكن أصيلاً "لأنه يفتقد إلى مبرراته الفلسفية والفكرية أولاً ولا يستند ثانياً إلى أساس --- من واقع المدينة الغربية ومستوى تحضرها قياساً للمدن الحديثة في العالم"<sup>(2)</sup>.

وقد انتقل معظم الشعراء العرب من موقف الرفض إلى موقف قبول المدينة والمصالحة معها، فقد رأى فيها الشاعر الوجه المشرق الذي احتضن الثورات، وحركات التمرد ضد الاستعمار والقوى الطاغية، ومكاناً للنضال الوطني ومقاومة المحتل، "فقد شهدت المدينة العربية بعد الحرب العالمية الثانية أحداثاً سياسية شددت الشاعر إليها"<sup>(3)</sup>، وبهذا التحم الشاعر معها، واندمج في قضاياها، وقد تضاعف الموقف الرافض لها، وظهرت مشاعر الإعجاب والإشادة بها. ومن هؤلاء الشعراء الذين تصالحوا مع المدينة صلاح عيد الصصور وبلند الحيدري وغيرهما.

يقول بلند الحيدري:

(1) بدر شاكر السياب، أشهودة للمطر، 137، 138، 140.

(2) علي جعفر المداق، المدينة في الشعر، دراسة في موقفه لشاعر جعرا في الحديث من المدينة، مجلة الأتات، ع5، 1986، 47، .

(3) عز الدين اسماعيل، شعر العربي المعاصر، قضايا وفواخره الفنية، 328.

أعرف مجيئتي  
أعرف أنّ أعين الرجال في مجيئتي  
لا ترقى  
وأقلماء صمتهم  
مراجلاً تتقد  
غدا  
إذا ما انفجرت  
لسينجني لها الفجر<sup>(1)</sup>

فالشاعر قد ارتبط بعلاقة حميمة مع مدينته، وأظهر مشاعر الألفة والإعجاب بها، لأنها المكان الذي يضم هؤلاء الثوار المتمردين على واقعها الرديء، الذين سيشعلون منار الحرية في مدينتهم في المستقبل القريب.

وقد وقف الشعراء العرب المعاصرون عند المدينة الأجنبية، فتحدثوا عنها من خلال موقفهم السياسي وعقيدتهم الفكرية، ولعل الشعراء قد رفضوا المدينة الغربية لأنها وجه من وجوه الاستعمار الذي عانى منه الشعب العربي، أما المدينة الأجنبية الشرقية (الاشتراكية) فقد وجدت قبولا لدى معظم الشعراء العرب، وذلك لأنها تشكل امتداداً لفكرهم.

وقد نظر الشاعر المعاصر إلى المدينة من خلال أبعاد عدة هي: البعد الاجتماعي، والبعد السياسي، والبعد الاقتصادي، والبعد الحضاري، والبعد الوطني، وقد توقفوا عند كل من هذه الأبعاد، وعكسوا من خلالها وجهة نظرهم، وزاوية رؤيتهم، تجاه تلك القضايا التي تتحور في المدينة.

(1) بتة الحيدري. الديوان، 423، 424.



## الفصل الأول

### المدينة الفلسطينية في شعر سمير القاسم، حضور وامتداد

- القدس الجذور والقداسة
- حيفا الانتماء المقلق
- نابلس شجرة التفاح
- يافا الأمل بالعودة
- عكا الصمود المتجدد
- غزة مذبحة الأعداء
- رفح بطولية الأطفال
- الخليل الفيل الوفاي
- الناصرة النداء المسموع
- أريحا التاريم المشرق
- جنين صيحة الغاضبين

## القدس الجذور والقداسة

القدس مدينة السلام، مدينة الرسالات السماوية، وهي موطن الإسراء والمعراج وقبلية المسلمين الأولى، إليها تنطلق الأفتدة وترنو العيون.

ترتبط القدس في الذاكرة الجماعية العربية عامة واللسطينية خاصة، بعدد من الدلالات والإحياءات المشرقة، فهي مدينة تاريخية تعبق بالحضارة والتراث الأصيل، وتتشع من مآنتها قياسات روحية، تلقى بظلالها على هذا المكان، وتجعله بقعة ذات بعد ديني وروحي، "فإن لللسطيني ممسلاً كان أو مسيحياً مقدساته التي ارتبط بها عقدياً، وانغمس فيها تاريخياً، فهي بالنتيجة له أماكن عبادة، وتاريخ متسلسل مع جغرافية المنطقة بشكل عام"<sup>(1)</sup>.

وتتطلق هذه البقعة الجغرافية من حدودها المكانية، وتتسع وتمتد لتصبح مكاناً مميزاً في وجدان الإنسان العربي، فهي الأرضية الصلبة التي يقف عليها المواطن الفلسطيني، ليثبت وجوده ويكياه أمام قوة غاشمة تصر على سحقه، وإلغاء وجوده.

فالقدس هي الهوية، وهي الانتماء، وهي الأرض، وتمتد هذه المدينة لتصبح قضية متنازعة عليها، فتتخلل حيزاً جديداً، ويصبح لها وجه لم يكن مألوفاً من قبل، وهو الوجه السياسي، وتصبح القدس جزءاً من قضية وطن وأمة.

تعددت القصائد التي قيلت في مدينة القدس، وشارك معظم الشعراء العرب في تناول هذا الموضوع، "فما من شاعر مؤكد إلا وكانت له النفاذة إلى هذه المدينة"<sup>(2)</sup>.

حملت القدس بعداً دينياً واضعاً، فقد تغنى الشعراء العرب بمكانتها الدينية، وعبروا عن أساهم وحزنهم، لحال المقدسات الإسلامية والمسيحية، في هذه المدينة، وكفكفوا حديثهم عن تاريخها الإسلامي الزاهر، وأكنوا على مشاعر الحب والانتماء الذي يكنه أبناء الأمة العربية لها<sup>(3)</sup>.

كف الشعراء حديثهم عن اليعد الوطني، فتوقفوا في قصائدهم عند الانتداب البريطاني، وجرائم اليهود المقترفة بحق هذه المدينة وأهلها، وقد ركزوا على بطولات الشعب الفلسطيني،

(1) ديز لو شمالة، القدس في الشعر الفلسطيني والفكري، مجلة الشعراء، ج 22، 2003، 72.

(2) محمد عده بدوي، فضاير والمدينة في العصر الحديث، عالم الفكر، د 19، ج 3، 1988، 193.

(3) نظير محمد أحمد محمد المعالي، المدن العربية للمقاتلة في الشعر الحديث (القدس، بيروت، البصرة)، 1949، 1988، 26.

رسالة بكتوراهم لجامعة الأردنية، 1989.

ومقاومته للأعداء في ثوراته المتعددة، وقد تناولوا في شعرهم أيضاً نكبة فلسطين، وما حلّ بهذا الشعب من رحيل وتشرد ولجوء نتيجة تلك النكبة<sup>(1)</sup>.

وقد جاء البعد الاجتماعي في قصيدة القدس في مساحة ضيقة ومحدودة إذا ما قورن بالبعدين الديني والوطني.

اهتم القاسم بمدينة القدس، وقد جاءت في شعره ضمن مساحة واسعة، إذ أفرد لها ثلاث قصائد، جاءت الأولى بعنوان ( زنايق لمزهرية فيروز )<sup>(2)</sup>، أما الثانية فعنوانها (فسيفساء على قبة الصخرة)<sup>(3)</sup>، والثالثة بعنوان (أخذة الأميرة بيوس)<sup>(4)</sup>، وقد تحدث عن هذه المدينة من خلال المحاور التالية:

**1- مكانة القدس وتميزها الديني والتاريخي، في نفوس الأمة العربية عامة، والشعب الفلسطيني خاصة، وقد استحضّر القاسم هذا الوجه المميز لهذه المدينة، ليكون مسوغاً للوم الأمة العربية، والحكام العرب، على موقفهم السلبي تجاه هذه المدينة، ولإلقاء المسؤولية على عاتقهم، في فقد هذا المكان المقدس، وضيقه وسقوطه بيد الاحتلال، فقد جاءت القدس في هذا المحور لتكشف الواقع المبهين الذي تحياه الأمة العربية، التي ارتضت الذل يفقدها الخاتم الذهب.**

**2- سقوط القدس بيد العدو الصهيوني، وجرائمه البشعة المفترفة بحق هذه المدينة وأهلها الأبرياء، وقد كتف القاسم الحديث عن هذا المحور، لكشف سياسة المحتل الصهيوني في هذه المدينة والمدن الفلسطينية الأخرى، فأعطى صورة قميئة عن ذلك المحتل، هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فأراد كشف الواقع الذي تحياه المدينة المقدسة، المدينة التاريخية، وذلك لتحفيز أبناء الأمة العربية للدفاع عنها، واتخاذ دور إيجابي حاسم ضد أعدائها.**

**3- الدور الثغالي الذي خاضه الشعب الفلسطيني، من أجل تحرير هذه المدينة، وإعادتها إلى أهلها الشرعيين، وقد ركز القاسم على هذا المحور لتمجيد دور المناضلين الفلسطينيين، وإظهار العلاقة الحميمة بين القدس وأبنائها، فلقدس مكانة مميزة في نفوسهم، وقد كان هذا المكان سحراً أبناء الشعب الفلسطيني للاستمرار في نضالاته من أجل التحرير.**

**4- إدانة واستنكار موقف الحكام العرب، الذين تخلوا عن هذه المدينة، في معركتها غير**

(1) انظر عبد الله عوض الجعسر، القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن في القرن العشرين (1900 - 1984م) في

شعر وثقافة وفروية والمرتجة، 66

(2) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1/ 144.

(3) نفسه، م/ 3/ 142.

(4) نفسه، م/ 3/ 385.

المتكافئة مع العدو الصهيوني، واللوم والعتاب للأمة العربية، وتحميلها المسؤولية تجاه سقوط هذه المدينة

5- الإيمان بمستقبل القدس، والأمل بتحريرها، من خلال الوحدة العربية، وقد عكس هذا المحور رؤية القاسم المشرقة والمتفائلة تجاه هذه المدينة.

القدس هي الوجه الحقيقي للعروبة، للتراث، للأصالة، ولا يحق للشعب العربي أن يتخلى عن هذه المفردات لأنها كيانه، وسبب وجوده، لذا لا بد من الحفاظ على هذه المدينة، لأنها الامتداد للإنسان العربي.

مباركة أنت

يا أول الحب

صحراء

من قابض الماء بالنار؟

من جرد السر من قدسه؟

ومن جرد القدس من سرها؟ (1)

يستكر القاسم حال الأمة العربية، ويثور على وضعها المستسلم، من خلال أسلوب الاستفهام، ولعل تكراره الجمل الاستفهامية المصدرة بلفظ (من) في هذا المقطع، يبرز هذه الأمة على الخروج من دائرة الاستسلام، إلى دائرة الفعل.

وقد وفق القاسم في ابتدائه المقطع بلفظ (مباركة)، فإحياءات المباركة ظلت تسبحر على ثنايا الأمكنة، فإذا بالصحراء مباركة وكذلك القدس.

ولدى الشاعر القدرة على استخدام اللغة بما يتلاءم ومشاعره، فجاءت لغته طائفة في يده، شكلها بطريقته الخاصة، كما جاء في السطرين الأخيرين من هذا المقطع.

والقدس أميرة مدن الدنيا، وقدسيته محفورة في قلب الشعب الفلسطيني.

يا 'إيل' المقتدر على الرغبات

ضع ورداً تحت خطاياها الجائعة

إلى ملك الحكامات

(1) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، د، 140.

يا 'إيل' المقتدر على الرغبات  
 مـرر وأبـلأق وبخـمـر  
 وحـد حـائـق نـمـر  
 يا "إيل" القـمـوس  
 صـرف قـلـب يـبـوس  
 مـن سـين السـاحـر  
 حتى سـير المسـجورة والمـسـجور..<sup>(1)</sup>

عبر القاسم عن مدينة القدس بأقدم اسم من أسمائها وهو ييوس<sup>(\*)</sup>، وذلك ليؤكد امتداد هذه المدينة تاريخياً، مما يجعل المتلقي يشعر بأهميتها، ولعله أراد أيضاً من خلال هذا الاسم، تأكيد الهوية العربية لهذه المدينة، وإثبات كيانها العربي أمام كل من يحاول سلبها هذه الهوية، وذلك الانتماء.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي فوظف أسطورة إيل<sup>(\*\*)</sup>، رمز القوة والقدرة، ليكون لديه القدرة على التحكم في مصير ييوس، فيردها إلى أهلها الشرعيين/ الشعب الفلسطيني، ولعل المواقع المرير الذي تحياه الأمة العربية، واقع الضعف والانهزامات، والعجز عن استرداد الوطن الفلسطيني، من أيدي المحتل الصهيوني، هو الذي جعل القاسم يلجأ إلى قوة أسطورة لكي ترد إليه مدينته.

والقاسم في هذا المقطع "يلجأ إلى لغة السحر تارة، وإلى اللغة الصوقية تارة أخرى، وكأنه كاهن جديد يتلاعب بالحروف القدسية"<sup>(2)</sup>.

والقدس هي جوهرة النافوس، وهي النختم الذهب للأمة العربية، ولكن هذه المدينة المقدسة قد ضاعت من أيدي الشعب العربي، الذي لم يستطع الحفاظ عليها، وصونها من أيدي الأعداء الصهاينة.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 385، 386.

(\*) ييوس: اسم منطقة القدس، وقد أطلقه عليها البيسويون، طاعة القدس الأتولون، وهم يعبرون بطول العرب الأوائل، إنهم أول من استوطن هذه البلاد، وهم أول من وضع لبنة في بناء القدس، وكان ذلك حوالي سنة 3000 قبل الميلاد، انظر: عارف العارف، المغفل في تاريخ القدس، 1.

(\*\*) إيل وهو الإله العظيم الذي احتارته جميع الشعوب السامية الغربية منذ أبعاد العصور، وكان إيل يسيطر على جميع ملوك كنعان، وهو الذي جعل الأنهار تجري نحو لمح للمحب، وبهذا ضمن حصونة لأرضه، انظر: الخوري، معجم الأساطير، ج/1، 106.

(2) ذروق مونس، القدس في الشعر الفلسطيني الحديث، 18.

والقاسم يلوم الأمة العربية على هذا الموقف السلبي تجاه هذه المدينة، وهو يهدد ويوعده، لأن مدينة القدس ذات صلة حميمة بالوجدان العربي عامة، والناصري خاصة.

جوهرة النانوس

تجديء في الليل

---

الخاتم الذهب

في إصبع العرب

من قاطع الإصبع؟

سبحان من وهب

ويل لمن ضيع! (1)

بنت القدس في هذا المقطع مدينة ذات مكانة متميزة في نفوس أبناء الأمة العربية، وقد عبر القاسم عن هذه المكانة بالتشبيهات الحسية (جوهرة النانوس، الخاتم الذهب)، ومن خلال هذه التشبيهات بدا عنصر الإضاءة واضحاً في المقطع، وذلك ليعكس إشراق هذه المدينة مادياً وروحياً في قلوب أبنائها.

وينظر القاسم إلى هذه المدينة المتحسة فيراها:

الطفلة الطافية البيضاء

تركب فوق الماء.. (2)

يستدعي القاسم الموروث الديني المسيحي، من خلال الإشارة إلى معجزة من معجزات المبدع المسيح وهي المشي على الماء (3)، ومن خلال هذا التواصل، يربط الشاعر بين المدينة والمبدع المسيح، فالقدس تستشعر قوة في داخلها، وستحقق المعجزات نتيجة عودة أبنائها من المنافي.

أيتها القنطرة

لا تسجلي السكّار

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 3/ 144.

(2) نفسه، م 3/ 144.

(3) منى، جلد 14، 22 - 33.

## عَبَّاتُ مِنَ الْمَهَاجِرِ عَبَّاتُ مِنَ التَّجَاوِزَةِ الْمَهْجَارَةِ بِكُلِّ مَا فِي الرُّوحِ مِنْ شَعَائِرِ<sup>(1)</sup>

حملت القناطر في هذا المقطع وجهاً من وجوه مدينة القدس، وقد جاءت لتعبر عن تلك الخصوصية المكانية التي تمتاز بها هذه المدينة، فقناطرها جزء محبوب إلى النفوس، تعبق منه رائحة التاريخ والتراث والأصالة، رائحة الوطن المميز، "إن جمالية الحنين إلى المكان هي جمالية استعادة الذات والهوية ومعنى الانتماء"<sup>(2)</sup>.

وقد وفق القاسم في الجمع بين المكانين (القناطر، والمهاجر)، فقوة المكان الأول وصموده في وجه التحديات، قد أضعف المكان الآخر (المهاجر)، لذا سيبقى الوطن، ولن يكون المنفى وجهاً آخر له.

مدينة القدس قد نعتت بالأمن والسلام والاستقرار، وشعرت بالحماية في عهد عمر بن الخطاب، ولكنها اليوم فقدت تلك الحماية، وذلك الاستقرار، نتيجة سيطرة الاحتلال الصهيوني عليها.

## زَجْرَتُ مَا أَرْتَجُو يَا سَيِّدِي عَمْرُ<sup>(3)</sup>

من خلال هذا المقطع الذي يتضمن ست كلمات فقط، استطاع القاسم بلغته المكشوفة، أن يوازن بين حالة القدس في عهودها الزاهرة، وبين حالتها اليوم، وك كانت البؤرة التي انطلق منها الشاعر لهذه الموازنة هي الموروث التاريخي، فقد "أصبح ضرباً من الرؤيا الفنية، يقوم فيه الحس التراثي مقام الرصد التاريخي، ويتجلى فيه "ما كان" بمثابة نبوءة أو حدس بما يكون، كما يتجلى فيه "ما يكون" بمثابة "تأويل" إبداعى لما كان، .... ومن ثم يغدو التفاعل الخلاق بين الماضي والحاضر بديلاً للمواجهة بينهما"<sup>(4)</sup>، فقد استدعى القاسم الشخصية التراثية التاريخية

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 3/ 144.

(2) بنى العيد، جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة، مجلة الآداب، ج 9، 10، 1997، 81.

(3) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 3/ 145.

(4) محمد فتوح أحمد، واقع القصيدة العربية، 147، 148.

شخصية عمر بن الخطاب، ليكشف الواقع المأساوي الذي تحياه مدينة القدس نتيجة الاحتلال، وليبين ضعف الأمة العربية، وعجزها واستكانتها أمام قوة جبارة، قوة العدو الصهيوني،

والقدس تتطلع إلى الحرية، وهي ترتبط مع أبنائها بلغز خاص، لغز الحب، فهي تعلمهم حب الوطن والائتماء إليه، والارتباط به، ولا يتردد الفلسطيني في الدفاع عن هذه المدينة المقدسة، وبذل الدماء من أجلها، فالقدس هي المكان الذي يسعى الفلسطيني بالوصول إليه، وتحريره من أيدي العدو الصهيوني.

يا ابنة الشمس التي تطغى زيتونا وتفاحاً ولوزاً

افتحي قلبي على اللغز

كمي فك بسحر الحب لغزاً

واقفيني حجراً

من شهوة الزيت وأحزاج المعاصر

----

ماخوذاً بانسداد الولاية

مشبعاً بالهدم والعطر الترابي أصلي

—

وأصلي وأصلي

جسدي المعبد

والمشي على أرضة القدس .. عباداً! (1)

تظهر مدينة القدس في هذا المقطع ذات بعد وطني/سياسي، فهي المكان الذي أثار همم أبنائه لتخليصه من الاحتلال، فكانت الانتفاضة الفلسطينية عام 1987، وكان الحجر في هذه المرحلة التضاللية، هو الخطوة الأولى لإثبات هذا الحب لهذه المدينة المقدسة، وبهذا تكون القدس قد ارتبطت بهذا الحدث الوطني المجيد.

وقد اتحدت مدينة القدس مع فلسطين، فبنت صورة الوطن مشرقة بانتحام أبنائه، ونضالاتهم من أجله.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 264، 265.



بدأ القاسم هذا المقطع بعبارة (يا ابنة الشمس)، لتؤكد المستقبل المشرق الذي ينتظر فلسطين/ القدس، مستنيل الخلاص والحرية، وقد وظف الشاعر معجم الطبيعة من خلال (زيتونا وثقأ ولوزا) ليعبر به عن هذا الوطن.

كثف الشاعر مجموعة من الألفاظ الدالة على البعد الروحي (أصلي، المعبد، عبادة)، فهي تضيف على النص غلالة إيحائية خاصة<sup>(1)</sup> تنفق وقداصة مدينة القدس.

القدس حزينه، مثقلة بهمومها وآلامها وجراحها، نتيجة سقوطها بيد الاحتلال عام 1967، ولعمق العلاقة بين هذا المكان وأبنائه، فإن الحزن الذي يخيم على أجواء هذه المدينة، يترك أثراً واضحا في قلوب أبنائها، فضياع القدس هو ضياع المستقبل، ويشارك أبناء الأمة بعريضة إخوانهم الفلسطينيين في هذا الألم.

رَأَيْتُ بَنَاتِ عَمَكْ.

فِي طَاقَةِ حَزِينِهِ

تَبْوُوحَ الْمُحِبِّينَ

بِهِمْهَا وَهَمَكْ.

رَأَيْتُ فِي الشُّوَارِعِ

لَيْلًا مِنَ الْعِيُوفِ

وَأَخُوهُ يَبْكُوهُ

وَاللَّهُ طِفْلٌ ضَائِعٌ.<sup>(2)</sup>

اعتمد القاسم على الصور الجزئية لإظهار مشاهد هذه المدينة بعد احتلالها، وقد ظللت صوره بالألوان والأصوات، وقد لونت بمشاعر الحزن والألم، فكثف الشاعر من الألفاظ الدالة على ذلك، وبرغم هذا إلا أن الصور قد وقفت عند مرحلة تسجيل الموقف، ولم تنطلق لتجاوزده، ولعل القاسم أراد أن يثت هذه الصور في ذاكرة الإنسان الفلسطيني خاصة، والعربي عامة، ليشير إلى قبح العدو الصهيوني، ولكن يبقى حزن الفلسطينيين في دائرته المغلقة، ولم يحاول القاسم الخروج به إلى موقف فعلي مثمر.

ويستشعر المتلقي اليأس في السطر الأخير، فقد خص الضياع بالطفل، والطفل هو مستقبل هذه المدينة، بل هو مستقبل الوطن، فهل سيكون مستقبل فلسطين الضياع؟ أم أن ضياع الطفل

(1) إبراهيم خليل، الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، 98.

(2) ممدوح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 1/ 144.

سيكون حافظاً له ألا يضيع مرة ثانية، مما يجعله يتشبث بهذه المدينة وهذا الوطن، ولعل هذا ما أراد القاسم.

وقد استشف القاسم حزن المدينة من الشارع أو التدريب، ففيه تنعكس آثار المأساة وضحاياها من مشردين ومشوهين وجرحى، ومن هنا جاءت صورة المدينة من خلال هذه الشوارع<sup>(1)</sup>.

ونتيجة طبيعية للاحتلال، فقد عم مدينة القدس الفقر والجوع، وامتهنت فيها القيم الدينية.

رايت سائحين  
وبائساً يصيح:  
من يشترى المسيح  
بحقننتي طحين<sup>(2)</sup>

تأتي القدس في هذا المقطع، لتعكس الوضع الاجتماعي الرديء للمدينة الفلسطينية المحتلة، ولعل الجمع بين السائحين والبائع يؤكد المفارقة التي تحياها هذه المدينة، ففي الوقت الذي يستمتع فيه الغريب بخيرات المدينة الفلسطينية يجوع أهلها ويعانون. وقد تواصل القاسم مع الموروث الديني المسيحي بالإشارة إلى لفظ (المسيح)، ليوكد انتهاك حرمة الأماكن الدينية في هذه المدينة نتيجة الاحتلال.

والقدس متبوعة بفعل جرائم الاحتلال، وهي تستصرخ أبناء الأمة العربية للتكاتف، من أجل حمايتها والدفاع عنها وتحريضها، فالقدس لديها الأمل بأن يبلغ صوتها الإنسان العربي.

تبقية حزينة  
من دم بنت عم  
وجدتها متبوعة  
في طاقة مفتوحة  
تصيح بالمدينة:  
قول لي لابن عمي!!<sup>(3)</sup>

(1) زهير محمود سليمان عزم عيدات، صورة المدينة في شعر العربي الحديث، 66، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1987.

(2) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 144.

(3) نفسه، ج1/ 145.

تخرج القدس في هذا المقطع من دائرة الحزن والاستسلام إلى دائرة الاستغاثة والبحث عن الحماية، وبالتالي تكتسب بعداً وطنياً، بتلك الدعوة التي توجهها لأبناء الأمة العربية، لخلاصها من واقعها الأليم.

انتكأ القاسم على الصورة الجزئية التي اعتمدت اللون والصوت في إظهار وحشية الاحتلال في هذه المدينة، وقد وُفق في استخدامه لفظ (مفتوحة)، لكي تكون الجرائم التي يقرّها العدو في مدينة القدس، مرئية أمام العالم، فتحفز الشعب العربي على الأخذ بثأر هذه المدينة، والعمل على تحريرها من قيود الاحتلال.

وظف القاسم أسلوب التداخي وهو "كلمة تستدعي كلمة أخرى فتخلق تركيباً"<sup>(1)</sup>، فكلمة (دم) تستدعي كلمة (مذبوحة)، وكلمة (تصيح) تستدعي كلمة (قولي)، وبعل هذا الأسلوب قد قلل من الكثافة الشعرية في هذا المقطع.

وقد يكون التضاد الذي وظفه القاسم في اللفظين (مذبوحة وتصيح)، يؤكد من خلالهما، قدرة المدينة على التحدي، واستمرار وجود وكيان المدينة الفلسطينية، ورفض واقع الاحتلال.

وقد نجح الشاعر في إنهاء المقطع بعبارة (قولي لابن عمي)، فالمتلقي لا بد أن يسترجع بداية المقطع، فتكون الجريمة هي ما يقابله، مما تثير لديه مشاعر الرفض والتمرد على ذلك الواقع السلبي، وهو ما أراده القاسم.

ومدينة القدس ضحية

حملت المزهريه

والنظرة الشقية

وقبعة عن أمي

عن أمي الضحية<sup>(2)</sup>

رمز القاسم إلى مدينة القدس بالألم، ليشير إلى منزلة هذه المدينة وأهميتها في نظر الشعب الفلسطيني، فهي بؤرة الوطن ومحور، ونقطة تقاطعه، وبسقوطها سقطت الحماية، وزال الأمان.

(1) عثمان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، 43.

(2) سميح قاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 145.

ويوازن القاسم بين حال مدينة القدس قبل الاحتلال وبعده، فالمدينة كانت شامخة بمقدراتها وأبنائها، لكن الاحتلال سلبها هذا التميز، وأسبغ عليها طابعاً من الذل واليأس.

كانت يوم شيخ الأقصى

وعشى الفقراء

كل ليلة

يا رفاقي، ورايته

كانت يوم فيكيت

كان يستعطي لدى بوابة الأقصى،

وفي عينيك، أحركت المحلة؛<sup>(1)</sup>

أدرك القاسم البعد الديني في تحريك المشاعر الوطنية، لذلك استخدم لفظ الأقصى، لما يحمل من دلالة روحية ترمز بأشعاعات من القداسة والطهارة، وقد تجاوز لفظ الأقصى في هذا المقطع حدوده المكانية الضيقة، وامتد ليشمل مدينة القدس، وقد وفق القاسم في ربطه لنسب الأقصى بالمذلة، فهو يقرر بذلك الواقع الأليم الذي تعيشه هذه المدينة في عهد الاحتلال، فيؤدي ذلك إلى تحفيز وإثارة هم الأمة العربية، لتخليصها من أسر العدو الصهيوني، وردها إلى أصحابها الشرعيين. ولعل الشاعر يوجه لوماً وعتاباً خفياً للمسئول عن هذا الوضع في هذه المدينة المقدسة.

وقد كانت الكلمة المحور في هذا المقطع (المذلة)، وهي المفتاح لعملية تغيير واقع هذه المدينة.

وتتحرك إرادة الشعب مؤذنة بتغيير الحال في مدينة القدس، فالشعب المناضل.

كان عملاقاً على بوابة الأقصى

وفي عيني، شحله<sup>(2)</sup>

تعكس الصورة في هذا المقطع إيمان القاسم بالشعب وقدرته على التغيير، والقاسم يحدد موقفه في الحفاظ على هذه المدينة، فلا يقتصر الأمر على الدفاع عنها، وإنما يتطلب الدفاع الهجوم، بديل استخدام لفظ شحله.

(1) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1/ 181.

(2) نفسه، ج 1/ 181.

ومن مدينة القدس ينطلق المناضل الفلسطيني لتغيير واقع المدن الفلسطينية، التي سيطر عليها الحزن، وشهدت جرائم المحتل وأعماله الوحشية فيها،

ومن القدس

يكتب جليات إلى رفاقه:

أقيم هنا

مع النخبة الممتازة من الإحزاق

مع نشرات الأخبار

والقوائم الجديدة بأسماء الشهداء

أقيم هنا

مع الهواء المختنق بالغازات السامة

لكنني أشجعه

صبراً (يها الهواء الحميم الذي يفهم لضحي

ستقبل علينا الشعوب فأحصل صرختي<sup>(1)</sup>)

تأتي القدس في هذا المقطع مؤشراً للوضع السياسي الذي تحياه المدن الفلسطينية وهنا تصبح المدينة مرآة أو رمزاً للأوضاع السياسية التي نعلم الدولة كلها<sup>(2)</sup>، وتصبح القدس "مسرة للحياة العامة"<sup>(3)</sup>.

وقد انطلق القاسم من مرحلة الحزن الانهزامي إلى مرحلة الحزن الواعي المثمر، وذلك من خلال لقط (أشجعه)، يؤكد أن جرائم المحتل اليومية التي يقرها على أرض فلسطين، لن تنال من عزيمة هذا الشعب، المؤمن بأنه سيحقق الانتصار على عدوه في النهاية. وظف القاسم الموروث الديني الثوراتي، وذلك بالإشارة إلى لفظ (جليات)<sup>(4)</sup>، المعادل الموضوعي للمناضل الفلسطيني، الذي لن يتخلى عن وطنه، ولن يهزمه المحتل بإجرائاته القمعية التي يرتكها بحق أبناء هذا الشعب الفلسطيني.

(1) مجمع لغاهم: الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 111، 112.

(2) عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية والمخوقة، 348.

(3) نفسه، 348.

(\*) جليات الحمار ويصل جيش فلسطينيين، رماه داود سحر من مقلعه، فأصابه في جبينه، ففر صريحا على وجهه إلى الأرض، ولقد داود سيف جليات، وقطع به رأسه. لقزويد من المعلومات انظر صموئيل حبيب واخرون، دائرة المعارف الكنايية، 560/1.

ولعل استخدام القاسم عبارة (أقيم هنا)، للتأكيد على الوجود الفلسطيني في هذه المدينة، وترى الباحثة أن فيها دعوة للتمسك بالوطن والتشبث به، وعدم الرحيل عنه، مهما بلغت الأحران والألام.

وباحتلال القدس انتهكت الحرمات، وأبيحت المحرمات، ودُنت المقدسات.

والجدار .. قيل تقديست وتباركت  
وببيح باسم الله كل محرم  
وعلى قباب القدس وبش يسكر  
ويلج باسم الأنبياء ويقهر<sup>(1)</sup>

"هذا المكان المقدس لم يعد مقدساً على مساحة الواقع المقهور، ولبت مقدساً فى مساحة الوجود"<sup>(2)</sup>.

وقد وفق القاسم في إعطاء صورة مؤلمة لواقع هذه المدينة، من خلال عبارة (وعلى قباب القدس وبش يسكر)، فقد جمعت هذه الصورة التقيض؛ الطهارة والذنس، ولكن الذنس هو الذي طغى على مساحة هذه الصورة، ولم يعد للطهارة حيز يذكر، ولعل القاسم قد قصد ذلك، ليستفز المتلقي ويثيره ويحرضه على الدفاع عن طهارة مدينة القدس، فيجد نفسه وكأنه المسئول، عن الدفاع عن هذه المدينة المقدسة، أمام المحتل الأثم.

ومن خلال لفظ (وبش)، أظهر القاسم عداوة للمحتلين واحتقاره لهم، وكأن القاسم من خلال هذا اللفظ أيضاً، يدين الأمة العربية التي تركت الأوبش يحطون هذه المدينة، ويدنسون حرمتها. وقد أوضح القاسم في البيت الثاني عن بعض ملامح شخصية الإنسان اليهودي، فهو يتظاهر بالتمسك بالدين في الوقت الذي يرتكب فيه كل ما تحرمه الشرائع السماوية.

وليل المحتلين في مدينة القدس طويل.

الليل طال، الليل طال وفرخت  
في القلب إحراقاً وأعسر معسر<sup>(3)</sup>

ولكن هذا الوضع الأساوي في هذه المدينة المقدسة لن يستمر، لأن الشعب يردد:

إننا لها إننا لها ويمينا  
بعبد الشهيد وموتنا المتكرر<sup>(4)</sup>

(1) سميح القاسم، الممثل وفصائد أخرى، 38

(2) عبد الإله الصانع، دلالة المكان في نصيدة إنثر، 76.

(3) سميح القاسم، الممثل وفصائد أخرى، 39

(4) نفسه، 40

والمحتل الصهيوني قد جلب لهذه المدينة

نـاراً ... وغمـاراً ... وخبـاناً  
ومـجـاعـات ... وـجـلبـاناً ... وبيـمـاً ... وـهـواناً! (1)

وفي أجواء هذه المدينة تسمع

صـوت شـعـب يـتـجـجـع (2)

في مدينة القدس، مدينة الرمالات السماوية، تُمثّلن كرامة الإنسان وتُعرض للجرائم الوحشية على يد من يدعي الحق في بلد ليست بلده، وعلى يد من يدعي الحضارة.

رسل السلام هنا يـهـجـون حـقـداً ومـراره  
بـمـدّ آخ حـزّ رؤوس الأـمـمـين  
أعداء الحق ... أعداء الحضارة ... (3)

ومن خلال مدينة القدس كشف القاص حقيقة المحتل الصهيوني وجرائمه الوحشية وادعاءاته الوهمية.

وقد وفق الشاعر في اختياره لفظ (هنا)، فقد اتسع هذا اللفظ وشمل مدن فلسطين جميعاً.

وبرغم سياسة الاحتلال، على فصل مدينة القدس عن مدن الوطن فلسطين، إلا أن القدس ترفض تلك السياسة، وتبني ذلك الانفصال، بل تصر على التوحد والاتحاد مع تلك المدن، وترى نفسها جزءاً من أجزاء هذا الكيان الفلسطيني، غير القابل للانفصال، مهما كلفها ذلك من ثمن. وكأن القدس تعلم أبناءها الفلسطينيين، درساً وطنياً في الانتماء لكل جزء من أجزاء هذا الوطن.

زينة بريّة  
لكنها تنادي  
من مقلة مققوءه  
أرهـ يا بلادي! (4)

(1) سعيد لقاص، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1 / 138

(2) نفسه، ج1 / 138.

(3) نفسه، ج1 / 140.

(4) نفسه، ج1 / 145.

رمز القاسم في هذا المقطع إلى مدينة القدس بالزنيقة، وقد وُصف الشاعر ترأسل الحواس من خلال "وصف مدركات كل حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخرى فتعطي المسموعات ألواناً وتصير المسمومات أنغاماً"<sup>(1)</sup>، فقد جعل النداء يصدر عن مقلة مفقوءة، ليكون النداء مرثياً، ومحملاً بصورة الجرائم البشعة، التي يرتكبها المحتل الإسرائيلي، في مدينة القدس، فيكون الأثر أقوى على النفس وأشد وقعاً.

وجمع القاسم بين الأضداد في (مقلة مفقوءة وأرائك) ليؤكد عمق الارتباط والالتحام بين مدينة القدس والوطن فلسطين، وليس أدل على هذا الالتحام من إضافة باء المتكلم إلى لفظ بلادي.

والقدس في مرحلتها التاريخية قد تعرضت لكثير من المؤامرات والهجمات الشرسة والأطماع، وكان آخرها الاحتلال الصهيوني، وبرغم كل المكائد، والجرائم المرتكبة بحقها، إلا أنها تؤمن بالخلاص. هذا هو قدر ييوس.

تصري مر كل الإثواب  
تطردّها كل الإبواب  
ويأتيها الضيب ياق يجنيه الكسوة  
وإليه الخطوة  
ولديه الحظوة  
ويكسوه الولد عريسا  
وتكسوه البنات عروسا<sup>(2)</sup>

وبالرغم من أن لفظ القدس لم يظهر في هذا المقطع، إلا أن القصيدة التي أخذ منها بعنوان (أخذة الأميرة ييوس)<sup>(3)</sup>.

يربط القاسم بين مدينة القدس والمناضل الفلسطيني برابط روحي، وذلك من خلال لفظ (الغيب)، وتتوَّق هذه الرابطة، وتندغم المدينة بالمناضل، ويتحدان معاً ويتشكل الوطن المحرر. وقد شخص الشاعر مدينة القدس، لإعطائها الحركة والحيوة، فأما عروساً، وذلك ليؤكد جمال هذه المدينة في نفوس أبنائها، ليس الجمال المادي وإنما الجمال المعنوي، فللقدس مكانة متميزة في قلوب المزمّنين بقضيّتها.

(1) محمد عيسى، مقال: اللغة الأدبي الحديث، 418.

(2) صبيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 387.

(3) نفسه، م/3، 385.



تغير وجه مدينة القدس باحتلال العدو الصهيوني لها، فقد سلبها الأمن والفرحة والهدوء، سلبها الوجود والكيان العربي الفلسطيني، والحضور المميز لمقدماتها، ولم تعد هذه المدينة تلك العروس التي تفخر بذلك الحضور، لهذا يتساءل القاسم:

- ما اسمك يا عروس؟

- نسييتي؟

"يېوس"

ليل على القباب

مئذنة ساجرة في الجهر

وأصراة بالباب

مرتابة بسائح يمر

وعسكراً غريباً<sup>(1)</sup>

يتضح في هذا المقطع شوقي الذات الشاعرة إلى القدس، ليس باعتباره مساحة جغرافية فحسب، بل لأنه تشكيل روحي وديني مشبع بالحضور التاريخي العربي الإسلامي، ولا يمكن اقتلاعه من النفوس<sup>(2)</sup>.

وقد جاء المكان صورة للوضع الاجتماعي والسياسي في هذه المدينة، وقد وفق القاسم في إعطاء هذه الصورة، وهذا يدل على عمق شعوره بهذه المدينة وانماجه معها، فالعلاقة بين الإنسان والمكان تترك أثرها على شعر الشاعر<sup>(3)</sup>، فالبعد بين القاسم والقدس بعد مكاني وليس بعداً روحياً.

وتستشعر الباحثة بكلمة (نسييتي) الإدامة واللوم للأمة العربية، التي تركت عروس المهدن العربية تقع أسيرة في يد الاحتلال الصهيوني، وقد تشير أيضاً إلى التغير الذي طرأ على هذه المدينة نتيجة احتلالها، فلم يعد ابنها يعرفها.

ولعل القاسم من خلال عبارة (ما اسمك يا عروس) قد استفاد من تشبيه مظفر النواب مدينة القدس بالعروس في قوله:

القدس عروس عرويتكم<sup>(4)</sup>

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 142.

(2) أبو احمدر موسى، توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، م/33، ج2، 2004، 137.

(3) عادل الأسطة، القدس في الشعر العربي المعاصر، مجلة للحر، ج22، 2003، 48.

(4) مظفر النواب، الأعمال الشعرية الكاملة، 478.

وفي مدينة بيبوس، هذه المدينة العريقة في تاريخها الكنعاني، الممتدة بجنورها في أعماق الحضارة، يصر العدو الصهيوني على ادعاءاته بأحقية فيها، ويرجع هذا الحق إلى وجوده في هذه المدينة في مرحلة من تاريخه، ويطالب العالم بأن يعيد إليه هذا الحق المسلوب، وقد استطاع هذا العدو أن يخرس في جسد بيبوس ذلك المسمر الذي ثبت فيه وجوده تاريخياً في هذه المدينة، فسماره هو حارة اليهود<sup>(\*)</sup> وحائط المبكى<sup>(\*\*)</sup>.

رأيت مسمار جحا

مقفوده موجود

رأيت مسمار جحا

موجوده مقفود

رأيت مسمار جحا

في حارة اليهود ..<sup>(1)</sup>

جاءت القدس في هذا المقطع من خلال حارة اليهود، ومن خلال هذا المكان أظهر القاسم الوجود اليهودي في هذه المدينة العربية، هذا الوجود الذي بدأ يتغلغل في جسد هذه المدينة ساعياً إلى إلغاء هويتها العربية.

وقد وظف القاسم المثل الشعبي (مسمار جحا) معتمداً على الخلفية التراثية لإحدى حكايات جحا<sup>(\*\*\*)</sup>، ليؤكد وجود الكيان الصهيوني في هذه البقعة المقدسة، ولعل تكراره عبارة (رأيت مسمار جحا) ثلاث مرات في هذا المقطع، لتنبيه الأمة العربية إلى الخطر الحقيقي الذي يهدد المدن الفلسطينية، فكان تلك العبارة تدین موقف حكام الأمة العربية الصامت تجاه الانتشار الصهيوني في هذا الوطن، وسيطرة العدو عليه.

وبما أن القصيدة تخص قبة الصخرة والقدس إذن الانزياح الدلالي للفظتي (مسمار، جحا) يقترب ويرمز به إلى (حائط المبكى)، القائم على أنقاض هيكل سليمان، فيبتعد الشاعر من المعنى المعجمي، ويقترب من المعنى الإيماني<sup>(2)</sup>.

(\*) حارة اليهود: من الأحياء اليهودية في داخل سور مدينة القدس، وكان المقدسيون فيما مضى يطلقون على هذا الحي (حارة الشرف)، انظر عرف الأرف، لمصلح في تاريخ القدس، 432 - 432.

(\*\*) حائط المبكى: وهو ما يسميه المسلمون العراق، ويشارونه جزءاً من أجزاء الحرم الشريف، إنه الحائط الذي يحيط بالحرم من ناحية الغربية، ويعتقد اليهود أنه من بقايا هيكلهم القديم، ذلك الهيكل الذي عمره (هيروس الملك م). انظر تفسره، 98.

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 3/ 145.

(\*\*) الموقف: على هذه الحكاية، انظر محمد زحيد النجار، جحا العربي شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير، 177.

(2) رقيه زيدان، تنوير الدلالي في شعر سمح لقاسم، 86.

ويبوس نبت أسرار حزنها إلى شعبها الذي ينفذ إلى جانبها في محتنها، ويزيل الهم عن قلبها، ويطمئنها، بأن حركة التاريخ تثبت أن الحق سيعود إلى أهله، وأنها مهما استيحت في تاريخها الطويل، من قبل الغزاة إلا أن هويتها ستظل عربية فلسطينية.

يا السور يا الأبراج  
لا بأس يا أسرارنا الحميمه  
كم فاتح حاول أن يذبح الوثاق  
ليستريح روحنا القديمه  
وعاش بالهزيمة<sup>(1)</sup>

يكثف القاسم الألفاظ الدالة على البعد التاريخي/ الحضاري لهذه المدينة من خلال استدعائه (السور والأبراج)، فإن لكل مدينة وجهاً مادياً خاصاً بها يكشف عن روحها وطبيعتها<sup>(2)</sup>. وقد وفق الشاعر في الجمع بين السور والأبراج من ناحية، والفتاحين من ناحية أخرى، ليؤكد على وجود هذه المدينة، فالتقسيم مازالت قائمة رغم كل الفاتحين، فلفظ الأسوار والأبراج يشعران المتلقي بقوة هذه المدينة ومنعتها وتحديها للغاصب على مر العصور. ولعل القاسم قد وظف لفظ (فاتح) في المقطع، ولم يوظف لفظ (غاز) وكأنه قد فرأ وجهة نظر العدو الذي يدخل هذه المدينة، فيرى نفسه فاتحاً لها، وليس غارياً. ترتبط القدس مع أبنائها بعلاقة حميمة، فهم يتحسرون على هذه المدينة، وما أصابها من امتنان وذلك على يد المحتل.

فلبي علياً  
أه ثمام أه  
وقلبك الميت  
تحت أرجل الغزاة<sup>(3)</sup>

تبدو القدس في هذا المقطع مستسلمة لواقع الاحتلال، وجرائمه المقترفة بحقها، فظهرت مكاناً وقع عليه الفعل وليس لديه القدرة على رد الفعل مما أحرز القاسم وآلمه، ومن خلال هذا الحزن سيطلق القاسم طين في مواجهة العدو والدفاع عن مدينته.

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 3/ 143.

(2) زهير مصود سليمان عزام عبيدات، صورة المدينة في شعر العربي الحديث، 6، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1987.

(3) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 3/ 147.

وقد وفق القاسم في إعطاء صورة سلبية عن المحتل الصهيوني، من خلال ما تتعرض له هذه المدينة، وقد جاءت هذه الصورة محملة بمشاعر الألم، لتحفز المثقف على تخلص هذا المكان من ذلك الواقع المأساوي الذي يعانيه. ومن خلال مجموعة الألفاظ التي تشكل منها هذه الصورة "تحقق لديه التلاحم العضوي بين الصياغة والدلالة"<sup>(1)</sup>.

وفي مدينة القدس تتوحد المشاعر الدينية بين المسلمين والمسيحيين، وتتوثق الروابط بينهما، فالهدف مشترك، وهو تحريرها من أسر الاحتلال.

الفارس المسلم يستريح  
تحت زيتونه ويتوكله  
والسيّد المسيح  
يطل من أيقونته.<sup>(2)</sup>

وبالرغم من أن المقطع لم يذكر فيه اسم مدينة القدس، إلا أن القصيدة التي أخذت منها عنوانها (فيسفاس على قبر الصخرة)<sup>(3)</sup>، وقد ظهرت القدس من خلال المحبة والتسامح الديني مدينة تنتظر من أبنائها العرب تحريرها. وقد كان القاسم واعياً عندما جمع بين الموروث الديني الإسلامي والمسيحي، وذلك من خلال الإشارة إلى الألفاظ (المسلم، زيتونه، المسيح، أيقونه) ليؤكد التلاحم بين أبناء هاتين الديانتين في هذه المدينة.

القدس قبلة المسلمين الأولى، تتوحد معها المشن الفلسطينية، وتشاركها آلامها وأحزانها، فالمأساة واحدة، والقاسم المشترك بينهم هو الاحتلال.

ليبك لنا وعلينا ومنا وفينا  
ليبك مغني الرحيل

لنذك على قبلة القدس جالية من كروم الخليل<sup>(4)</sup>

(1) خالد محي الدين البرادعي، الغناء الأدبي، دراستك وتصوراتك، 63.

(2) سمير لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 145.

(3) نفسه، م/3/ 142.

(4) نفسه، م/3/ 287.

ولعل القاسم قد لجأ إلى تكرار لفظ (لبيك) للضغط على فكرة بعينها وإبرازها على نحو يميزها عن غيرها، ويشعر المثلثي بأهميتها<sup>(1)</sup>، فهو يحفز الأمة على الخروج من ذلك الوضع المأساوي، وتجاوز مرحلة الشكوى والألم، إلى مرحلة أخرى مثمرة، وهي الفعل، فكانت الانتفاضة الفلسطينية.

في حين أن زعماء الأمة العربية قد اختاروا الحل السلبي والانهزامي تجاه مدينة القدس في انتفاضتها المحيطة.

لبيك شبابيك أجسادنا المخلقة  
على جث حية مرققة  
لبيك ونبيك<sup>(2)</sup>

وظف القاسم الأضداد في عبارة (جث حية) لتصوير ذلك الموقف العربي المهيين، وإدانته والسخرية منه، فالقاسم يستنكر عجز الحكام العرب في موقفهم تجاه القدس. وقد استطاع الشاعر من خلال لفظ مغلقة أن يظهر ذلك الموقف، وهذا هو التكتيف في الشعر والقدرة على استخدام اللغة.

ويشارك أطفال العالم مدينة القدس حزنها وآلامها، فهذه المدينة تتعرض لهجمة شرسة من قبل العدو الصهيوني، إنه يعمد إلى قتل السلام في مدينة السلام، فينشد أطفال العالم:

يا إله الانتقام!  
يا إله الانتقام اظهر - ورد الخيلاء!  
رد من يخبخ في القدس اليتمام  
والشكالي والإليامامي ..  
رد من يخلل ميرانك  
من يجلب في القدس السلام<sup>(3)</sup>

ولعل القاسم قد جعل الأطفال هم محور الدفاع الأساسي عن هذه المدينة، ليؤكد أن القدس مدينة عالمية ذات بعد إنساني، فقد تخطت حدود هويتها العربية الفلسطينية، لتصبح هويتها

(1) عندي حسن قاسم، درامات نقدية، 141.

(2) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 287.

(3) نفسه، م/ 138، 139.

عالمية، وتصبح قضيتها قضية إنسانية، فالقدس لم تعد المدينة ذات الحدود الجغرافية المعروفة، بل أصبحت قضية الإنسان المحتل.

ولعل القاسم قد وظف أطفال العالم، للدفاع عن هذه المدينة، بوسيلتهم المتاحة وهي الدعاء، ليعري ذلك الواقع الأليم، فالكلم قد تخلى عن القدس، في معركتها غير المتكافئة مع العدو الصهيوني، ولم يبق لها نصير، فتأتي صرخة الأطفال صرخة احتجاج، عليها توظف من يدعي الاهتمام بهذه القضية.

ويرسم القاسم في هذا المقطع صورة بشعة للمحتل الصهيوني، ويوظف عدداً من الألفاظ لتدعم هذه الصورة (الذبح، بظلم، بصلب)، وخلف هذه الصورة الطاغية للعدو، تظهر صورة الشعب الفلسطيني الضعيف، صورتان قوة الأولى وسيطرتها على الموقف، تظهر ضعف الثانية. وظف الشاعر الموروث الديني المسيحي وذلك بالإشارة إلى لفظ (الصلب)، ليؤكد على العذاب والألم الذي تتعرض له هذه المدينة.

ومن اللافت للنظر، أن لفظ اليتامي استدعى التكاليف والألم، ولعله لو أسقط هذين اللفظين لكان الإحباء أفضل.

ولعل الكلمة المسيطرة على هذا المقطع هي كلمة (رُذ)، وكأن القاسم يريد أن يستمد القوة من إله الانتقام، لكي تكون لديه القدرة على الرد الحقيقي والإيجابي، فكأنه يريد أن يتخطى دائرة الحزن والهم، لينطلق إلى دائرة الفعل، الذي يريده موازياً لبشاعة جرائم الاحتلال. ولكن تبقى دائرة الرد في هذا المقطع، محصورة بقوة علوية، إشعاراً من القاسم بأن الشعب الفلسطيني لم يتخذ بعد قراراته بنفسه في تلك المرحلة التاريخية.

مدينة القدس تشعر بالغربة نتيجة احتلالها، فهي وحيدة في معركتها القاسية مع العدو الصهيوني، وتتوحد هذه المدينة مع أبنائها، ويطلقون صرخة استغاثة.

أَسْتَعِيْثُ وَلَا أَسْتَعِيْثُ  
فَهِيَ بِأَفْلَاقِ مَيْتَةٍ  
فَقَاتَ عَيْنَهَا حِدَاةً  
قَدِمَتْ مِنْ جِلْدِ الْكُوَارِثِ  
وَأَسْتَوْطِنَتْ جِثَّتِي  
قَرَبَ "بَابِ الْمَغَارَةِ" التَّغْتُ فَجَاءَتْ  
شَاهِدَاتُ طِفْلَةٍ مَيْتَةٍ  
فَقَاتَ عَيْنَهَا .. ثُمَّ عَادَتْ إِلَى جِثَّتِي

## ابتهجته في بيتي<sup>(1)</sup>.

وظف القاسم جزئية من جزئيات المكان وهو (باب المغاربة)<sup>(\*)</sup> ليحمل وجه مدينة القدس، وكأنه يريد أن يشير إلى أن جرائم الاحتلال تنتشر في كل جزء من أجزاء الوطن. وقد أورد الشاعر صورة توحى ببشاعة جرائم المحتل في الوطن الفلسطيني، وفي الوقت نفسه تظهر براءة هذا الشعب، وتري الباحث أن القاسم قد وفق في تشبيهه الكوارث بالجليد، ليؤكد أن كوارث المحتل مازالت متجمدة في ذاكرته، وهي التي تشجعه على مزيد من الانتقام. ويرغم تلك المصراخات الصادرة عن هذه المدينة، والمدن الفلسطينية الأخرى إلا أن الحكام العرب

غضبوا .. جرح صوت  
سكبوا دمعتين على دمها  
اتقنوا كلمات الرثاء الوجيزة.  
وانسحبوا<sup>(2)</sup>.

ولا يبقى للقدس والمدن الفلسطينية في معركتها مع المحتل سوى ابنها الفلسطيني، الذي سيناضل من أجلها ليحقق لها الحرية.

وها أنتما استغِيث ولا تستغيثُ  
أنا العربي المجهيء  
التقاضي البريء<sup>(3)</sup>

القدس هي المكان المنشود والهدف المرسوم بدقة أمام المناضل الفلسطيني الذي عرف طريقة واختارها وحددها، فالقدس هي نقطة الانطلاق في رحلته التضالية، كما أنها نقطة النهاية، التي ستسطع عندها شمس الحرية على الوطن الفلسطيني.

لكننا لم نضع في اختبار الطريق  
وهنا أنت تمشي من الشمس للقدس

(1) صبيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 346.

(\*) باب المغاربة: من أبواب سور القدس من الغرب، انظر عارف العارف، *المفصل في تاريخ القدس*، 432.

(2) صبيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 348.

(3) نفسه، م/3/ 349.

### والقدسُ تمشي إليّ من الشمس<sup>(1)</sup>

فالقدس هي نقطة الالتقاء والتقاطع في تلك الرحلة النضالية للشعب الفلسطيني.

ولكن هذه الرحلة النضالية للوصول إلى هذه المدينة وتحريرها تحتاج إلى مرحلة طويلة من الإعداد.

مازلتُ أمشي

وما زلتُ تمشي<sup>(2)</sup>

يذل الفلسطينيون من أجل مدينة القدس التضحيات الجسام، وما زالوا يبذلون، فهم جريصون علّوها متمسكون بها، وهي غير قابلة للبيع، ولعل هذا الموقف الواعي أول خطوة في النضال، وأول مرحلة نحو التحرير.

رتيقة شريتها

من بائع مجنّح

على سياج منزل

لكنني .. ما بعثتها<sup>(3)</sup>

القدس ترتبط بعلاقة حميمة مع أبنائها، فهي مندغمة في نفوسهم، خالدة في أصاقيهم، مزروعة في قلوبهم، "مدينة القدس ليست مجرد مكان، إنها زمان أيضاً"<sup>(4)</sup>، وهي شمس الحرية، وبالرغم من اجتياح الغزاة لها على فترات التاريخ، إلا أنها بقيت المدينة العربية ذات التميز والأصالة والحضور، فهي التراث وهي دماء الوطن وهي الحب، لذا يتوعد الفلسطيني نفسه إن لم يدافع عن هذه المدينة، فمعركتها معركة وجودها وجوده، وكأن القاسم يوجه خطاب لوم وعتاب للأمة العربية التي نسبت القدس، وتخلت عنها في معركتها مع الاحتلال.

لتنسيني يميني

إذا نسيت القدس

ولتخلد على جبیني

وحمة حجر الموت والجنون

(1) سعيد لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 316.

(2) نفسه، م/3/ 316.

(3) نفسه، م/1/ 146.

(4) جبرا إبراهيم جبرا، رحلة قنصنة، دراسات نقدية، 115.



ولتسب وجهي الشمس  
وليتصب اليوم على صوتي وأطفالي  
إِذَا نَسِيتَ القدس!  
يا أيها الغزاة.  
قبور أسلافني وجفء البيت، لا إله  
حبي الذي يَمُوه، فحاذروني  
يا أيها الغزاة  
ولتسب وجهي الشمس  
ولتسبني يميني  
إِذَا نَسِيتَ القدس!<sup>(1)</sup>

القدس هي المكان المحرض للفلسطيني للثورة على أعدائه.  
استخدم القاصم الرمز بكثافة في هذا المقطع فهو "وسيلة إيحائية من أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية، يثري بها لغته الشعرية، ويجعلها قدرة على الإحياء بما يستعصي على التحديد والوصف من مشاعره وأحاسيسه وأبعاد رؤيته الشعرية المختلفة"<sup>(2)</sup>، وقد كانت رموز شفاقة مستمدة من الطبيعة، فالشمس هي الحرية، واليوم هو الخراب، والزيفون هو الوطن.  
وقد وفق الشاعر في اختيار لفظ الغزاة ليؤكد الرؤية المتفائلة التي يؤمن بها، فالاحتلال زائل، وهذا ما يؤكد التاريخ.

تواصل القاصم مع التوراة من خلال عبارة (ولتسبني يميني إذا نسيت القدس)، فقد جاء في التوراة "إن نسيته يا أورشليم نسي يميني"<sup>(3)</sup>، "إنها قسم يهودي بالأ يخلوا عن أعلى وأقدس مكان على وجه الأرض كما يظنون"<sup>(4)</sup>، وهذا التواصل يؤكد عدم تنازل الفلسطيني عن هذه المدينة.

للقدس علاقة وثيقة مع المناضل الفلسطيني، فهي تباركه، وتبهر طريقه، وتضيء له درب الحرية الذي اختارده.

### يجبثون

---

(1) سميح القاصم، الأعمال الشعرية الكاملة، 1/ 536.

(2) علي عسري رابدة، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، 110.

(3) مزعور 137، 5.

(4) ذيل أبو شمالة، القدس في الشعر الفلسطيني والعربي، مجلة الشعر 10، ع22، 2603، 81.

عجّوا وراء عَجْو وراء عَجْو  
 لإخماد نوار حبك  
 لإعدام أُمرك  
 بكفاه تاريخ شعبك  
 وعيناه تاريخ قلبك

—  
 وشمس من القدس في جُده  
 وجسم فلسطين  
 روح فلسطين  
 وشم على زُنجه<sup>(1)</sup>

تبدو القدس في هذا المقطع مكاناً فاعلاً، يحفز أبناءه على الفعل التضالي، وتصبح هذه المدينة بؤرة الوطن فلسطين، فهي المدينة التي يحمل لها الفلسطينيون الخصوصية والتميز. يرسم «قاسم من خلال التشبيهات الجزئية صورة المناضل الفلسطيني فيجعلهُ ملتحمًا بالوطن، ممتدًا فيه، فيكون صورة أخرى لفلسطين، مما يجعل فكرة القضاء عليه مستحيلة.

تتداخل المدن الفلسطينية، يتداخل الجليل والكرمل مع القدس، فيشكل الوطن فلسطين، تذوب الحدود والحوار بين شمال الوطن وجنوبه، بين فلسطين الداخل والضفة الغربية، وتتأجج مشاعر الغضب والثورة في نفوس المذنبين، لحال المدن الفلسطينية المذكورة، فيكون الوعد بالعودة إلى أرض الوطن، والنضال من أجل الحرية.

ويعودون! ذاك عهد، يعودون  
 ومقنيك عائداً باركيه  
 ويرى الكرمل الملوغ 'سلمي'  
 وقباب القدس الأسيرة 'سلمي'

رشاقاً ويرشق الشمر ضمأ  
 طأوا خلفه المنافق سحماً  
 والجليل المذبوح في القيد سلمى  
 وأساطير وردة الهدم 'سلمي'<sup>(2)</sup>

يتمدد المكان الفلسطيني المقدس (القدس) ليصبح وجهاً للوطن، ويشخص القسم قباب القدس، فيراها أسيرة، وذلك لتتحرك مشاعر المناضلين الفلسطينيين، وقد جاءت الرموز واضحة مباشرة، ولعل التركيز على رمز سلمى الدال على فلسطين، يشير من خلاله إلى تلك الشخصية التي يتحدث عنها في هذا المقطع، وهو الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، ولعل:

(1) صبح قاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 459، 460.

(2) نفسه، ج2/ 260.

استخدامه الجملة الإسمية (ومغنيك عائد) ليؤكد الإصرار على هذه العودة وإثباتها، وكأن العودة هاجس يسيطر على الشاعر، يتمنى لو يتحقق.

مدينة القدس حق للشعب الفلسطيني، "إنها الوردة التي يجب أن تظل له بمباركة (إيل) القدس"<sup>(1)</sup>.

يتجرع كاهن إيل  
أق تجهب في التيه ييوس  
وتطلب في الناس حليلا  
يتجرع كاهن إيل  
أق العاشق وحده  
منجى .. منجى .. وحليل  
والفارس وحده  
يقطف هذي الوردة<sup>(2)</sup>

ولعل هذا المقطع يعكس الرؤية الواعية للقاسم، فهو يشعر بالإنهزام الداخلي أمام واقع هذه المدينة المتردي، ومحاولات العدو الصهيوني المتكررة في الاستيلاء عليها، بل ومحاولة تهويدها، وتزداد مرارته وألمه لعدم وقوف الأمة العربية إلى جانبها، وحتى يشعر بالتوازن، والفترة على مواجهة ذلك الواقع الأليم، لا يجد حلا سوى ربط مصير مدينة القدس بالفلسطيني، فهو الوحيد القادر على تخليصها مما تعانيه.

مدينة ييوس، تنتظر ذلك المناضل الفلسطيني الذي سيحقق لها الحرية، فهي تراه ملتحماً بها ومعها، متشكلاً في كل جزء من أجزاء الوطن.

على ثمر الكرم تبصر فصل فصول يمينه  
وفي ورق الخار تلمس أفاق عينيه  
تسمعه همسة في الهدير  
وتشربه قطرة من ضياء أخير  
وفي سمها تسمعه

(1) ذروق موسى، القدس في الشعر الفلسطيني الحديث، 19.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 390.

وفي حـمـوتها تـسـجـده<sup>(1)</sup>

لذلك نكخذ بيوس القرار، فهي ستبعه .

إلى أبـد أبـد تـبـعه<sup>(2)</sup>

وبهذا التلاحم الأبدى بين الفلسطيني ومدينته، يستطيع القاسم الخروج من مرارة ضياع الوطن.

والقدس حبيبة المناضل الفلسطيني، تلتحم مع مدينة جبل النار في التفضال والكفاح، وينتمي إلى هذه المدينة المقدسة كل جزء من أجزاء الوطن، وينتمي لها الخالص، وينتظر فجر الحرية بسطع على مآذنها وكنائسها، ويزيل الحزن عن وجهها المحمل بإشراقات روحية.

من مسرب وعري

على جبال النار

رفه جناح حي

ومات ثم طار

إلى قبـابـ القـدس

حبيبتي يا قدس!

متى

ودوى الصوت

على جبال الموت

وجلجل الأذن

حبيبتي يا قدس!

وأنت الإجراس

حبيبتي يا قدس!

وكأن ما كان

تفرق الجراس

....

وارتجلت أعراس

(1) صميح القاسم: الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 392.

(2) نفسه، م/3/ 392.

وأوغلت أجساد  
تحت قباب القدس  
أرملتي  
يا قديس  
متى تعود الشمس؟<sup>(1)</sup>

اعتمد القاسم على الصور الجزئية التي ظهرت فيها عناصر الحركة والصوت، وترى الباحثة أن تلك الصور جاءت واضحة مباشرة، مما قلل من شأن الإيحاء، الذي لا بد أن يكوافر في الشعر.

وكثف الشاعر من الدلالات الدينية لإظهار وجه القدس الروحي، فظهرت القباب والمآذن والأجراس، وتقاطعت المشاعر الدينية الإسلامية والمسيحية في بؤرة واحدة وهي حب القدس. وقد شبه القدس بالحببية، لإظهار العلاقة الحميمة بين الفلسطيني ووطنه، ولعل تكرار عبارة (حبيبتني يا قديس) التي أراد بها القاسم التركيز على هذه الفكرة، أفقد المتلقي القدرة على التواصل مع هذا النص الشعري.

وظف القاسم الموروث الشعبي باعتماده على عبارة (كان يا ماكان) لتكون فاتحة لحكاية ذلك الوطن السليب.

ألح الشاعر على إضافة كلمتي (حبيبتني، أرملتي) إلى باء المتكلم، ليشعر بقرينه واندماجه مع هذه المدينة، فكانه يشعر بأنها بعيدة عنه، ليس البعد المكاني فهو لا يعينه، وإنما البعد بسبب الاحتلال، ولعل ذلك يؤكد نداؤه المستمر لمدينة القدس.

وكلمة أرملتي فيها شحنة عاطفية حزينة، فكانه يرصد فيها مصير هذه المدينة بسبب احتلالها.

القدس مدينة الحرية، تحمي أبناءها الفلسطينيين، وتحضن آمالهم وأحلامهم في العودة إليها، والعيش على أرضها وفي ظلها، وباحتلالها يفقد الإنسان الفلسطيني كيانه ووجوده على هذه الأرض، ويسقط الحلم الفلسطيني بالعودة والتحرر، وتتطفئ الآمال.

يقبل سيحتا الراحل  
لمقدمه أنجلوات. عليه السلام  
على شغتيه المعاني التي لم يقلها الكلام  
نقوش لشاهدة القبر. كانت ييوس ملا

(1) ممد القاسم، كولا، 15، 16.

اليبوسي حيا وميتا  
 قجتي نجده، لا نقوش لشاهدة القبر، لا قبر،  
 ما من ييوس  
 وجداعاً تراب التراب وشمس الشموس

وما من فضاء جديد وما من نبي جديد  
 وما من طريق  
 وما من ييوس<sup>(1)</sup>

تستشعر الباحثة اليأس الذي أثقل هذا المقطع، فقد وصل المتلقي فيه إلى طريق مسدود، لا أمل في الخروج منه، فالدائرة قد أغلقت على هذا الفلسطيني وذاك المتلقي، فيتحدان معاً من أجل الخروج وإيجاد الطريق.  
 ولعل تكرار عبارة (ما من ييوس) في هذا المقطع، لإثارة المتلقي وتحفيزه على رفض الموقع المميز لمدينة القدس.

ولأجل مدينة القدس، يتحمل المناضل الفلسطيني كل الآلام والعذاب، ويقدم حياته من أجل تحريرها، فموته خطوة أولى نحو البعث، بعث الحياة في الوطن، وهي تدعوه إلى المزيد من التضحيات حتى تكتمل الحرية في جميع أحرار الوطن.

أعدوا حليبي  
 على شرفة الحب في آخر الموت يطلع وجه حبيبي  
 ويسطح وجه حبيبي  
 أعدوا حليبي  
 على قمة القدس في مشرق الشمس  
 موتني وبعثني  
 وموتني ووجه حبيبي<sup>(2)</sup>

تشكل القدس في هذا المقطع العنصر المضاعط على مشاعر الإنسان الفلسطيني، فهي المكان الإيجابي المشرق الذي تمدد في داخله، وبرغم أنه يقلقه إلا أن هذا القلق يأتي مثمرًا، فمن خلاله سينطلق الفلسطيني لمواجهة المحتل.

(1) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/245.

(2) نفسه، ج4/418.

وقد قرن الشاعر موته ويعنه بهذه المدينة المقدسة، ليكون الموت والبعث مقدساً في سبيل  
تحريرها،  
ويوظف الشاعر المفارقة اللفظية في (أعدوا صليبي)، لتحدي قوات الاحتلال، والاستهزاء  
بهم، فمهما عذب لن يكف عن التضال في سبيل تحرير الوطن.  
ولم يكن اختياره عبارة (في مشرق الشمس) عبثاً، وإنما أراد أن الحرية لا بد أن تسطع  
على هذه المدينة.  
واستخدم القاسم الأضداد في عبارة (موتي بعثي)، ليشعر أن الموت ضرورة من أجل  
الحياة، فلموت هنا معادل للحياة، فاتحاد الشاعر بالمكان هو سر صلاته أمام الموت<sup>(1)</sup>.  
تتمدد مدينة القدس، هذه البقعة المقدسة لتشكل الوطن الجريح، وتكون البوصلة التي  
تجذب إليها الإنسان الفلسطيني، فتصبح القدس فلسطين.

يقتلني الشوق، إلى عينيك  
فأفرش بساط الريح  
بكوفية من وطني الجريح  
تطير بي من حائط البراق  
من قيامة المسيح  
تطير بي إليك<sup>(2)</sup>

جاءت القدس في هذا المقطع من خلال حائط البراق وقيامة المسيح، وقد اتحد المكان ذو  
الخصوصية الدينية الإسلامية مع المكان ذي الخصوصية الدينية المسيحية، ليؤكد أن القدس لها  
مكانة دينية متميزة لدى كل من المسلمين والمسيحيين.  
وقد مزج القاسم بين التراث الشعبي من خلال بساط الريح، والتراث الفلسطيني المحلي  
من خلال الكوفية، للتأكيد على الانتماء لهذه المدينة.

القدس هي المكان الروحي الذي سيمتحن المناضل الفلسطيني القوة، وسيبعثه من جديد،  
وهي حلم الشعب الفلسطيني، ولا بد من المحافظة عليه، وحمله حقيقة، وهذه المدينة لن تعود إلى  
أهلها إلا بنضال شعبها، وتكاتف الأمة العربية.

من أين تجمع جمرها ورمادها العنقاء؟ كيف ترى سبتنا نارها؟

(1) إسماعيل عباس، تجامعت الشعر العربي المعاصر، 86.

(2) سميح القاسم، سافرخ من صوري ذات يوم (قصيدة)، 18.

وبأي معجزة تفجر لحظة الزلزال في الزمن الضيق؟  
 من أين أتت الحياة لقهر موت يديني؟  
 شيدت عاصمة لروحي. خلف سور القدس، عاصمة تليق بمكة  
 الأولى، فرشت عباءتي، سجدت فيها جثتي. يا قوم كفوا عن  
 خضاكم القبح وهاكمو جسدي الجريح، إلا احملوه جماعة  
 ليكفو باسم الله صخرة حملنا الباقي على الأيام واتصلوا بما  
 قالت لنا

العنقاء من أزل، ألا واستذكروا أيام أهل الكهف يا أهلي الإحبة<sup>(1)</sup>.

تحتضر مكة الأولى/ القدس بمكانتها الدينية والتاريخية لتكون المكان الذي سينطلق منه  
 الفلسطيني في الاتجاه الصحيح وهو تحقيق الحرية لوطنه.

ولعل الشاعر قد ركز على البعد الديني لمدينة القدس، لتكون رسائلها الداعية إلى التكاتف  
 وتوحيد الأمة العربية أمام العدو الصهيوني سموعة، فبنت القنص المكان الحريص على أبنائه،  
 الذي يساعدهم على إيجاد الحل من أجل تحرير الوطن.

وقد وظف القاسم أسطورة العنقاء<sup>(2)</sup> ليشير بها إلى مرحلة التجدد والبعث في حياة  
 الفلسطيني التضالية، فهو لن يهزم ولن يموت، وإنما سيبعث ليعيد الوطن إلى أهله.

وقد توأص القاسم مع الموروث النبطي القراني، بالإشارة إلى قصة أهل الكهف<sup>(3)</sup>، ليؤكد  
 أن الشعب الفلسطيني عليه أن يكون واعياً، فيتخذ من دروس الماضي عبرة للحاضر.

تحرير القدس والمدن الفلسطينية الأخرى هو هدف ورسالة الشهيد.

ورسالة الأحياء يسطع نورها فوق الدجاجة والشهيد رسول  
 والموعود الميمون. فكنس حرة

وهذا الشهيد

(1) سمح القاسم، سأخرج من سورى ذات يوم (قصائد)، 161.

(\*) العنقاء: وهي طائر أسطوري مصري الأصل، وقد تسببت حول موته وولادة خلفه لاطنين كثيرين، ومنها أنه ينشئ عشه ثم يموت  
 ومن جثته تخرج عظام جديدة، ويقال إنه يفر صرخه حتى تتحقق منه النعم التي يخلق منها خلفته، كما يقال إنه يحرق نفسه في  
 عشه ومن رماده يخرج ولد، وقد أصبحت العنقاء رمزاً للبعث، سبيل عدنان وعند الرزاق الأصغر، معجم الأساطير اليونانية  
 والرومانية، 333.

(2) انظر صلاح عبد الفتاح الشاذلي، مع قصص المباحين في القرآن، 276.

(3) سمح القاسم، المعمل وقصائد أخرى، 23.



## غُطَّوْهُ بِالشَّمْسِ إِنْ مَاتَ فِي الْقُدْسِ<sup>(1)</sup>

والقدس القديمة، هي المكان الذي سيُنقذ فيه المناضل الفلسطيني مجلس الأمن، هذا المجلس الذي سقط القناع عن وجهه، فهو لم يتخذ أي قرار فعلي منصف منذ سقوط فلسطين بيد الاحتلال عام 1948، وحتى بعد سقوط القدس عام 1967، فالجرائم مستمرة، وتحرير هذه المدينة منوط بأهلها، ودرّب الحرية لا يرصف إلا ببذل الدماء.

نَاجَيْتُ مِنْ عَشْرِينَ عَامَ  
يَا مَجْلِسَ الْأَمْنِ الْمَوْقِرَ- آه  
مِنْ عَشْرِينَ عَامَ

يَا مَجْلِسَ الْأَمْنِ الْقَدِيمِ  
صَوْتِي يَجِيئُكَ زَهْرَةً حُمْرَاءَ،  
مِنْ حَقْلِ الْجَرِيمَةِ  
فَالِي الْقَاءِ ... إِلَى الْقَاءِ  
يَا مَجْلِسَ الْأَمْنِ الْقَدِيمِ  
أُرَافِقُ فِي الْقُدْسِ الْقَدِيمَةِ<sup>(2)</sup>

وظف القاسم النداء (يا مجلس الأمن...) للسخرية من واقع مجلس الأمن، وقد أكد السخرية بنعته المجلس بالقديم على اعتباره أن قراره لا أهمية لها.

واعتمد القاسم في صورته (صوتي يجيئك زهرة حمراء) على تبادل معطيات الحواس، فالصوت وهو المسموع يأتي في هذا المقطع مرثياً ومشموماً، وذلك ليؤكد أهمية الصوت الفلسطيني، وتكثّره عندما يتخذ الشعب الفلسطيني قراراته بنفسه، فيصبح القول فعلاً، ويكون التأثير قوياً واضعاً.

وقد وظف القاسم الانزياح الدلالي "الذي تحقّقه الصورة القائمة على طرفين متباعدين أو غير متجانسين"<sup>(3)</sup>، في عبارة (حقل الجريمة)، ليؤكد على كثرة الشهداء وقسوة المحتلين، هذا

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 139.

(2) نفسه، م/1/ 281.

(3) سامح الرواشدة، إشكالية تنقيح وشأنويل، دراسة في الشعر العربي الحديث، 57.

الانزياح يدهش المتلقي، ويجعله يرفض ذلك الواقع الأليم، فليس هو بحتل لجرائم المحتلّين، ولا بد أن يتخذ الموقف المناسب.

وعبارة (القدس القيمة) تشعر المتلقي بأنها "مكان حامل للهوية والتاريخ"<sup>(1)</sup>. وتلتحم الذات المفردة مع الذات الجماعية في نقط (صوتي) فيكون ذلك الصوت صوت الشعب الفلسطيني الذي اتخذ القرار.

صوتي يجيئك زهرة حمراء  
في العام الجديد  
من يأت بيتي قاتلاً  
يرتكب عن بيتي قتيلاً<sup>(2)</sup>

سقطت القدس بيد الاحتلال، وبسقوطها ودع الشعب الفلسطيني كل أيام الهناء والسعادة، وخيم الحزن وعمت الكآبة هذه المدينة، ولم يعد أهلها يستشعرون الحماية والأمان، فسقطت هذه المدينة المقدسة هو سقطت المدن الفلسطينية جميعاً، وينخذ المناضل الفلسطيني فراره بالثبات فسي هذه الأرض، وعدم التخلي عن هذه المدينة في محنتها. وهناك من أجبر على مغادرة الوطن، والقاسم يؤيد موقف الثبات في الأرض الفلسطينية، ويدين موقف الخروج منها.

في ليلة قمراء  
كأنّ جفا مسافراً  
هاجتة في الدرب يسير القدس والفيحاء

---

وأفسس وجعنا معاً كل ليالي الأتس  
تحت قباب القدس  
كأنّ جفا الطبيب والخبيث  
محملاً على حمّله  
مئذنة وقمرأ  
وبجدة أق صلي وصليت، تصافحتنا  
ولم نسر معاً<sup>(3)</sup>

(1) إبراهيم زمار، المديّة في الشعر العربي، الجزائر: نونجا، 1925-1962، 243.

(2) صميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/381/1.

(3) نفسه، م/162/2، 163.

تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، باستدعائه شخصية عرفت بالسخرية وهي شخصية جحا، ولعل القاسم قد اختار هذه الشخصية تحديداً، لتطرق عن واقع الهزيمة التي مني بها الشعب الفلسطيني في حرب 1967، لإدانة هذا الواقع المؤلم، هذا الواقع الذي يكاد يكون أقرب إلى المهزلة.

"واللامبالاة في الشخصية التراثية "جحا" يحملها لمن تركوا القدس.. الوطن .. تاركيين وراءهم أحلامهم، والبعد الآخر .. الشخصية الملتصقة بأرض الوطن، ظلت مرتبطة "بالمكان" لم تسر مع جحا"<sup>(1)</sup>.

وبنى القاسم هذا المقطع على غرار الحكاية الشعبية، وهذا يتفق مع شخصية جحا التراثية.

القدس مسبية وجريحة، تن تحت وطأة الاحتلال، وتتألم من جرائمه الوحشية المستمرة، ومع هذا الوضع القائم للمدن الفلسطينية المحتلة التي تعكسها مدينة القدس، يعلن العدو الصهيوني رغبته في السلام الوهمي، ويبيد بعض الحكام العرب استجابتهم لتلك الرغبة، غير ابهين بما يحدث في الوطن فلسطين، وكأنه ليس بقعة من بقاع الوطن العربي، والقاسم يستنكر موقف هؤلاء الحكام العرب، ويسقط السلام، ويرفع شعار التضال من أجل التحرير.

يعرييوؤ راية ولسانا  
بيضييوؤ تية ومننا

أي سلم؟ وفي انغزاة يمين  
أى سلم؟ ونجمل صهيويؤ في الشريان  
غلطوها أن يرفجوا الجرم جرما  
نار. والقاسم في السبي كلمى؟<sup>(2)</sup>

ولعل القاسم قد اختار لفظ صهيون، لكي تعود الذاكرة الجماعية العربية إلى التاريخ البعيد، لتأكيد على جرائم الصهيونية بحق العرب الفلسطينيين على مدى التاريخ، فيكون هذا اللفظ ليس إدانة للصهاينة، وإنما لهؤلاء الحكام الذين اتخذوا موقف المهادنة والسلام مع العدو. ومن اللافت للنظر، أن البيت الثاني يشكّن معادلة غير متوازنة الأطراف، ولا يمكن أن يكون السلام أحد نتائجها بأي حال من الأحوال، لذلك وظف الشاعر الاستفهام الاستنكاري من خلال عبارة (أي سلم).

ولم يكن رفضه للسلام تعبيراً عن انفعال لحظي أو ردة فعل عفوية، ولكنها تمثل موقفه الثابت تجاه أعدائه الذين احتلوا وطنه<sup>(1)</sup>.

(1) شوقي أحمد يعقوب أبو زيد، فتواصل بثرات في أعمال سميح القاسم الأدبية، 128، (سالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1992).

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 260.

ويأتي المكان في هذا النص الشعري ضعيفاً ومحملاً بالحزن والأكـم، ولكنـه المكان المركزي في الوطن فلسطين، المكان الحاضر في نفس الأمة العربية، فضعف المكان هو الذي جعل الآخرين يروونه محرضاً في إثارة هذا السلام.

يولد الإنسان الفلسطيني من جديد بفعل الحب والانتماء لهذا الوطن، ومن مدينة القدس يستعيد الفلسطيني ذكريات الوطن الجريح، والهجمة الشرسة عليه من قبل العدو الصهيوني.

هـلـلـي مـعـنـا مـلـكـ الحـب  
لـكـ المـجـد .. المـجـد لـك  
أيهـمـا الحـبـي البـاقـي  
باركـ قـيـامـتـنا. باركـ وجـدنا المـقـيم كـرومـك  
خـبـة بـائـسـة المـسـتـحـلة بالحـياة  
لنـشـهر مـيـلـادنا. مـن مـأـذـن القـدس وجـرسـياتـها  
وفي أعـالي صـبـانـا الزـاخـر يـك  
نـسـتـعـيد الذـكـريـات عـلى صـفـاف دجـلة  
أينـها المـتـبـسـطة في زحـام الأـرض  
لـمـأـذا كـنـت بـعـد كـل هـذا المـجـد؟<sup>(1)</sup>

وفق القاسم في اختياره لفظ منذنة، فهي مكان "علوي رأسي" — ودلالاتها الروحية تفوق أي اعتبار آخر<sup>(2)</sup>، وكذلك لفظ (جرسيات)، فهو طافح بالدلالة الروحية، وذلك ليستمد المناضل من هذه الأماكن الدينية القوة، ولتمنحه الإيمان بأن هذا الوضع المأساوي في فلسطين لن يدوم. نشعر الباحثة بوجود القوة المدمرة، قوة التناثر خلف عبارة (صفاف دجلة)، ولعل الشاعر قد وفق في هذا التكتيف الشعري، فمن خلال هذه العبارة، يستحضر المتلقي الهجمة الشرسة للتناثر على مدينة بغداد، وتكون صورة العدو الصهيوني في فلسطين صورة ممتدة لها.

القدس جريحة متألمة، تهز الضمائر العربية وتستنصرها لكي تستيقظ، عليها تتقدها من أسر الاحتلال، ولكن لا أمل في هذا الشعب العربي، الذي اعتاد الذل والهوان من حكامه، ولا ينف مع القدس في محتنتها سوى أنفائها الثائرين، للمتمردين الذين اختاروا طريق النضال،

(1) عبد الله عوض الخياص، القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين وأثر ذلك في القرن العشرين (1900-1984م) في شعر والفصيح والرواية والمسرحية، 76.

(2) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 2/ 281.

(3) مختار علي أبو عاتي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، 40، 41.

والفلاح المسلح، لعودة هذه الحبيبة إلى أهلها، فالقدس تنتظر بأمل إلى محبوبها الذي سيعيد لها ماضيها المجيد، وسيحدد حاضرها، وسيستشرف مستقبلها، ولئن يخل عليها بحياته، والقاسم يدين الأمة العربية وحكامها الذين لم يبقوا مع القدس الوقفة الجادة.

وشعب على المسرة والخسرة معا  
وللقاسم جرح يهز الجمانر .. ما من ضماير!  
تذريني يا أم واسترسلي جثة هي كثير  
تذريني ليأسي وعزمي  
وقوسي وسهمي  
وبأسي وغمي  
إحنا جرموني الحبيب. فإنني المحب وإنني الحبيب  
وما جئ وحاضر  
وعستقبل في غيابة هذا الزمان المضمار  
"يعني وقولي بعيد ما شئت، إنني  
سيغدي بنصفي مرة فأنغيب"<sup>(1)</sup>

تظهر القدس مكانا محزنا، يدعو أبناءه لاتخاذ موقف حاسم تجاه أعدائه، وقد وظف القاسم القناع وهو 'حالة من التماهي أو التلبس بشخصية أخرى، تختلي فيها شخصية الشاعر، وتطلق خلال النص بديلاً منه'<sup>(2)</sup>، فقد تفتح الشاعر بشخصية استعدها من التراث الأدبي وهي شخصية الشنفرى، "وقد جعل منه سمح القاسم رمزاً معادلاً للإنسان الفلسطيني بمعاناته وأشواقه، وموقف العالم منه"<sup>(3)</sup>، ولعل التمرد والثورة على الواقع المعيش هما أهم الملامح المشتركة بين الشنفرى الجاهلي والشعب الفلسطيني، وقد وفق القاسم في قناعه، فلا يلمح المتلقي سوى الشنفرى الجاهلي ولغته البدوية، الجزلة الأنفاظ.  
وقد ضمن الشاعر بيتاً للشنفرى<sup>(4)</sup> جاء ملتجماً مع بقية المقطع، وكأنه من نظم القاسم، وهذا يدل على قدرة الشاعر على تطويع لغته، ومرونتها في يده.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 386.

(2) سامح الرواشدة، القناع في الشعر العربي الحديث (دراسة في النظرية والتطبيق)، 10.

(3) خالد الكركي، الرموز شرقية العربية في شعر العربي الحديث، 45.

(\*) البيت الذي صممه الشاعر هو:

سيغدي بنصفي بعيد ما شئت إنني  
الشنفرى، ديوان، 37.

والقدس تنتحب وتستغيت، لعل أحداً من حكام العرب، يقف إلى جانبها في محتنها الأليمة، ولكن أتى لها ذلك، فحكام العرب قد باعوا شعبهم، وقضية فلسطين في سبيل السير تحت لواء القوى الطاغية، ليحافظوا على زعامتهم وملكهم، وقد شغل هؤلاء الحكام بالإسراف في الملتذات، ولم تعد هذه المدينة ذات بال لديهم، وبخلهم عن مدينة القدس فقدوا الكرامة والخوة والأصالة، ولكنهم ظلوا يمتلكون سلاحاً وحيداً وهو الخطب، فأى قوة يمتلكون؟!؟

للأجنبي ارتجخوا قريبى على جبهـ  
تقل فينا مع الأيام قلتنا  
قصورهم في ليالي الأنس راقصة  
وشمالووق وقصداً بتنا خوابيهم  
---  
لا يارك الله في خلقٍ إذا صفعوا  
وقيل: ما الوجد؟.. رجعت عنهم الخطب<sup>(1)</sup>

جاءت القدس في هذه الأبيات الشعرية، أرضية صلبة انطلق منها القاسم لمحاكمة الحكام العرب وإذنتهم وتعبيرتهم، وقد وظف المفارقة التصويرية<sup>(\*)</sup> في البيت الثالث لهذا الهدف، وقد وفق القاسم عندما جعل صوت الأغاني أعلى من صوت النحيب، فكأنه قد تغلغل فى نفسية هؤلاء الحكام العرب، الذين يعمدون إلى إسكات صوت الضمير

وللقدس جرح يهز الضمائر ... ما من ضمائر<sup>(2)</sup>

فقد ضاعت الضمائر يوم ضاعت القدس

ومرة سمعت  
مغنياً مهاجر  
يرجح: يا ضمائر  
أضعت يوم ضعت؟<sup>(3)</sup>

والقدس عروس تحمس خطوات الشعب العربي عليها تسمع تلك الخطوات وتطمئن لقرب خلاصها، ولكن خيبة الأمل تسيطر على هذه المدينة، فهي تتكظر طويلاً ولكن لا أحد قائم.

(1) ممدوح القاسم، المعامل والمعامله أخرى، 89، 90.

(\*) المفارقة التصويرية: فكيف في بيئة مع الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متكافئين، بينهما نوع من التناقض على

عشر ي (د)، عن نساء القصيدة العربية الحديثة، 137.

(2) ممدوح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 386.

(3) نفسه، 1/ 145.

أرى تحت جُئح الجباب خيولاً تخب بفرسانها  
 الجادعين  
 وما من صهيل وما من صليل.. ولا يحزنون  
 وفي بهرة الشمس أسمع جلبة خلق كثير. يهز هجير  
 السرايا جهات بصي المتحفز. ألهته من قلب قلبي،  
 انهضي يا عروسي. انهضي يا يهوسي. انهضي. إنهم  
 قادمون!  
 اعطي لأفواجهم أنجم الورد والرز .. لكنهم يخفون..  
 فما من صفوف وما من سيوف وما من عروس وما  
 من ييوس وما من وجوه وما من شمس وما من  
 ظلال.. ولا يحزنون..<sup>(1)</sup>

يدين القسم الأمة العربية، ويستكر موقفها الانزامي السلبي تجاه هذه المدينة، ويوظف الشاعر التراث الشعبي وذلك بالإشارة إلى العادات والتقاليد التي تستقبل بها المدن الفاتحين، وذلك (بالورد والرز)، ويستخدم التعبير العامي (ولا يحزنون) أثناء شعوره بالآلم والحسرة لضياع الأمل بتحريك الأمة العربية، والقاسم يستخدم لغة تتقاطع مع اللغة العادية لتخاطب جمهوراً عريضاً من أقصر الطرق<sup>(2)</sup>.

اتكأ الشاعر على الصور الجزئية المفصلة بالألوان والأصوات والحركات، وقد نجح في سلب الصورة الشعرية الصوت الفاعل وذلك من خلال عبارة (وما من صهيل وما من صليل)، وذلك ليؤكد عجز الأمة العربية وانكسارها، وعدم قدرتها على الدفاع عن مدينة القدس.

تغني الأمة العربية بفتح بيت المقدس، وتمجد انتصاراتها وفتحاتها الماضية، ولكنها في الحاضر تعاني الضعف والانتهزامات المتوالية.

في القلب صلاح الدين  
 في القلب صلاح الدين  
 غنينا .. ونغني مجد الأمجاد  
 والسيوف النافر من كسل الأغمار  
 ونغني بيت المقدس ونغني حطين

(1) صبح القاسم، كمة للفيد في مهرجان نابغة، مريضة، 42، 43.

(2) أحمد موسى الخطيب ومحمد صالح الشلطي، طواهر حنينة في شعر المقاومة شعر أحمد الرسوي نموذجاً، 57





---  
 يولد في الجزائر  
 يولد في الكتانة  
 ويرجع الأمانة،  
 نائرة وثائر  
 وطفلة جميلة  
 تلعب تحت الشمس  
 لو سئلت عن اسمها  
 ردت: أنا اسمي القديس  
 ورتت: اسمي القديس ..  
 ورتت: اسمي القديس .. (1)

اختار القاسم شخصية الحجاج النقي لتكون معادلاً موضوعياً للثائر العربي، الذي سيعيد  
 القدس إلى الأمة العربية، وكأن القاسم من خلال هذا المقطع يمني لو يوجد هذا النقي،  
 والصورة الرئيسة التي ظهرت في المقطع، يتألق فيها عنصر اللون (الشمس) والحركة  
 (تلعب)، وذلك ليشير إلى ملامح التفاؤل والاستبشار بمستقبل جديد لهذه المدينة، وليس أدل على  
 ذلك من اختياره لفظ (طفلة).  
 وقد قرن القدس بالشمس لتكثيف معنى الحرية الذي يمتناه انشاعر للمدينة.  
 ولعل تكراره عبارة (أنا اسمي القديس) أكثر من مرة، للتأكيد على وجود الكيان العربي  
 في هذه المدينة.

ومدينة القدس هي الفاتحة للانتصارات، هكذا يراها المناضل الفلسطيني، ويستحق  
 الانتصارات في المستقبل، وستحيا القدس كما كانت في الماضي المجيد.

أصبح فيك الفاتح  
 عدي يصير البارحة.. (2)

وفق القاسم في استخدامه الطباق يُعيد ذلك الماضي المجيد، الذي يمني لو يصير غده.  
 فالقاسم يريد أن يمتد ماضي القدس الحضاري، ويتمدد في الحاضر بل وفي المستقبل  
 أيضاً، فتكون القدس مكاناً يثبت فيه الزمان.

(1) صبح القاسم، فولاچ، 40، 41.

(2) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 147.

ومن مدينة القدس، ومن ساحة الأقصى المبارك، ستطلق كلمة السر، ستشتعل الثورة وسيبسط الشهداء دفاعاً عن هذه المدينة وعن هذا الوطن، وستفتح فلسطين أبوابها المغلقة لشعبها، وستشكل الدولة الفلسطينية بلامح خاصة مميزة، تستقيها من الطبيعة الفلسطينية ذات الأصالة.

باب المغارة موهج  
سقوط نيازكي في ساحة الأقصى المبارك  
كلمة السر الإخبارية  
جولتي شغفي بسنبلة تميز على انبهار الفجر  
أعلاعي السنوات  
خفق الريح في الزيتون والسرير  
كأق نسيجي القومي من أزل  
إلى أبدي يظل نسيجي القومي  
أبائي البياض  
والمحاضر  
والقناطر<sup>(1)</sup>

تبدو القدس مكاناً متحركاً، متفاعلاً مع الحدث، ومثيراً الآخرين للتحرك، وقد ربط القاسم بين الثورة وساحة الأقصى، لتكون الثورة مباركة مقدسة، قدسية هذا المكان، ويختلط البعد المياسي/ الوطني لهذه المدينة مع البعد الديني، يتفاعلان معاً ليشكل الأرضية التي ستطلق منها الشرارة.

اتكأ القاسم على الموروث الشعبي، فوظف قصة من قصص ألف ليلة وليلة المليئة بالمخزون الشعبي وهي قصة (علي بابا والأربعين حرامي)<sup>(2)</sup> ليشير بها إلى الواقع الذي تحياه فلسطين في عهد الاحتلال، وقد وفق القاسم في توظيفه لفظي (المغارة وكلمة السر) ليكونا المفتاح الذي يصل به المتلقي إلى تلك القصة.

ويسمع المتلقي صوت علي بابا الفلسطيني وهو يقص حكايته مع ذلك المحتل، وتوجهه إلى قيام دولته.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 112، 113.

(\*) هذه القصة غير موجودة في طبعات ألف ليلة وليلة لخرين، وهي موجودة في ترجمتها الأجنبية وبصورة خاصة ترجمة أنطوان جيلان إلى الفرنسية. انظر فاروق سعد، من وهي ألف ليلة وليلة، م/1، 296.

وقد وظف الشاعر في هذا المقطع معجم الطبيعة، وكان الهدف هو تعميق وجود الإنسان الفلسطيني بهذه الأرض والاتصاق بها، وحامت الفضة دالة على التفاؤل والأمل، وكان الحياة تنبض في هذه الدونة، وذلك لأنها من دماء هؤلاء الشهداء الفلسطينيين.

والقدس تبث أبناءها النبوءة، فهي تؤمن بالمستقبل وترى الحرية قدراها.

يا قوم لوط ويا قومي أقول لكم      أرى بقلبي أرى باللمس والنظر  
أرجن العجائب لم تنسني عجائبها      ولا تنكر عفو الله للعجائب  
وتهمس القدس في قلبي نبوءتها      ويشمس القلب .. ميعاداً مع القدر<sup>(1)</sup>

وظف القاصم الانزياح الدلالي في عبارة (أرض العجائب)، ليعطي المكان قوة أسطورية، ليحتضن تلك الحدث العجيب الذي سيطلق من أرض فلسطين وهو «الانتفاضة».

وقد وفق الشاعر في استخدام عبارة (وتهمس القدس في قلبي)، فربط الهمس بالقلب، لكي يكون الهمس محسوساً، فيكون أكثر وقعا في النفس، وهذه العبارة تعكس العلاقة الحميمة بين الإنسان الفلسطيني ومتينة القدس.

والقدس تبعث الأمل في نفوس الفلسطينيين، وتمسح الحزن عن أعماقهم، وتخفف الثقة في حركاتهم الضمالية، وهي ترى الحرية تسطع في سماء الوطن بعودة الأبناء إلى فلسطين، وعودة المدن الفلسطينية إلى أهلها الشرعيين.

#### بذات يوم

كأن في غمرة صبر وحسين  
بذات يوم، كأن موال حزين  
يشعل النكبة في كل خيام اللاجئين

#### بذات يوم

كأن في القدس حصار ينشجون؛  
راجعون .. راجعون .. راجعون؛  
هلولوا<sup>(2)</sup>

(1) صريح القاصم، المعتل وفصائد أخرى، 13.

(2) صريح القاصم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 1/ 137.

تظهر القدس مكاناً محرضاً ذا بعد وطني، تحرض أبنائها على العودة، فالرجوع إلى الوطن هاجس يسيطر على القاسم، وكأنه يتكرّره لفظ (راجعون) ثلاث مرات يؤكد التحام الخارج بالداخل، ويرى تلك العودة وكأنها قد تحققت.

ولعل القاسم قد أنطق الصغار، ليشير إلى أن الجيل الجديد هو الأمل، هو الخلاص بإعادة هذا الوطن الملبى إلى أهله، وقد استوحى القاسم من التوراة لفظ يدل على القداسة، وهو لفظ (هللوا)، لتكون العودة إلى الديار مباركة ومقدسة من الرب.

والقدس والقاهرة تتحدان معاً لتغنيا لتلك العودة

سياتوق من مطلع الشمس

راياتهم تتوهج في قبض تموز

ياتوق بالبهجة القاهرة

وسوف تغني لمقدماتهم

عامة القدس والقاهرة<sup>(1)</sup>

تظهر القدس مكاناً متفاعلاً مع الأوضاع السياسية، ولعل القاسم يشير في هذا المقطع إلى عودة المناضلين الفلسطينيين في شهر تموز عام 1994 إلى الأرض الفلسطينية. وجاءت الصورة مشرقة موحية بالتفاؤل والأمل والبعث، وقد جاءت الألفاظ متلائمة مع الحالة النفسية للقاسم، فاعتمد على محمّ التفاضل، وبث في الصورة عناصر اللون والحركة والصوت فجاءت نابضة بالحياة.

وفق القاسم في اختياره لفظ تموز، ف جاء محملاً بدلالة العودة إلى الوطن، وحمله أيضاً المحور العام لأسطورة تموز<sup>(2)</sup>، وهي البعث، فالقاسم يؤمن بأن الفلسطيني العائد، سيبعث فلسطين من جديد بعودته إليها.

وقد ألح في هذا المقطع على الأفعال المضارعة ليدل بها على الحركة والتجدد، ول يؤكد أن مستقبل الإنسان الفلسطيني سيجده في وطنه وعلى أرضه.

القدس فرحة، مستبشرة بالمستقبل، مؤمنة بالنصر، مؤمنة بوجود القادي المخلص السذي

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/4/ 195.

(\*) تموز هو النموذج الأصلي لجميع آلهة الحياة النباتية، الذي يموت ثم يبعث ثانية مع ولادة الفاتت في اربيع، لظفي الخوري،

معجم الأساطير، ج 1/ 202

يناضل من أجلها، ويعمل جاهداً لكأسرها، وستحرر هذه المدينة وسيفرح الشعب بهذا النصر وذلك التحرير.

أدري  
فهل تروى  
عبرك سوف الشمس  
مائدة عامرة وعرس  
وامرأة تنشد:  
"اسمي القديس"<sup>(1)</sup>

فالقديس هي البؤرة في صورة القاسم الشعرية، وتحريرها هو الذي ينشر ضلاله في عناصر الصورة، فتأتي محملة بالتناؤل والثقة بالمستقبل، وقد اختلعت في هذه الصورة الألوان والأصوات لتكون مفعمة بالحياة.

وظف القاسم الموروث الديني المسيحي، فأشار إلى مائدة السيد المسيح<sup>(2)</sup>، ويلمح المثقفي في تبدأ الصورة الشعرية المسيح، المعادل الموضوعي للفدائي الفلسطيني، الذي سيكون له دور في تحرير هذه المدينة.

وقد جاء الاستفهام لتأكيد الرؤية الإيجابية المشرقة التي يحملها القاسم، ويصر على جعلها واقعاً ملموساً في عقل الفلسطيني، ليكون قادراً على تحقيقها.

وستشرق شمس الحرية في مدينة القدس، وستسمع فيها الصلاة، وتشم رائحة الخور في كنائسها، والقرابين في أسواقها، وسيعود الأمن والهدوء إلى هذه المدينة، وتخيم البهجة والسعادة على أرجاء هذا المكان، وذلك بفضل الانتفاضة الفلسطينية التي وحدت المدن الفلسطينية وجعلتها كياناً صلياً قوياً يقابل الكيان الصهيوني.

تقدّمت أبواب جينين ونابلس  
أنت نوافذ القدس بحلّة الشمس  
والبحر والربور والتوابل  
تقدّمت تقاقل!  
تقدّمت تقاقل!<sup>(3)</sup>

(1) سميح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/2، 335، 336.

(2) متى، إصحاح 26، 20-30.

(3) سميح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3، 270.

تبدو القدس في هذا المقطع مكاناً سياسياً يحرض على التضال، وينتظر رد الفعل، فتكون الانتفاضة التي سجني منها مدينة القدس ثمرة الحرية، وقد ركز القاسم على الأفعال في هذا المقطع الشعري، لتدل على الحركة والنمو ومسيرة الحدث، ولعل الانزياح الدلالي في عبارة (صلاة الشمس) تؤكد أن الحرية مقدسة، لذلك لا بد من الاستمرار في الانتفاضة الفلسطينية للوصول إليها.

وفق القاسم في اختياره لفظ (نوافذ)، فالتوافذ مفتوحة على الخارج، والقدس تراقب المدن الفلسطينية التي تقاثل من أجلها.

وقد وظف التكرار الرأسي في عبارة (تقدمت تقاثل) ليؤكد على فكرة الانتفاضة والاستمرار فيها.

ومن خلال هذا المقطع، يستشعر المتلقي بقداسة هذا المكان، وعيق التاريخ المنبعث من جنباته.

ومدينة القدس تحيي الفلسطينيين العائدين

ههنا .. يا ههنا!

إلى عرسنا .. أولاً

إلى شمسنا .. أولاً ..

إلى قهقهتنا .. أولاً ..

ههنا .. يا ههنا ..

بأنبيئ

أسود

أخضر

أحمر

طعام الشهيدة يكفي شهيدتين

والله أكبر

الله أكبر

الله .. أكبر،<sup>(1)</sup>

هذه هي مدينة القدس في شعر القاسم، ويمكن ملاحظة النقاط التالية:

(1) سمح القاسم، أرض مروعة، هزبر كاسد، لا بأس (فضائل)، 95.

- ركز القاسم على أبعاد المدينة الدينية والحضارية والاجتماعية والسياسية، وقد طغى البعد السياسي لهذه المدينة على معظم الأبعاد، وذلك لأن القضية الأساسية التي احتلت فكر الشاعر هي قضية الوطن، ومصير هذه المدينة المتنازع عليها، ولهذا فقد جاءت في مواضع كثيرة من شعره تحمل وجه الوطن والأرض والإنسان.
- اهتم الشاعر بخصوصيات المكان في هذه المدينة، فظهرت الأقصى وكنيسة القيامة والقناطر وباب المغاربة وحارة اليهود، فهذه الجزئيات تشكل الملامح الخاصة للمدينة، وتشي ببعد من أبعادها.
- جاءت المحاور التي تناولت مدينة القدس متداخلة ومتشابكة يصعب التفصل بينها، وكان التركيز منصّباً على سقوط المدينة بيد الاحتلال، فسقوط القدس يعني سقوط المدن الفلسطينية جميعاً، وقد انطلق من هذا المحور ليحفز الفلسطيني على استعادتها وعدم التفرط بها، ولتوجيه اللوم والإدانة للأمة العربية التي كانت سبباً في ضياعها.
- تحدث القاسم عن حاضر المدينة المقدسة وركز على مستقبلها، لبث الثقة في نفوس الفلسطينيين بغد جديد لمدينة القدس، تسطع فيه الحرية.
- قرن القاسم مدينة القدس في أكثر من موضع بالشَّمْس وذلك لإيمانه بأن الحرية ستسطع في سماء هذه المدينة.
- ارتبطت مدينة القدس في شعر القاسم بالتاريخ، من خلال استحضاره شخصية كل من عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي والحجاج، وبالأحداث التاريخية كمعركة حطين، وبالدين من خلال شخصية المسيح، ومفهوم الصليب، وبالأدب من خلال شخصية الشنفرى، وبالأسطورة من خلال التركيز على أسطوريّ تموز والعنقاء، وبالموروث الشعبي من خلال توظيفه حكاية علي بابا والأربعين حرامي، وبساط الريح، ومن خلال ارتباط القدس بهذا الموروث استطاع القاسم أن يربط الماضي بالحاضر، ويستشرف المستقبل، وقد أدان من خلاله الواقع الاتهامي الذي تحياه الأمة العربية.
- ومن الجدير بالذكر، أن المقاطع الشعرية التي وردت في هذه الدراسة ولم يذكر فيها اسم مدينة القدس قد أخذت من قصائد(\*) تتحدث عن هذه المدينة.

(\*) انظر سميج القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/44، ج3/42، ج3/385.

وبهذا بدت القدس المدينة التي شغلت القاسم، وأرقته، غير أن أحد الباحثين يرى أن هذه المدينة لم تشغل قلب وعقل شعراء الأرض المحتلة، وفي مقدمتهم محمود درويش، وأن كثيرين جاروه في هذا الإسهال، وفي مقدمة المجارين سميح القاسم وتوفيق زياد، وهو يرى بأنهم شغلوا بالوطن ككل، وهو ينوهم على وقوفهم الحار عند عدد كبير من مدن العالم بحرارة وانبهار وحب، مع أنه كان بإمكانهم أن يتعاملوا مع مدينة القدس كرمز، وأن توضع فيما يسمى بدائرة توظيف التراث، لإثراء تجربة من التجارب، وحزن من الأحزان<sup>(1)</sup>.

وترى الباحثة أن محمد عبده بدوي قد كتب هذا الرأي قبل أن يصدر سميح القاسم قصيدته (أخذه الأمير بيوم)<sup>(2)</sup>، هذه القصيدة التي تظهر رؤية مميزة لهذه المدينة.

## حيثما الانتماء المقلق

تناول القاسم مدينة حيفا في شعره من خلال وجهين، أحدهما جاء قائماً، وفيه تحدث الشاعر عن سياسة المحتل الصهيوني في هذه المدينة، وحملته الشرسة للتقسيم على الوجود العربي فيها، وطمس معالمها وهويتها الفلسطينية، وإظهار ملاحه الشاحبة في هذا الجزء من الوطن، تثبيثاً لوجوده في هذه الأرض.

وقد ركز القاسم على هذا الوجه، لأنه الهم الذي يثقله، فهو يرى أن العدو الصهيوني يسعى بكل ما لديه من قوة لتهويد المدن الفلسطينية، لتكون صورة عنه.

ومن خلال هذا الوجه استنكر الشاعر سياسة المحتل وأداتها، ودع الشعب العربي جميعاً لإدانتها.

أما الوجه الآخر فقد بدا مشرقاً، ظهرت فيه حيفا مشاركة للأمة العربية قضايها وهمومها الوطنية، حيفا مبتهجة بالإنجازات التي حققتها تلك الأمة، وهي قلقة على أبناء الشعب المصري في حربهم مع المحتل الصهيوني، وذلك في حرب أكتوبر 1973، ومن خلال هذا الوجه، أكد القاسم أن الأمة العربية تربطها وشائج عديدة، وأنها تواجه مصيراً واحداً، وخطراً واحداً، لذا لا بد من الاعتماد معاً، لتكون المواجهة أقوى وأشد تأثيراً.

(1) انظر محمد عبده بدوي، الشاعر والمدينة في العصر الحديث، عالم الفكر، م 19، ج 3، 1988، 194.

(2) هذه القصيدة صدرت عام 1990.



حيفا وجه الوطن، يجده الإنسان الفلسطيني في كل مكان يلجأ إليه فهي تتمدد في داخله،  
وتحجب عنه المدن الأخرى، فهي الانتماء الذي يسيطر عليه ويقلقه، ويشعره بالغربة في أي  
مكان خارج الوطن.

والقاسم يدين ترك الوطن، مثيلاً إلى خروج صديقه محمود درويش من فلسطين إلى  
بيروت، وهو يلجأ على أن يبقى الفلسطيني متجنساً في أرضه، لأن الانتماء لها، هو أول خطوة  
في مواجهة العدو الصهيوني.

لبيروت وجهاً

وجه لحيفا

ونحن صديقان

سجناً ومنفى<sup>(1)</sup>

وفي محطة حيفا القديمة، يودع القاسم الفتاة البريطانية "كارولان" التي تمثل الوجه  
المشرق للإنسان العربي المتحضر، المؤمن بقضيته الإنسان وحقوقه، والمهتم بشؤون العالم  
الثالث، و الحريص على أن تتحقق العدالة.

هكذا الكلام، خلاصة حزني على كارولان

الجميلة

ساعة وجعها في محطة حيفا القديمة.

....

كارولان

إنجليزية بـ جـ واز سـ فـ

وكـ يسـ لزيتـ ها و خرائطـ ها

وكتابـ عن العالم الثالث المتحضر<sup>(2)</sup>

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 2/ 445

(2) نفسه، ج 4/ 279، 280.

وقد استحضّر القاسم في هذا المقطع محطة حيفا<sup>(\*)</sup>، ليوّكد الدور الحضاري الذي شهدته هذه المدينة، في فترة من فترات تاريخها بسبب ذلك المكان.

حيفا في عهد الاحتلال البريطاني<sup>(\*\*)</sup>، لا يُسمع في أنحائها، سوى طلقات الرشاشات، وصوت حظر التجول، ودوي الغارات الجوية النازية، وقد دفع أهلها ضريبة ذلك الواقع المفروض عليها، والقاسم يدين ويستكر سياسة الاحتلال البريطاني في هذه المدينة، وفي الوقت ذاته يظهر مشاعر الحزن والألم على أهلها الأبرياء.

ولما رُفعت صفارة الإنذار ونجحت  
إيماناً بالغارة النازية المسائية  
صغرت أوامر الجنرال السيرجوخ هاورث يثش  
وانطلقت رشاشات ستينغن وتوميكس  
لحظر التجول وحفظ النظام  
مع رعشات أذهار البرقوق البرية  
كانت طليارة الورق عائمة في أثير الساحل الغربي  
أو لعالمه بالوُ برتقالي  
ينقذه نحو الله، طفل من مجينة اسمها حيفا<sup>(1)</sup>

اتسعت حيفا في هذا المقطع، لتشمل المدن الفلسطينية التي وقعت بين المطرقة والسندان، مطرقة الاحتلال البريطاني، وسندان الغارات النازية، وقد كانت حيفا/ المدينة الفلسطينية، هي الأرضية التي استقبلت الفعل ورد الفعل، ودقعت الثمن، دون أن يكون لها أي مصلحة في هذه النزاعات، وهذه إشارة من القاسم إلى الوضع المهين الذي تحياه الأمة العربية، فهي غير قادرة على الوقوف أمام هذا المحتل، لإنقاذ الوطن من قيده.

اتكأ القاسم في هذا المقطع على إعطاء صورتين، الأولى سمعية، وهي "قد تغتو أسهل على التلقي والتذكر، فالشاعر الذي يمتلك حساسية خاصة تجاه أصوات الحياة، ويستطيع تمثيلها في صور سمعية، يكون في موضع متميز دائماً"<sup>(2)</sup>، وقد جاءت هذه الصورة مصلية بالنبذات

(\*) دخلت حيفا في عصر جديد، منذ صارت محطة لخط الحجازي، واتصلت بدمشق وحران وشرقي الأردن، وهذا الاتصال صيرها ميلاً، تصدر منه حروب هذه الأقاليم، ويذلل إليها بواسطة كل ما يلزمها من البوار الأوروبية والأمريكية، فطر

مصطفى مراد داياغ بلاتنا فلسطين، ج 7، 2، 332.

(\*\*) احتل البريطانيون حيفا في 1918/09/23، انظر لارفاي وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، 2/ 303.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 4، 87، 88.

(2) سمي الحضراء الجيوسى، الاتجاهات والتمركز في شعر العربي الحديث، 738، 739.

الصوتية، من خلال زعقة صفارة الإنذار، وصوت الجنرال، وصوت الرماشات، تداخلت هذه الأصوات معاً، وانطلقت في أفق حيفا، فكان صداها قويا في نفوس أبناء هذه المدينة، وكانت تحمل إشارة لما سيحل بهذا المكان.

وتأتي الصورة الثانية البصرية، لتؤكد حدوث الغرة النازية، وقد وفق الشاعر في عرض هاتين الصورتين، لإحداث المفارقة بين قسوة الاحتلال البريطاني وبطشه، وبين ضعف وبراءة أهل هذه المدينة، وهي الضحية التي دفعت ثمن جرائم المحتل، دون أن يكون لذلك أي مبرر.

وقد لمس القاسم خوف أبناء حيفا، وشعر بمأساتهم، من خلال الصورة الحركية واللونية (من رعشات أزهار البرقوق البرية)، ولعل القاسم قد وظف الطبيعة في هذه الصورة (أزهار البرقوق البرية)، ليؤكد أن أبناء الوطن متجذرون فيه، بالرغم مما يكابتون من قسوة الاحتلال.

وتستشعر الباحثة من خلال السطر الشعري (ينقذك نحو الله طفل من مدينة اسمها حيفا)، أن القاسم بوجه لوماً إلى الله على وضع هذه المدينة المأساوي، فكانه يعرض تلك الجرائم أمام الله، الذي لم يفعل شيئاً لإنقاذ المدينة، وإن كان اللوم حقاً، فهذا ما لا يجب أن يصدر عن القاسم، فاللوم يقع على عاتق الأمة العربية، التي تركت هذا الوطن يجابه مأساته وحيدا، وكذلك على عاتق من غادر هذا الوطن من أبنائه إلى مكان قد يشعر فيه بالأمان.

مدينة حيفا تشعر بالألم والحزن والخوف، وتتسع مساحة هذه الأحاسيس، لشعورها بالعجز عن الخروج من دائرة السيطرة التي أحاطها بها العدو الصهيوني، إلى دائرة التمرد والرفض، والوقوف في وجه ذلك المحتل.

في صخرة الجرانيت الليلية الهائلة  
حفرها مدينة .. واسمها حيفا  
في جـوف صـخرتها  
ترتـمـد حـيـفاً كـيـونـاتـان  
وتمارس رعبها كالعاجلة السرية  
المنهوء الوجـه المسـانـح  
هو البرق الحيّ تشعله في كهوف الروح  
بمفارقة الإنذار الوجـهـشـية<sup>(٤)</sup>

بدأت المدينة مستسلمة لسياسة المحتل الصهيوني، وإجرائاته القمعية بحقها، ولعل القاسم قد قصص إظهار هذه المدينة بهذه الصورة الإنهزامية المؤلمة، ليحمل الأمة العربية مسؤولية ذلك الانهزام، عليها تتحرك، وتتخذ الموقف المناسب.

انتكأ الشاعر في هذا المقطع على الصور المفردة، لإظهار قدرة المحتل على التحكم في هذا المكان، وقد جاءت هذه الصور معتمدة على عناصر اللون والصوت والحركة، لتكون أكثر وقعا وتأثيراً في نفسية من يقرأها، فيشعر بقبح صورة العدو، وضعف هذه المدينة، مما يحفزها على الوقوف إلى جانبها، ومشاركتها وجدانياً فيما تتعرض له من قسوة المحتل.

وقد كان القاسم في هذا المقطع القدرة على اختيار الألفاظ فقد بدأ المقطع بلفظ يشعر بالقسوة وهو (صخرة)، وازداد هذا اللفظ صلابة وظلمة من خلال إضافته إلى لفظ (الجرانيت)، وقد اتسعت مساحة الظلمة، بنعت الجرانيت بلفظ (الليبية)، وبهذا السطر يكون القاسم قد هبأ أرضية القصيدة، لاستقبال حدث قائم، وهو خضوع حيفا لسيطرة المحتل، وتوسع دالة الظلمة، من خلال عبارة (جوف صخرتها)، وقد وفق القاسم في اختيار هذه العبارة، ليؤكد أن حيفا وحيدة في مجابهتها للمحتل.

ويزداد المقطع ظلمة بكلمتي (الضوء والبرق)، فقد سلّبهما القاسم دلالتيهما الإيجابية المشرقة، لأنه ربطهما بالمحتل، وجعلهما يصدران عنه، فالضوء والبرق ينبعثان في سماء حيفا، من خلال صفارة الإنذار التي يطلقها العدو، ويأتي هذا الصوت ليؤكد السياسة القمعية لسلطات الاحتلال الصهيوني في هذه المدينة وفي هذا الوطن.

حيفا، مدينة الجبل الساحلي، تخضع لهجمة شرسة من قبل المحتل الصهيوني، الذي يصبر على سحق كيانها العربي، وإلغاء هويتها الفلسطينية، ولامحها القومية، وقطع جذورها العربية والإسلامية، وهو يشن هذه الحملة رافع شعار التعايش السلمي. والقاسم يدين ويستنكر سياسة تهويد المدن الفلسطينية.

لا بد لي من أريصة جدران وسقف ومجسدية

في مدينة الجبل الساحلي

حيث ترتفع عمارة شريكة 'صيم' للملاحة

في تعايش سلمي تام

مع أنقاض مسجد مجاور مهال

لم يبق منه سوى منكنة متصدعة

----

نستأجر غرفة متواضعة في ماكونك الفخم

----

نقرع الجرس الكهربائي الطازج

المتطفل على منزل الحجر القديم

ياقواسه المرببة الجميلة كالنجا (م)

تشق الباب المستور بالفورمايكا الباب فضيحة قديمة

سيجة أجنبية

لن يجرؤ مخلوق على الزعم

باتها متناسقة مع الأقواس الجميلة

يهمس لي الروح الفاقع تحت ملاقط الشعر

"إيجار الغرفة 200 ليرة

إنت شاب جميل

إيجار الغرفة 150 ليرة

لكنني أسفة

لا استطيع تأجير منزلي للعرب" (1)

بالرغم من أن القاسم لم يذكر اسم حيها في هذا المقطع، إلا أنها حضرت من خلال عبارة (مدينة الجبل الساحلي)، فحيها تريض "عند السفح الشمالي لجبل الكرمل" (2)، وقد جاءت هذه المدينة أيضاً، من خلال سياسة المحتل القمعية فيها، وإصراره على تغيير ملامحها، فقد ظهرت حيها الممتدة للعدو، من خلال (شركة صوم)، هذه الشركة التي تؤكد وجود الآخر (المحتل الصهيوني) في هذه المدينة وسيطرته عليها.

وتعكس حيها في هذا المقطع واقع المدن الفلسطينية التي سيطرت عليها يد الاحتلال سيطرة تامة، ولمست وجودها الحقيقي، فجاءت حيها تحمل خصوصية المدينة الفلسطينية فهي الداخل.

وقد نقل القاسم صورة دقيقة جزئياتها عن الواقع المأساوي الذي تحياه هذه المدينة، فالقاسم "من صميم الواقع ينطلق، من أدق التفاصيل الصعبة — إلى ما يبدو عادياً مألوفاً

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 74، 75.

(2) أحمد عبد الرحمن حمودة و خرون، موسوعة المدن الفلسطينية، 186.

فبيعت فيه روحاً جديدة<sup>(1)</sup>.

وقد وفق الشاعر في إظهار صورتين، إحداهما تظهر صورة العدو بلامحه في هذه المدينة، وتسيطر هذه الصورة على أرضية هذا المقطع، لتسي بيطرة العدو على هذا المكان، وتأتي الصورة الثانية صورة قائمة، تظهر فيها ملامح منهارة من الوجود العربي، في هذه المدينة، وقد وفق القاسم في الجمع بين هاتين الصورتين، لإظهار المفارقة التصويرية، فمدينة حيفا سلب وجهها العربي من قبل العدو، في حين ظهر وجه حيفا الآخر بلامحه الكالحة، ملامح العدو الصهيوني، وقد دعمت هذه المفارقة عبارة (في تعايش سلمي تام)، التي تحمل شحنة من الألم والمرارة والسخرية، من هذا الوضع القائم في هذه المدينة، وهي تشير إلى سياسة العدو التي يدعيها في الأرض المحتلة.

وفق القاسم في اختيار ألفاظه وعباراته في هذا المقطع، وقد "عمد إلى إثارة ما يرتبط بها من رصيد انفعالي"<sup>(2)</sup>، يؤكد الواقع المرير الذي تخضع له المدينة الفلسطينية، فالجرس الكهربائي يشي بوجود الآخر (العدو الصهيوني) في هذا المكان، وبالتالي يلغي وجود الفلسطيني، ومنزل الحجر القديم يؤكد أن هذا البيت/المكان/ المدينة كان من حق الفلسطيني، وقد أكد القاسم ملامح وهوية هذه المدينة العربية، من خلال عبارة (الأقواس العربية)، وفي المقابل جاءت عبارة كل من (سيدة أجنبية) و (يهس لي الروح الفاقع تحت ملاقط الشعر) لتؤكد وجود الغريب في هذه المدينة وسيطرته عليها.

وتستثمر الباحثة من خلال هذه العبارات، الألم والمرارة التي يعانيها الشاعر، ورفضه لحقيقة الوجود الصهيوني في المدينة، فهي المكان الذي ينتمي إليه، وهي المكان الذي شهد نشاطاته الثقافية والسياسية، وهي مكان عمله، فحيفا هي وجوده وهي وطنه.

وظف القاسم في هذا المقطع السرد والحوار لكي يجسم التجربة الذاتية الصرف في إطار موضوعي حسي وملمس<sup>(3)</sup>، فهو من خلال هذا المقطع ينقل تجربته الذاتية في البحث عن منزل في حيفا لاستنجاره<sup>(4)</sup>.

استخدم الشاعر اللغة الحادة المواجهة في عبارة (لا أستطيع تأجير منزلي للعرب)، فاللفظان منزلي والعرب، أظهر حقيقتة الوضع في هذه المدينة، وأكثا سيطرة الصهيونية على الأرض الفلسطينية.

ونتيجة هذا الوضع المتردي في هذه المدينة الفلسطينية، لا يجد الشاعر أمامه سوى

(1) أطول ثلاث، ممدوح لقمم من قنضب ثوري إلى النبوءة الثورية، 53.

(2) الممدوح لور في لغة الشعر العربي الحديث، ملامحتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، 161.

(3) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، فضاء وفؤاد، الفنية والمعنوية، 202.

(4) انظر ممدوح القاسم، عن المرفق والعت، حيشي وفحشني وشعري، 62، 64.

أذهب لانتحر تحت عجلات القطار  
 (مشي دهوراً)  
 أركضن أزحله ألهمث دهوراً  
 بحيثني من بعيد صغير القطار الوجيه<sup>(1)</sup>

ويصرخ بأعلى صوته

ليأت الحب .. لتأت الثورة  
 لبات الإحمر<sup>(2)</sup>

هذا هو طريق الخلاص عند القاسم، فالفكر الاشتراكي هو أول خطوة نحو التحرير، وتُخلص هذه الأرض من المحتل الصهيوني، والقاسم لا ينفي كونه واقعياً اشتراكياً<sup>(3)</sup>. ولكن هل الاشتراكية فقط هي طريق الخلاص من المحتل، وتحرير هذا الوطن السليب؟ قد يكون هذا الفكر دعامة من دعائم التحرير، ولكنه ليس القاعدة الرئيسة التي سينطلق منها الأبناء المناضلون لتحرير هذا الوطن، ستتدخل الأفكار والمبادئ، وستشكل القاعدة الوطنية التي سيطلق منها الفلسطينيون، في مواجهة المحتل الصهيوني.

حيفاً تدعم صمود أبناء الشعب المصري، في حريم ضد المحتل الصهيوني، وذلك في حرب حزيران عام 1967، فهذه المدينة ترى الأبطال المصريين وهم يسقطون على ثرى أرضهم، مستسلمين في النفاق عن وطنهم، وصد الهجوم الشرس عنه، ومدبّة حيفاً تشعر بالتواصل مع مصر، ويبني جسر من الالتحام الوجداني بين أبناء الشعبين الفلسطيني والمصري، قالهم المورق للوطن العربي هو الاحتلال الصهيوني. والقاسم يفخر بهذه البطولات، التي يحققها الشعب المصري ضد المحتل الغاصب، ويؤكد على وحدة المشاعر بين الفلسطينيين والمصريين.

وفي حيفا  
 رأيت جبينك المشجوج يا زهراً  
 رأيتك عند حد الضيق جسراً يا صلاح حسين  
 وصـدره يحمـل الشـارة

(1) سميح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 75.

(2) نفسه، ج4/ 76.

(3) انظر سميح القاسم، عن الموقف والفن، حياتي وقصتي وشعري، 56.

### وبست زُهيرة البرقوق، في صديدها<sup>(1)</sup>

اتكأ القاسم على الصور المفردة، وقد جاءت بصرية، يراها المتلقى ويشعر بالاندماج معها، وذلك من خلال الفعل (رأيت)، وقد ألح القاسم على هذا الفعل، وكأنه يريد التأكيد على أن هذه المشاهد حقيقية، وبهذا يؤكد تضاللات الشعب المصري وتمسكه بالأرض.

وقد استدعى الشاعر في هذا المقطع علمون (زهران، صلاح حسين)، ليشير بها إلى شخصية الإنسان المصري، المدافع عن أرضه المتمسك بها، ولعل حضور هذين العلمين أمد المقطع بشيء من الواقعية.

وتختزن عبارة (زهيرة البرقوق) دلالة موحية، من خلال ارتباطها بالطبيعة واللون، فالتحام الشهيد بالأرض هو الذي يدفعه إلى التضحية، فموته حياة للوطن.

وقد جاء اللفظ الحامي (بست) ليؤكد قرب القاسم من أبناء الشعب المصري، فهذا اللفظ يعكس الحالة النفسية التي يستشعرها القاسم تجاه تضاللات هذا الشعب، فهو فخور به، معتز ببطولاته، حريص على استمرارها، فالتصافه بينه وبين الشعب المصري تساوي صفراً.

حيفاً تشارك أسوان فرحتها ببناء السد العالي، وتلتحم المشاعر الوجدانية والوطنية بين الشعبين الفلسطيني والمصري، فهما تريان في هذا السد طريق الخلاص والتحرر من قيد التحكم والسيطرة الأجنبية، ومن خلال هذا الإنجاز الوطني، يستمد أبناء حيفاً القوة في صمودهم أمام العدو الصهيوني في هذا الوطن.

والقاسم يؤكد وحدة المشاعر بين الأمة العربية.

### وقلبي كإق يا أسواق: واحدة من الورشات

----

### وبيا "قطر" الجعيد سمعت في حيفا

### زغاريد البنات ونخوة الجذعاء<sup>(2)</sup>

تمدحت حيفاً في هذا المقطع، لتكل على مدن الوطن فلسطين، التي ترى في هذه الخطوة (بناء السد العالي) الأمل لكل الوطن العربي بتحقيق الذات العربية.

اتكأ القاسم في هذا المقطع على الصورة السمعية، ومن خلالها حضرت أصوات الزغاريد

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 235.

(2) نفسه، ج1/ 235.



المعبرة عن «فرحة ببناء السد، وأصوات الشباب الذين يحاولون المشاركة في هذا العمل الوطني، فانتقلت هذه الصورة إلى سمع المتلقي، وأصبحت حاضرة في ذهنه. وقد وفق الشاعر في اختياره لفظ (الجدعان)<sup>(\*)</sup> ليؤكد الحضور المصري في حيفا، فهذا اللفظ وكأنه علامة مميزة للمصريين، يوظفونه في لغتهم العامية بشكل لافت للنظر، ومن خلال هذا اللفظ تسقط الحدود بين أجزاء العالم العربي ليصبح مكاناً واحداً يضم أمة واحدة.

مدينة حيفا، مشغولة البال على هؤلاء المناضلين العرب، الذين اتخذوا قراراً بطرد المحتلين من أرضهم، فكانت حرب أكتوبر عام 1973، ومدينة حيفا ترتبط مع هؤلاء المناضلين بعلاقة حميمة، فهم الأمل في تحقيق الانتصار للأمة العربية، وإخراجها من دائرة الانكسارات المتوالية، ومن خلال هذه الانتصارات ستستمد حيفا قدرتها على الوقوف أمام العدو الصهيوني.

غير أنَّ حيفا لا ترى حقيقتها تحت سيف الضوء

لأنها مشغولة البال

على أبنائها غير الواضحين

في مكان ما

من أرض لا تطيق أحقية المحتلين<sup>(1)</sup>

تظهر مدينة حيفا في هذا المقطع ذات بعد وطني، فهي تنطلق من همومها الوطنية لتلتحم مع قضايا الوطن العربي وموقفه من العدو الصهيوني، فهي ترى أن فلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الوطن.

وقد وظف القاسم تباعل معطيات الحواس من خلال عبارة (سيف الضوء)، فالسيف يدخل في حاسة اللمس، أما الضوء فيدخل في حاسة الرؤية، ولعل هذا التوظيف يؤكد الواقع المرير الذي تحياه المدينة، فذلك الواقع مرئي وملسوس أيضاً، إنه الواقع الذي يشعرها بالانزعاج، ويكون الخلاص منه بالتعاون مع الشعب المصري، وجدانياً في حربه مع العدو الصهيوني عام 1973.

وقد شخص القاسم هذه المدينة وجعلها أمّاً ليؤكد العلاقة الوثيقة بين أبناء الوطن فلسطين وأبناء الأمة العربية، فالقضايا الوطنية واحدة والهموم مشتركة.

(\*) في مصر يقولون للثوب إذا كان ماعراً نأمره «ع» وأصله (جذع) وهو من الشوق، ويجمعه على جذعان، لمزيد من

المعلومات انظر أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية، 134.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 2/ 174.

وهكذا تجد الباحثة أن القاعدة الرئيسة التي اتخذها القاسم للحديث عن حيفا هو البعد الوطني، حيفا انطلقت من همومها الوطنية ومن قضيتها مع المحتل الصهيوني، لشارك أبناء الأمة العربية همومهم وقضاياهم الوطنية، وهذا يؤكد أن القاسم يؤمن إيماناً كاملاً بالوحدة القومية للشعب العربي داخل الأرض المحتلة وخارجها على السواء<sup>(1)</sup>.

وتلمح الباحثة من خلال النصوص الشعرية التي تحدثت عن سياسة المحتل في هذه المدينة، أن حيفا مستسلمة خاضعة لسيطرة المحتل، ولعل القاسم قد ركز على هذه الفكرة لإيلاء الأمة العربية على واقع هذه المدينة المحتلة، هذا من ناحية، وتحملها المسؤولية عن هذا الواقع الرديء من جهة ثانية.

وقد أظهر القاسم وضع المدينة في عهد الاحتلال، وقد حاول الخروج منه، وذلك من خلال دعوته إلى الثورة القائمة على الفكر الاشتراكي.

## نابلس شعلة التفجر

يتناول القاسم مدينة نابلس في شعره، من خلال التركيز على محورين رئيسين.

**المحور الأول:** إظهار سياسة القمع الصهيوني الذي يمارسه سلطات الاحتلال في هذه المدينة، والحديث عن جرائمه الوحشية وانتهاكاته المستمرة بحق هذا المكان وأبنائه. وقد جاء هذا المحور لإظهار الصورة القبيحة للمحتل، ومنه انطلق لإدانة هذه الجرائم في هذه المدينة خاصة، وفي لوطن فلسطين عامة.

**والمحور الثاني:** الانفجار ببطلوات أبناء جبل لنار، وتضحياتهم في سبيل الحفاظ على مدينتهم، وهويتها الفلسطينية، وجذورها الضاربة في أعماق الأرض، وقد كثف القاسم الحديث عن هذا المحور، لتسليط الضوء على ذلك الدور البطولي، الذي وقفه أبناء هذه المدينة ضد العدو الصهيوني، وهو يشهد بذلك الدور الكفاحي، ويحفز المناضلين على الاستمرارية فيه لتصل المدينة إلى أفق الخلاص من قيد العدو الصهيوني، ولا يكون ذلك إلا بالكفاح المسلح.

ويدعم أبناء هذه المدينة في تضائلاتهم أبناء المدن الفلسطينية في الداخل، ومن خلال هذا الدعم يمتد جسر من المحبة والتكاتف والانتماء بين مدن الداخل

الفلسطيني ومدن الضفة الغربية، وتشكل علاقات الحب والوحدة بين أبناء هذا الوطن، وتكون هذه العلاقات هي الأرضية التي ينطلق منها أبناء فلسطين لمجابهة العدو، وإشعال الثورة، وخرص الكفاح، وبهذا تصبح مدينة نابلس أقوى وأقدر على التحدي.

نابلس، مدينة المنارل (البيض)، مدينة الصابون النابلسي، مدينة الكنافة، يتوجه إليها الشاعر الفلسطيني سميح القاسم، محملاً بشحنة من المشاعر والانفعالات الإنسانية، فهو يكن لها كل الحب، ويشعر بالإعتراف والاعتزاز بهذه المدينة الفلسطينية، ذات المكانة المتميزة في نفسه، وفي نفس كل فلسطيني، لما خاضته من تضالات في مراحل تاريخها مع المحتل الصهيوني، وهو يحس بحزن عميق، لما حلّ بها من قبل قوات العدو الصهيوني.

وعما قريب نهل منارلها البيض - أكداس صابونها  
 تهل المدينة - سحر الكنافة  
 حفظت - أجل يا حبيبي حفظت المسافة  
 وصلت المدينة بحد غروب شمس كثيرة  
 وصلت في رثتي رسالة حب  
 وبين أغاني الوقوف من الأرض حتى السماء  
 وبين المراثي الكسيرة<sup>(1)</sup>

تدخل البعد الاجتماعي والوطني لهذه المدينة في هذا المقطع، فقد ظهرت نابلس تحمّل خصوصيتها المكانية، من خلال الصناعات التقليدية، التي تميّزت بها عن سائر المدن الفلسطينية الأخرى، وهي صناعة الصابون والحلويات، ولعل القاسم استحضّر هذه الصناعات، لإظهار الوجه الأصلي لهذه المدينة، وانتمائها إلى تراث خلده الأجداد في كتاب موروثها، وفلّ هذا الانتماء لذلك التراث محفوراً في الأجيال القادمة، فهذه المدينة مرتبطة في وجدان الفلسطينيين بتلك الأصالة، وذلك الانتماء، فهي الوجه الأصلي للوطن.

وقد يلجح المتلقي البعد الوطني لهذه المدينة، من خلال تقدير الفلسطينيين لها، وإعجابهم بها، بسبب دورها النضالي ضد الاحتلال.

(1) سميح القاسم، الأصم الشعري الكاملة، ج2/ 209، 210.

في مدينة نابلس، شنت قوات الاحتلال الصهيوني حملة واسعة من الاعتقالات بحق أبناء هذه المدينة، وذلك عام 1974، وأودعته السجون، فقدت نابلس شيئاً من تألقها النضالي، وبعدها الكفاحي الذي كانت تتميز به، وقد ترمدت فيها شعلة الثورة، وخدمت نيران الاحتجاج والتسرد والرفض، ولم تعد هذه المدينة كما كانت سابقاً، المدينة المقلقة للعدو، المدينة الثائرة، ودخلت دائرة السكون والصمت نتيجة تلك الهجمة الشرسة عليها، ولكن تخترن هذه المدينة شعلة من النيران، تحتاج إلى من يفض عنها الرماد لتستعيد دورها النضالي من جديد.

وإنني رسول جبال الجليل إلى جبل النار

من مرشدي؟

يقولون أنت أهديت إلى جبل النار

أصرخ يا ناس لم أهتج

إلى جبل النار هل تسمعون وهل تفهمون؟

إلى جبل النار لم أهتج

فمن مرشدي؟

إلى جبل النار من مرشدي؟

تغير يا ناس، شيء تغير

ترمى يا ناس شيء وأكثر

ترمى لكن تحت الرماد جدي

هل تموت الجدي؟ هل تموت؟<sup>(1)</sup>

يلمح المتلقي في هذا المقطع لبرة الحزن والألم التي يستشعرها القاسم، نتيجة وضع هذه المدينة، وهو من خلال تلك الصرخة التي يطلقها، يوجه إدانة للمسئول عن ذلك الصمت وهذا السكون الذي يلح في هذا المكان، إنه يضع المحتل الصهيوني في دائرة الاتهام، ويعلمه المسؤولية كاملة عن وضع نابلس المقلق، وعن ذلك التغير الذي حل بها.

أدخل القاسم المتلقي في دائرة من الأساء وشحنه بمشاعر من الحزن والألم، وقد اتحد المتلقي مع القاسم، وأصبح يصرخ معه، مديناً ذلك الوضع المأساوي في هذه المدينة، وقد حاولا الخروج من هذه الدائرة المغلقة، بذلك الأمل الذي يظهر من خلال عبارة (تحت الرماد جدي)، فقد أضاعت هذه العبارة المقطع، وقد خرج المتلقي من تلك الدائرة، من خلال السؤال الذي جاء

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، 210، 211.

مكرراً مرتين (هل تموت الجدي)، فهو ينبغي أن تخمد هذه الشعلة، ويؤكد أن الثورة ما زالت تحتضنها مدينة نابلس.

وتستشعر الباحثة أن القاسم لم يختار عبارة (جبل النار) عبثاً عند حديثه عن هذه المدينة، في هذا المقطع، وقد كررها خمس مرات، وكأنه أراد تذكير هذه المدينة بدورها الطولي، فيكون هذا التعبير حافظاً لها لاستعادة ذلك الدور، وتكملة مشوارها التضالي ضد الاحتلال.

يدعو القاسم جبل النار إلى إشعال الثورة من جديد، وتجبرها في أرجاء الوطن المحتل، حتى تعود الكرامة الفلسطينية، وحتى يثبت المواطن الفلسطيني وجوده على أرضه، وحتى يعود الوطن إلى أهله الشرعيين.

تفجر إحق جبل النار

وانفجر وصاح الأسى والسبات

تفجر بنار الحياة ونور الحياة

تفجر

والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

الله ... أكبر!<sup>(1)</sup>

والقاسم يشحن أبناء هذه المدينة بالثورة، وذلك من خلال توظيفه عبارة (الله أكبر)، المستمدة من الموروث الديني الإسلامي، فهذه العبارة لها وقع في نفوس الأمة الإسلامية وهي تمنح الإنسان الفلسطيني الهدوء والائتزان النفسي، وتجعله قادراً على مواجهة تلك القوة الغاشمة المسيطرة، قوة العدو الصهيوني، ومن خلالها يستمد الفلسطيني أيضاً القوة التي تجعله يواجه العدو بكل حماسة، وإصرار على النصر، فهي تؤكد له أن قوة الحق فوق كل قوة. والكلمة المفتاح في هذا المقطع هي (تفجر) المكررة ثلاث مرات، فالقاسم يحفز المدينة على الثورة، لأنه يؤمن أن الحرية لا تأتي إلا عن طريق النضال.

مدينة نابلس تخوض كفاحاً طويلاً ومريراً مع قوات الاحتلال الصهيوني، وبرغم الانتهاكات المستمرة في هذه المدينة من قبل هذا العدو، إلا أن أبناءها متمسكون بالأمل في تغيير الواقع، غير أبهين بأنهم تركوا وحيدين في ميدان الهجوم، فهم يستمدون القوة من خلال انتمائهم لهذا الشعب الفلسطيني، وتلك الوطن، وتلك الأرض.

(1) سميح القاسم، الاصل الشعري الكاملة، ج 2/ 211.

والقاسم يفخر ببطولة أبناء هذه المدينة، في الوقت الذي يدين فيه موقف الأمة العربية التي تخلت عن هذا الوطن.

وبعد الرحيل الطويل على شفرات العذاب  
ترأى لي السفح عبر الظلام المكسّس وانشق باب  
تلفت خلفي ولم أتجر. ولم أشحذ الصفح والمغفرة  
وكأنّ هناك خيطاً من الدم  
أخيط من الدم - أو هو يسجد الكرم!  
وكأنّ دمى النجل منصرراً في ضمير الشعوب  
ولم أشحذ الصفح والمغفرة<sup>(1)</sup>

يبدأ المقطع بإحباطات من الحزن والألم، يؤكد الانزياح الدلالي في عبارة (شفرات العذاب) التي تعكس هول الألم الذي يمسّعه أبناء الشعب الفلسطيني، نتيجة الجرائم الوحشية المرتكبة بحق في هذه المدينة.

ويزداد المقطع حزناً وقامة من خلال لفظ (الظلام)، ولكن الحزن يبدأ بالانحسار من خلال لفظ (السفح)، فهو يحمل دلالة إيجابية مشرقة، ويشعر المتلقي من خلاله بمنعة هذه المدينة وشموعها، ويزداد المقطع إشراقاً من خلال عبارة (وانشق باب)، فالباب فيه انفتاح على الخارج، فهو يبشر بمرحلة جديدة ستحييها المدينة من خلال تضامات أبنائها، فهذه العبارة محملة بالأمل، ومن خلال هذا الأمل، يشعر الفلسطيني بالقوة، فالقاسم "يجعل من حزنه معبراً إلى عالم جديد، - متخطياً الحزن البائس ملتصقاً الجانب المتقاتل لباس المشرق"<sup>(2)</sup>.

"وبعد استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجراً للمواقف الثورية فيه، وأبعدها آثاراً حتى اليوم، لأن ذلك استعادة للرموز الوثنية، واستخدام لها في التعبير عن أوضاع الإنسان العربي في هذا العصر"<sup>(3)</sup>.

يتواصل القاسم مع أسطورة ميدوز<sup>(\*)</sup>، بالإشارة إليها بلفظ من ألقاها وهو (أتجر)، ولكنه ينحرف بها، فإذا بالفلسطيني لم يتجر عند النظر في عيني ذلك العدو الصهيوني، وتعمل

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 2/ 212.

(2) نغمي محمود بركة، الانزياح الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر، دراسة موضوعية وأدبية، 160.

(3) إحسان عباس، تجاذبات الشعر العربي المعاصر، 128.

(\*) ميدوز: أي. حتى الجحش العوز عوات، وكانت تلقى لارعب في القلوب منظر وجهها الكالج وأسنانها الكثيرة، وشعرها الذي

يتألف من الأعاصير، أما نضرتها فكانت تعيل من تقع عليه حجراً، سبيل عثمان وعد الزرق الأصفر معجم الأساطير اليونانية

والرومانية، 397، 398.

توظيفه هذه الأسطورة بهذا الانحراف، ليؤكد أن المحتل الصهيوني، قد فقد تلك القوة الخرافية التي كان يدعيها، ولم يعد له أية سيطرة خارقة على هذا الشعب، فقد هزمت تلك الأسطورة/ أسطورة المحتل الصهيوني وقدرته وبطشه، وأصبح الفلسطيني قادراً على الوقوف أمام هذه القوة، بل وهزمها أيضاً، من خلال إيمانه بحقه الشرعي في هذا الأرض، وهذا ما أكسبه القوة، مما جعله ينظر في عيني ميدوزا/ المحتل الصهيوني دون أن يهزَم ويفقد إنسانيته ووجوده.

وقد وفق القاسم في استخدامه التشبيه المفرد من خلال عبارة (دمي النصل)، ليؤكد حق الشعب الفلسطيني في هذا الوطن، ويدين موقف الأمة العربية التي تركت دماء الفلسطينيين تنزف دون العمل الإيجابي على حقها.

ونلن تكرار عبارة (لم أشهد الصفح والمغفرة) مرتان، لتأكيد موقف الإنسان الفلسطيني الصامد، المناضل، الرافض لسياسة المحتل التقمعية في هذه المدينة، وتستشعر الباحثة أن هذه العبارة هي الصوت الداخلي للشاعر/ الفلسطيني، وهي تتخذه بالقوة والإصرار على استمرارية المواجهة، فتكون السد المنيع الذي يحميه من الوقوع في أسر عيني ميدوزا.

يدعم ثوار جبل النار في ثورتهم ضد الاحتلال الصهيوني أبناء المدن الفلسطينية في الداخل، فهم يلتحمون معا ليشكلوا وجه المواطن الفلسطيني الصامد، المناضل، الحريص على الثورة من أجل تحرير هذه المدن، واستعادتها من أيدي المحتل، والعلاقة بين أبناء المدن في الداخل وثورا جبل النار علاقة حميمة، فهم يختزنون لمدينة نابلس وثوراها كل الحب والإعجاب والتقدير، وهم يرون أن نضال أبناء هذه المدينة ما هو إلا امتداد لوجودهم، وإثبات لكيانهم، واستمرارية لثورتهم في الداخل، وهم يستمدون تلك القوة من قوة ثوار جبل النار.

وصلت المدينة ليلاً، طرحت النجدة رداً  
 بأحسن منها. توسمت خيراً، وصحت:  
 أنا أيها الإخوة الطيبون  
 رسول جبال الجليل إلى جبل النار  
 أحمل من ريع قرق، رسالة حب مريّة  
 قطعت جبالاً كثيرة  
 قطعت وهاباً وكثيره  
 وبين حصي الطرقات نزفت دماء شبّابي الغيرة  
 ولم استرح. بعد وكيف ترى يستريح رسول  
 على ظهره بعد عبء الرسالة

## كيفية ترويض المستريح، وقفة وشخصته بدماء المسيح<sup>(1)</sup>

تستقط الحدود الرومية بين مدن الداخل الفلسطيني ومنن الضفة الغربية، وتظهر خريطة الوطن فلسطين، فالجليل ما هو إلا مدن الداخل الفلسطيني ونابلس ما هي إلا مدن الضفة الغربية، وبالتالي يتشكل وجه المدينة الفلسطينية التي تواجه الاحتلال وسياسته في هذا الوطن، يتواصل القاسم مع الموروث الديني المسيحي من خلال «الإشارة إلى شخصية المسيح، فالقاسم يرى نفسه رسولاً ثورياً يتود الأبطال وينتمي إلى ثوار جبل النار، يحثهم على الصمود، ويساندنهم في معركتهم ضد الاحتلال، ويدعم موقفهم ضد العدو.

وقد وفق القاسم في استحضار شخصية المسيح، لتكون معادلاً موضوعياً للتأثير الفلسطيني، فكلاهما قد تكبد العناء والتعب والعذاب من أجل تبليغ الرسالة، وتأتي رسالة الثورة التي حملها القاسم وأبناء جبل النار موازية للرسالة السماوية التي حملها المسيح، وبهذا تكون ثورة أبناء جبل النار مقدسة قديمة الدعوة السماوية التي جاء بها المسيح، وهذا يحفز الفلسطينيين على الدخول في دائرة الثورة والدفاع عن هذه المدينة.

وظف الشاعر أسلوب السرد الحكائي فهو من الأساليب الدراسية التي شاع استخدامها في تجربة الشعر الجديدة<sup>(2)</sup>، ليثير المتلقي، ويحفزه على تكلمة المقطع، فالشاعر لديه رسالة يود تبليغها ويريد من الآخرين الاستماع إليها، والتنبه إلى كل كلمة فيها، وقد جاءت هذه الحكاية محملة بعناصر الزمان، من خلال لفظ (ليلاً)، والمكان باختياره كلمة (المدينة)، ولم يغفل القاسم الشؤون، وكان هو البطل إضافة إلى الإخوة الطوبى (ثوار جبل النار)، وطعم المقطع بالحوار وأظهر الحدث الرئيس، وقد وظف هذا الأسلوب الحكائي بكل سلاسة وسهولة.

نابلس، هي «الأم التي ترقظ أطفالها ليندفعوا عنها أمام المحتل الصهيوني، ويهب الثوار الفلسطينيون للوقوف إلى جانب مدينتهم، ويبدلون أعلى ما لديهم في سبيل أن تحيا هذه المدينة بحرية وكرامة، يقدمون حياتهم رخيصة، لأنهم يؤمنون أن الموت في سبيل تحرير الوطن واستعادة كرامته، هو أول خطوة في طريق الحياة، وهم يشكلون بأجسادهم سداً منيعاً يمنع المحتل من أن يدخل مدينتهم.

## تحدث الصرخة الصرخة القائبة: "وقوفا"

(1) مسيح للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 210.

(2) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضايا وفواهر تقنية والمحاوية، 300.



وزلزلت الأرض وزلزالها  
 "وقوها"  
 وأيقظت الأم أطفالها  
 وجلجلت الصرخة الفانية  
 نموت على ساعدك  
 نحيا على ساعدك  
 نموت - ولم تعبر الخيبة الدامية! (1)

تظهر نابلس مكاناً محفراً، يثير أبناءه للدفاع عنه، وبهذا يبدو المكان متحركاً في نفوس أبنائه.

يتواصل القاسم مع القرآن الكريم، فيقتبس الآية القرآنية «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» (2)، لإظهار شراسة المحتل، وقوة الجرائم التي يرتكبها في هذا المكان، وقد وفق الشاعر في هذا التواصل، فكانه أشعر المثقلى وكان أرضية هذه المدينة تتزلزل تحسب قدميه، نتيجة الهجمة الشرسة عليها.

ومن خلال هذا الاقتباس ظهر وجه العدو والمكان الذي شهد تلك الزلزلة. استخدم القاسم الرمز، فرمز بالأد إلى مدينة نابلس، ورمز بالأطفال إلى أبنائها الشوار الذين وقفوا إلى جانبها، وقد وفق الشاعر في استخدامه هذا الرمز الشفاف، "قيمة الرمز الأدبي تتبثق من داخله، ولا تضاف إليها من الخارج" (3)، ومن خلال هذا الرمز، أكد القاسم أن العلاقة بين المدينة وأبنائها علاقة حميمة غير قابلة للانفصال، مما يحفز هؤلاء الأبناء على الوقوف إلى جانب مدينتهم والدفاع عنها.

وقد وظف الشاعر الطباق في هذا المقطع، من خلال لفظي (نموت ونحيا)، ليؤكد أن موت المفاضل الفلسطيني في سبيل تحرير الوطن، هو وجه آخر للحياة، هو الحرية، هو النصر. ومن خلال الصورة المفردة التي جاء بها الشاعر في عبارة (نموت على ساعدك لنحيا على ساعدك) تستلعر الباحثة الالتصاق الحقيقي بهذا الوطن، وهذا ما يريده القاسم، فهو بحث أبناء هذا الوطن على التمسك به، وعدم مغادرته مهما واجه الفلسطيني فيه من آس وويلات من قبل المحتل الصهيوني، فالتجذر في هذا الوطن هو أول خطوة لاستعادته.

(1) سديح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 213/2.

(2) سورة الزلزلة، آية 1

(3) محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر شعاع، 37

وظف القاسم تبادل معطيات الحواس من خلال عبارة (الصرخة القاتية)، فالصرخة تدخل في دائرة السمع، ولكنها تمددت لتدخل في دائرة اللون أيضاً، من خلال نعتها بلفظ (القاتية)، فنكون تلك الصرخة، أشد تأثيراً في نفس من يلقاها، فيحدث الفعل، ورد الفعل الموازي لتلك الصرخة القاتية، وينطلق أبناء مدينة نابلس في نضالاتهم ضد العدو.

وفق القاسم في اختيار صورة تبعث على النفور والاشمئزاز في نفس المتلقي، وقد جاءت هذه الصورة من خلال عبارة (الذئبة الدامية)، فقد رمز بها الشاعر للعدو الصهيوني وجرائمه التي يرتكبها في هذه المدينة، وقد جاء ذلك النفور من خلال نعت الذئبة بلفظ الدامية، فيستحضر المتلقي صورة الذئبة وآثار الاقتراس مازالت على أنيابها وعلى جسمها، مما يحفز المتلقي على التوحد مع المناضل الفلسطيني للدفاع عن هذه المدينة، ومنع تلك الذئبة/ العدو الصهيوني على الدخول إليها، وارتكاب المزيد من الجرائم الوحشية بحق أهلها.

يهب ثوار جبل النار للوقوف في وجه المحتل الصهيوني في هذه المدينة، يهبون للقضاء على هذا المحتل بكل ما لديهم من حقد وألم وذكريات حزينة، حفرها المحتل في قلوبهم، ودغمها في نفوسهم، نتيجة جرائمه التي اقترافها في هذا الوطن، فقد دمر البيوت، وسفك دماء الأبرياء، وقتل الأمل في النفوس، وقضى على الفرح في القلوب، فكان لا بد من الثورة، ولا بد من النهوض لوقف تلك الجرائم الوحشية.

والقاسم بفخر بثوار جبل النار ويدين جرائم العدو في فلسطين عامة وفي جبل النار خاصة.

إلى جبل النار يا أيها الثائر

إلى جبل النار - هل تسمعون وهل تفهمون

إلى جبل النار - نجر وصلنا

وصلنا بكل العذاب، بكل الدم المزم والذكريات

وصلنا بأنطفأنا بالنفخ

وصلنا بحرق العذاري على الغاصبين

وصلنا بسيلة سموها

باغنية يتموها

باتقاض بيت

بقلب عريس مجنول

بجذوة عرس تأجل

وجلنا على جسر أمواتنا الناهضين

سكاجين.

نقطع جذر الغزاة الهجين

وجلنا! (1)

وفق القاسم في اختياره عبارة (جذر الغزاة الهجين)، ليؤكد أن المحتل غريب عن هذا الوطن، ويستحيل أن يمد جذوره في أعماقه، لأن جذوره غير أصيلة، وهذا تأكيد على أن جذور الشعب الفلسطيني أصيلة، ممتدة عبر هذه الأرض، ولن تستأصل رغم كل الجرائم التي يترفعها العدو.

ولعل التكرار الرأسي الواضح في هذا المقطع من خلال لفظ (وجلنا)، يؤكد الحالة النفسية التي يستشعرها القاسم، فهو فرح لعودة هذه المدينة إلى دائرة الكفاح والنضال، لأن هذه الدائرة تثبت وجود الإنسان الفلسطيني.

وفي نابلس، يشارك معظم شرائح المجتمع الثوار في مجابهة الاحتلال، وتتشكل القاعدة النضالية لهذه المدينة من خلال أبنائها الطلاب والعمال ... الذين يشاركون بما لديهم من سلاح وهو الحجر، يذفون به آلات العدو، بكل ما لديهم من أمل في دحره عن هذا الوطن، ليعث الحرية وتحقيق النصر له.

وأعطى النهار الإشارة

وفي شرفات البيوت ومنحطفات الشوارع.

بين المدارس والساحة المركزية

تكمشت القيجات الصغيرة حول القنابل

(إلا بئس - حول الحجارة)

وجلجت الصرخات الغتية

تحريك إيدٍ إليها الديناصور الضخم تحريك

وسمع سنابل أجلامنا

وحسب بجنازيهك السجود أطراف إقدامنا

تحريك

بظلك أنت، سنحفر نجو، سنحفر قبره

ونبعث أبناء أيتامنا! (2)

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 214.

(2) نفسه، ج2/ 213.

بدأ القاسم المقطع بلفظ ينل على النقاؤل وهو (النهار)، وكان هذا اللفظ هو القاعدة التي انطلق منها الثوار في مجابتهم للاحتلال، فقد ملئت نفوسهم بالأمل، لإيمانهم بأن العدو لا بد أن تكون نهايته قريبة، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال نصالائهم.

وقد ركز القسم على جزئيات هذه المدينة، فحضرت نابلس من خلال شرفات بيوتها ومنعطفات شوارعها ومدارسها والساحة المركزية، ولم يكن هدف الشاعر استقصاء معالم هذه المدينة، وإنما الإشارة إلى أن العمل الثوري قد امتد في جميع أماكنها، وقد شاركت فيه جميع معظم شرائح المجتمع.

وفق القاسم في نقل صورة يستمع فيها المتلقي إلى أصوات الحجارة وهي تقذف على الأعداء، ويستمع إلى تلك الصرخات المتحدية للاحتلال.

ويستحضر المتلقي الصوت الداخلي الذي ينطلق من أعماق القاسم، من خلال عبارة (لا بأس حول الحجارة)، ويحاول المتلقي أن يعرف إلى ذلك المونولوج الداخلي الذي يعتبر "من أبرز تكتيكات اتجاه تيار الوعي في الرواية الحديثة"<sup>(٤)</sup>، فالحجارة تعادل القنابل في قوتها في يد هؤلاء الصغار المؤمنين بقوة موقفهم تجاه الأعداء، ويأتي ذلك الصوت ليؤكد أنها قوية قوة القنابل، مع أنها حجارة، وهذا ما أراد القاسم تأكيده.

وظف الشاعر لمفارقة اللفظية من خلال أفعال الأمر التي وجهها الثوار للمحتل الصهيوني (تحرك، وسم، ودم)، فهذه الأعمال اللوحشية التي يركبها المحتل في مدينة نابلس لم تعد تخيف أبناء المدينة، وهذه الأفعال قد فقدت مصداقيتها من خلال ذلك التحدي الذي يظهره الفلسطينيون لذلك العدو.

ويلمح المتلقي إصرار أبناء جبل النار على تحرير مدينتهم، وذلك من خلال لفظ (تكششت)، فكان هذا اللفظ يحمل كل ما يشعره الفلسطينيون من أمل وإصرار على حرر هذا العدو عن مدينته.

ويظهر من خلال هذا المقطع ضميران، يقف أحدهما أمام الآخر، فالضمير الأول يشكّله الثوار الفلسطينيون، ويقابله الضمير الآخر الذي يشكّله العدو الصهيوني، ومن خلال ظلم ضمير العدو الصهيوني سينتصر الضمير الآخر (الفلسطينيون).

ومن حي القصبة، أحد أحياء مدينة نابلس، يقف صبي في مواجهة العدو الصهيوني، بكل ما لديه من عفوية وطفولة، فقد استمّاع هذا الجبل الفلسطيني أن يحمي تلك القوة التي يستشعرها في داخله، تلك القوة التي توازي قوة العدو، بل تتغلب عليها أحياناً، من خلال إيمانه بحقه الشرعي في هذه الأرض، وفي هذا الوطن.

(٤) علي عشري زاهد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، 223.

وَأَتَانَا فِي نَبَا عَاجِلٍ  
أَوْ صَبِيًّا مِنْ حَيِّ "الْقَصْبَةِ"  
يَفْرَضُ صِبْغَتَهُ الْوَاضِحَةَ الْمَقْتَصِبَةَ  
لِيَفْتِكَ الْأَكْذُوبَةَ "كَعَبِ الْأَحْبَارِ"<sup>(1)</sup>

استحضر القاسم مكانا له إحياءات وطنية في الذاكرة الجماعية الفلسطينية، وهو حي القصبة، هذا المكان الذي احتضن ثوار جبل النار، فامتدت نابلس من خلاله. تواصل القاسم مع الموروث التاريخي بالإشارة إلى الجانب السليبي في شخصية كعب الأحبار<sup>(\*)</sup>، فقد جاء معادلاً موضوعياً للمحتل الصهيوني، الذي ادعى قدرته على القضاء على الشعب الفلسطيني، وقد آمن بهذه الأكذوبة، وقد لمس القاسم الجامع المشترك بين هذه الشخصية والعدو الصهيوني، فكانت المؤامرات<sup>(\*\*)</sup> والدسائس والعمل على القضاء على الوجود العربي، وسحق الكيان الفلسطيني هي القاعدة التي انطلق منها القاسم في توظيفه هذه الشخصية. ولكن كعب الأحبار لم يستطع القضاء على هذا الوجود الفلسطيني ولم يؤمن هذا الشعب بتلك الأكذوبة التي يروج لها كعب الأحبار الجديد.

وفي مدينة نابلس، وعلى الدرجات القريبة من جامع القصبة، تحدث المواجهات بين المناضلين الفلسطينيين والمحتل الصهيوني، فيقذف المناضل الفلسطيني الحجر بكل ما لديه من قوة وحقد تجاه العدو الصهيوني، فالحجر هو الأمل والخلاص من ذلك الوضع المهين، ويقف العدو الصهيوني بالمرصاد بالغاز المسيل للدموع وشهوة القتل.

أَسْتَعِثْ وَلَا أَسْتَعِثْ  
يَحْيِي وَرِدَّةً مِنْ رِجَالِي  
فَجَرَتْ عَطْرَهَا الْجَمُوحُ  
عَلَى التَّرْجَاتِ الْقَرِيبَةِ مِنْ جَامِعِ "الْقَصْبَةِ"  
مَقْرَعُ النَّصَاذِ يَسْتَوِطِرُ الرِّثَّةَ الْوَاجِعَةَ

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية، القاهرة، ج2/381.

(\*) كعب الأحبار بن ذائع الحميري من سلسل أئمة الكنائس، كنيته أبو اسحق، أسلم على يد أبي بكر الصديق وقيل على يد عمر رضي الله عنهما، وهو من الطبقة الأولى من التابعين، ابن ثعربي يردي الأتابكي. التجرد للزخرفة في منوك مصر والقاهرة،

ج2/116.

(\*\*) جاء كعب الأحبار إلى عمر بن الخطاب فقال له: يا أمير المؤمنين أعبد، فإنك ميت في ثلاثة أيام، قال: وما يدريك، قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة، قال عمر: الله، إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة، قال: اللهم لا، ولكني أجد صفك وحليتك، وأنه قد قُتِلَ أحلك، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3/37، ح2، 12.

وهذه القصة إن سمعت نلت على ووقوف كعب على مكيدة قتل عمر، أحمد أمين، فجر الإسلام، 161

**ويدي ورجة للخلاص  
قدّمت عطر أحزانها المرعبة  
حجراً نابضاً  
في فضاء من الموت والشهوة اللاذعة<sup>(1)</sup>**

يلمح المتلقي تبادل معطيات الحواس من خلال عبارة (عطرها الموي)، فالعطر يدخل ضمن حاسة الشم، في حين أن الدم يدخل ضمن حاسّة البصر والشم، فيكون العطر مرئياً وبلون الدم، فتأتي الصورة مثيرة في نفس المتلقي.

ولعل القاص قد سخر من المحتل بعبارة (مقروئ للغاز)، وهي تشير إلى ترعب العدو الصهيوني بالمناضلين الفلسطينيين عند هذه الأماكن (الجوامع) بالرغم من حرمتها، وهذا يؤكد انتهاك المحتل الصهيوني لكل الحرمات.

ولعل الشاعر قد وظف الانزياح الدلالي في عبارة (يدي وردة من رصاص) ليؤكد القوة التي يستشعرها الفلسطيني نتيجة إجساسة بالظلم والاضطهاد من قبل المحتل الصهيوني، فتتحول تلك الوردة رمز البراءة إلى رصاص لتقتضي على الأعداء.

ومزج القاص بين المحسوس والمجرد من خلال عبارة (عطر أحزانها)، ليؤكد الحزن في نفس الشعب الفلسطيني بسبب استلاب هذا الوطن، وتكون النتيجة الحجر النابض لتبدأ الحياة في هذا المقطع من جديد.

ويلمح المتلقي في عبارة (حجراً نابضاً في فضاء من الموت ...) خطين متقاطعين، الخط الأول يشكّله الفلسطيني بما لديه من سلاح الحجر، الذي سيبعث الحياة في فلسطين، أما الخط الثاني فيشكّله المحتل الصهيوني، الذي يحمل الموت لهذا الوطن، وهذان الخطان يلتقيان في زاوية واحدة هي بعث الحياة للوطن، فالحجر هو المنتصر، هو النابض بالحياة، حية هذا الوطن وحبّة هذا الشعب.

نابلس مدينة الحب والانتماء للوطن فلسطين، تنزف فيها دماء الأبناء من أجل تحريرها.

**هنا جبل النار والحب والإغنيات  
وبينك الهدم المزمز والياسمين<sup>(2)</sup>**

وهذه المدينة تؤمن بأن الحرية لا تتحقق إلا بالكفاح المسلح.

(1) سميح القاص، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/347.

(2) نفسه، ج2/214.

وجعلنا!

### بنار الحياة - ونور الحياة<sup>(1)</sup>

هذه هي مدينة نابلس، المدينة التي استحققت فعلاً أن تسمى جبل النار، هذه المدينة المنيعّة التي استطاعت أن تنور لكرامتها تجاه العدو الصهيوني، فلم تخضع ولم تستنك، وإتّما هبت لإثبات وجودها، وترسيخ كيانها أمام عدو يريد النيل منها.

هنا جبل النار،

ها نحن في السفح من جبل النار،

بعده الرجل الطويل على شفرات الصّذاب

ترأى لنا السفح عبر الظلام المكنس،

وانشّق: باب

وجعلنا! (2)

هذه هي نابلس القاسم، ويمكن ملاحظة النقاط التالية:

**أولاً:** ظهرت مدينة نابلس من خلال بعدها الوطني، فهي مدينة تتعرض لسياسة سلطات الاحتلال الصهيوني، وبرغم ذلك تظهر مناضلة، مكافحة، ثائرة ضد ذلك الواقع المهيمن الذي تحياه، وهي تحث أبناءها وتحفزهم على الوقوف إلى جانبها، والدفاع عنها ضد العدو الصهيوني، لتحافظ على كيانها وجودها، وقد ظهر البعد الاجتماعي لهذه المدينة ولكن بشكل محدود جداً، وذلك لتعميق الانتماء لهذه المدينة في نفوس أبنائها.

**ثانياً:** أبناء مدينة نابلس يلتجئون مع مدينتهم كنلاجم الأم مع أطفالها، وهذه العلاقة الحميمة هي الأرضية التي ينطلق منها الثوار للدفاع عن هذا المكان، فشدة التعلق والحب والانتماء لهذه البقعة المكانية على خريطة الوطن، هو سر صلاية المناضل الفلسطيني في الدفاع عنها.

**ثالثاً:** أفرد القاسم للحدث عن هذه المدينة قصيدتين، الأولى بعنوان: الطريق إلى جبل النار<sup>(3)</sup>، والثانية بعنوان الوصول إلى جبل النار<sup>(4)</sup>، ولم يكن اختيار القاسم للعتوان عبثاً،

(1) سمح للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 214/2

(2) نفسه، ص 214/2

(3) نفسه، ص 208/2

(4) نفسه، ص 212/2

عبثاً، فعنوان القصيدة الأولى يؤكد أنه لم يصل إلى جبل النار، لأن وجه المدينة المناضل قد حجبته الهجمة الشرسة من قبل العدو الصهيوني عليها، فدخلت نابلس في دائرة السكون والصمت فترة من الزمن. وهو في القصيدة الثانية يؤكد أن المدينة قد عادت إلى دائرة الكفاح والنضال.

**رابعاً:** توحدت المدن الفلسطينية في الداخل مع مدن الضفة الغربية، وساند الجليل مدينة نابلس في محتتها مع الأعداء الصهاينة، وهذا يؤكد العلاقة الحميمة بين مدن فلسطين على امتداد الوطن، ويشير إلى فشل سلطات الاحتلال في محاولة الفصل بين المدن الفلسطينية، فالانتماء إلى الوطن أقوى من أية سياسة تمارسها سلطات الاحتلال.

**خامساً:** اختار القاسم عبارة "جبل النار" عند حديثه عن هذه المدينة، وقد كررها ست عشرة مرة وجاءت هذه العبارة لتحكي عن دور المدينة البطولي في مراحلها التاريخية ضد الأعداء، ومن أجل تخزين المدينة على الاستمرارية في هذا الدور النضالي.

**سادساً:** ركز القاسم على مكان في مدينة نابلس يعتبر من الأمكنة ذات السمعة النضالية والدور البطولي ضد الأعداء وهو حي "القصبة"، يأتي هذا المكان ليرسم صورة الوجه الأصلي لهذه المدينة المعروفة بنضالاتها ومواجهاتها ضد الاحتلال، فهي القصبة بؤرة المدينة النضالية، ومنه تمتد حركات النضال والتمرد ضد سلطات الاحتلال.

## بإفا الأمل بالعودة

تأتي عروس الساحل الفلسطيني في شعر القاسم، من خلال محورين رئيسيين، يتقاطعان في نقطة واحدة، وهي الانتماء لهذا الوطن فلسطين.

### المحور الأول: سقوط مدينة ياف

إن سقوط هذه المدينة بيد الاحتلال الصهيوني، كان الهاجس المسيطر على القاسم في حديثه عن يافا، وقد كثف الحديث عن هذا السقوط، لتكون هذه الحفيدة (سقوط ياف) هي الخطوة الأولى نحو تقبل الهزيمة، ومن ثم محاولة التفكير في كيفية الخروج منها.

وقد حاول القاسم أن يخرج من مخنة الهزيمة، بالحديث عن مكانة المدينة قبل السقوط، ولكن بقيت ظلال الهزيمة تسيطر على رؤيته، وقد حاول ثانية الخروج من دائرة الإنكسارات ومن دائرة الاحتلال، فتحدث عن علاقة الإنسان الفلسطيني بهذه المدينة، على يجد الأمان



والهدوء، هذا به يجد نفسه في زاوية السقوط مرة أخرى، ولا يجد أمامه سوى لوم الأمة العربية، لموقفها السلبي تجاه هذه المدينة.

ومهما حاول القاسم في هذا المحور، أن يخرج من محنة فقد الوطن، إلا أنه يعود إلى نقطة البداية، نقطة المأساة، بداية السقوط وبداية الهزيمة، فإذا به يزداد ألماً، حينما يرى مدينته قد ضاقت عليه واتسعت للأغراب.

### المحور الثاني: رفض واقع هذه المدينة

يحاول القاسم أن يوجد التوازن النفسي للإنسان الفلسطيني الناقذ يافاً، فيتحدث عن موقف المناضل تجاه هذه المدينة، ويرى أن الكفاح المسلح هو الطريق للخلاص من الوضع المأساوي الذي يعانيه الوطن.

ومن الألفاظ للنفار، أن هذين المحورين قد تداخلتا في نصوص القاسم الشعرية.

يافا، هي حياة الإنسان الفلسطيني، هي دمه الجاري في عروقه، هي لحمه، يعودتها إلى أهلها الشرعيين ستعود إلى فلسطين الحياة، والقاسم يتمنى العودة سريعاً، يشاركه في ذلك الشعب الفلسطيني، فهما متعطشان لتلك العودة التي ستقضي الجراح.

### يا صبر أيوب استعرتك حبة

فتمنى يعود كصبي .. ولحمي يبرأ<sup>(1)</sup>

استخدم القاسم المثل الشعبي (يا صبر أيوب)<sup>(2)</sup>، يؤكد على نفاذ ذلك الصبر، وكأنه يحتج على ذلك الصمت العربي الذي لم يعط أية نتيجة، تجاه سقوط المدن الفلسطينية. واعتمد الشاعر اللغة الاستهلامية، ليلح على التعطش لعودة تلك الجزء الحبيب من الوطن.

وفي هذا المقطع أورد القاسم أن يخرج من دائرة الصبر، لأنه فعل سلبي، فإذا به يدخل دائرة أخرى مخلفة وهي دائرة التمنى.

مدينة يافا، هي الشمدان الذي ينير الساحل الفلسطيني، ولكنه أنطفأ باحتلال المدينة، التي وقفت وحيدة في معركتها ضد الاحتلال.

### شهداء السواحل مناجاة

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 472.

(2) عيسى عطا الله، قالوا في المثل، ج1/ 368.

## بحم يافا

### يجف على سجة القاتل<sup>(1)</sup>

اعتمد القاسم على صورتين قاتمتين تظهران الوضع المأساوي الذي تحياه المدينة؛ نتيجة الاحتلال، وقد وفق الشاعر في سلب الشمعدان إضاءةه بلفظ (منطفئ)، وقد حمل كلمة (بحسب) كثيراً من اللوم والعتاب للأمة العربية، التي لم تقف إلى جانب هذه المدينة في محنتها، وتأتي دلالة (القاتل) لتشير إلى بشاعة وجه المحتل.

يافا عذراء، تشعر بالأمن في الوطن فلسطين، وهي مستبشرة بالحياة، ومليئة بالأمل والتفاؤل، ولكن العدو الصهيوني الوجه الآخر لبريطانيا ويدها المنفذة للجرائم، قد سلب هذه المدينة الأمان والبراءة، والقاسم يدين بشدة سياسة الاحتلال وجرائمه في هذه المدينة الفلسطينية.

عذارى يافا وعكا يتردق في زبد البحر الأبيض المتوسط في امواجه القريبة  
تنتفض السميكات بين أقدامهن المتفجئة  
تتمسح الطحالب والأعشاب بالانجفاف الناجمة عن الجفيرة

ترى قليلاً أبها النسيم

أترى للعاشق أسراه وللوردة نخلتها

وأجعل للعالم صرخات العذارى اليافويات والعقيات  
إنهن يصرخن رعباً مما ترى أعينهن الوسيطات

كان هناك غزاة مدججون باللوم

والفوهات مسجدة إلى أفواه العذارى وعيونهن الوسيحات

الشامليات خليج العقبة ورأس الناقورة

النوارس الخيلية تستعطي جميع السفن في البحار جميعاً

أما عذارى يافا وعكا

قاتلات الساحل والغابات الجليليات

فقد زغردن رعباً وانتضاء

وزغرد رصاص الأعداء مرقاً الأفواه الجميلة

المشرقة لتوها، على القبل والابتسامات

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 2/ 359.

وكنيت إني كنت هنا بك يا بريق أفور القاتل  
كنيت هنا بك بالسلنجر والخوذة الجريئة<sup>(1)</sup>

تتوحد يافا مع عكا، لتظهر صورة المدينة الساحلية الفلسطينية، التي تتعرض لهجوم الغزاة الصهاينة يتعاون مع بريطانيها.

شخص القاسم مدينة يافا، فرأها عذراء، وذلك لتكون جرائم المحلل أشد وقعاً في نفسية الإنسان الفلسطيني، وكذلك لإثارة همم المناضلين الفلسطينيين، لتخليصها من أيدي الاحتلال. وانكأ الشاعر على الصور الحزنية لإظهار سقوط المدينة، ودعم هذه الصور بالحركة واللون والصوت، لتفاعل معها المثقفي، ويكون مع القاسم/ الشعب الفلسطيني جبهة واحدة ضد الاحتلال.

وقد استخدم القاسم الانزياح الدلالي في عبارة (زغردن رعبا)، للتأكيد على سلب هذه المدينة الفرح والسعادة، وسيطرة الرعب عليها، "ولعل مثل هذا الانزياح الذي لا يلغي فرصة تحديد المقاصد، ولا يجد المثقفي إشكالية في توجيهه وتأويله، يظل انزياحاً مقبولاً ومستحباً"<sup>(2)</sup>.

يافا حبيبة للقاسم، تسقط بيد الاحتلال الصهيوني، وتنتظر من أبنائها الدفاع عنها وحمايتها، ولكنهم عاجزون عن تقديم العون لها، مما يشعرهم بالعجز والخزي. والقاسم يؤكد العلاقة الحميمة بينه وبين هذه المدينة، وهو يتحسر على واقعها الأليم.

مطر على ربح ... ووجه حبيبي  
في زرقة اليرب ... ارتمي يتدفقا  
ويدي على يديها ... جناح متعب  
هبطته عاصفة ... وقلبي مطفا  
خجلان من فقري أمام حبيبي<sup>(3)</sup>

تتداخل الحبيبة مع المدينة في هذا المقطع، فيتشكل وجه الوطن، الغالي المفقود، وقد وظف القاسم عناصر الطبيعة لإشعار المثقفي بالخطر الذي يداهم المدينة، فجعل المطر والريح مفتاح هذا الخطر، ثم جاءت العاصفة لتعلن سقوط المدينة الفلسطينية والإنسان الفلسطيني، وقد رمز القاسم بالعاصفة للمحتل الصهيوني، فجاء الرمز واضحاً ومباشراً.

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 85، 86.

(2) سامح ارواشدة، إشكالية لتلقي وشناويل، دراسة في شعر العربي الحديث، 60.

(3) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 471.

ومن اللافت للنظر، أن المطر في هذا المقطع قد شحن بدلالة سلبية، ولم يأت كما هو متعارف عليه رمزاً للنعمة والخير.

وقد وفق القاسم في اختيار الألفاظ في هذا المقطع، فقد جاء لفظ (ارتسى) في موقعه، ليشير إلى عجز هذه المدينة على الصمود أمام العدو، وكأن القاسم من خلال هذا اللفظ، يحمل الأمة العربية مسؤولية سقوط الوطن، ويأتي لفظ (زرقه) المشحون باللون، ليؤكد أنه يتحدث عن مدينة ساحلية، ويختزن هذا اللفظ بما يتبعه من (البرد)، الجرائم الوحشية المرتكبة بحق هذه المدينة.

وقد كان الشاعر دقيقاً في استخدامه عبارة (جناح متعب هدته عاصفة)، فما أن يشعر المتلقي بالألم، من خلال لفظ جناح، هذا اللفظ المحمل بالإشراقات، ودلالة التفاؤل والقدرة على النبوض، حتى يفاجا بكلمة (متعب)، فهذا اللفظ يسلب اللفظ السابق (جناح) التفاؤل، ودلالته الإيجابية، ويدخل المتلقي في جو من اليأس، يزداد بلفظي (هدته عاصفة)، وعلى مساحة هذا المقطع تظهر صورتان، إحداهما صورة المكان تمثله المدينة الفلسطينية المنهارة لمنهزمة، والأخرى صورة الإنسان، ويمثلها الفلسطيني المحب لوطنه، العاجز عن الدفاع عنه، ويتداخل المكان مع الإنسان ليظهر واقع الأرض المحتلة.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم لم يذكر اسم مدينة يافا في القصيدة التي أخذ منها هذا المقطع، إلا أنه أراد بها مدينة يافا<sup>(1)</sup>.

يافا، حزينة، متألمة نتيجة السياسة القمعية التي تنتهجها سلطات الاحتلال بحقها، وهي تنتظر الخلاص، والقاسم يدين ضعف الأمة العربية وانكساراتها المتتالية.

### وجه غرناطة استهليكنه المراثي، ويافا على قبر زياب ميتة من سنين<sup>(2)</sup>.

وحد القاسم في هذا المقطع بين مدينتي يافا وغرناطة، لتصبح هاتان المدينتان وجهاً واحداً للمدينة المنكوبة، المستلبة، يافا/ فلسطين امتداد لغرناطة/ الأندلس، والجامع المشترك بينهما هو الضياع والانتكاس والضعف والهزائم، فالعرب تجدد هزائمها، وتبعها من الماضي البعيد. وفي هذا المقطع، اخترق القاسم حدود الزمان والمكان، واستحضر غرناطة، ليؤكد أن الحاضر ما هو إلا امتداد للماضي، وهو يحمل المسؤولية للأمة العربية التي لم تستطع بتاريخها الماضي، وتتخذ منه العبرة ليكون درساً لها بعدم السقوط مرة ثانية.

(1) سميح القاسم، المغنية في شعره، 2005/9/3 (مقابلة شخصية).

(2) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 2/ 374.

يستحضر الشاعر الموروث الأنبيء من خلال الإشارة إلى شخصية زرياب، ليؤكد على ماضي هذه المدينة المجيد، فكأنه يحفز أبناء الأمة العربية، ليعيدوا إلى مدينة يافا عزها ومجدها الذي كان.

ويشعر أبناء مدينة يافا بالغربة، ولا يجدون فيها متسعاً لهم، في الوقت الذي فتحت فيه أبوابها للأغراب والصهاينة.  
والقاسم يدين سياسة المحتل الصهيوني تجاه مدن الداخل الفلسطيني.

نمشي .. وأرصفة المدينة تهزأ  
كل المواثيق .. في المقاهي وكلها  
محجوزة فلأبي سقفة تلجأ  
نصمت بمرفئنا للنوارس، واحتمت  
بقبابنا .. وبنا يميني المرفأ<sup>(1)</sup>

تظهر المدينة في هذا المقطع رافضة لذلك الواقع المهيمن، الذي فرضه عليها الاحتلال، فالقاسم يشعر بالغربة المكاثية فيها، ولكنه لا يشعر بالغربة الروحية، فهي مدينته، وهي امتداده.  
ولم تأت المدينة هنا سوى كاشفة لسياسة الاحتلال البغيض في الأرض المحتلة، فقد عمد إلى قطع الصلة بين المواطن الفلسطيني ومنه، وأصر على القضاء على الهوية الفلسطينية لتلك المدن، ولم يكتف بذلك، بل سعى إلى تهجير الأبناء من وطنهم وجلب الأغراب إليه، في محاولة منه لإثبات حقه في هذا الوطن.

وقد ركز القاسم على جزئيات هذه المدينة، فذكر الأرصفة والمقاهي والمرفأ والقباب، ليدل على عمق العلاقة بينه وبين هذه المدينة، فهو مرتبط معها بعلاقة نفسية، وكل جزء منها حميم إلى قلبه، وهو يشعر بالألم لفقد، ومن خلال هذه الملامح للمدينة، وضع القاسم المتلقي في تهيئة نفسية لرفض وجود العدو الصهيوني في الأرض المحتلة، واستخدم القاسم أسلوب الاستفهام لاستنكار ذلك الواقع ورفضه.

وقد عمد الشاعر إلى إيلاء الذات الفلسطينية، من خلال تأكيد على مشاعر الضياع التي يشهدها في هذا المقطع، فهو يؤكد أن سقوط المكان هو ضياع الإنسان.

(1) سميح القاسم، الاصل الشعري الكاملة، ج1 / 471.

يافا خجلي، لعدم قدرتها على الصمود أمام العدو الصهيوني، وهذا الخجل يشعره أيضاً المناضل الفلسطيني، الذي لم يعد لديه ما يملكه ليقدمه لهذه المدينة، فهو يشعر بالآلم واليأس والحسرة نتيجة تفریطه بمدينة يافا.

وحبيبتي خجلي، تلوب ونهدا  
مطر على ربح .. وكل مضطفي  
بيعت .. وجلجي كاسد يتهرأ<sup>(1)</sup>

وهذه المدينة تغلّ عربية، رغم كل المحاولات التي يقوم بها الاحتلال لطمس معالمها، وإخفاء وجهها العربي، وتشويه ملامحها، فلمدينة ماضٍ مجيد، وحاضر يتنبأ بمستقبل جديد، بفضل أبطالها الذين يحملون لها كل الحب.

هذي المدينة نحن بعين بيوتها  
كيف انتهينا وهي قينا تبدأ؟  
هذي المدينة، من أحوال زهورها  
وحللاً.. وراح يوحدها يتوحد؟  
مطر على ربح .. وجه حبيبت  
ماضٍ يفيق.. وحاضر يتنبأ  
وأنا إنفثها بجنة ساعدي  
خجللاً.. أسوا من عذابي أسوا<sup>(2)</sup>

وفي هذا المقطع يتوحد الإنسان مع المكان، وتأتي المدينة وجهاً آخر للإنسان، وقد عمد القاص إلى إظهار المدينة ضعيفة ومستسلمة، لإدانة الأمة العربية التي لم تقم بدورها الإيجابي تجاه مشن فلسطين، ولعل استخدامه الطباقي في (انتهينا وتبدأ) لتأكيد ذلك اللوم. وقد خرج القاص من دائرة اللوم والعتاب إلى التحفيز وإثارة الهمم، من أجل تغيير الصورة القائمة التي ظهرت فيها هذه المدينة.

ومدينة يافا لا تعطي الفلسطيني المنفى الخيار، فهو محاصر بحبها، وهي حاضرة دائماً في وجدانه، وهي ممثلة له في كل حيز مكاني، وهي تسد أمامه جميع الاحتمالات لعدم العودة، فالعودة أكيدة لتخلص هذه المدينة من أسرها.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 471.

(2) نفسه، ج1/ 471، 472.

أزاورك بعض المذائن عن نفسها  
فتقنه: أين من مدينة

---

وعيناك يا فا على كل بيت  
وعيناك يا فا على كل غاب  
وعيناك يا فا على كل سفح ونهر ووجه  
وعيناك يا فا جديم  
وعيناك يا فا نصيم  
وعيناك قفل على كل باب  
أزاورك كل المذائن لك يا فا - ويص  
يصاحف هذا المساء انتقال العقيد  
إلى رحمة الله ... هذا المساء<sup>(1)</sup>

ترتبط هذه المدينة بقضية هامة من قضايا الإنسان الفلسطيني، وهي قضية اللجوء والهجرة عن الوطن.

تخرج يا فا من دائرتها الصغيرة، لتصبح صورة أخرى للوطن فلسطين، فيافا هي البوصلة التي سيوجه إليها الفلسطيني عائداً من منفاه.

ولعل يافا جاءت لتعطي التوازن النفسي للاجئ الفلسطيني، ليستطيع الحياة في الغربة، ليعود مرة أخرى إلى وطنه، فتصبح يافا المدينة المحرصة للعودة، المدينة التي تحفز أبناءها على رفض الحياة خارج الوطن، وعدم قبول الهجرة واللجوء.

يتواصل القاسم في عبارة (أزاورك بعض المذائن عن نفسها) مع القرآن الكريم، وذلك بتوظيفه بعض ألفاظ الآية القرآنية "وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه"<sup>(2)</sup>، ليعبر من خلال هذا التواصل، عن التجربة الخاصة بالشرود الفلسطيني في تلك المدن التي انتجها إليها.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/124.

(2) سورة يوسف، آية 30.





هل تسقط أوراقه جزافاً  
ثمر للموت  
طلتني على الحارب شراييني  
متى أبلغ قلبي  
ومتى أبلغ يافا؟<sup>(1)</sup>

يغيب وجه المدينة ليظهر وجه الوطن، وهي تظهر موقف الإنسان الفلسطيني المناضل، فيأفا ما هي إلا المرحلة التي يريد أن يصل إليها المناضل الفلسطيني في كفاحه، واستعادتها يستعيد الوطن.

يتسع ضمير المتكلم ليصبح ضمير الجماعة، فالقاسم يتحدث باسم الشريحة الفلسطينية البعيدة عن الوطن، المشردة في المنافي التي تتمنى العودة إلى هذه المدينة، إلى هذا الوطن.

يافا هي الأمل المنشود، هي حلم العودة، عودة فلسطين إلى أهلها، وعودة الفلسطينيين من المنافي، ولن يتنازل الفلسطيني عن هذا الحلم مهما كلفه ذلك من تضحيات، ومهما كانت الطريق إليه طويلة.

قالوا:

سمعتهم .. وهم يتقلبون  
من الحريق إلى الحريق  
لا يجد من يافا .. وإن طال الطريق<sup>(2)</sup>

تتسع دلالة يافا لتشمل المدن الفلسطينية المحتلة، فاستعادة هذا المكان هو استعادة الوطن كاملاً، وقد جاءت يافا لتعكس موقف المناضل الفلسطيني الذي يأبى التخلي عن أي جزء من أجزاء وطنه، فهو لا يقبل المساومة، ولن يرضى بجزء من الوطن دون غيره، "لأن الوطن هو الهوية وهو الكرامة وهو العنوان، بل هو الإنسان في أعظم صوره، وأجمل أمانته"<sup>(3)</sup>، وبالرغم من أن المكان ظهر ساكناً إلا أنه يحمل شحنة من التحفيز للوصول إليه واستعادته. وتستشعر الباحثة بأن صوت القاسم يتدمج مع صوت المناضلين الفلسطينيين، فيبثني موقفهم، ويصبح القول يعكس وجهة نظر الشعب الفلسطيني عامة.

(1) سميح لقاسم، الاعمال الشعرية الكاملة، م204/3.

(2) نفسه، م397.

(3) مفيد محمد قمحية، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، م220.

### لَا يَدُ مِنْ يَافَا .. وَإِنْ طَالَ الطَّرِيقُ (١)

هذه هي مدينة يافا في شعر القاسم، ويمكن التوقف عند النقاط التالية:  
 أولاً: أفرد القاسم قصيدة واحدة فقط للحديث عن مدينة يافا بعنوان (حبيبي ومدنيتي) (٢)، ومن اللافت للنظر، أنه لم يذكر اسم مدينة يافا فيها، ولكن المتلقي من خلال هذه القصيدة سيكتشف هوية هذه المدينة.

ثانياً: يرتبط القاسم مع هذه المدينة بعلاقة حميمة وخاصة، وليس أدل على ذلك من الألفاظ التي استخدمها لتأكيد هذه العلاقة، فالقاسم يرى يافا صمه ولحمه وقلبه، ويرأها الشمعدان الذي ينير الساحل الفلسطيني، وعذراء، وقد استخدم لفظ حبيبي (٣) خمس مرات ليندل به على هذه المدينة.

ثالثاً: لم تعد يافا المكان الجغرافي الضيق في فلسطين، وإنما اتسعت دلالاتها لتشمل فلسطين، فيافا ما هي إلا جزء من هذا الوطن، وقد أصر المناضل الفلسطيني على عودتها إلى أهلها الشرعيين، وتظهر يافا ذات بعد وطني تحرض أبناءها على تخليصها من أسر الاحتلال، وهي أرضية تعكس جرائم المحتل.

وقد ظهرت المدينة أحياناً ساكنة، ورغم سكوتها إلا أنها كانت أحياناً مثيرة ومحفزة للتضال.

رابعاً: جاء لفظ المطر مقترناً بدلالة سلبية عند حديثه عن هذه المدينة، وقد حاء ذلك في موضعين، هما:

مطر على ربح .. ووجه حبيبي  
 في رقة البرد ارمى يتجفا (٤)

أما الموضع الآخر فهو

مطر للخوف

فهل يترحم لي المهد ضفافاً (٥)

(١) سمح القاسم الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 387.

(٢) نفسه، ج1/ 471، 472.

(٣) نفسه، ج1/ 471.

(٤) نفسه، ج1/ 471.

(٥) نفسه، ج1/ 204/3.

## عكا الصمود المتجدد

هذه المدينة الفلسطينية، التي وقفت في وجه الغزاة على مر العصور، يتناولها القاسم في شعره من خلال أفراد قصيدتين لها، الأولى بعنوان (إلى حارس فنار عكا)<sup>(1)</sup>، والثانية بعنوان (صيحة إزاء بوابة عكا)<sup>(2)</sup>، وتأتي عكا في ثلثيا قصائد متعددة للقاسم.

وكان سقوطها بيد الاحتلال هو الخط الرئيس والواضح في شعر القاسم الخاص بهذه المدينة، وقد جاءت عدد من الخطوط لتدعم هذا الخط الرئيس ومنها:

– الوضع السيئ لهذه المدينة نتيجة الاحتلال

– آثار هزيمة المدينة وسقوطها على نفسية أبنائها

– تشتت أبناء المدينة وهجرتهم خارج الوطن

وقد عرض القاسم هذه الخطوط ضمن الخط الرئيس الأول.

وحتى يشعر المتلقي بشيء من التوازن، فقد عرض الشاعر لوجه المدينة الثوري، فجاءت عكا في شعره ثائرة، مناضلة، تساند أبناءها في معركتهم ضد العدو الصهيوني، فظهر خطان متوازيان من خلال حديثه عن هذه المدينة، أحدهما أظهر الصورة القائمة لها نتيجة الاحتلال، والآخر عكس الصورة المشرقة لها، نتيجة دور المناضل الفلسطيني الشمر، الذي سيسمحي بحياته من أجل تحريرها.

– سقوط المدينة بيد الاحتلال

عكا هي منار المدن الفلسطينية، وهي مفعمة بالأمل والأحلام والأمنيات، ولكن تسقط هذه المدينة بيد الاحتلال، فينبغي ذلك المنار، وتتبدد تلك الأحلام، وتضيع الآمال، وتخفى الأمنيات، فقد استطاع الاحتلال أن يقضي على كل أمل لهذه المدينة، والقاسم يتحسر على وضعها الذي تحياه فيقول:

لكن جرحك تاه يوم منار  
متوهج بالحب والإلهار  
عبء البصائر زبد بالإبحار<sup>(3)</sup>

كنت المنار لكل جرح نائه  
وعلى عيونك ألف حلم رائح  
قاس يقين العارفين وباهظ

(1) صبح للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 319.

(2) نفسه، ج2/ 254.

(3) نفسه، ج2/ 254.

وبسقوط هذه المدينة بيد الاحتلال، أصبحت خاوية من معظم سكانها، مهجورة، بدت عليها ملامح الهزيمة والانتكاس، ويسجل القاسم هذا الوضع المأساوي لهذه المدينة، ولكنه ينطلق من دائرة تسجيل الموقف، إلى الدعوة إلى إنقاذها من قيود المحتل الصهيوني، وتخليصها من أسرهم، وهو يلح في هذا الطلب، طارحاً رؤيته التفاؤلية المستقبلية، فهو يرى هذه المدينة وقد تحررت من الاحتلال، وعاد إليها أنباؤها.

### ملت شباهك الصيدا بانتظار

يا حارس الفنا

والقارب المهجور

غطت رمال الشط دفته

وجنبه المكسور

وحكاية أن يهرق

مخائفه المظهور

يا حارس الفنا

أنقذ حبال الجار

من قبضة الأمواج والأعصار

تهزأت يا صاحبي - تهزأت

والجار

غداً يعود جناحك..

للصيد والفنا<sup>(1)</sup>

ومن اللافت للنظر، أن القاسم في هذه القصيدة، لم يذكر اسم عكا، وإنما كن عنوان القصيدة (إلى حارس فنا عكا)<sup>(2)</sup>، يؤكد حديثه عن هذه المدينة.

جاءت عكا صورة عن وضع المدن الفلسطينية التي سقطت بيد الاحتلال، ففي هذه القصيدة يرسم القاسم لوحة زيتية جميلة على شاطئ عكا تفيض بغمر من العاطفة الإنسانية الخالدة بما فيها من أزهار النبل، واخضرار الوعد واكتاز الأمل<sup>(3)</sup>، ولكن الصورة الحسية

(1) سيج القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 319.

(2) نفسه، ج1/ 319.

(3) حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية، نوره وولعه، ج2/ 232.

الكبيرة في حد ذاتها تبعث الأثين في مشاعر الإنسان، وتخصب حزنه الفاعل<sup>(1)</sup>، فيفتح المتلقي مع حارس الفناء، ويهبان معا لنجدة هذه المدينة.

وقد كثف الشاعر الألفاظ الدالة على المدينة لساحلية، فاستحضر (شباك الصيد، حارس الفناء، رمال الشط، المجذاف، الحبال، الأمواج)، ليستشف المتلقي بأن المدينة المتحدت عنها هي مدينة على الساحل الفلسطيني.

كان المتلقي في بداية القصيدة أن يقع في شباك اليأس، لولا أن الأمل سيطر على نفسه، فكلمة (ضاحكا) جاءت لإعطاء التوازن النفسي للإنسان الفلسطيني الذي فقد هذه المدينة.

وقد وظف القاص أسلوب النداء في عبارة (يا حارس الفناء)، ليثير همم الأمة العربية للنفاذ عن هذه المدينة، والوقوف إلى جانبها في محنتها.

استخدم الشاعر الرمز الواضح، فرمز بالأمواج والأمطار إلى الاحتلال وقسوته، وفي هذه القصيدة تداخلت الأزمنة الثلاثة (لماضي وحاضر والمستقبل)، وقد جاء زمن المستقبل يوازي الزمن الماضي، وذلك ليعكس رؤية تفاؤلية مشرقة للمستقبل، فكان القاص يطمئن المتلقي بأن غد المدينة سيكون أفضل من حاضرها.

عكا الفلسطينية، ما هي إلا امتداد لمدينة إشبيلية الأندلسية، تنمذج هاتان المدينتان من خلال الهزائم والانتكاسات العربية، وتصيحان وجهاً واحداً للهيمنة العربية، فيسقط عكا تتجدد مأساة العرب التي عاشوها في سقوط إشبيلية، وبرغم هذا السقوط، إلا أن الصرخة ما زالت في المدى، ولم يصل صداها بعد لأمة العربية، ولن يصل، والقاص يشعر بالمرارة لسقوط المدن الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى بيد الاحتلال، دون أن تبدي الأمة العربية أي اهتمام بذلك الأمر، وكأن الوطن فلسطين لا يعنيها.

**سوف تطفو على الماء في بركة القصر جنتك الزاهية**

**وستهوي إلى القصر جنتك الداعية**

**فاجذب الرق واشرب على خمر عكا، على خمر إشبيلية الثانية**

**سيجيء! لم يتم الإحراق**

**واستداروا الرماح**

**تاركا خلفه الصرخة الخاوية..<sup>(2)</sup>**

(1) حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية، نوره وواقعه، ج 2/ 232.

(2) سمح القاص، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 375.

والقاسم يستنكر انكسارات الأمة العربية والواقع المبهين الذي تحياه، ولا يجد حلاً سوى

لنحني فوق سيفي الشليم، وأهوي قتيلاً، غريباً عن الأهل والجار في

شظف الثيلة الممطرة<sup>(1)</sup>

وبسقوط عكا، يتشرد أبناءها خارج الوطن فلسطين، ويزيدهم ذلك حزناً وألماً، ولكن  
تشرق في داخلهم شمس الحرية، فهم مؤمنون بالعودة إليها، وتحريرها من أيدي الاحتلال،  
ويتولد لدى الفلسطيني القوة والإصرار، فيعلن بقوة رفضه لهذا الواقع والعمل على تغييره.

إنذا أمد يدُ صحا موقنا الموت أهلي والجريمة جاري  
وأنا فطيمك شررتني ضربة عمياء قالوا ضربة الإقذار

-----

وأنا يهودي المحارق، أوقدت أوشفتس أحزاني وشمس نهاري  
والأرمي أنا نعبت جماجمي عجلة لصحة الموت والإصرار<sup>(2)</sup>

وقد وفق القاسم في اختياره صورة (أنا فطيمك)، فيشعر المتلقي بالعلاقة الحميمة بين  
القاسم/ الفلسطيني وعكا، هذه العلاقة التي لن تفصل.

وقد انعكست في هذا المقطع الأوار، وذلك لتأكيد الظلم الذي يعانيه الإنسان الفلسطيني  
باحتلال أرضه، قاعدو الصهيوني الذي كان يعاني في الماضي، أصبح هو الذي يسبب المعاناة  
في الحاضر.

- وجه المدينة الثوري

عكا هذه المدينة الثائرة، تناضل وتكافح وتبعت الثورة في المناطق القريبة منها، أملا في  
الخلاص والتحرر من قبضة الاحتلال البغيض، والقاسم حريص على إظهار صورة المدينة  
المناضلة.

اسجل يا قرد العشويين عمارك فلسطين  
عللي جرى وعللي صار بيد العسكر والثوار  
طلعت كالإب الأثر من عكا قبل العصر  
على يركا والمكر والرامة وشعب والمفار

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 375.

(2) نفسه، ج2/ 254.

وزنوبه الشباب السمر  
والبيارق بيض وخضر  
سجل يا قرى العشرين  
علي جردى وعلي صار  
بتأدق وعيونهم  
وسود وجهم ونور ونار  
عمم أروك فلسطين  
بين العسكر والثوار<sup>(1)</sup>

يظهر هذا المكان (عكا) حافظاً للذكريات التاريخية، وموثقاً لأسماء قرى في الوطن المحتل، شاركت هذا المكان ألامه ونضالاته، وانطلقت لسانده في دوره الكفاحي ضد المحتل الصهيوني، ويأتي هذا المكان لإظهار العمل الثوري الفلسطيني، والعمل المضاد له من قبل جنود الاحتلال.

وظف القاسم الأغنية الشعبية، فإن أهم ما يميز لغة الشعر الفلسطيني المعاصر هو تفاعلها مع روح المجتمع الفلسطيني من خلال احتوائها على مضامين شعبية كالتراث الشعبي<sup>(2)</sup>، وقد جاءت هذه الأغنية لتؤكد هوية الشعب الفلسطيني، وتظهر ملامحه، فهي علامة مميزة لنضال هذا الشعب، ولم تكن إقليميتها ومجليتها عائناً في اندماج المناقشي معها، فقد استجاب لها وأصبح يرددّها، وقد تلاحت مع وجدان الشعب الفلسطيني، وتشكلت بها ملامح الوطن وهويته.

يهب الثوار الفلسطينيون نجدة عكا، والدفاع عنها وتخليصها من أسر الاحتلال، وهم يضحون بأعلى ما لديهم لإنقاذ هذه المدينة، إنهم يقدمون حياتهم فداءً لها، فهم يؤمنون بأن الاستشهاد هو الطريق الوحيد لتحريرها وإعادتها إلى أهلها، ويساندون في هذا العمل البطولي أبناء عكا، فيندغم الثوار الفلسطينيون مع هؤلاء الأبناء لتحرير المدينة.

لهباً أتيتك ألف بحر هائج  
عكا أتيتك، لا تريد كلب شتي  
ولتبصرها راية خفاقة  
الراية الحمراء نسج لحومنا  
عكا أتيتك والجراح رفيقتي  
ظلت أمام إرادتي وأوراي  
فلتسمعي أهزوجة الثوار  
صبغت بسيل من دم فوار  
جفقت على شهيدائنا الأبرار  
وبنورك كوكبة من الإنصار<sup>(3)</sup>

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 87.

(2) سمدي أبو سارة، تطور اتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 333.

(3) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 254.

تتخذ المدينة هنا بدءاً وطنياً، وتتطلق من كونها قضية مدينة معينة، لتصبح قضية وطن مسمي يجب الدفاع عنه، وتخليصه من يد العدو الصهيوني، وتأتي هذه المدينة لتظهر دور الثوار الفلسطينيين، وكفاحهم المسلح ضد العدو، والقاسم يشهد بهذا الموقف، بل ويبتدأه أيضاً. ويكتف تشاعر اللون الأحمر، لما فيه من ظلال وإحباطات نفسية، تؤكد الموقف الذي حنده الثوار، وتنبؤه في معركتهم ضد الاحتلال، واعتمد القاسم على الموروث الشعبي، فاستمد منه لفظ الأزوجة، لتكون نضالات الثوار قريبة الالتصاق بالوجدان الشعبي كما هي الأزوجة، فالثوار من الشعب.

ويصر القاسم على الإتيان لهذه المدينة، من خلال تكراره عبارة (عكا أنتيك) مرتين، فهذه العبارة تضي بالحماية والمساندة لمدينة عكا.

وقد نلاحظت الصور الجزئية المركزة على اللون والحركة والصوت، ولم يعد المتلقي قادراً على تتبع تلك الصور، ولعل القاسم أراد أن يشعر المتلقي بعظم حركة هؤلاء الثوار المقبلين على هذه المدينة، لردّها إلى أهلها، وكأن القاسم أراد أيضاً أن يسابق الزمن، هذا الزمن الذي قهر الشعب الفلسطيني بسقوط مدينته، فتعود المدينة إلى ما قبل السقوط. وقد تواصل القاسم مع الموروث الديني الإسلامي، فاستحضر لفظ (الأنصار) ووظفه، ليدل به على أبناء مدينة عكا، فجاء اللفظ مشحوناً بالتعظيم والإجلال لأبناء هذه المدينة.

عكا ذات التاريخ المجيد، ذات الحضارة المشرقة، تمنح الإنسان الفلسطيني القوة، وتقف إلى جانبه في معركة تحريرها، توازر لصره، وتكسبه الصلابة من خلال صلابة أسوارها المنيعّة التي وقفت سداً منيعاً في وجه الغزاة، والفلسطيني يؤمن بأن الحرية لا بد أن تسقط في سماء الوطن، ولكنها تحتاج إلى كثير من النضال والكفاح وإلى وعي وإرادة.

عكا! فهدى لي يديك وأرزي  
نهرى ببصير صلابة الأسوار  
ولكل أرض موسم، لكنما  
لا بد من فائس وبصير، بذار<sup>(1)</sup>

أظهر القاسم خصوصية عكا من خلال تركيزه على لفظ الأسوار، ومن خلال لفظ الأسوار تتداخل الجغرافيا بالتاريخ، وتصبح هذه المدينة درساً في المنعة والصلابة يقتدي به أبناءها، وبهذا تكون عكا معلمة لأبنائها، ومحروسة لهم على الصمود في وجه العدو الصهيوني. يلتحم القاسم مع عكا، يلتحم الإنسان مع المكان ليستمد منه بعض ملامحه، مما يجعله قادراً على الصمود، أمام عدو شرير يسعى إلى القضاء على وجوده.



هذه هي عكا في شعر القاسم، وقد ظهرت من خلال بعدها الوطني، وقد ركز الشاعر على إظهار خصوصية هذه المدينة تاريخياً، من خلال حديثه عن صلالة أسوارها، وقد أُلحِ القاسم على الوجه المشرق لهذه المدينة، فلم تكن مكاناً ساكناً في الغالب يقبل سياسة المحتل، وبخضوع لجرائمه، ولكنها كانت موازنة لأبلائها، تدعم صمودهم، وتحرضهم على الثبات. ركز القاسم على المعجم الخاص بالمدينة الساحلية (إن جاز التعبير)، وذلك ليؤكد خصوصية هذه المدينة من حيث للموقع الجغرافي.

## غزة مذبحة الأعداء

مدينة غزة لها خصوصية في شعر القاسم، ويلمح المتلقي هذه الخصوصية، من خلال إظهار القاسم للوجه النضالي لهذه المدينة، والتركيز على دورها البطولي في مقاومتها للعدو الصهيوني، فقد ظهرت هذه المدينة، مقاتلة مناضلة، رافضة لجرائم المحتل الصهيوني، وقد لفظت هذه الجرائم في وجه العالم، الذي تركها وحيدة في بؤرة الهجوم، دون إبداء أية محاولة لإنقاذها.

وتأتي خصوصية هذه المدينة أيضاً، من خلال ربطها بحدث تاريخي وطني مميز، كان له الأثر في زلزلة الكيان الصهيوني ألا وهو (الانتفاضة).

فقد أظهر القاسم مدينة غزة حاضنة للانتفاضة، وقد ركز على هذا الحدث، من خلال هذه المدينة، فاستحضر قسوة العدو وأعماله الوحشية فيها أثناء الانتفاضة، وتتبع موقف الفلسطينيين تجاه سياسة العدو خلال هذا الحدث.

وقد ظهرت هذه المدينة محفزة ومثيرة للمدن الأخرى للمشاركة في هذا الحدث الوطني، الذي سيثون تاريخ الشعب الفلسطيني، ونضالاته في ذاكرة الشعب العربي، وسيحقق النصر والتحرير لجميع المدن الفلسطينية، التي ترواح تحت سيطرة هذا المحتل.

مرفاً غزة، يجتذبه العدو الصهيوني بكل ما لديه من أحقاد سابقة عرفها عنه التاريخ، وبكل ما لديه من وحشية وقسوة، وبكل ما يمتلكه من لذة للقتل، وقد حفظت هذه المدينة ملاحم هذا العدو، كما حفظت ملاحم الفلسطينيين وبطولاتهم.

الغول، والعنقاء، والخل الوفي

حُفِظَتْ ملاحمهم.

وبكائ الموت يحفظ كل شيء

في المرفأ المأهول بالآئين من دهر قديم

## بنوازع القتلى القدامى.

بالقواربي،

باللغات...<sup>(1)</sup>

يظهر هذا المرفأ مكاناً حافظاً للذكريات القديمة، وباعثاً لأحداث ممتدة عبر هذا الزمان الحاضر.

ويلمح المتلقي من خلال هذا المقطع، مثلاً متساوي الأضلاع، ضلعه الأول يتكون من الغول، وقد رمز به للعدو الصهيوني، وقد وفق القاسم في اختيار هذا الموروث الشعبي، فنقط الغول يدخل المتلقي في حكايات الخوارق<sup>(2)</sup>، ويشعره بالقوة المخيفة الجبارة، والقدرة على إيذاء الآخرين، والإيمان في الإساءة إليهم، ويعكس هذا اللفظ أيضاً كل معاني الوحشية والدمار. أما ضلعه الثاني فهو الخل الوفي، وهو المعادل الموضوعي للفلسطيني المخلص لوطنه، والمنتمى لأرضه، والمثبت بجذورها، وهذا اللفظ يبعث الراحة والهدوء والاتزان في نفس المتلقي إزاء لفظ الغول السابق.

وبرغم القوة الجبارة في الضلع الأول والهدوء في الضلع الثاني، إلا أن هذين الضلعين قد جاءا متساويين، فإيجابية الثاني (الخل الوفي) تقضي على سلبية الأول (الغول)، وهكذا تشكل لدى الضلع الثاني القدرة على الوقوف أمام القوة الجبارة (قوة الغول الهائلة). أما قاعدة هذا المثلث فهي العنقاء، ولعلها المدينة الفلسطينية (مدينة غزة)، هذه المدينة المنبعثة من الدمار، فهي برغم الاعتداءات المتواصلة عليها منذ زمن طويل حتى الآن، إلا أنها ما زالت موجودة، وهي لن تموت ولن تسقط، وإنما تبعث من جديد، وتعود إلى الحياة بعد كل سقوط، فسقوطها ما هو إلا بداية لتحررها، وبعثها من جديد.

ولفظ العنقاء يبعث الأمل في نفس المتلقي بما يوحيه من بعث وتجدد وحياة، وهو يشي بأن مدينة غزة لا بد أن تتحرر.

وقد أحسن القاسم التعامل مع الموروث الشعبي بتوظيفه لفظ العنقاء، فـ "التراث بالنسبة لنا هو عملية مقاومة وعملية صمود في أن، إلى جانب الإمكانيات الإبداعية الجمالية الكامنة في هذا التراث"<sup>(3)</sup>.

والوضع الأساسي الذي تحياه مدينة غزة ليس جديداً عليها، فقد مرت هذه المدينة بفترات تاريخية صعبة، تشبه المرحلة التي تحياها الآن (مرحلة احتلالها من قبل العدو الصهيوني)،

(1) سميح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 45/2.

(2) لمزيد من المعلومات عن حكايات الخوارق، انظر نمر سرحان، الحكاية الشعبية الفلسطينية، ص 59.

(3) شوقي لحد أبو زيد، قصائد سميح القاسم شعر عربي من خرق ومجاز، مجلة الأكلام، ج 2، 1993، ص 131.

ولكنها استطاعت أن تتبعث من جديد، بفضل أنبائها المخلصين، المحبين لها، الذين وقفوا إلى جانبها في محنتها.

الغول والعنفاء. والدمُ والشبابكُ  
والنسل. والخل الوقي  
من أول الجنيا هناك  
لآخر الجنيا - هناك<sup>(1)</sup>

وزاء الهجوم القاسي على مدينة غزة من قبل الاحتلال الصهيوني، لا يجد الفلسطيني أمامه سوى القول:

وأعوذ بالله الرجيم  
من شر ما خلقت يداه  
وأعوذ بالشمر الرجيم  
من شر ما خلقت يداه<sup>(2)</sup>

يتواصل القاسم في هذا المقطع مع القرآن الكريم، من خلال الآيات "قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد"<sup>(3)</sup>، فهو من خلال هذا التواصل باللفظ والمعنى، يؤكد على فكرة الشر والعنوانية التي يحملها المحتل الصهيوني للمدينة الفلسطينية، ويشي هذا المقطع بانتقال الفلسطيني من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوة والوقوف في وجه العدو الصهيوني.

من مدينة غزة من مدينة الأحران، من مدينة الموت والدمار، تتطلق صرخات الإدانة والاحتجاج والرفض، لموقف العالم الذي لم يحرك ساكناً، إزاء تلك الانتهاكات المستمرة في هذه المدينة، ويلتحم القاسم مع أبناء غزة، ليطلق ذلك اللوم والعتاب لهذا العالم.

من هنا  
من سطر الجحيم  
أيها العالم، تدعوك العصفير اليتيم.  
من هنا من شرّة الموت.

(1) سميح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م48/2.

(2) نفسه، م48/2.

(3) سورة الفلق، الآيات (1-4).

(فيها العالم نجدوه)  
فرد الغار، والنابال، والأيدى اليتيمة!  
هللوا... (1)

تدخل غزة في دائرة جرائم المحتل، ولكنها لا تظهر مكاناً ساكناً مستمسكاً لتلك الجرائم، بل بؤرة للتمرد والرفض من خلال أبنائها المحتجين، فيتوحد المكان مع الإنسان، ليطلق تلك الدعوات لوقف هذه الجرائم، وتظهر غزة محروسة لاتخاذ موقف سياسي، من خلال تلك الدعوات الموجهة للعالم.

وفي هذا المقطع، يلمح المثقفي معادلة بين طرفين، الطرف الأول يشكله الشعب الفلسطيني ببرامته وحزنه، وقد وفق القاص في اختياره عبارة (العصافير اليتيمة) للدلالة على تلك البراءة وذلك الحزن، أما الطرف الثاني فيشكله المحتل الصهيوني، الذي ظهر من خلال معادته (الغار، النابالم) وجرائمه الوحشية المستوحاة من عبارة (الأيدي اليتيمة)، وقد ركز القاصم على هذه المعاداة، لتأكيد على جرائم المحتل في هذه المدينة، ولتعريض بالعالم الذي لم يتخذ الموقف المناسب تجاه تلك القوة العاشمة.

وقد جاءت هذه المعادلة بين تقيضين، وحتى يتم التوازن بين طرفيها، يهدف الطرف الضعيف (الفلسطيني) هذه الجرائم في وجه العالم، وكانت غزة الأرضية لهذه المعادلة. ومن اللافت للنظر أن القاصم استخدم مفردة الصيغة بالواقعي والمشخص والراهن<sup>(2)</sup>، فاستخدم لفظ (لنابالم) وقد جاء هذا اللفظ منسجماً مع الألفاظ الأخرى، وهذا يدل على قدرته على استخدام اللغة، فلم يكن يشهد الغرابة والإثارة، وإنما كان يشق لغة القصيدة من موضوعها، مؤكداً زمن القول الشعري، وزمناً شعرياً جديداً معاً<sup>(3)</sup>.

وقد وفق القاصم في توظيفه الانزياح الدلالي في عبارة (ليل الجريمة) ليؤكد شراسة الاحتلال في هذه المدينة، وقسوة تلك الجرائم المرتكبة بحق أهلها، فتكون هذه العبارة تهيئة نفسية للمثقف، للموقف الذي سيخذه أبناء المدينة، وهو إطلاق دعوات الرقص والإدانة لوضع مدينتهم المأساوي.

توحد الشعب الفلسطيني عامة مع أبناء غزة في إطلاق تلك الدعوات للعالم، وذلك من خلال توسيع دائرة الضمائر، فقد كانت الدعوات في البداية خاصة بأبناء غزة، وهذا يتضح من خلال عبارة (تدعوك العصافير اليتيمة)، ثم اتسعت لتشمل الشعب الفلسطيني من خلال

(1) سمح القاصم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/137.

(2) فيصل دراج، نحية إلى سمح فقس في عيد ميلاده الستين: الإبداع الشعري في الهوية الوطنية، مجلة دار أدب الفلسطينية.

ج40، 1999، 144-145.

(3) نفسه، 145.

(ندعوك)، وبهذا أصبحت جبهة الفلسطيني قوية، مما دفع القاسم إلى استخدام اللهجة الأمّرة في عبارة (فرد النابالم)، ففعل الأمر قد سبقه شعور بالقوة، عن طريق توحيد الشعب الفلسطيني إزاء الجرائم المرتكبة بحق هذه المدينة.

وقد أنهى القاسم هذا المقطع بلفظ مقدس مستمد من التوراة وهو لفظ (هللويا)، لتكون الدعوات الموجهة إلى العالم من مدينة غزة دعوات مقدسة، وعلى العالم أن يلتزم بها، فتكون النتيجة إيجابية بالنسبة للمدينة الفلسطينية غزة، وتكف عنها أيدي الاحتلال.

مدينة غزة شامخة الجبين رغم كل الجرائم المرتكبة بحقها، وهي تستمد شموخها وقوتها من قوة أبنائها المدافعين عنها، فهم يشعرون بالمسؤولية تجاهها، ويرفضون أن يكون هناك حادث بينهم وبينها، وهم يقدمون حياتهم فداءً لها.

#### وجبينها العالي.

كـ صـ ا ر يـ ة تـ صـ و و و لا تـ صـ و و و

مـ ن سـ قـ فـ أـ عـ مـ دة الدـ خـ ا ن

و ا ن ا خـ ا طـ بـ هـ ا .

و فـ ي عـ نـ قـ ي سـ لـ ا سـ ل مـ و تـ ي الـ ائـ ي

أـ سـ ا لـ هـ ا .

و سـ و ر الـ لـ سـ جـ ن يـ لـ صـ قـ عـ ا ر هـ : مـ ا إـ نـ تـ ؟ مـ ن<sup>(1)</sup>

جاءت الصورة الخاصة بهذه المدينة، محملة بعدد من الأنفعالات النفسية، وذلك من خلال الألفاظ الموحية، التي اختارها القاسم لرسم هذه الصورة، ففي بداية الصورة ومن خلال عبارة (جبينها العالي) يشعر المتلقي بالتفاؤل، فلفظ العالي محمل بدلالة الشموخ والمنعة، وهذا ما أراده القاسم لهذه المدينة، ويتمدد شعور التفاؤل عند المتلقي بعبارة (صارية تعود)، فيظل العلو هو المسيطر على ذهن القارئ، وتزداد إيجابية هذه الصورة، عندما تشحن الصارية بالعودة، هذه العودة التي يتمناها القاسم لمدينة غزة، فكأنه يخبر عما في لا وعيه، ولكنه يعود إلى وعيه، إلى وضع غزة المأساوي فيشعر بالحزن، فيبقي تلك العودة ويسلب المتلقي التفاؤل، الذي شعر به في مقامة هذا المقطع، وقد وفق القاسم في توضيف عبارة (من سقف أعمدة الدخان)، فمن خلال الدخان تصبح رؤية الشاعر لهذه المدينة غير واضحة، ومن ثم يشعر بالبعد بينه وبينها، ولعل القاسم أراد إشعار المتلقي بالبعد الذي أوجده الاحتلال الصهيوني بين هذه المدينة وأبنائها،

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج49/2، 49.

وبرغم هذا البعد، إلا أن المواطن الفلسطيني، يصر على وجود هذه المدينة، وعلى وجوده من خلالها.

غزة، مدينة مقاتلة، متضلة، تلحّم مع أبنائها لتقف في وجه قوات العدو الصهيوني، فتصبح هذه المدينة جبهة من جبهات الحرب، ويستل أنوارها في الدفاع عنها، وبرغم قوة العدو الصهيوني إلا أنه لم يستطع أن ينال من عزيمة المناضلين الفلسطينيين وصمودهم. والقاسم يفخر بهذه المدينة التي رفضت كل ملامح السلبية والانهزامية، وقامت لتدافع عن وجودها.

### أسألها

.....

أمدينة ؟ أم موقع متقدم.

في جبهة نقشت بصور جنودها الشجعان

بكل الأسلحة

وعلى بصور جنودها الشجعان

بذلت .. كل .. كل .. الأسلحة؟!

ما أكثر من؟

أمدينة (م مجبحة)<sup>(1)</sup>

تطلق غزة في هذا السطوع من كونها مكاناً ذا حدود جغرافية واضحة، إلى مكان مقاتل يصنع تاريخه بنفسه.

لم يستطع القاسم أن يخفي شعوره الوجداني تجاه هذه المدينة، ودورها البطولي ضد الصهاينة، وعبر عن هذا الإعجاب باللفة الاستهامية التي انطلقت من دائرة الاستفهام لتدخل دائرة التعجب.

غزة مدينة الصمود والقوة والتحدى، استطاعت أن تحقق المعجزات، مثبته وجودها وقدرتها على التضامن، وهي تمنح فلسطيني الداخل الأمل، فهم يفلحون إليها بكل إعجاب وتقدير، ويمتدنون منها قوتهم وصلابتهم لذلك يوجه لها القاسم التحية.

يا صباح الخير، أخت الجامدين

أقوى وأعلى؟

(1) سميح القاسم، الاصل الشعرية الكاملة، ج49/2، 49.

يا صباغ الخير، بنت المعجزات!  
 قجماي في الإفقات من عشرين عام،  
 ويطاى من عشرين عام.  
 في النار يا جبي الممروق- آخ- من عشرين عام<sup>(1)</sup>

يتوحد القاسم مع مدينة غزة فبرأها حبه المحظور، ويتمنى لو يخرق حواجز العدو الصهيوني، فيرى نفسه

جافـمـاً لا هـيـفا في سـاجـنـك  
 وفـتـى يـنازل غـاصـيـك، عـلى قـراب أـرقـنـك  
 وأنـا القـتـيل عـلى الرـصـيـفـه  
 وأنـا الأـشـجـاء الـوقـفـه  
 وأنـا الـيـيـسـ .. الـهـرـقـةـالـ ..  
 إنا الهـذايـسـ ..  
 إنا الصـمـوتـ ..  
 إنا المـثـاتـ  
 إنا الإلـوهـ<sup>(2)</sup>

يلتحم القاسم مع كل جزء من أجزاء هذه المدينة ويتوحد معها ليصبح المكان ملمحاً من ملامح الإنسان، وتتسع دائرة غزوة لتصبح الوطن، واتسع ضمير المتكلم ليشمل الشعب الفلسطيني، الذي يصير على الاتحاد مع هذه المدينة في تضالاتها وبطولاتها تجاه الأعداء،

ونتيجة الاتحاد بهذه المدينة، فعلى المناضل الفلسطيني أن يتخذ القرار

اليوم صار على المحجير اختيار الموت  
 أو أبعد الفراق  
 اليوم عرس كومي المراق  
 وأنا .. وإنتـ ..  
 نعيش يا جبي المقاوم  
 أو نموت<sup>(3)</sup>

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/2/ 49.

(2) نفسه، م/2/ 50

(3) نفسه، م/2/ 50

ويكون القرار لصالح المدينة وصالح الإنسان الفلسطيني، يندمجان معاً من أجل الحفاظ على كرامة هذه المدينة، وكرامة هذا الإنسان الفلسطيني، فالكرامة تتحقق في الوطن وليس من خلال اللجوء إلى وطن آخر.

غزة تصبح ساحة حرب حقيقية في الانتفاضة الفلسطينية التي حدثت عام 1987، وهي تتحدى المحتل الصهيوني بكل ما لديه من جيوش من أن يدخل هذه المدينة.

**تقدموا! تقدموا!**

**كل سماء فوقكم جهنم**

**وكل أرض تحتكم جهنم**

**تقدموا! (1)**

تظهر غزة مكاناً معادياً للمحتل الصهيوني، في الوقت الذي تظهر فيه المدينة للبيعة لأبنائها، فمن خلال معاداتها للاحتلال ستثبت وجودها، وقد استخدم القاسم المفارقة اللفظية من خلال فعل الأمر (تقدموا) لتحدي الاحتلال والسخرية منه والاستهزاء به، وهنا يسلب القاسم قدرة المحتل وجبروته، ويجعله ضعيفاً أمام هذه المدينة المناضلة الثائرة.

وقد وفق الشاعر في توظيف الطباق في هذا المقطع، فكان العدو أصبح محصوراً في منطقة يشعر فيها المتلقي بالغليان، وهذا ما أراد أن يعكسه القاسم، فمدينة غزة لم تعد تلك البقعة الجغرافية على خريطة فلسطين، وإنما أصبحت بؤرة مشتعلة.

في مدينة غزة، وفي الانتفاضة، يتقدم المحتل الصهيوني بكل ما لديه من قسوة ومهجة، وكل ما لديه من أسلحة وعداء، لتفضاء على هذا الحدث الوطني المميز (الانتفاضة)، وهو يقوم بسلسلة من الجرائم الوحشية القاسية في هذه المدينة، في مبيت القضاء على إرادة هذا الشعب، وكسر همته واجتثاث الانتماء من المواطن الفلسطيني لهذا الوطن، ولكن أتى له ذلك.

**تقدموا!**

**بأقليات جنديكم**

**وراجمات حقديكم**

**وهديدوا**

**وشردوا**

**وبتموا**

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 3/ 266



وهمجوا  
 لن تكسروا أعناقنا  
 لن تهزموا أشواقنا  
 نحن قضاة مبرم<sup>(1)</sup>

تظهر هذه المدينة من خلال صورة العدو وأعماله الوحشية القاسية فيها، واستخدم القاسم أفعال الأمر لإحداث المفارقة اللفظية، ليؤكد التحدي لقوات الاحتلال، والسخرية من هذه القوة التي لم تستطع الوقوف أمام قوة الانتفاضة، وقد وفق القاسم في نتائج الأفعال ليدل على اتساع دائرة الجريمة، التي يرتكبها المحتل بحق هذا الشعب، وهي تنفي أيضاً بعنف الانتفاضة وقوتها تجاه المحتل.

ولعل حرف العطف الواو جاء للتأكيد على تنابع هذه الجرائم، دون أن يكون هناك فاصل زمني بينها.

ومن اللافت للنظر، أن السطحية والمباشرة سمة واضحة في هذا المقطع. وقد وفق القاسم في اختيار حرف النفي لن في عبارتي (لن تكسروا أعناقنا، لن تهزموا أشواقنا)، ليؤكد أن النتيجة محسومة، وهي لتتصار الإرادة الفلسطينية أمام قوة الاحتلال الصهيوني، وأن المستقبل للفلسطينيين وليس للعدو الصهيوني بالرغم من قوته. أدخل الشاعر إلى هذا المقطع مصطلحات حربية من خلال (بنقالات جنديكم، وراجمات حقدكم) وقد جاءت هذه المصطلحات من واقع الحياة في المدينة الفلسطينية المحتلة، وجاءت مندعمة مع ألفاظ المقطع، لا يشعر المتلقي بأي شرح بينها وبين الألفاظ الأخرى. ولعل الانزياح الدلالي في عبارة (راجمات حقدكم) للتأكيد على أن حقد المحتل على الفلسطينيين عنيقاً، وبالتالي تكون ردة الفعل الفلسطيني في مجابهة هذا الحقد متساوية في العنف، فتشعل الانتفاضة، فنلعل فعل رد فعل.

أهل مدينة غزة مناضلون، ثائرون، صامدون، يدافعون عنها ويبدلون كل ما لديهم من أجلها، وهم يرفضون الاستسلام.

يحيوت منا الطفل والشيخ  
 ولا يستسلم  
 وتسيطر الأم على أبنائها القتلى  
 ولا تستسلم<sup>(2)</sup>

(1) مسيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 266

(2) نفسه، ج1، 266.

فالقاسم أكد من خلال هذا المقطع، على كل فئة من سكان هذه المدينة، ليصل المتلقي إلى نتيجة مفادها أن سكان المدينة جميعاً وبلا استثناء، يدخلون دائرة النضال ضد العدو .

اتخذ أبناء مدينة غزة سلاحهم الذي يدافعون فيه عن وجودهم وكيانهم، اتخذوا الحجر في هذه المرحلة من النضال (مرحلة الانتفاضة الفلسطينية)، واستمد الحجر قوته من قوة قاذفيه، وقد جاء موازيا لقوة أسلحة العدو الصهيوني.

#### تقديموا!

وراء كل حجر كفه

وبخلفه كل عصابة جنود

وبعد كل جثة فخ جميل صديكم

وارح تحت ساق

يظل ساعد ومقصم<sup>(1)</sup>

لغة القاسم في هذا المقطع واقعية ---- وهي تكتزن كمية هائلة من الانفعال، لذلك تفرض ما يسمى بالكثافة والغموض<sup>(2)</sup>، لأنها تعبر عن ذلك الحدث الوطني (الانتفاضة)، فجاءت اللغة مشابهة لذلك الحدث في تلقائيتها.

غزة تحث الفلسطينيين على النضال والمشاركة في الانتفاضة الفلسطينية، لتخليصها من أيدي الاحتلال، وإعادتها إلى أهلها الشرعيين، فهي تشعر بالغيرة والحزن، وتستجد بأبنائها، ولأنها قطعة نابضة بالحياة في قلب كل فلسطيني، لذلك لم يعد للخوف مكان في نفوس أبنائها، فهم يقبلون على الموت غير أبيين بما يقابلهم من أسلحة العدو .

لا خوذة الجندي

لا هراوة الشرطي

لا غاركم المسيل للدموع

غزة تُبكيها

لأنها فينا

بجراوة الضائب

في حينها السام إلى الرجوع

تقديموا!<sup>(3)</sup>

(1) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 267.

(2) عبد العزيز المقالح، الصوت الفلسطيني في قصيدة الانتفاضة، مجلة الأدب، ع 9، 6، 1991، 9.

(3) سمح لقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 269.

تأتي مدينة غزة في هذا المقطع لتشي برؤية المدن الفلسطينية في الداخل، فهي ترى في الاحتلال واقعاً مفروضاً عليها مع إصرارها على رفضه، وهي ترفض أن تخضع غزة والمدن الفلسطينية في حدود 1967 لمتلك ذلك الواقع المفروض عليها، لهذا تأتي بيرة القاسم/ مدن الداخل الفلسطيني حماسية ومحرضة الشعب الفلسطيني على رفض ذلك الواقع، بل وتحثه على الاستمرار في الانتفاضة، عليها تكون الخلاص من قيد الاحتلال.

وكل جزء من أجزاء هذه المدينة يثور ويناضل ويشارك في الانتفاضة، رافضاً الخضوع والاستسلام مفضلاً الموت على حياة الذل.

تَقْدِمُوا

من شارع لشارع

من منزل لمنزل

من جنة لجنة

تَقْدِمُوا

يجب كل حجر مغنّب

تجرب كل ساحة من غضب

يجب كل عجب

الموت .. لا الركوع

موت .. ولا ركوع<sup>(1)</sup>

ينقل القاسم صورة لمدينة غزة تظهر فيها جزئيات هذه المدينة، ويتردد في هذه الأماكن صوت الرقص، ويأتي صدها للمتلقي، فإذا به يردد الصوت نفسه

الموت .. لا الركوع

موت .. ولا ركوع<sup>(2)</sup>

وتوافق الباحثة فيصل دراج في أن القاسم في هذا المقطع قد "ارتاح إلى لغة المظاهرة التي تضع الإنفعال والعقل في موقع واحد"<sup>(3)</sup>.

(1) مجموع القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 269/3.

(2) نفسه، ص 269/3.

(3) فيصل دراج، تحية إلى مسيحي القاسم في عيد ميلاده المئتين، الإبداع الشعري في الهوية الوطنية، مجلة الدراسات الفلسطينية،

ص 40، 1999، 140.

الانتفاضة الفلسطينية، هي التي سترسم مستقبل الشعب الفلسطيني، هذا الشعب الذي سينتصر، وسيحقق ما لديه من آمال، وسيحكم في زمام الأمور في النهاية، وفي المقابل سترسم الانتفاضة طريق الهزيمة للعدو الصهيوني،

#### تقدموا

طريقكم وراءكم

وغدكم وراءكم

وبرركم وراءكم

ولم يزل أمامنا

طريقنا وغدنا وبرنا وبحرنا

وخيرنا وشؤوننا<sup>(1)</sup>

يتمدد المكان أمام الشعب الفلسطيني، ويتسع شيئاً فشيئاً، وذلك لأن الفلسطيني يملك الحق والإرادة، وفي المقابل يضيق هذا المكان على المحتل الصهيوني، لأنه يعمد إلى سلب ذلك الحق من أصحابه الشرعيين، لذا فنهايتته واضحة وهي الهزيمة، ووشيكه أيضاً.

وتبقى مدينة غزة مصدر قلق وتوتر للمحتل الصهيوني، الذي يتربص بحذر وضع هذه المدينة، ويتخذ كافة التدابير للقضاء على كل حركة تضال وتحرر فيها،

يتفقد الإغراب من حين لحين

تفاج جرحك .. هل سيثمر

للـ زالة التـ اتحين

يتفقد الإغراب جرحك وهو ينزف

وهو ينزف في ظلال الياسين

يتفقد الإغراب جرحك

فـ تمـ وتـ

في الفجر غرة قد تموت<sup>(2)</sup>

(1) سميح المقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 267.

(2) نفسه، ج2/ 49.

وفق القاسم في اختيار الانزياح الدلالي في عبارة (تفاح جرحك)، فقد جعل للجرح طعماً  
 لنبدأ لأنه سيحت المناضل الفلسطيني على الأخ بئار مدينته، وسيكون التحرير والنصر لهذه  
 المدينة، وقد اعتمد القاسم في هذا الانزياح الدلالي على تبادل معطيات الحواس، فقد أصبح  
 الجرح المرئي والملموس له رائحة وطعم، مما يعمق دلالة الجرح في نفس الفلسطيني ويؤثره  
 للدفاع عن هذه المدينة.  
 وقد وظف اللغة الأسفهامية في عبارة (هل سيثمر) لتعني هذا الفعل الإيجابي بالنسبة  
 للفلسطينيين والسلي للمحتل الصهيوني.

غزة، هي مدينة الشاعر المناضل معين بيسمو، هذا الشاعر الفلسطيني الذي حمل هموم  
 أمته، وعبر عنها في شعره، وبموته يتجرع القاسم العذاب والألم، كما تجرع قبل ذلك ألم سقوط  
 غزة بيد الاحتلال، ولعل الجامع بين موت بيسمو وسقوط غزة، هو الحزن والألم الشديد لفقدان  
 شيء حميم ترتبط به النفس ارتباطاً وثيقاً، وتنتمي إليه.

يا صاحبي الصعلوك  
 فهاهنا جني القليل  
 من الهجاء المستجبل  
 من كنت حتى أبتلى بعذاب غزة  
 مرة أخرى،<sup>(1)</sup>

لم تأت مدينة غزة هنا إلا للحديث عن شخصية من شخصياتها وهو الشاعر معين بيسمو.

ويخرج من هذه المدينة بائع متجول إلى متن الدخول الفلسطيني، يبحث فيها عن لقمة  
 عيشه، كما يبحث عن الالتحام والمساندة من هذه المدن، ولكنه لا يجدها.

فريسة تبحث عن رعياء  
 ههنا أنت  
 بسلة البلاستيك الخضراء

بالكوفية المهلهلة والعقال المائل بفوقتي

ههنا أنت

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 3/ 127.

**بجوعك وصبرك وجاهلك  
في حيّفا المينة  
حيّفا المملّنة حياة  
حيّفا التي هجرتك ونسيّتك وخانتك<sup>(1)</sup>**

وبالرغم من عدم ظهور اسم غزة في هذا المقطع، إلا أن القصيدة التي أخذ منها بعنوان (بائع متجول من غزة المحتلة)<sup>(2)</sup>.

جاءت غزة في هذا المقطع، تحمل البعدين الاجتماعي والسياسي، وقد اتحدت هذه المدينة مع مدن الداخل الفلسطيني لتطلق صرخة رفض لذلك الواقع المرير الذي تحياه المدينة الفلسطينية، وقد وفق القاسم في إظهار مدينة حيّفا في هذا المقطع بهذه الصورة القائمة السلبية، لإدانة سياسة المحتل الصهيوني الساعية للقضاء على الوجود العربي في المدن الفلسطينية، بل وتهود تلك المدن، وقطع الصلة بين مدن الداخل الفلسطيني ومدن الضفة الغربية وغزة.

هذه هي غزة القسم، بذت مختلفة عن المدن الفلسطينية التي تحدث عنها في شعره، وذلك من خلال تكثيف لدورها البطولي، وموقفها النضالي تجاه العدو، وخاصة في مرحلة من مراحل النضال الوطني الفلسطيني وهو مرحلة الانتفاضة.

وقد أفرد القاسم لهذه المدينة ثلاث قصائد، الأولى بعنوان (غزة)<sup>(3)</sup>، والثانية بعنوان (قصيدة الانتفاضة)<sup>(4)</sup>، وبالرغم من أنه لم يذكر اسم مدينة غزة في هذه القصيدة سوى مرة واحدة، إلا أن القارئ يستنتج أن أرضية القصيدة هي مدينة غزة، فمنها انطلقت شرارة الانتفاضة، وعلى أرضها كان التحدي، والإصرار على إثبات الهوية الفلسطينية، أما الثالثة فيعنوان (بائع متجول من غزة المحتلة)<sup>(5)</sup>.

ومن الجدير بالذكر، أن المقاطع الشعرية التي وردت في هذه الدراسة عن هذه المدينة، ولم يذكر فيها اسم غزة قد أخذت من القصيدتين الأولى والثانية.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم في حديثه عن هذه المدينة، قد وظف عدداً من المصطلحات الحربية التي تنمي سياسة الاحتلال في هذه المدينة، وتعكس الواقع المعيش للمدينة الفلسطينية المحتلة، ومن هذه الألفاظ الحربية (بناقلات جندكم، راجمات، الغاز، النابالم).

(1) سميح القاسم، كولاج، 33.

(2) نفسه، 33.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 48.

(4) نفسه، م 3/ 266.

(5) سميح القاسم، كولاج، 33.

وقد أظهر القاسم هذه المدينة من خلال شخصية من شخصياتها، وذلك في قصيدة (لفت تدري كم لحبك)<sup>(1)</sup>، فقد ظهرت غزة من خلال الحديث عن الشاعر الفلسطيني معين بسيسو، ولم يكن الهدف الحديث عن هذه المدينة كمكان، وإنما عن هذه الشخصية وموم الإنسان الفلسطيني.

## رفع بطولة الأطفال

ظهرت هذه المدينة في شعر القاسم من خلال قصيدة واحدة بعنوان "أطفال رفع"<sup>(2)</sup>، وقد جاءت هذه القصيدة لتعلن فخرها واعتزازها ببطولة أطفال رفع، الذين كان لهم دور كبير في النضال ضد العدو الصهيوني.

ومن خلال الإشادة ببطولة هؤلاء الصغار، انتقل القاسم للحديث عن جانب آخر من جوانب هذه المدينة، وهو سياسة العدو الصهيوني، فأظهر الصورة القبيحة لذلك المحتل، وجرائمه المرتكبة في هذه المدينة، ولم يكن الهدف في التركيز على سياسة العدو وجرائمه، سوى توحيد دور الأطفال الصغار، وقدرتهم على الوقوف أمام هذه القوة الجبارة، قوة المحتل.

في مدينة رفع، ينفذ المحتل الصهيوني جرائمه الوحشية، فهو يجتث من نفوس الفلسطينيين كل أمل بالمستقبل، وهو يسلب الأمن والاستقرار من كل جزء من أجزاء هذه المدينة، بل ويبعث الفتنة والدمار والخراب فيها، ويقضي على معالم الحضارة، إنه يعمد إلى كسر روح الإنسان الفلسطيني، ويحاول بكل قوته سحق كل المعاني الإنسانية التي يمتلكها هذا الشعب، إنه يعمد إلى قتل التفاؤل والأمل والطفولة في مهدها في هذه المدينة.

للذي يحفر في جروح المليونير طريقه  
للذي تسحق دباباته ورد الحديقة  
للذي يكسر في الليل شبابيك المنازل  
للذي يشتعل بستاناً، ومتحفه  
ويغني للحريق!  
للذي ينحل في خطوته شعر التواكل  
وهو لا تتقصه  
للذي يصدم في الميدان دوري الفرح

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 123.

(2) نفسه، ج1/ 434.

للجدي تقصف طياراته حلم الطفولة  
 للجدي يكسر أقواس قزح  
 يعلن الليلة أطفال الجذور المستحيلة  
 يعلن الليلة أطفال رفح: (1)

اتكأ القاسم على لمصور الجزئية المتلاحقة المعتمدة على عناصر اللون والصوت والحركة، فيشعر المتلقي بدخوله دائرة الحدث، وبالتالي يكون مطالباً باتخاذ الموقف المناسب، تجاه هذه الأعمال القاسية المرتكبة من قبل المحتل الصهيوني بحق أهل رفح. فالقاسم يدمج المتلقي مع هذا النص، ليصل إلى نتيجة إيجابية، وهي اتساع دائرة المشاركة الوجدانية مع الشعب الفلسطيني، ومن ثم فهم مواقفه وتبني أرائه. ومن خلال هذه الصورة، عكس القاسم الواقع المعيش الذي تحياه مدينة رفح، وكل مدينة فلسطينية محتلة.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم اعتمد على الأفعال التي تدور في محور العنف والقسوة والبطش، لإعطاء صورة عن أعمال العدو الصهيوني في هذه المدينة.

مدينة رفح، جنة عارية متهنة، يتجول الاحتلال في شوارعها، ويفرض عليها أحكامه إشعاراً بقدرة وهيمته عليها، ولكن هذه المدينة تخفي قوة هائلة، تظهر من خلال أطفالها، الذين رفضوا ذلك الواقع، واقع الاحتلال، واقع الغربة واللجوء، وقد أقسم هؤلاء الأطفال أن يعيدوا إلى مدينتهم حريتها، فكانت تلك البطولات الصغيرة.

كانت الشمس على سنجة فاتح  
 جنة عارية متهنة  
 تنزف الدم على حقد المسابح  
 ووجهه حولها محتقة  
 صاح محتل خرافي الملامح:  
 'لن تنجحوا! ...  
 حسناً - حظرتجول،  
 منذ ساء .."

وانشق عن صوت علماء الدين  
 ميلاد الحساسين الجوارح  
 - إنا القيتم على سيارة الجيش الحجارة

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 434.



- أنا وزعت المناشير.  
واعطيت الإشارة  
أنا طرزت الشعار  
ناقلاً كرسيّ والفرشاة  
من جيبي .. لبيت .. لجدار  
أنا جمعت الصفار  
وحلفنا .. باعتراب اللاجئين  
أو نكافح.  
طالباً تلح في شارعنا، سنجة فاتح

لم يزد عمر علاء الجيو،  
عن عشر سنين<sup>(1)</sup>

يبدأ المقطع بالتنازل، وذلك من خلال لفظ "الشمس"، فالشمس هي الحرية، هي الأصل، ولكن القسم يسليها ذلك الإشعاع والإشراق، من خلال عبارة "جثة عارية مسهنة" ثلاثة ألفاظ فائقة، تثير في النفس الألم، وتحرك شحنة من المشاعر الإنسانية، ولعل لقاسم أراد من خلال هذه الألفاظ، أن يشعر الأمة العربية بالخزي والعار، نتيجة تركها هذه المدينة تسقط في يد الاحتلال، وتقاسي ما تقاسيه، وتزداد الكآبة لدى المتلقي في عبارة (تنزف الصمت)، ولعل هذا الانزياح الدلالي الذي وظفه الشاعر، يشير به إلى عجز الأمة العربية على الوقوف إلى جانب هذه المدينة، فالحقاسم من خلال هذا المقطع، يدين الأمة العربية ويشيد ببطولة أطفال المدينة. ولعل استخدامه عبارة (خرافي الملاحم) للاستهزاء من وجهة نظر الأمة العربية، التي كانت تنظر إلى المحتل الصهيوني نظرة خوف، وكأنه قوة لا تصد ولا ترد.

كثفت القاسم في هذا المقطع الألفاظ من الواقع المعيش السذي تحياه المدن الفلسطينية المحتلة، فجاءت ألفاظ (الجيش، الحجارة، المناشير، الشعار، حظر التجول)، وقد التحمت مع الألفاظ الأخرى في المقطع.

وقد وفق الشاعر في نغته الحسانين بالجوارح، وذلك إشعاراً بالقوة الهائلة التي يكتنزها هؤلاء الأطفال، الذين سبرسمون مستقبل الوطن بأعمالهم البطولية ضمن إمكانياتهم، وسيكون لهم دور في تحقيق الحرية بالرغم من طفولتهم.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، 435.

تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، فلجأ إلى الحكاية الشعبية، ووظف اسم علاء الدين<sup>(\*)</sup>، ومن خلاله يستحضر المتلقي هذه الشخصية، التي استطاعت أن تحقق المعجزات عن طريق المصباح السحري، فدّلى شأيا الحكايات الشعبية أدوات سحرية، وهذه الأدوات توسل بها الوجدان الشعبي ليحقق على صعيد الخيال، ما عجز عن تحقيقه على أرض الواقع<sup>(1)</sup>. وهنا نجد أن الشاعر سمح القاسم يعرف كيف يستفيد من التراث الشرقي الذي تمثلته واستوعبه، ليعيد اعتماده كمسوغ يدعم بنية قصيدته التي نشأت في بؤرة التوتر والغليان<sup>(2)</sup>.

والقاسم ينحرف بهذه الحكاية الشعبية، ليؤكد أن علاء الدين الفلسطيني استطاع أن يحقق البطولات، ولكن ليس من خلال قوة سحرية خارجية يستحضرها، وإنما من خلال تلك القوة الداخلية التي بدأت تتولد في أعماقه، تلك القوة السحرية التي استشرها نتيجة الجرائم المرتكبة بحق مدينته، فتشكلت لديه قوة الإرادة، والتصميم على تحريرها، وكان يدعم هذه القوة مشاعر انتماء علاء الدين الفلسطيني لوطنه، وإيمانه بدوره البطولي تجاهه.

رفع، مغلفة الأبواب من قبل المحتل الصهيوني، الذي عمد إلى فصلها عن المدن الفلسطينية الأخرى، وتنتشر في أنحاءها قوات الاحتلال بآلياتها الحربية، وهي ترصد كل حركة من تحركات المواطنين الفلسطينيين، وبالرغم من هذا الحصار المفروض عليها، إلا أن الأطفال يتحنون كل مظاهر العدو وإجراءاته التعسفية، وينطلقون لمساعدة المناضلين الفلسطينيين.

شجر الفتنة مكسور،

وأبواب رفح

ختمت بالحز

أو بالشمع

أو حظر التجول

وعليها كما أن تنقل خبزاً وهماً

لجريح، بعد نصف الليل عدا

وعليها كما أن تقطع شارع

رصدته أعين الإغراب

والريح،

وفوهات المدافع.

(\*) نادر ألف ليلة وليلة، ج2/ 204.

(1) نمر مراحين، الحكاية الشعبية الفلسطينية، 76.

(2) طارق رجب، مقابلات نقدية في أدب سمح القاسم، 200.

وَعِدَّةُ الْعَقَدَاتِ بِاسْمِ الْغَزَاةِ الْمَحْكَمَةِ  
حَضَرُوا بِالْمَجْرَمَةِ

أَمَنَةُ

طفلة في الثامنة! (1)

تظهر المدينة من خلال أطفالها المناضلين الذين التحموا بها، وقد أخذوا على عاتقهم دوراً ليس مفروضاً عليهم، وإنما اختاروه نتيجة الظروف التي أحيطت بهم، ونتيجة لئسائهم وحبهم لمدينتهم وكرهم للعدو .

وبالرغم من أن المدينة تظهر خاضعة لسياسة الاحتلال الصهيوني، إلا أن المثقفي يستشعر الرفض والإدانة التي تشعر بها رفح، من خلال رفض أطفالها لهذا الواقع، فتدغم مع أطفالها ومناضليها لإظهار وجهها، الرفض للاحتلال، المقاوم له.

أطفال رفح، أطفال الجذور المستحيلة، يرفضون جرائم المحتل الصهيوني ويستكرونها، وهم يرون أن قضية فلسطين هي قضية كل إنسان عربي، ويتشكل لديهم القدرة على اتخاذ الرأي السليم، فحزبهم جعلهم يرون الأمور بطريقة واعية، ومن زاوية رؤية سليمة، فقد نضج هؤلاء الأطفال قبل الأوان، وأصبحوا رجالاً، فلا بد من التفضل لإنقاذ هذه المدينة، وإنقاذ وجود الشعب الفلسطيني.

يعلن الليلة أطفال الجذور المستحيلة  
يعلن الليلة أطفال رفح:  
نحن لم ننسج غطاء من جديله  
نحن لم نبصق على وجه قتيلة  
بعضنا أن تنزع أسنانا الذهب  
فلماذا تأخذ الجلوى،  
وتعطيلنا القنابل؟  
ولماذا تحمل اليتيم لأطفال الصرب؟  
إله شكراً  
بلخ الحزن بنا سن الرجولة

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 435، 436، 437.

### وعليها أَوْ نقاتل! (1)

تحضر رفع من خلال أطفالها الذين اتخذوا الموقف الحاسم، واعتمد القاسم على أسلوب الاستفهام، لتأكيد اللوم والعتاب الذي يحمله أطفال رفع للمحتل الصهيوني، الذي يرتكب تلك المأساة بحق الشعب الفلسطيني.

وقد وقع القاسم في استخدام النفي للإثبات، في صورتين التاليتين (نحن لم ننسج غطاء من جذبه، نحن لم نبصق على وجه قتيلة)، فنفي هاتين الصورتين عن الفلسطينيين، فيه إثبات لقسوة الصباينة وتأكيد على جرائمهم الوحشية بحق الشعب الفلسطيني. ومن اللافت للنظر، أن بداية المقطع تؤكد نهايته، فقد أشعر القاسم المتلقي من خلال عبارة (أطفال الجذور المستحيلة) بامتداد تلك الجذور في أعماق الأرض والتوحد معها، ومن ثم لا يقوى المحتل الصهيوني على استئصالها، وحتى تبقى تلك الجذور مستحيلة، فلا بد من القتال، وهذا ما ختم به المقطع.

وفي رفع، ثور وتناضل كل شرائح المجتمع، ولن نقف في وجهها أية قوة، حتى لو كانت قوة العدو الصهيوني الغاشمة.

والقاسم يشيد بدور المرأة في معركة التحرير والنضال، وهو يعطي صورة مشرفة لتلك الشريحة الاجتماعية (المرأة الفلسطينية) من خلال مشاركتها في العمل البطولي.

هيه يا زوجة مجهول الإقامة

ما الذي تنتظرين؟

صلوات الصود للمُرَّل في باين السلامة

نقجت .. ما هذا تُري تنتظرين

نقجت .. من كل حين!

---

أوجست الجارة خيرا.

بابر مجهول الإقامة

واشترت تخميرة حمراء

من سوق الغنضب

واستحاضت عن قطار في محطات

السلامة

بقطار،

ساعة عبر محطات اللهب؛

ساعة مرت.

ومرت ساعة أخرى

وساعة،

قبل أن ترجع،

في جملة مـجـبـوءة بالـدم

جناء السجاعة<sup>(1)</sup>

فقد ظهرت بطولة هذه المدينة من خلال بطولة المرأة الفلسطينية.

يسمع المتلقي في هذا المقطع المونولوج الداخلي، الذي يلمح من خلاله نبرة اللوم والعتاب، لكل من وقف مكتوف اليدين أمام محنة هذه المدينة، ومحنة هذا الشعب، ويستدرج القاص المتلقي ليدخل دائرة الحدث، ويوجه اللوم أيضاً، ولم يكن ذلك الموقف التضالي الذي اتخذته هذه المرأة سوى إدانة للأمة العربية التي تركت الوطن وحيداً في معركته مع المحتل.

سقطت رفح بيد الاحتلال الصهيوني، ومنخفض عن سقوطها رحيل أبنائها عنها، فازدحم الوطن العربي بتلك المخيمات التي تحكي قصة سقوط المدن الفلسطينية، وحمل هؤلاء اللاجئين مدتهم في قلوبهم، فهم متمون إليها، متمون بها، لذلك فقد رفضوا هذا اللجوء، وأصرّوا على العودة إلى الوطن، مهما كلفهم ذلك من تضحيات.

قضي الأمر

فهل تملك أهلاً آخرين

في خيام اللاجئين

يا ابن مجهول الإقامة

وابن من ملت محطات السكك؟

قضي الأمر

وبكالوحش الجريح

حملت أطرافه لفة ربح

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 437، 438

في بيت حميمته، كأن اشترائها  
 منذ أعوام من القدس، أبوه  
 وهو في الحروب إلى الشام،  
 وفي عماح إقامه حديق قونسي  
 زار بيروت  
 وأمضى عطلة في القاهرة  
 في بيت حميمته، كأن اشترائها منذ ...  
 وفي الأخرى طوافه صنعت في مصر  
 كالوحش الجريح  
 حملت أطرافه هبة ريح!

---  
 وغداة انغلقت أبواب امن الفاتحين  
 كأن في الممقتلين  
 ابن مجهول الإقامة  
 ---  
 اجاشية:  
 عمده تسع سنين... (1)

استحضر القاسم المدن العربية للوقوف على الأمكنة التي لجأ إليها الإنسان الفلسطيني نتيجة سقوط مدنه وذلك في عامي 1948 و 1967، هذا اللجوء هو الذي جعل الفلسطيني متمسكاً بالوطن، ساعياً إليه بكل ما لديه من قوة.

وفق القاسم في اختياره لفظ (الدمية)، ليؤكد من خلالها على براءة ذلك المناضل الصغير، الذي حرم من وطنه، وشرّد ولجأ إلى مدن أخرى، وقد ربط تلك الدمية بمدينة القدس، لتكون هذه البراءة مقدسة، محمية، ولكن هذه البراءة الفلسطينية قد انتهكت حرمتها بفعل حرمان الأطفال من أوطانهم، وتشريدهم في مخيمات اللاجئين، ولم يكن أمام هؤلاء الأطفال سوى رفض ذلك الواقع، والدخول في دائرة الحدث.

(1) سمح القاسم، الاصل الشعرية الكاملة، ج1/ 438، 439.

هذه هي مدينة رفح، وقد ظهر البعد الوطني لهذه المدينة، من خلال بطولات أطفالها، ولعل القاسم أراد أن تتمثل الأمة العربية ببطولة هؤلاء الصغار، فتهب للدفاع عن هذه المدينة. ركز القاسم على الواقع المعيش الذي تحياه المدينة الفلسطينية المحتلة فجاء هذا الواقع قاتماً، وقد وظف صدا من الألفاظ المستمدة من هذا الواقع، وهذه الألفاظ هي: (الجيش، المناشير، حظر التجول، الشعارات). وقد ظهرت في هذه المدينة المرأة الفلسطينية المناضلة، وقد ركز القاسم على موقفها الكفاحي وأشاد به، وكأنه يؤكد أن قضية الوطن والكفاح من أجله، ليست قاصرة على الرجل، وإنما على المرأة أن تشارك أيضاً.

## الخليل الخل الوفي

أفرد القاسم لمدينة الخليل في شعره قصيدة بعنوان (توأمان)<sup>(1)</sup>، وقد جاءت هذه القصيدة تؤكد العلاقة الحميمة بين هذه المدينة ومدن الداخل الفلسطيني، وجاءت الخليل تعبر عن مدن فلسطين عام 1967، وموقفها من مدن الداخل الفلسطيني، فبنت مدينة موزقة حملت هموم الوطن، وحاولت أن تسانده، لكي يفرجاً سعا من واقع مفروض عليهما، وهو واقع الاحتلال. وقد أظهر القاسم إعجابه بهذه المدينة.

الخليل هي القنديل الذي سيبدد ظلام المدن الفلسطينية في الداخل، وهي الخل الوفي الذي سيفق مع هذه المدن في محتتها، ويخلصها من ألامها. والقاسم يؤكد العلاقة الحميمة بين مدن الداخل الفلسطيني ومدن عام 1967.

أتجنز المنى بخل وفي	حجج إيمانك اقتحم مستحيلك؟
ويضيئ المجرى بأية نور	تحت ليل يجبه قنديلك؟
لا ورب الجهات، مهما تلاءت	عن سبيلي خطا نماها سبيلك
لن يعز الخل الوفي منالاً	لا ولن يعوز الإصبل أصيلك
جئت فامتج دموع عيني صغرا	يا خليل الرحمن.. إنني خليلك <sup>(2)</sup>

(1) سمح القاسم، الممثل وفصائل أخرى، 42.

(2) نفسه، 42، 43.

بدت الخليل ذات موقف إيجابي، فهي لمدينة المتفاعلة مع مدن الوطن، المتجاوبة مع همومها وآلامها، وبهذا ظهرت مكانا متحركا، يسعى إلى تغيير ذلك الواقع الرديء الذي تعاني منه المدينة المحتلة.

وقد ظهر إعجاب القاسم/ مدن الداخل الفلسطيني بهذه المدينة، من خلال تشبيهها بالخلل الوفي والتدليل، فعبارة الخل الوفي تشي بالعلاقة الوثيقة بين الخليل ومدن فلسطين، ونطع هذه العبارة بكل القيم الإيجابية التي يحتاجها هذا الوطن للتحرر من قيد الاحتلال، وللفط (التدليل) فيه شحنة كبيرة من الضياء، ليقضي على ظلمة الاحتلال.

كثف القاسم في هذا المقطع الأسلوب الإنشائي "لأنه أكثر ملائمة للشعر من الأسلوب الخبري الذي يحمل التقريرية"<sup>(1)</sup>، فجاء الاستفهام والقسم والأمر والتداء، وكان هذا الأسلوب يضع المتلقي في جو الحدث، ويجعله ينطق بلسان الشاعر.

ومن اللافت للنظر، أن لغة القاسم في هذا المقطع جاءت قوية ومتينة، كصلاية المدينة التي ستقف إلى جانب المدن الفلسطينية.

وقد وفق القاسم في عرض صورة مدينة الخليل المانحة للحماية والمساندة للمدن الفلسطينية من خلال (فمنح دموع عيني صدر يا خليل الرحمن).

تتردد الخليل مع مدن الداخل الفلسطيني في المعاناة والألم نتيجة الاحتلال، ويرى القاسم أن خلاص أي مدينة محتلة هو خلاص المدن الفلسطينية جميعا،

ههنا نحن بمصنا وجفر	فلبكفكفكف عذابنا منجلك
ولنوتل جراحنا جلوات	لمقيل من عثرتي قد يقيلك
ههنا نحن نوءمان عذابا	لا تقل في الصعاب عز مثيلك
جئت فأرقه نزيهه ورحي بعرق	يا خليل الرحمن .. إنني خليلك <sup>(2)</sup>

تختفي دلالة مدينة الخليل في هذا المقطع لتظهر المدينة الفلسطينية المحتلة، ومن خلال هذه المدينة ظهرت سيادة المحتل الصهيوني القمعية في هذا الوطن.

وقد أكد القاسم أن بعد المسافات، والحدود في هذا الوطن لا قيمة لها، ولا أهمية، فالبعد المكاني لا يشكل عائقا أمام توحيد هذه المدن، لأن القرب الروحي بينها هو المسيطر، ومهما حاول الاحتلال الفصل بينها إلا أن الروابط ستظل قائمة، وكيف لا؟ والهـم واحد، وهو الاحتلال.

(1) كامل السوافري، *الاجامات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر*، 264.

(2) سمح القاسم، *الممثل وقصائد أخرى*، 43، 44.



وقد تلاعب القاسم باللغة من خلال توظيفه الجنس في عبارة (يا خليل الرحمن إنسي خليلك)، وقد جاءت قاعدة هذا الجنس القرب الروحي، الذي يستشعره القاسم تجاه هذه المدينة، هذه هي خليل الرحمن عند القاسم، جاءت تدعم وتساند المدن الفلسطينية في الداخل.

## الناصرية النداء المسموع

جاءت مدينة الناصرة في شعر سميح القاسم من خلال قصيدة واحدة بعنوان (زغرعت بنت الأكابر)<sup>(1)</sup>، ومن خلالها، وجهت الناصرة دعوة لمرج ابن عامر<sup>(2)</sup>، تحفزها فيها على الثورة والغضب والتمرد على إجراءات المحتل الصهيوني القمعية، في هذا الجزء الحميم من الوطن، وقد ظهر التلاحم بين مدينة الناصرة وهذا المرج، فهي ترى في هذا الجزء الوطن المسمي، الذي لا بد أن يعود إلى أهله، ويعودته سعادته الحرية والكرامة إلى أبناء الشعب الفلسطيني، والناصرة مؤمنة بتلك العودة، لأنها مؤمنة بفترة الشعب الفلسطيني على الوقوف والصمود في وجه العدو الصهيوني.

الناصرة، تشعر بالثوق والحنين إلى مرج ابن عامر، فهو حبها الذي تكبد المأسى والألام نتيجة سيطرة المحتل الصهيوني عليه، ويفمرها شعور بالأسى والمرارة لما يرتكبه المحتل في هذا المرج، من سحق للكيان العربي، ويزداد شعورها بالألم لأن المرج يخوض معركة وحيدة، ومن الحرارة يتولد الغضب والثورة، فيقف ذلك المرج متحدياً للمحتل.

تاجتلك "ناصرية" الجليل، وزغرعت بنت الأكابر  
فانفض تراب الموت وانهمى من جريحك يا "ابن عامر"  
طالت ليالي الشوق والحرقان، يا حبي المهاجر  
طالت وإنني صابر، يا سيدي، في النار صابر  
طالت، ولأسمك أوقفت من طهل تعجيجي المناير  
وعلى جبينني أطفأ السجائر آلاف السجائر  
وأجا شكوته فالطغاة وعدت والطغايا ساعد  
فليكتسح غنبي قدام سجونهم، والنهر هاجر

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م255/2.

(2) وهو أصغر سهل داخلي في فلسطين من حيث المساحة والقيمة الاقتصادية، وأهم للكتل الصليبية المشرقة عليه من الشمال حتى الناصرة، انظر إبراهيم الزرقاني وآخرون، الموسوعة الفلسطينية، م4/ 189.

## أنا مشترعُ عهد التحدي... فلتبج أمي الإهساور! (1)

تبدو العلاقة حميمة بين الناصرة ومرج ابن عامر، فالمرج هو رمز للوطن فلسطين، وقد يكون المرج أيضاً الناصرة.

وفق القاسم في اختيار عبارة (يا حي المهاجر)، يؤكد الحالة النفسية التي استشعرها، فبدأ العبارة بأداة النداء للبعيد، ليؤكد أن السحتل قد استطاع السيطرة على هذا المرج، فبدأ المرج بعيداً عن أصحابه الشرعيين، ومن خلال لفظ (حي) يرفض الشاعر تلك السيطرة، فهو يشعر بأحقته فيه ويقر به منه معنوياً، ولكن القاسم يشعر بمرارة الواقع، فإذا به يوظف النعت (المهاجر)، ليؤكد الحقيقة التي حاول رفضها، فيأتي للواقع في هذه العبارة أقوى من الرؤية التي استشعرها القاسم.

ومن خلال عبارة (غى النار صابر)، يتواصل القاسم مع الموروث الديني الإسلامي، بالإشارة إلى قصة سيدنا إبراهيم وحرقة في النار، كما جاء في القرآن الكريم «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» (2)، ولكنه يتعطف بهذه الدلالة، فلوطن قد تعرض لهجمة شرسة من المحتل الصهيوني، وقد أحرق بنار الأعداء، التي لم تكن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، وهذا يؤكد الواقع المأساوي الذي يحياه الوطن، وبرغم ذلك فهو صابر، يستمد قوته من قوة أبنائه وائتمائهم له.

وقد جاء التكرار الرأسي للتعلم (طلالت)، لتفخيز الهم على استرجاع ذلك الجزء من الوطن.

استمد الشاعر من التراث الشعبي الفلسطيني عادة من عائلته الاجتماعية، وهي بيع الحلبي إذا دعت للحاجة لذلك (3)، وقد وظفها ليؤكد مكانة مرج ابن عامر في نفوس المناضلين، ووقوفهم إلى جانبهم، والعمل على تحريره مهما كلفهم ذلك.

مدينة الناصرة، بنت الأكابر، حزينة ومتألمة على ذلك الواقع الذي يخضع له المرج، ولكن حزنها ليس سلبياً، وإنما يتولد عنه شعور بالثورة تشعلها في هذا المكان، وهي مؤمنة بأن دعوتها للغضب ستبلى، لأن المرج ينتظر فرصة للخروج من دائرة سيطرة المحتل.

## أبشرو! ومثلك للبشائر: بيهر السواعد والسرائر

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 255.

(2) سورة الأنبياء، آية 68، 69.

(\*) فلتفاد عن الأرض بيع الذهب أصبح عرفاً بل تقلداً يتبع إلى المناضل الفلسطيني طماعة، ويحثه ليس عليه بطمأنينة يعلفها القفر والاعتزال مشبهين بشبههم الشعبي «الأرض ما متعائل»، لمزيد من المعلومات عن هذه المادة الاجتماعية انظر سيم عرفت المبصر، الجغرافيا الفولكلورية للأمتال الشعبية الفلسطينية، 246.

وانفضّ رخاء الموت، وانتهز من تراكب يا "أبو عامر"  
أولم يزلزل قلبك المخجول زلزال الحناجر  
من حرجيات الصيد في فجر الإراقات المصائر  
حجنت زغاريد الحساك النجراويات الحرائر  
العائجات وقد قطعك، أبحر في ليل المجازر  
ناجيتك "ناصر" الجليل، وزعزعت بنت الإكابر<sup>(1)</sup>

تأتي الناصرة، محفزة ومثيرة لمرج ابن عامر، للوقوف في وجه المحتل الصهيوني، ولعلّ القاسم قد ربط بين هذين المكانين، ليس فقط ليشير إلى القرب المكاني بينهما، وإنما لجذر الارتباط الوثيق بين أجزاء الوطن، فالوطن كيان واحد، إذا سبي منه جزء فقد توازنه. يبدأ المقطع بالتفاؤل، وذلك من خلال لفظ (أبشر) الذي ينشر ظلاله في ثانيا المقطع كله، ويتحول ذلك التفاؤل إلى دعوة للصمود والوقوف في وجه العدو.

ويشخص القاسم مدينة الناصرة، فيجعلها تتأدي ذلك المرح وتدعوه للثورة، ويجعلها تشعر بالأمل، فتزغرد فرحة بذلك الانتصار الذي سيحققه، وهذا التشخيص "الذي يجعل ما هو غير إنساني يمتلك خصائص الإنسان"، وذلك عبر الانحراف باللغة عن حقيقتها، وتجاوز الدرجة الصفر. إلى تشكيل عوالم خاصة بالشاعر، تستطیع أن تتجاوز حدود التألف والمادي<sup>(2)</sup>، يعطي الحياة للمدينة، ويجعلها تلتحم مع هذا المرح.

الناصرة تحيي مرج بن عامر، الذي سيقت في وجه العدو الصهيوني، إثباتاً للوجود العربي، وحفاظاً على الامتداد الفلسطيني، وترسيخاً للجذور الممتدة في تراب هذه الأرض الفلسطينية، وهي فرحة بتكاتف أبنائه الثوار للدفاع عنه، وتلتحم هذه المدينة مع المرح في الرؤية المتفائلة ببحر المحتل عن الوطن، ورسم مستقبله، قسّمس الحرية ستشرق في أجزاء هذا الوطن، وسيعود المرح/ فلسطين إلى أبنائه الشرعيين.

حيّيتك ناصرة الجليل، وزعزعت بنت الإكابر  
فأرفع على الليل المنائر باسم الأوائل والأواخر  
وليسمع الجلال صوتك: "قاصد، أنا أله قاصد"  
سارح كيحد الكائناتين بكل ثائرة وثائر

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 255.

(2) موسى رباحة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، 88.

وأصبح بالشمس: أبشري يا شمس! هذا الليل عابر؛  
وأصبحها "وطني" بملء فمي .. وإنهزا بالظواهر<sup>(1)</sup>

اتكأ القاسم في هذا المقطع على الصور السمعية، وقد جاءت قاعدة هذه الصور الأنفاط التالية (حبتك، زغردت، وليسمع، صوتك، أصبح، أصبحها بملء فمي، أهزأ)، وكأنه أراد من خلال هذه الصور إسماع الآخر (العدو الصهيوني) صوت الحق المفقور، وقد أصبح قادراً على أن تردد ذبذباته بقوة في أفق هذا الوطن، وهذه الأصوات المنتشرة على مساحة هذا المقطع، تشحن الفلسطيني بالقوة والأمل بالحرية والمستقبل، وكان الباعثة من خلال هذه الصور، تستمع إلى أصوات كل من المرح والناصر والقاسم، فقد تداخلت هذه الأصوات معاً، وأصبحت تشكل صوت الوطن فلسطين مندعماً مع صوت أبنائه.

وقد جاءت عبارة (وأصبحها وطني بملء فمي) القاعدة التي ارتكز عليها المقطع، فالقاسم/ الشعب الفلسطيني مؤمن بأن الوطن ملك شرعي له، ولكن سلب الآخر (العدو الصهيوني) له، هو الذي جعل القاسم/ الشعب الفلسطيني يطلق هذه العبارة، لمواجهة هذا العدو بهذه الحقيقة، ويثبت أحقيته في هذا الوطن، من خلال تحريره من قيد الاحتلال.

وقد ظهر الرمز الشفاف في هذا المقطع، فرمز بالشمس إلى الحرية، ورمز بالليل إلى المحتل الصهيوني، وقد استمد القاسم رموزه من الطبيعة ووظفها بالطريقة الملائمة لغرضه.

الناصر تحفز الشعب الفلسطيني على الوقوف في وجه العدو الصهيوني لتحرير الوطن، وذلك من خلال الكفاح المسلح، فهي موقنة بأن إيمان الشعب الفلسطيني بحقه الشرعي في هذه الأرض يكافئ قوة العدو وأسلحته، ويتداخل صوت القاسم مع صوت الناصرة لإطلاق تلك الدعوة، وإثارة المناضلين للدفاع عنه.

فولايذهم يدهي، إذا أنشبت يا شعبي الإظافر  
والنقح منحسر ... ويحصى كل كساب وخاسر  
فأنفصن وخام الموت ... وإنهضن من جريدك يا "ابن عامر"  
تاجتك ناصرة الجليل، وزغردت بنت الإغابر<sup>(2)</sup>

اتكأ القاسم على الصور الجزئية المعتمدة على اللون والحركة، فيشعر المتلقي بدخوله في دائرة تلك الصور، وتطبيع في داخله.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 256

(2) نفسه، ج2/ 256

ولعل استخدامه أداة النداء للبعيد في عبارة (يا شعبي)، لتحفيز ذلك الشعب على النضال، وتبنيه إلى ضرورة القيام بذلك العمل، فقد وُضعت المسؤولية على عاتقه، مسؤولية تخلص الوطن من الواقع المأساوي الذي يحياه، ولا بد له من القيام بذلك.

وقد وظف القاسم اللغة الجزلة في هذا المقطع، ويتضح ذلك من خلال عبارة (الفتح منحسر)، ولعل ذلك لإظهار قوة ذلك الشعب، فهذه اللغة قوية قوة ذلك الشعب المناضل الذي سيخلص وطنه من الاحتلال.

وهكذا بدت مدينة الناصرة محفزة ومثيرة لمرح لبن عامر للثورة على ذلك الواقع المهيمن الذي خضع له، نتيجة سياسة المحتل، وقد التحمت هذه المدينة بهذا المرح لأنه جزء منها، ومن ذلك الوطن الذي لا بد من تحريره، وتخليصه من أيدي المحتل البغيض.

## أريحا التاريخ المشرق

تعكس مدينة أريحا في شعر القاسم صورة مشرقة عن المدينة الفلسطينية المقاومة للاحتلال، فقد ظهرت هذه المدينة شامخة في وجه العدو الصهيوني، قوية بسبب التحام ابنائها معها واتصافهم لها، وولائهم لعروبيتها وهويتها الفلسطينية.

وقد دخلت أريحا في دائرة النضال الوطني، فبدت مناضلة متمردة على سياسة المحتل، وإجراءاته القمعية في هذا الوطن.

وأريحا ترفض بأن تكون المعبر لدخول فلسطين مرة ثانية، ولتقضاء على أهلها والفك بهم.

مدينة أريحا مفعمة بالأمل، واثقة بالنصر، فهي تحتضن شعلة التمرد والسرفاض، وتغذيها بالكبرياء والكرامة والانتفاء لهذا الوطن، والإصرار على إثبات وجوده أمام قوة مهيمنة تسعى إلى سحقه، ويثر أبنائها للدفاع عنها، فأريحا هي الوطن، وهي الامتداد للجزر الفلسطينية. والقاسم يفخر بهذه المدينة، التي وقفت صامدة في وجه العدو.

وما كان وهم الإساطير لا لن يكون ولا لن يكون  
فماذا إذن تطليق؟  
أريحا الجديرة لم تمثل تصد المراثي الجديده  
لأسوارها كبرياء الرخام ومجد العقيد  
وجمر القصيدة

وشمس أريحا تغيب كما تشتهي أورشالم  
 وشعب أريحا يقاوم  
 وعشب أريحا يقاوم  
 وقلب أريحا يعك زجاجاته الحارقة  
 وقبضته الوثاقه  
 وصوت أريحا يذوي: يشوع بن نون دونك راحاب خذها كما تشتهي  
 وخذها كما تشتهي  
 إلى كهف أحماسها الزانية  
 وأوصد عليك وأوصد عليها  
 بحفرة أحماسها الجذامية<sup>(1)</sup>

أظهر القاسم مدينة أريحا في هذا المقطع بؤرة النضال الوطني؛ وقد امتد نضالها في جميع  
 ثلثي المقطع، وشارك فيه كل ما ينتمي إلى هذه المدينة من أسوار وشمس وشعب وعشب،  
 فأريحا بكل جزء فيها تحمل شعار المقاومة.  
 وتختزن عبارة (أريحا الجديدة لم تعد تمثل لتعد المراثي الجديدة) الخصوصية التاريخية<sup>(\*)</sup>  
 لهذه المدينة، ولكن أريحا اليوم تتمرّد على أريحا التاريخية، وترفض أن تعيد دورها مرة ثانية،  
 فأريحا اليوم ذات وجه مناضل ومقاوم، وقد جاءت هذه العبارة لتؤكد ذلك الوجه.  
 وقد أعطى الشاعر صورة مشرقة عن هذه المدينة، فتمردوا هو سر وجودها وثباتها أمام  
 المحتل الصهيوني.

تواصل القاسم من خلال عبارة (وشمس أريحا تغيب) مع الموروث الديني اليهودي، وذلك  
 بالإشارة إلى حكاية يشوع بن نون ورحلته الرب أن يضل يوم القتال للقضاء على الفلسطينيين،  
 فقد جاء في التوراة: 'وكان بعد موت موسى عبد الرب، أن الرب كلم يشوع بن نون خادم  
 موسى قائلاً: موسى عني قد مات، فالآن قم اعبر هذا النهر، أنت وكل هذا الشعب، إلى الأرض  
 التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيتها، كما كلمت  
 موسى من البرية ولبنان، هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر  
 الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم'<sup>(2)</sup>، ولكن القاسم ينحرف بهذه الحكاية التراثية، فإذا

(1) سجع القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/ 406، 407.

(\*) وهي أول مدبة فعلية هوجمت من قبل الكنعانيين، إذ تمكن يوشع بن نون وحده في سنة 1286 ق. م من الاستيلاء على أريحا،  
 ولم يرقوا المدينة وأمنوا من فيها أحد عدد الرمن حمودة وأخرون، موسوعة لندن الفلسطينية، 16.

(2) سفر يشوع، الإصحاح 1، 1-4.

بشمس أربحا تغيب، ليؤكد قوة إرادة ذلك الشعب، وقدرته على الصمود أمام الكيان الصهيوني، والفلسطيني هو الذي سيتحكم بمصيره، وهو الذي سيرسم مستقبل الوطن.

ومن خلال ربط شمس أربحا بأورسالم<sup>(١)</sup> يؤكد القاسم عروية هذا الوطن، وجذوره الممتدة في أعماق التاريخ والحضارة، فيمتد الماضي في الحاضر، والحاضر في الماضي، ليتشكل الوطن فلسطين، بهويته الأصيلة المتميزة بعراقتها التاريخية.

ويجد القاسم التوراة مصدراً خصباً للتواصل، فإذا به يوظف في هذا المقطع حكاية يشوع بن نون ورحاب، فقد جاء في التوراة "وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض، ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل مالها كما حلفتما لها، فدخل الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأميها وإخوتها وكل مالها، وكل عساتها وتركاهم خارج محلة إسرائيل، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وأنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب، واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها، وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم لأنها خبات المرسلين اللذين أرسلها يشوع ليتجسسا أربحا"<sup>(٢)</sup>.

وهو من خلال هذا التواصل يؤكد أن أربحا ترفض استئصال يشوع بن نون الجديد، وإقامة راحاب فيها، وهو يؤكد أيضاً عروية هذه المدينة وبراعتها من دنس الاحتلال، ويشير إلى إخلاص أبنائها وانتمائهم لها، فالعلاقة حميمة بين هذه المدينة وأهلها، فلا مكان للخيانة فيها، ولا حيز لإقامة المحتل واستقراره على أرضها.

وهذا التواصل يغني خطاب الشاعر ويؤكد على بعد رؤيته، وعمق فكرته وثقافته<sup>(٣)</sup>.  
تلاعب القاسم بالألفاظ من خلال توظيفه الجنس الناقص في لفظي (شعب وعشب)، ولعل ذلك ليؤكد أن كل ما ينتمي إلى هذه المدينة يشترك في المقاومة ضد المحتل، وأن العلاقة حميمة ما بين الوطن / الطبيعة والشعب.

وقد اتكأ القاسم على الصور المفردة البصرية، فجاءت معبرة عن نضالات أبناء هذه المدينة، وثورتهم ضد المحتل.

وظف الشاعر الصورة الصوتية من خلال عبارة (وصوت أربحا يدوي)، ومن خلال هذا الصوت نقل القاسم صورة بصرية، وقد تداخلت هاتان الصورتان لشكلا الموقف الراض لأبناء الشعب لوجود المحتل على أرضه وفي وطنه.

(١) لأورسالم: اسم عربي كنعاني وهو من أسماء مدينة القدس بمعنى مدينة السلام. انظر أحمد عبد الرحمن حمودة وآخرون، مرموعة المدن الفلسطينية، 588.

(٢) سفر يشوع، الإصحاح ٦، 22-25.

(٣) حبيب بوش، ألبت الحدادة وملحها في قصيدتنا المحطبة، مجلة الكفة، ع 7، ص 57، 2001.

وفق القاسم في اختيار لفظ (بدوي)، فمن خلاله يستمع المتلقي إلى صوت أريحا الذي بدأ يتردد صده في كل أفاق فلسطين، ويأتي الصدى محملاً بالرفض لوجود المحتل، فتأتي قوة الصدى هائلة، وتتداخل الأصوات جميعاً لتشكل صوت للشعب الفلسطيني الهادر المندد بوجود المحتل على أرضه.

وظف الشاعر تبادل معطيات الحواس في عبارة (صخرة أحلامك الدامية)، فهذه الصورة تداخلت فيها عناصر اللمس والرؤية واللون، ومزجت بين المحسوس والمجرد، وذلك لتشكل صورة أحلام المحتل الصهيوني الوحشية وجرائمه المقترفة بحق أبناء الشعب الفلسطيني. وقد جاء حرف العطف الواو مكتفاً في هذا المقطع، فقد كرره إحدى عشرة مرة، وذلك ليصل أجزاء الجمل بعضها ببعض، وليحدث الترابط والتسلسل بين أجزاء هذا المقطع. ومن اللافت للنظر، أن القاسم كرر في هذا المقطع لفظ أريحا ست مرات، وكأنه يؤكد أن مدينة أريحا الحاضر قد بعثت من جديد بنضالات أبنائها، وقدرتهم على الوقوف في وجه المحتل.

وبهذا يكون القاسم قد ركز على البعد الوطني لمدينة أريحا، فمدت مدينة مناضلة، مقاومة للمحتل، وقد ساند الشعب المناضل مدينته في وقتها الشائخة ضد المحتل الصهيوني. وقد ظهرت المدينة من خلال بعدها التاريخي، وذلك ليؤكد أن هذه المدينة تمتد بجذورها في أعماق التاريخ، فهي مدينة عريقة تاريخياً ومن أقدم مدن العالم.

## جنين صيحة الغاضبين

هذه المدينة الفلسطينية المناضلة، ظهرت في شعر القاسم من خلال قصيدة بعنوان (إلى أين يا منتهى تذهيبين)<sup>(1)</sup>، وبالرغم من أن القصيدة تتحدث عن الطالبة منتهى الحوراني، التي سقطت على ثرى جنين، إلا أنها امتدت لتتحدث عن نضالات أهل جنين، ضد الاحتلال الصهيوني، والواقع المأساوي الذي تحياه المدينة، فمنتهى ما هي إلا وجه من وجوه المناضلين الذين استعذبوا الشهادة من أجل تحرير الوطن، منتهى هي جنين الصامدة، الثائرة، المناضلة، وقد اندغم وجه جتّون بوجه منتهى، وأصبحتا يشكلان معاً وجه الوطن فلسطين، ووجه المواطن الفلسطيني المناضل.

في مدينة جنين يستنبح العدو الصهيوني لحم أبنائها الأبرياء، فيختلط ذلك اللحم مع جنائزير الدبابات، وبالرغم من هذه الوحشية من قبل المحتل الغاصب، إلا أن المناضلين يستنهبون القوة

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 180.



والصمود، ويقفون في وجه الكيان الصهيوني بكل ثبات، ويقدمون أرواحهم رخيصة فداء للوطن، فهم مؤمنون بعدالة قضيتهم، وثقة موفقيهم، ويرون أن التضحيات هي السبيل لميلاد وطنهم من جديد.

وقد نقل القاسم رؤية هؤلاء المناضلين من خلال رؤية الطالبة الشهيدة منتهى، التي اندمعت دماؤها مع تراب هذه المدينة.

حبق لحمنّا المستباح ولبلك  
وجنازير كدابة الفاتحين  
صدّا في ركاب الزمّا الهجين  
يا حبيبي، وقبلي وقبلك  
نور الدم في مسكبي الياسمين  
يا حبيبي انتهرني إحد

---

سوف أتيك - لا جنة في كفر  
سوف أتيك في ثوبي المدرسي  
وعلى منكب  
طريحة من جمادي وورد الورد<sup>(1)</sup>

اتكأ القاسم على التثبيبات البليغة في عبارة (حبق لحمنّا المستباح، ولبلك)، 'فالشاعر الماهر هو الذي يربط بين الأشياء بحيث يظهر تناقضاتها متوافقة تماماً، وكأنها حقيقة ثابتة، يعترج في بنائها الفني الحقيقة مع الخيال، متزاجاً ينسج بينهما حتى لو صعب فصلهما'<sup>(2)</sup>، وقد جاءت هذه التثبيبات لإعطاء خطين متوازيين يلحمهما المتلقي في هذا المقطع، جاء الخط الأول ليؤكد التضحيات الفلسطينية في مدينة جنين، وقد وفق القاسم في اختيار لفظي (حبق ولبلك)، ليؤكد أن هذه التضحيات هي الطريق الموصل للحرية، 'فإن الصوت بالنسبة إلى المقاتل الفلسطيني ولادة جديدة مفعمة بكل خصائص الحياة الفاعلة، من هنا كان الموت مبعث إصرار المقاتل الفلسطيني وصموده'<sup>(3)</sup>. ولعل هذا التشبيه يعطي مساحة واسعة من الهدوء والأتزان في نفوس الفلسطينيين، ويحفز المناضلين على المزيد من التضحيات.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2 / 280-281.

(2) غندار حسين قاسم، التصوير الشعري، التجربة للشعرية وأقوال ريم الصورة الشعرية، 41.

(3) عبد الرحمن حوطش، شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، 172.

وقد جاء الخط الثاني ليؤكد جرائم المحتل في هذه المدينة، وقد وفق القاسم في اختيار ألفاظ من المعجم العسكري الحديث، فجاءت عبارة (جنازير بداية الفاتحين) عبارة موجية، تبعث من خلال ألفاظها دلالة القسوة والبطش، وهذا ما أراد تأكيد القاسم، فتكون صورة المحتل قائمة في نفس المتلقي، ومن خلال هذه القائمة تزداد التضحيات الفلسطينية إشراقاً.

ولعل استخدام الانزياح الدلالي في عبارة (نور الدم)، يشير إلى أن هذه التضحيات قد أثمرت، لذلك سيعود الوطن إلى أهله الشرعيين قريباً، وستحقق عودة اللاجئين الفلسطينيين إليه، ولذلك أتبع القاسم الانزياح الدلالي بعبارة (يا حبيبي انتظرنني إذن)، فالعودة حتمية ومؤكد، وذلك بفضل تلك التضحيات التي يقدمها أبناء الوطن.

وقد جمع الشاعر بين المتناقضات من خلال (دمائي وورد)، ليؤكد أن الحرية لا تتال إلا ببذل الدماء، وأن الوطن لا يعود إلى أهله إلا بالكفاح المسلح.

ومدينة جنين، ارتكبت فيها أفظع الجرائم وأقساها من قبل قوات الاحتلال الصهيوني، وقد تجرعت الآلام والعذاب والمأسا، وتعرضت للتجريد ولكن ألوان القمع، ونزفت فيها الدماء الغالية، كما نزفت في كل من مخيمات اللاجئين في بيروت، ورغم ذلك فهي تأمل بالتحرك.

قليل هو الماء ... لم يبق إلا القليل وضائق المجدى والكلى  
إلى أين يمضي جمعي بلواعج أبنائه الجامحين  
وما من عواسم ما من ثمار وما من طحين  
ولا شيء إلا للظلم!

ووجه السماء الحزين  
إلى أين يمضي بأشلاء صبرا وجبر شاتيلًا وسخط جنين  
إلى أين يمضي؟

إلى نجمة الصبح- قالت له صورة عائيلة  
تمزقها الريح ليل نهاراً وتثرها للجبهات القمعية<sup>(1)</sup>

ولعل القاسم قد ربط في هذا المقطع بين صبرا وشاتيلا ومدينة جنين ليؤكد ما يعانيه الشعب الفلسطيني خارج الوطن وداخله، فالمواطن الفلسطيني مستهدف سواء أكان داخل فلسطين أم خارجها.

ومن مدينة جنين، تنطلق صيحة مدوية، تنبعث قوية قوة ذلك الظلم الذي لحق بالطلبة منتهى، ويتردد صدى هذه الصيحة في أفق المدينة، ويلتقط أبناءها ذلك الصدى، ويلتحمون معه، لتشكل القاعدة الثورية لهذا المكان، ويهب المناضلون للوقوف في وجه ذلك الظلم.

"منتهى صيحة الفاضل  
في روابي جـنـين  
وأذان على قمة الموت  
يستنهض المـؤمنين  
قـاب قوسـيـر؟ لا!  
قـاب قوسـ، وأذني  
يا أذان النـهار وعـدنـا"<sup>(1)</sup>

وتأتي صرخة منتهى دعوة للانتماء موجهة إلى كل المؤمنين بقضية الوطن فلسطين، وبرغم أن هذا النداء محل الموت إلا أنه يحمل في ثناياه أيضاً الأمل والحرية لهذا الوطن، فيدخل أبناء جنين في دائرة الكفاح والنضال، ليكسروا قيود المحتل عن مدينتهم ويمحوها النصر والتحرير.

أظهر القاسم مدينة جنين من خلال شخصية الطالبة الشهيدة منتهى، فمنتهى ما هي إلا جنين المناضلة المستبشرة بالأمل والنصر والتحرير.

تواصل القاسم في عبارة (قاب قوس وأدنى) مع القرآن الكريم بتوظيفه الآية الكريمة "فكان قاب قوسين أو أدنى"<sup>(2)</sup>، وقد حوّر بعض كلمات هذه الآية، لتأتي دلالة الزمن عنده أسرع، فهو يتشوق إلى قرب الخلاص من الاحتلال، وهو متعجل هذه النتيجة، ومن خلال هذا التواصل، يبرّز المناضلين بقرب نهاية الاحتلال، مما يحفزهم على الاستمرار في النضال، من أجل الوصول إلى تلك النتيجة سريعاً.

ودعم هذا التحرير القريب، المتعجل إلى الوصول إليه بعبارة (يا أذان النهار وعدنـا)، وقد وفق في اختيار الفعل الماضي للدلالة على العودة، وذلك ليؤكد تلك العودة، وذلك الانصراف، وكأنه أصبح أمراً محققاً.

وأهل جنين سيذكرون دوماً الطالبة الشهيدة منتهى، وستظل خالدة في نفوسهم ووجدانهم، وسيرونها في كل شهيد يسقط في فلسطين، وفي كل ملح من ملاح هذا الوطن، وستكون

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 181.

(2) سورة النجم، آية 9.

منتهى، والشهداء الآخرون الجسر لعودة المهاجرين إلى ديارهم، فمنتهى هي الحرية، هي وجه العروبة.

إننت لــــن تــــهــــبــــي  
يا عروس المــــز والياسمين  
ستكونين صفافة لطبور الأغاني القريبة  
وتكونين جسر الشمس وجسر العروبة  
وعــــداً، مــــجــــناً تــــمــــبــــرين<sup>(1)</sup>

وفي جنين، سفتتح مدرسة باسم هذه الطالبة الشهيدة، وفيها سيتعلم الأبناء حب الوطن والانتماء إليه، والتضحية والفداء، وستبث هذه الرسالة في كل جيل من أجيال هذا الوطن، ليس في مدينة جنين حسب، وإنما في كل مدينة فلسطينية، فستكون منتهى متجددة دائماً في كل جيل من أجيال فلسطين، وفي كل طالب/ طالبة يحتضن الوطن في قلبه، ويقف مدافعاً عنه، ثاراً من أجله، راسماً بدمه حريته.

إننت لــــن تــــهــــبــــي  
ستكونين مدرسة في جنين  
ويكون أسمها:  
'منتهى'<sup>(2)</sup>

ومدينة جنين اتحدت مع مدينة نابلس، واتخذتا القرار، وهو المشاركة في الانتفاضة الفلسطينية لتحرير هذا الوطن، والحفاظ على هوية هذا الشعب وامتانه.

تقدّمت أبواب جينين ونابلس

تقدّمت تغافل!

لا تسحوا

لا تفهموا

تقدّموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم<sup>(3)</sup>

(1) سبوح لقاص، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 182.

(2) نفسه، ج2/ 182.

(3) نفسه، ج2/ 270.

ولعل القاسم قد ربط بين هاتين المدينتين، ليس فقط ليدل على القرب المكاني بينهما، فكل منهما بولاية لأخرى، وإنما ليؤكد أيضاً خلود هذين المكانين في الذاكرة الجماعية الفلسطينية، من حيث كونهما مكانين يحتضنان دائماً الثورة والتضال الشعبي ضد العدو الصهيوني.

هذه هي مدينة جنين، وقد ظهرت من خلال شخصية من شخصيات هذه المدينة، وهي الطالبة منتهى، وقد جاءت صورة المدينة مشرقة بتضحيات أبنائها وبطولاتهم ضد الاحتلال، فهم يؤمنون بأن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد للخلاص من قيد العدو الأسر، لذلك اختاروا طريق الانتفاضة، فهي أول خطوة في سبيل الحرية.

## الفصل الثاني

المدينة العربية في شعر سميم القاسم، واقم وطموم

- بـيـرُوت سـيـدة الغـوي

- بـغـداد الـيـقـظة المـرتـقـبة

- صـنـعا، الثـورة

- عـمـدن التـمـرد والغـضب

- القـاهـرة التـأخـي

- بـور سـعـيد النـجـمة الحـمراء

- أـسـوان الإنـجـاز الـوـطـني

- عـمـان الـاتـحـام المـطـوب

## بيروت سيدة الغوى

إن هذه المدينة قد نالت قدراً وافراً من الشعر العربي، إذا ما قورن هذا الشعر مع شعر أي مدينة أخرى؛ فقد تناولها الشعراء بالحديث في كافة الأقطار العربية، وتعددت قصائد الشاعر الواحد في أكثر من موقع، وتساوى في ذلك الشعراء الكبار والشباب منهم<sup>(1)</sup>.

وقد تناول الشعراء هذه المدينة من خلال بعدها السياسي، فركزوا على القضايا السياسية التي عانت منها هذه المدينة، وكانت الحرب الأهلية في مقدمة هذه القضايا، وقد تحدثوا أيضاً عن قضية الانفتاح وأثرها على واقعها، وقد حملها بعضهم مسؤولية ما وصلت إليه، وقد أفاض الشعراء العرب وخاصة الشعراء الفلسطينيين بالحديث عن الوجود الفلسطيني في هذه المدينة، وعطروا إلى هجمات المحتل الصهيوني، وأثر هذا الهجوم عليها.

ومن خلال البعد القومي عبر الشعراء العرب عن حبهم واعتزازهم ببيروت، ومن خلال هذا البعد، حملوا مسؤولية ما حل بها من آلام ومأساة للأمة العربية والحكام العرب.

كثف القاسم حديثه عن هذه المدينة، وقد تناولها في شعره من زوايا مختلفة، وأفرد لها عدداً من القصائد المستقلة، فجاءت بيروت تحمل عدداً من الوجود والقضايا. فقد حملت قضية الشعب الفلسطيني اللاجئ المنفي عن وطنه، وبدأت من خلال ارتباطها بهذه القضية، ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية، مدينة ذات وجهين متناقضين:

**الوجه الأول:** بيروت هي المدينة التي احتضنت الفلسطيني اللاجئ في هجرته القهرية من الأرض المحتلة، وحققته له ما لم يحققه الوطن، وأفقته من واقع الاحتلال، وبهذا بدت ذات وجه إيجابي مشرق، وظهرت مكاناً متفاعلاً مع هذا الفلسطيني، ولم يطرح القاسم هذا الوجه لهذه المدينة، إلا لإدانة تلك الفئة الفلسطينية، التي اعتبرت بيروت/ المنفى مكاناً بديلاً عن فلسطين.

**أما الوجه الآخر،** فقد بدت بيروت فيه ذات وجه سلبي قائم، فهي المنفى، وهي اللجوء، وهي التي ستغيب الوطن في نفوس أبنائه، وقد ركز القاسم على هذا الوجه، لأنه يعكس الصورة الحقيقية للمنفى، ومن خلاله احتجبت بيروت عن كونها مدينة على خريطة الوطن العربي، لتصبح رمزاً للمنفى، وقد جاء هذا الوجه ليعكس زاوية المنتمين إلى تلك الأرض الفلسطينية، المستعمرين في ذلك الوطن.

(1) محمد أحمد محمد المحامي، المدن العربية المغانة في الشعر الحديث (القدس، بيروت، فيسرة) 1948-1988، 261، رسالة

دكتوراه الجامعة الأردنية، 1989.

وقد كثف الشاعر حديثه عن هذا الوجه، فركز على الألام التي تكبدها الفلسطيني اللاجئ في هذا المفتى، وبين أثره في نفسيته، ومن خلال هذا الوجه السليبي، بث القاسم رسائله للتجذر في الوطن، ورفض المنافي.

وقد أظهر القاسم هذه المدينة من خلال الأحداث السياسية التي مرت بهاء، وأفاض في الحديث عن معاناتها، نتيجة ذلك الواقع المهيّن الذي خضعت له، فتحدث من خلال هذا البعد السياسي عن حربها الأهلية، وما عانته من آلام، للقضاء على عروبتها، وامتدادها الضارب في أعماق التاريخ، وبدت بيروت من خلال هذه الحرب، مكاناً تتطاحن فيه القوى المسيطرة على المدينة، من أجل إثبات الذات، وقد ركز الشاعر على الدور الفلسطيني الإيجابي في الوقوف إلى جانب هذه المدينة في حربها، وبرغم قسامة الواقع، إلا أن بيروت بدت مدينة مناضلة وصامدة بنضالات وصمود أبنائها، وظهرت مدافعة عن هويتها القومية وذاتها اللبنانية، وقد بدت ذات وجه وطني وقومي مشرق، يوقفها إلى جانب الفلسطينيين أثناء العدوان الصهيوني عليها عام 1982، وقد ركز القاسم على المشاعر الحميمة الخاصة به تجاه هذه المدينة، وأظهر التواصل الحميم بين الشعبين اللبناني والفلسطيني في الدفاع عنها.

ومن خلال البعد السياسي لهذه المدينة، أدان القاسم موقف الأمة العربية غير المبالي تجاه هذه المدينة وقضيّتها.

بيروت، مدينة الحضارة والأصالة العربية، ذات جذور ممتدة في أعماق العروبة، وهي مدينة مسالمة، ذات مكانة متميزة في نفوس أبنائها، وأبناء الأمة العربية.

فكاس لبيروت التي انبلجت على خيل العرب  
نجمة حناء  
هابطة إلى كنفها  
صاعدة إلى لبها  
فانجدة بلا سيف ولا رمح  
مدججة بالمدافع تهلل للشعب  
بيروت كاهبة إلى سفن من الصحراء  
بيرقها أقباء المشرق والمغرب  
صوتها هرج الزجاج على صخور الغيد  
موغلة إلى جزر الكهف<sup>(1)</sup>

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 355.



ظهرت بيروت في هذا المقطع ذات صورة إيجابية مشرقة، ركز القاسم على وجهيها العربي، وجذورها الضاربة في أعماق التاريخ.

وهذه المدينة استقبلت الإنسان الفلسطيني المهاجر من وطنه، وحققت له آماله وطموحاته، وخلصته من عذاب المحتل، وآلام الذل التي تكبدها في الأرض المحتلة، والقاسم يعرض وجهة نظر فئة من الفلسطينيين، الذين ارتضوا هذه المدينة بديلاً عن وطنهم، وهو يدين هذا الموقف، ويدعو إلى التمسك بالأرض، وعدم الخروج منها مهما كانت المغريات.

'أخي الغالي'

كتبتهُ إليّ مزهواً .. "أخي الغالي"!

تحياتي وأشواقني

تطير إليك من بيروت

إليك هنا .. حيث تموت

فجدي الباقي من التأفة من ميراثك الباقي

تحياتي وأشواقني

أنا أصبحتُ إنساناً جديداً .. غير ما تمهّد

ختمت دراستي العليا .. وتلت شهادة المحمّد

وأصبح مكتبتي أكبر

وصار اسمي هنا أشهر

ولي صاحبة ثمن قراء .. جدتها فرنسية

وأخرى جدّها قائد الفتوحات الجليبية

ومثل بقية الأسباط

تربص في فناء الدار .. قارئة خوصية

أخي الغالي!

لماذا أنت لا تأتي إلى بيروت

وتترك جرحك الممقوت

وتهجر وجهك المغموس في الوحل

وتنمى عيشة الدّل

فحقلك لم يكن أرحب من حقلّي

وبيتكَ لم يكن أجمل من بيتي

لماذا أنت لا تأتي؟!

أخي الغالي!

تجباتي وأشواق

إليك هنا في المستقبل الباقي! (1)

لم تعد بيروت في هذا المقطع تعني ذلك المكان المحدود على خريطة لبنان، وإنما اتسعت لتشمل أي بقعة خارج الوطن فلسطين، لجأ إليها الفلسطيني وأثبت وجوده فيها كما توهم، في بيروت هنا تعادل المكان النديل عن الوطن فلسطين، أو الوطن خارج الوطن. ومن خلال هذه المدينة، طرح القاسم قضية سياسية عانى منها الإنسان الفلسطيني، وما زال يعاني، وهي قضية اللجوء، ولعل القاسم كان جريئاً عندما طرح هذه القضية، من خلال وجهة نظر صديقه "الواقف على اليأس بلا مبالاة"، يرى في التضال صورة الموت الأصفر من أجل شيء تافه تبقى من الميراث الوطني (2)، هذا الصديق يعكس رؤية تلك الفئة الفلسطينية، التي ارتفعت المنفى وطناً لها، ورأت في الوطن الحقيقي مستقراً لا يستحق العناء، فتغفلت القاسم إلى أعماق تلك الفئة، وتحدث بمثلها، "إن دخول الشاعر إلى أعماق تفكير الإنسان الفلسطيني المشتت ناشأ منه جزئياته الصغيرة، ومساعداً عليها الضوء، يشكل علامة من علامات صدق المضمون، وحقيقتية وارتباط الشاعر بالحياة العامة حوله" (3)، وقد كان القاسم شديد الوعي، عندما أقام موازنة بين المنفى والوطن، فجاء المنفى يعكس صورة إيجابية مشرقة، وقد تمدد في مساحة واسعة من المقطع، من خلال مظاهره الاجتماعية البراقة، في حين جاءت صورة الوطن قاتمة وسلبية. وليس ذلك إلا ليدين القاسم موقف تلك الفئة، ويحملها مسؤولية هذا اللجوء، ومشاركتها فيه، عندما قبلت المنفى وجهاً آخر للوطن.

بيروت هي المنفى الذي سيفضي على امتداد الإنسان الفلسطيني، ووجوده وانتائنه لأرضه، إن اتخذها بدلاً عن وطنه.

أخي الغالي

إليك هنا في بيروت

إليك هنا حيث تموت

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 1/ 285، 286.

(2) عد فرحمن باغي، الأدب الفلسطيني الحديث، 106.

(3) إبراهيم علان، شاعر فلسطيني تحت الاحتلال من العام 1948- العام 1972، 48.

كزنبقة بلا جذر  
كنهر ضيع المئبح  
كأغنية بلا مطلع  
كعاصفة بلا عمر  
إليك هناك حيث تموت كالشمس الخريفية  
بأحفاق حربية  
إليك هناك - يا جرحي ويا عاري  
ويا ساكب ماء الوجه في ناري  
إليك إليك من قلبي المقاوم جائئاً عاري  
تحياتي وإشواقي  
ولعنة بيتك الباقي!!<sup>(1)</sup>

ظهرت بيروت في هذا المقطع مدينة مرتبطة بهجرة الفلسطينيين إليها، فاختلفت الدلالة المكنية لهذه المدينة لتظهر الدلالة السياسية والاجتماعية التي اكتسبتها بيروت، نتيجة تلك الهجرة الفلسطينية، فهذه المدينة ما هي إلا منفى من المنافي، التي لجأ إليها الفلسطينيون في نكبتهم عام 1948، وقد بدت ذات وجه سلبي قائم يؤكد الوجه الحقيقي للمنفى، فهو المكان المعادي للذات الفلسطينية، التي أُجبرت على الهجرة وترك الوطن، وهو المكان السالب لوجه الوطن والهوية والجذور الفلسطينية، "ومن هذا المنطلق تعتبر كل الأمكنة خارج فلسطين منافي مهما توفر فيها من خيرات مادية، ويظل نداء الأرض قاهراً مهما طالبت فترة النأي، فالوطن لا يرتبط بالثروة، ولكنه يحتضن جملة من المفاهيم والمعطيات العرقية والحضارية التي لا تتواجد إلا على تلك الرقعة من الأرض"<sup>(2)</sup>، والقاسم يرى أن الخروج من الوطن هو المرحلة الأولى لفقدان الإنسان.

وأمام المنفى، أمام المكان المعادي للذات الفلسطينية، يضع القاسم المكان الأليف والحميم لتلك الذات، وهو الوطن، وقد عبر عنه بلفظ (بيتك)، "البيت جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول"<sup>(3)</sup>، ليشعر بالتوازن أمام هذه القوة القاهرة (المنفى)، ويلتحم القاسم مع هذا الوطن، الذي سيبقى ببقاء أبنائه فيه، من أجل الانتصار على فكرة المنفى والنزوء.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1/ 286.

(2) محمد القاضي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، 243.

(3) غاستون باتلار، جماليات المكان، 38.

"ويبلغ به التتبع والاستطراف حداً يلجئه إلى اتخاذ إطار الرسالة وسيلة لبنائه وحياتته الفنية، ويوفق في هذا الإطار الذي يحتضن موقفاً كريماً من المواقف الثورية الواعية"<sup>(1)</sup>، وقد حقق القاسم من خلال هذه الرسالة "الإخبار والشعرية"<sup>(2)</sup>.

وقد اتكأ الشاعر في هذا المقطع على الصور الجزئية (البصرية والشمية والمسية)، التي تحمل دلالة واحدة، ليحقق قوة تعبيرية كبيرة تأخذ طريقها للتأثير في نفس المتلقي من خلال الضغط المتواصل الحميم للمعنى"<sup>(3)</sup>، فيشارك المتلقي القاسم شعوره بكرة المنفى ورفضه، والإصرار على العودة إلى الوطن.

ولعل الشاعر قد غيب المنادى في العبارات (يا جرحي، يا عاري، يا ساكب ماء الوجه في ناري) لشعوره بالثقة على ذلك المنادى، الذي نسي وطنه في المنفى، فرأى أنه لا يستحق أن يطلق عليه لفظ (أخي)، فالأخوة تستدعي وحدة المشاعر والمواقف تجاه الوطن، وهذا ما افتقده القاسم في صديقه.

وكان القاسم من خلال هذه العبارات أراد تأكيد الجمل الإسمية فيها، وهي (أنت جرحي، أنت عاري، أنت ساكب ماء الوجه في ناري)، لإدانة موقف ذلك الصديق، وإظهار أثر ذلك الموقف في نفسية القاسم/ الفلسطيني المتجذر في وطنه.

وفي مدينة بيروت يتكبد الإنسان الفلسطيني الآلام والجراح نتيجة نفيه عن الوطن فلسطين، ولكنه يأمل بالعودة إلى وطنه.

ويا رب! ها أنذا تحت وجهك. جسمى يجوب  
المنافي جميع المنافي وأكر على سطح بيتي ظلت  
مننوتة الحب والخمب والضحكيات  
وظلت دعائي على سطح لإلهي والكلمة القاتلة  
وصارت يدي على سطح بيروت صارت يشكل الصليب يدي<sup>(4)</sup>

تظهر المعادلة غير المتوازنة في هذا المقطع، بشكل طرفيها الأول بيروت/ المنفى، أما الطرف الثاني فهو الوطن بذكراته الجميلة والسعيدة، "هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حلقة

(1) عبد الرحمن داغي، شعر الأرض المحنة في المستبقات، دراسة في المعامين، 506.

(2) أحمد ناهدا، الفناص في شعر الرواد، 114.

(3) جمال محمد قاسم يونس، لغة الشعر عند صبيح القاسم، 177، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1981.

(4) صبيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 4/ 21.

الارتباط البدني المشيمي يرحم الأرض/ الأم، ويرتبط بهناء الطفولة وصبايات الصبا<sup>(1)</sup>، ورغم قتامة هذا المقطع بقتامة المنفى، إلا أن الوطن يثث وجوده في هذه المساحة الشعرية، فالوطن هو الوجه الحقيقي للإنسان الفلسطيني، أما المنفى فهو مرحلة مؤقتة لا بد أن تنتهي مهما طالّت.

وفي مدينة بيروت عمل اللاجئ الفلسطيني في تنظيف الشوارع والملاهي، من أجل أن يقاتل، والقاسم يدين سياسة الاحتلال التي فرضت هذا الواقع المأساوي على أبناء الشعب الفلسطيني.

من قريتي - يا صانعي الإحراق- لم يسلم أحد

جيراننا عمال تنظيف الشوارع والملاهي

في الشتاء، في بيروت، في عمّاق، يهتاشون ..

لطفك يا الهي<sup>(2)</sup>

جاءت بيروت في هذا المقطع، مرآة للمدن العربية الأخرى، التي شكلت منفى لجأ إليه الفلسطيني في هجرته القسرية من الوطن، نتيجة الاحتلال الصهيوني، وقد حملت هذه المدينة كغيرها من المدن العربية، قضية اللجوء، وأظهرت الواقع الاجتماعي الذي عاشه الإنسان الفلسطيني فيها، وبهذا احتجب وجه المدينة، ليظهر وجه المنفى المتمكن لكراسة الفلسطيني اللاجئ، فالقاسم يؤكد أن اللجوء هو سبب إنسانية الفلسطيني وكيانه.

بيروت في حربها الأهلية تخضع للقصف المكثف، وتختلط على ثراها النماء اللبنانية والفلسطينية التي نزلت للدفاع عن وجود هذه المدينة وعروبيتها، أمام عناصر تصر على القضاء على الكيان العربي فيها، وتتبعث في آفاق هذه المدينة رائحة الهواء، وقد اختلطت برائحة الدماء، والقاسم يؤكد التحام أهل المخيمات الفلسطينية في بيروت مع هذه المدينة للدفاع عنها.

من هنا

من حكومة الصفيح، البريزنت والطوب الحاري

من مخيم تل الزعتر

تخرج أمي بملايتها الفلسطينية

(1) اعتدال عشن، (إضاءة للنص، قراءات في الشعر العربي الحديث، 8.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1، 72، 73.

لتبحث عن جثتي في حي الفنايق الفخمة  
 لتمشي قليلاً على كورنيش بيروت  
 مستشفة الهواء المطلي بدم إخوتي  
 تشتت حرارة القصف المركز  
 تهرع أمي إلى النخل

---

غير أن رجال الفالانج لا يسمعونها  
 في غمرة نيرانهم المنجبة على اللغة العربية  
 إنهم يحملون باللغة الفرنسية  
 ويطلقون النار بالفرنسية...<sup>(1)</sup>

يبدو وجه هذه المدينة مشرقاً بصمودها ونضالاتها وتلاحم أبنائها معها، وقد عكس هذا الوجه موقفها الوطني والواقع السياسي المفروض عليها.

وقد وفق القاسم في إظهار بيروت من خلال مخيم تل الزعتر وحي الفنايق الفخمة وكورنيش بيروت، وذلك ليؤكد أن الحرب قد شملت جميع أجزاء المدينة، وقد شاركت فيها جميع الطبقات الاجتماعية، وبهذا تكون بيروت، هي قضية المكان والإنسان معاً، وهي قضية الوجود والعروبة والهوية القومية.

وفي هذا المقطع تظهر صورة متحركة تكون بطلتها الأم اللجنة الفلسطينية، ومن خلال هذه الصورة التي ظهرت على مساحة واسعة من المقطع، يكون القاسم قد جمع بين قسيتين، هما الحرب الأهلية والفلسطينية، وكلتاها تعكس وجه العدو القاتم، ووجه العروبة المبتدفع.

بيروت تشكل جرحاً في نفوس الأمة العربية نتيجة الحرب الأهلية التي تخوضها، فهذه الحرب ما هي إلا امتداد لسياسة المستعمر الغربي في هذه البلاد، والقاسم يدين هذه السياسة، ويظهر ألمه وحزنه على وضع هذه المدينة.

تهبط تصويحي في مطار بيروت الدولي  
 لتقدم أوراق اعتمادها  
 سفيراً للعذاب العربي، للصودا الكاوية العربية

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 222، 223.

لا تلة من جرس الشرف  
 لا بساط احمر  
 لا باقة زهر عند سلم الطائرة ..  
 غود مورننغ مستر سايكس  
 بون جور مسيو بيهكو (1)

وفق القاسم في تطعيم هذا المقطع باللغتين الإنجليزية والفرنسية من خلال العبارتين (غود مورننغ مستر سايكس، وبون جور مسيو بيهكو)، ليؤكد الوجود الغربي في هذه المدينة من قبل أتباعه، ويشير إلى أطماع هذا الوجود في الأرض اللبنانية ويظهر الشعور القومي لدى القاسم واضحا من خلال مشاركته هذه المدينة ألامها وأحزانها.

ومدينة بيروت تعرض للعدوان الصهيوني عام 1982، ويتسوق القاسم بل يتحرق للمشاركة الناعية في هذه الحرب، والدفاع عن قضية هذا الوطن، والوجود العربي الفلسطيني فيه، ولكن أتى له ذلك، وهو المواطن الذي له حق الانتخاب في دولة العدو، والقاسم يظهر حزنه وألمه على وقع بيروت، وواقع الإنسان الفلسطيني في الأرض المحتلة.

الطائرة الإسرائيلية  
 المانحة إلى قواعدها سالمة  
 تترك وراءها خطاً أبيض طويلاً

جاءك الخط المتوعد كحبل المشنقة  
 هو البيت الأول في النشيد  
 أما بعد  
 فلما وزن يستقيم مع صرخات أطفاله الأخيرة  
 هل قلت أطفاله؟  
 لم أذكر صور.  
 لم أمدد على كرسي القماش الملوغ  
 في شرفة فندق صيداوي

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 221، 222.

لم أشهد مطلعاً لجماهير بيروت  
 هل قلت أطفالاً  
 أنا المحروم من شرف التفجير بجيناميت الحب  
 أنا أسير التعذيب المتمتع بحق الانتخاب  
 أنا المواطن المقيم دائماً على مجرور الزبالة<sup>(1)</sup>

تظهر بيروت في هذا المقطع ذات بعد سياسي، فهي المدينة العربية المهاجمة من قبل العدو الصهيوني، لإبادة الوجود الفلسطيني فيها، وبهذا تعكس هذه المدينة وجهها الوطني، فهي المدينة التي احتضنت الشعب الفلسطيني، وساندته في نضالاته ضد العدوان الصهيوني، وبهذا تتحتم المدينة بالوجدان الفلسطيني، وقد عبر القاسم عن هذا الاندغام بإضافة الضمير الياء إلى لفظ (أطفالاً)، فالتحم الشعبان الفلسطيني واللبناني، لتكون مواجهة هذه المدينة أقوى.

ومن اللافت للنظر، أن الذات الشاعرة للقاسم، قد بنت بوضوح في هذا المقطع، ولعل ذلك حرصاً منه على تأكيد موقفه الشخصي تجاه هذه المدينة، فلعله يؤكد خصوصية بيروت لديه، والعلاقة الحميمة التي تربطه بها، وقد يكون شعوره هذا منبثقاً عن موقف بيروت تجاه اللاجئين الفلسطينيين، ودفاعها عنهم أمام العدوان الذي شنته إسرائيل، عدا عن الشعور القومي الذي يتميز به هذا الشاعر، "وتل الميزة الأولى للتجارب الشعرية التي استقاها الشعراء من معركة بيروت أن فيها من حرارة الصنق بقدر ما في دماء ضحاياها التي لم تتخر بعد من سخونة"<sup>(2)</sup>.

وفي مدينة بيروت يسقط الشهداء الفلسطينيون دفاعاً عن إثبات وجودهم العربي أمام العدو الصهيوني، دون أن تحرك الأمة العربية ساكناً، وكأن هؤلاء الأبناء لا ينتمون إلى العروبة في شيء، وكان قضية هذا الشعب (الفلسطيني) ليست قضيتهم، والقاسم يدين موقف الأمة العربية تجاه حرب بيروت أمام المحتل الصهيوني.

قيل (ولادي في بيروت راحوا)  
 هل حزبتكم  
 سامحوني ليس قصدي  
 أنتم

الجوهرة الندى الصفح السماح

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 11.

(2) رجاء سمير، تحت السور، مجموعة من الأبحاث والمقالات النقدية، 41.



## وفدا لكم

كل ما قبلي وبعدى ..<sup>(1)</sup>

تأتى بيروت هنا لإدانة الأمة العربية، وتعزية موقفها الذي سبب الألم والجرح للقاسم،  
ويلغ به مبلغاً واضمحاً، ويتضح هذا الألم من خلال لهجة السخرية التي ظهرت واضحة في هذا  
المقطع، هذه اللهجة التي تتفق فيها القاسم مع شعراء بيروت، فقد "سخر شعراء بيروت من  
الموقف العربي تجاه أحداث هذه المدينة، وحملوا الأمة مسؤولية ما يجري على ساحتها من قتل  
ونهب وتشريد ودمار، فأعلنوا أن موقف العرب موقف شائن لا يدل على نخوة أو شهامة"<sup>(2)</sup>.  
ومدينة بيروت تخضع حقيقة لسيطرة المحتل الصهيوني من خلال سيطرة أتباعه على هذه  
المدينة.

### إمارة محلولة الشعر

تهرع من "ساحة الشهداء"

تأطم صخرها الطاري المدمي

وتمجد خزايعها كحريتين نحو ميناء بيروت

حيث يحملون شهداء الأرض

وينقلونهم أماناً على البحر إلى صهيون ...

وعلى صخرة "الروشة"

يقف قديموس بكل محنته

يذيلك ذبيكة الموت

يرتجف قليلاً ويقذف بنفسه إلى البحر

لا بأس يا سملك القريش

تحي اليوم من عائلة واحدة

لا بأس عليك!<sup>(3)</sup>

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 73 / 77.

(2) محمد أحمد محمد المحامي، المدن العربية المغتنة في الشعر الحديث (القدس، بيروت، القاهرة) 1948-1988، 217، رسالة

دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1989.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 226.

تظهر بيروت في هذا المقطع ذات صورة وطنية إيجابية، فهي المدينة التي ترتبط بعدالة حامية بأبنائها الذين سقطوا للدفاع عن كرامتها وعروبيتها، وهي المدينة الناقصة على العدو الصهيوني وأتباعه فيها، وهي المدينة الصامدة التي ستقف في وجه الاحتلال وأعدائه بصمود أبنائها، وتحديهم لذلك العدو.

وظف القاسم معالم رئيسية في هذه المدينة كساحة الشهداء وميناء بيروت والروشة لتكون القاعدة الرئيسية، للاتطابق نحو رفض الواقع المأساوي الذي تحياه هذه المدينة، ومحاولة الثورة عليه وتغييره.

حمل القاسم في هذا المقطع المرأة وجه المدينة، لتكون أكثر قدرة على التحرك، ويعت الحياة، ولعل القاسم لو استخدم كلمة (أم) بدلاً من امرأة لكانت كثافة الإحياء أقوى، وذلك لما تخترنه الأم من دلالات شتى تخدم هذا المقطع، ولعل أهمها الالتحام بالأبناء، ولكن قد تكون التفعيلة هي التي فرضت على القاسم هذه الكلمة (امراه).

وقد اختلط العجز بالقوة في عبارة (وتمد ذراعيها كحريتين)، وقد نشأ عن هذا الاختلاط مشاعر الرفض لذلك الواقع الأليم الذي تعاني منه بيروت.

تواصل القاسم مع الموروث الشعبي من خلال توظيفه أسطورة قديموس<sup>(\*)</sup>، بالإشارة إلى اللفظ، مع توظيف بعض الملامح من هذه الأسطورة، ولكنه اتعطف بدلائنها، فلم يجعل قديموس اللبناني ينسب قضية وطنه، بل جعله يصر على أن يخلص مدينته من أيدي القوى الطاغية، لذلك التحم بالموت لتنفيذ تلك المهمة، فجاءت الأسطورة لدى القاسم محملة برويحه القائمة على التحدي، والإصرار على استعادة بيروت من مغتصبها.

ومدينة بيروت تستصرخ أبناء الأمة العربية للوقوف إلى جانبها، وإقاذها من واقعها المأساوي الذي تحياه، ولكن أحداً لا يستجيب، والقاسم يدين الموقف العربي تجاه هذه المدينة، في الوقت الذي يظهر فيه الألم على واقعها المهيّن.

على مرامي يصر الأعمى  
على مداخل البيوت  
مدينة يدكونها بيروت

----

(\*) قديموس: هو أحد أولاد أبحور ملك صور من زوجته تيلفاسا، وبعد أن اختطف (وس لفته) أورو كره أبوه أن يتحدث عنها وألا يعود يذونها، وعاش سعى إلى تحقيق رغبة أبوه، حتى استثار وهي نفي فصحه أن يترك هذه المهمة. سبيل عشق وعذ الرزاق الأصغر، معجم الأساطير اليونانية والفروغليفية، 344.

أيديكم يا إخوتي

أيديكم!

لأنني أموت

أيديكم

أيدي ..

تسرق أعواما .. ولا تجلجل الرعوي

ترعد أعواما .. ولا ينهمر المطر

تمطر يوما

ساعة

دقيقة

تصـبـوشـبـ الحـقـيـقة<sup>(1)</sup>!

تظهر بيروت في هذا المقطع مدينة ترفض الموت والانهازمية، وهي متعلقة بالقومية العربية، من خلال حقها وتحفيزها أثناء الأمة العربية على تخليصها من الأسما، بدأ القاسم مقطعة بمفارقة التناظر، من خلال عبارة (بصر الأعشى)، "ويعمد الشاعر فيها إلى مجاورة الأضداد بطريقة تستفز القارئ وتسقطه في الهوة الواقعة بين النقيضين، ليدرك حجم التناقض المائل في الواقع"<sup>(2)</sup>، وقد حقق القاسم هذه المنافرة من خلال الإضافة، ليؤكد الواقع المأساوي المرير الذي تحياه المدينة، ولا مجال لإنكاره، وبهذا ينطلق لإدانة الأمة العربية، التي ترى هذا الواقع، ولا تحاول تغييره.

وقد وظف القاسم في هذا المقطع التجاوز الاستبدالي وهو من أسلوب الحذف والإضمار<sup>(4)</sup>، عندما عمد إلى "استبدال الأصوات ذاتها بالنقط باعتبارها علامات دالة في سياقها"<sup>(3)</sup>، ويتضح ذلك في لفظ (أيديكم)، فقد حذف عدداً من الأصوات من آخر هذه الكلمة ليؤكد عدم استجابة الأمة العربية لذلك النداء الذي أطلقته بيروت.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/2/ 216.

(2) تلصق شدة، المفارقة في الشعر العربي الحديث، 181.

(\*) وهو أسلوب يتعسف من الشاعر ألا يصرح بكل شيء، بل إنه يلجأ لجيدا إلى إسقاط بعض عناصر البناء النثوي، على عثر ي زائد، عن بدء القصيدة العربية الحديثة، 57.

(3) مصطفى السخني، مبنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، 24.

ويبدو في هذا المقطع تركيز الشاعر على الزمن من خلال الألفاظ (أعواماً، يوماً، ساعة، دقيقة)، ليؤكد أن مدينة بيروت، قد انتظرت طويلاً وقوف الأمة العربية إلى جانبها، وأنها لم تنقذ الأمل في ذلك.

مدينة بيروت غضبي، لا تجد من يدافع عنها في معركتها ضد الأطماع الغربية فيها، وهي تنوق إلى العودة إلى أيام عزها، ومجدها المشرقين، ولكن لا أمل لها في ذلك.

بيروت سيّدة الغوى

بيروت كاهنة الغضب

ظلمت

فمن ذا يشتري دمها الممّثق في السراب

بهكوز ماء

ظلمت

لسهرتها وسكرتها وميسرتها على زند الطرب

والكأس قاحلة

وما في الكرم شوق للعنب<sup>(1)</sup>

تحمل بيروت في هذا المقطع وجهين مختلفين، بل متناقضين، فقد بدا الوجه الأول غريباً عن هذه المدينة، ويعكس صورتها في ظل خضوعها للقوى الطاغية الغربية المتحكمة فيها، وبيروت من خلال هذا الوجه تبدو مستسلمة لذلك الواقع بل راضية عنه، وبهذا تكون (سيّدة الغوى) ذات وجه سني ويعكس وجود القوى الطاغية فيها، وكأن القاسم من خلال هذه العبارة يحمل بيروت مسؤولية ما حل بها.

ويظهر الوجه الحقيقي لهذه المدينة، ليجب الوجه الأول ويدينه أيضاً، فتظهر بيروت من خلال واقعها السياسي المؤلم، مدينة غاضبة، وحيدة، تذهب تضحياتها سدى، لعدم وجود من يساندها في محنتها، لذا تظهر هذه المدينة متألّمة وحزينة، ويكاد يكون الوجه الأول مسؤولاً عن وضعها القاتم، فيبروت كاهنة الغضب تأتي متمردة على بيروت سيّدة الغوى. ويظهر التداخي واضحا في هذا المقطع، فالظلم يستدعي السراب والماء والكأس، والكرم يستدعي العنب.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 355.

بيروت هي البنت المدللة التي حملت آلامها وأحزانها، وهي المدينة التي ستثور، وستنقلب ذلك الحمل الذي أثقل كاملها، والقاسم يحفز هذه المدينة على رفض واقعها المؤلم، وعدم الاستسلام له.

بيروت  
قومي من رماذك يا ابنة العنقاء  
عشتاروت  
يا بيروت  
يا بنتا مجللة  
تصبح بحزنكها القومي  
(أرملة تصبح  
أنسا . أنا حمل المحاصل  
وإننا . أنا جمل المحاصل)<sup>(1)</sup>

ظهرت بيروت في هذا المقطع من خلال بعدها السياسي، فهي المدينة التي قد تغيرت وتبدلت فيها الحياة نتيجة الظروف السياسية التي عانت منها، وبنت ذات صورة إيجابية، وذلك من خلال صمودها أمام كل التحديات التي واجهتها، مما جعلها قريبة من نفوس أبنائها، والقاسم يطالبها بمزيد من الإيجابية، وذلك بخروجها من دائرة الصمود إلى دائرة الثورة، وبهذا يكون الشاعر قد حملها ثوراً رأى فيه خلاصها من واقعها الانهزامي، فهو لم يكتب يرصد واقعها، وإنما أحس من خلال شعوره القومي بضرورة طرح الحل لها، وهذا يؤكد تفاعله مع قضيتها، ومن اللافت للنظر في هذا المقطع، أن القاسم قد لجأ إلى أسنة المدينة، لتبدو أكثر قريباً وحركة وحزبية لدى المتلقي، فيتفاعل معها، ويشعر بقضيتها، ولعل استخداماً لفظي (بنتاً وأرملة) ليشير بهما إلى تلك المراحل التي مرت بها هذه المدينة، وما واجهته من معاناة، وقد بدت لغة القاسم في هذا المقطع مكثفة وموجية، وهذا هو الشعر.

تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، فوظف أسطوري العنقاء وعشتاروت<sup>(2)</sup> عن طريق الإشارة إليها باللفظ، فالتوفيق في استخدام الإشارة يقف بها عند مشارف الرمز، ويجعل منها صورة شعرية قادرة على الإشارة، وتكتيف مجموعة من الدلالات الشعورية والفكرية<sup>(3)</sup>، وقد

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/3/ 358.

(\*) عشتاروت: وهي إلهة الحب عند البابليين، سيمى عثمان وعبد الرزاق الأسفر، معجم الأساطير اليونانية والرومانية، 315.

(2) لنس دود، الأسطورة في الشعر العربي قديم، 242.

تقاطعت هاتان الأسطورتان في بؤرة واحدة وهي بعث الحياة في هذه المدينة من جديد، وهذا هو الهمس الضاعط لدى القاسم، فهو من خلال هذا التواصل، يحفز المدينة على البعث والتجدد، وعدم الاستسلام، وهو يؤكد من خلاله أيضاً، الرؤيا التفاؤلية المستقبلية التي يمتلكها القاسم لهذه المدينة.

ومن خلال توظيف الانزياح الدلالي في عبارة (حزنها الدموي)، يكون القاسم قد أدخل المعنوي (الحزن) في دائرة المحسوس (الدم)، وبهذا يكون المعنوي أكثر وقفاً وتأثيراً في النفس، بجعله مرئياً ومشموماً أيضاً.

وظف القاسم من خلال عبارة (وأنا جمل المحامل) المونولوج الداخلي، ولعل هذا المونولوج يؤكد رفض بيروت لواقعها المؤلم، وتمرداً وثورتها عليه، وبهذا تكون بيروت، قد وقفت على أول طريق البعث الذي أراده القاسم لها وحفزها عليه.

ومن خلال هذا المونولوج الداخلي، اتكأ القاسم على التكرار اللاشعوري الذي "شرطه أن يجيء في سياق شعوري كثيف يبلغ أحياناً درجة المأساة"<sup>(1)</sup>، ليؤكد تلك الصحوّة وذلك البعث والخصب والحياة لمدينة بيروت، "وباستناد الشاعر إلى هذا التكرار، يستغني عن عناء الإفصاح المباشر، وإجبار القارئ بالالتقاط عن مدى كثافة الذروة العاطفية"<sup>(2)</sup>.

وتستشعر الباحثة أن الصوت المنبعث من المونولوج الداخلي ليس صوت بيروت وحدها، وإنما صوت فلسطين أيضاً، ويتحد هذان الصوتان، ليشكلا تلك الصرخة التي تُقذف في مسامع الأمة العربية، التي ارتصت ذلك الواقع المهيّن لبيروت وفلسطين، وتأتي لتؤكد قدرة هذين المكنين على الصمود والتحدي.

ولعل القاسم من خلال دعوة بيروت إلى الثورة يدعو فلسطين كذلك، فيبيروت وفلسطين وجهاً واحداً للمكان المقاوم.

مدينة بيروت متألّمة، وهي تأمل أن تنال السلام، من خلال تضحيات أبنائها في سبيلها.

لحييتي بيروت قديماً  
ونجّرت للشهادة والسلام  
وبورقة حمراء من وجعي  
على وجع الجيل ..<sup>(3)</sup>

(1) دازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 287.

(2) نفسه، 287.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 3/ 357.

تظهر بيروت في هذا المقطع ذات مكانة مقدسة في نفوس أبناء الأمة العربية، وهذه القدسية هي التي تحفزهم على التضحية، وبذل النفس في سبيلها، فالعلاقة حميمة بين الأبناء وبيروت، وقد أكد القاسم تلك العلاقة، من خلال لفظ (حبيبتي)، فهذه الكلمة جاءت محملة بمشاعر الانتماء لهذه المدينة، والاندغام بقضيتها، وقد زاد ارتباط الأبناء بهذه المدينة، بتوظيفه لفظاً من الموروث الشعبي، وهو النذر، فد الجاذبية في التراث الشعبي تكمن في أنه يمثل جسراً ممتداً بين الشاعر والناس من حوله، فهو بذلك يؤدي دور ... في إيقاظ الشعور القومي وإيقاظه حياً<sup>(1)</sup>. وقد عمد القاسم إلى هذا اللفظ، ليؤكد تغلغل بيروت وقضيتها في وجدان الشعب العربي، عامة والفلسطيني خاصة، وارتباط بيروت بهذا اللفظ يؤكد وجود المدينة من خلال وجود الإنسان وتضحيته من أجلها.

حمل القاسم هذا اللفظ (النذر) شحنة وطنية إضافة إلى شحنته الاجتماعية، وبهذا أصبح النذر أقوى وأشد إلزاماً في نفوس الشعب. وقد كان القاسم واعياً عندما جعل الخط الديني (القداس، الشهادة) يتقاطع مع الخط الشعبي (النذر) في نقطة واحدة هي تخليص بيروت من آلامها.

مدينة بيروت هي النور الذي تترقبه الأمة العربية ليشرق من جديد، معلنا ميطرته وسيادته على أرضه، والقاسم يحفر هذه المدينة للتحكم بمصيرها واستقلاليتها.

### بيروت

#### يا نورا تجرأ إلى سفائنه

#### منارات السواحل!!<sup>(2)</sup>

تظهر بيروت في هذا المقطع مدينة مشرقة تسعى إلى استعادة وضعها المستقر السابق، وهي مدينة محببة إلى نفوس الشعب العربي.

وتستشعر الباحثة أن القاسم يقصد بمنارات السواحل المدن الفلسطينية الساحلية المستقلة، التي تنتظر بلهفة عودة سيادة هذه المدينة، فالمدن الفلسطينية لا تريد بيروت أن تكون صورة فوتوغرافية عنها تسبطن عليها القوى الغربية المتحكمة.

هذه هي بيروت القاسم، حملت رؤيته، فجاءت مستبشرة، بمستقبل أفضل من واقعها المتردي الذي تحياه.

(1) إسمان عباس، تجاذبات الشعر شعري المعاصر، 118.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 359.

## بغداد البقطة المرتقبة

احتلت هذه المدينة مساحة واسعة في شعر القاسم، وقد تفاعل معها من خلال ثورتها ضد القوى الحاكمة الظلمة، فأها مدينة ثائرة، صامدة، قادرة على التحدي، وبهذا ظهر الوجه المشرق لهذه المدينة من خلال بعدها الثوري، وقد كثف القاسم حديثه عن هذا البعد، فتحدث عن التضحيات التي قدمها أبناء بغداد، وأشار إلى الجرائم المرتكبة بحق هؤلاء المواطنين الشائرين، وقد أبدى القاسم إعجابه بهذه الثورة، محفزاً الثوار على الاستمرارية فيها، حفاظاً على السيادة والاستقلالية العربية.

وقد أظهر القاسم خصوصية هذه المدينة، من خلال بعدها القومي، فهي المدينة التي التحمت بقضية الشعب الفلسطيني، وحملت ألامه، ووقفت إلى جانبه، ومساندته في ثوراته ضد العدو الصهيوني، وهي المدينة التي حزنّت على موت الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي ساندتها، ودعّمها في ثورتها ضد الحكم الطاغوي، وهي المدينة التي التحمت مع الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، وتألّمت لفقده، ومن خلال هذا البعد القومي، بدت بغداد قريبة من نفوس أبناء الشعب العربي ولاسيما الشعب الفلسطيني، وتولدت علاقة حميمة بين هذين الشعبين (العراقي والفلسطيني)، وكثف القاسم حديثه عن هذا البعد ليظهر الموقف (الإيجابي لهذه المدينة.

وقد بدت بغداد في شعر القاسم من خلال واقعها السياسي، فهي المدينة التي مرت بحرب مع إيران، وهي المدينة التي تعرضت للاعتداء الأمريكي عليها، ومن خلال هذا البعد أظهر الشاعر تألمه وحزنه على واقعها المأساوي.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم في حديثه عن بغداد قد أظهر بغداد/ الطبقة المحكومة. بغداد/ الشعب، بغداد/ الثوار المناضلين، وقد وُشّي هذا الوجه المشرق بالوجه الفقيض له، وهو بغداد/ الطبقة الحاكمة، بغداد/ السلطة، وقد تفاعل القاسم مع الوجه المشرق لبغداد.

بغداد تنور بكل ما لديها من قوة وحقد على الحكم الملكي، الذي عاث فساداً في هذا الوطن، واركتب أفظع جرائم بحق هذه المدينة وأبنائها، ومن خلال هذه الثورة، استطاعت بغداد أن تتخلص من تلك القوة الطاغية وأتباعها، والقاسم معجب بتلك الثورة.

زمر، كما شاءت تبيح وتحرم  
هز الجاء الجلاء النجاء المرزوم  
قالويل للطاغوت مما تكظم

وعلى جنافاهم الرافدين تكالبت  
حتى إذا ناجى القتيل بثأره  
واستيقظت بغداد وانجاح اللظى



## "نوري" على مهب النعال معفر والعروش من الـ السيف ميتة<sup>(1)</sup>

تظهر بغداد مكاناً يشهد الثورة، وبهذا اكتسبت المدينة بعداً سياسياً، وقد حملت وجه الطبقة المحكومة، قيدت حادثة، شائنة، مسمرة، لديها القدرة على اتخاذ القرار والموقف الإيجابي بإشعال الثورة، وبهذا دخلت المدينة قلوب أبناء الأمة العربية. وقد أنسن القاسم هذه المدينة، ولعل ذلك أكسبها جواً من الحبوبة والألفة، وجعلها قريبة من النفوس.

اتكأ الشاعر على الصور الجزئية لإظهار حركة هذه الثورة ونتائجها، وكانت الصور مباشرة، لا يظهر فيها الإيحاء والتكثيف الذي يميز الشعر، ولكن اللافت للنظر، أن لغة القاسم في هذا المقطع، جاءت رصينة ومثينة وقوية، و"قد تضطر أحياناً أن نقرأ القاسم جنباً إلى جنب مع القاموس"<sup>(2)</sup>.

وفي مدينة بغداد تنزف دماء الوطنيين الثائرين، الذين يتعرضون لأقسى ألوان التعذيب، من قبل القوى الحاكمة، فهم يُطاردون ويُقتلون، وذلك بسبب وقوفهم أمام تلك المؤامرات التي تحاك ضد وطنهم، وهم مستمرين في كفاحهم النضالي، من أجل الحفاظ على حرية هذا الوطن وكرامته، والقاسم يدين تلك الجرائم التي يتعرض لها ثوار بغداد خاصة والشعب العراقي عامة.

## يقال جبار نخيل الشط مشنقة للثائرين على عار الملايين

في عقر دارك جز الروم ناصيتي  
لكن ظلم ذوي القربى أشدّ ظلم  
ما كبرياء! وفي بغداد نازفة  
يا دجلة الخير، فاجرف كل شائبة  
وجاوزت خيلهم أبواب حطير  
وهني الجريحة من ظلم يقاويني  
جماء شعبي من جيل إلى جيل  
واسق المجير، واغسل إفك مافوق<sup>(3)</sup>

تحمل بغداد في هذا المقطع وجهين متناقضين، يظهر الوجه الأول بكل وضوح، ويعبر عنه هؤلاء الوطنيون الذين يسقطون على ثرى هذه المدينة، ومن خلال هذا الوجه، يظهر وجه السلطة الحاكمة، المنفذة لتلك الجرائم، فيبغداد هي المكان الذي يلتقي فيه الفعل ورد الفعل، ولكن بغداد تحمل مشاعر الوجه الأول، مشاعر الثوار الوطنيين، وتندمج معهم بدليل كلمة (نازفة)، لذا يدت المدينة قريبة من قلب القاسم، فرأى قضيتها قضيته، وذلك من خلال إضافة الضمير الياء

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/2/ 247.

(2) لطوان شلمت، سميح القاسم من الغضب فنوري إلى النبوءة النورية، 139.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/2/ 258.

إلى لفظ (شعبي)، وبهذا أصبحت فلسطين والعراق قضية الوطن المثلوب أمام قوة طاغية، ويتواصل القاسم مع الموروث الأدبي من خلال بيته الشعري:

**لكن ظلم ذوي القربى أشدّ على  
روحى الجريحة من ظلم يقاويني**

فيضمن الشطر الأول من بيت طرفة بن العبد:

**وظلم ذوي القربى أشدّ مهاجرة  
على المجرى من وقع الحسام المهند<sup>(1)</sup>**

ويأتي هذا التواصل لإدانة واقع الأمة العربية، تلك الأمة التي تكاد الحراح، ليس من المحتل وإنما من الأهل، وهذه هي قمة الألم التي يستشعرها القاسم، ولكن وعي الشاعر لا يجعله يقف عند مرحلة الألم ويحزن ويستسلم لها، بل ينطلق منها، داعياً أبناء العراق إلى المزيد من الثورات والتضحيات، من أجل تحرير العراق من تلك القوى الحاكمة الظالمة.

وتبرز كربلاء في هذا المقطع "باعتبارها رمزاً من رموز الدم العربي النازف في جسد العراق حتى اليوم"<sup>(2)</sup>.

ومدينة بغداد تشكل جرحاً عميقاً في وجدان القاسم، نتيجة معاناة هذه المدينة من ظلم السلطة الحاكمة.

**جرحى الأول: من بغداد ...**

**من بغدادنا الملتها؛**

**حيث ماء النهر مزق بحبر المكتبه**

**حيث صارت جثث الكتب جسوراً...**

**عبرها تعدو سرايا .. وتولي مركبه<sup>(3)</sup>**

تحررت بغداد في هذا المقطع من هويتها الإقليمية الضيقة، لتكتسب هويتها العربية القومية، فأصبحت المدينة العربية التي تحمل قضية الثورة والتحرر ضد قوى الطغيان، وقد عبر القاسم عن شعوره القومي تجاه هذه المدينة بلفظ (بغدادنا)، وتشى هذه الكلمة أيضاً بالإشادة والاعتزاز بهذه المدينة الصاعدة، وقد اندغم الإنسان بهذا المكان، لأنه يخوض قضية الدفاع عن الوجود وعن الكرامة.

(1) طرفة بن العبد، الديوان، 36.

(2) إبراهيم نمر موسى، توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، م 33، ج 2، 2004، 128.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 311/1.

وقد تواصل القاسم مع الموروث التاريخي، وذلك بالإشارة إلى جرائم المغول في هذه المدينة وحرق مكتبة بغداد وإلقاء الكتب في نهري دجلة والفرات، ومن خلال هذا التواصل يصل الماضي بالحاضر، ويجعل الحاضر القدم في هذه المدينة صورة متجددة من صور الماضي، ولكن مع الفارق المؤلم، بأن هذا الحاضر كان بأيدي عربية، وإن كانت تابعة حقيقة للاستعمار الغربي.

والقاسم من خلال هذا التواصل يدين الواقع، ويكشف ويعري الطبقة الحاكمة، ولكنه يتجاوز هذا الألم، ليؤكد الأمل، بأن مستقبل بغداد لن يكون صورة مطابقة عن بغداد في عهد المغول، فتشعب هذه المدينة هم الذين سيحددون مصيرها، وليست فئة المغول الجديدة.

حمل الشاعر العراقي بدر شاكر السياب هموم مدينة بغداد وآلامها، ومعاناة أهلها، وقد حفزها على الثورة والتحرر، وأثار لها طريق الخلاص، حتى ينعم أبناء الجيل الجديد بالأمان والحرية، التي انتقدها السياب في هذا الوطن، وعلى هذه المدينة أن تظل وفيه لذلك الشاعر الذي تألم من أجلها، فهي وطنه الذي يحمله في داخله، وينتمي إليه، ويشعر بتقل مسؤوليته تجاهه. والقاسم يبدى حزنه وألمه لفقد هذا الشاعر، ومن خلال هذا الحزن يحفز أبناء بغداد على الثورة.

مات غريباً يا بغداد  
فتجلى الأحزان المشعل في ماساتك  
فلينجس أحـراروك أولاد  
يلـهون بـللا أحـزان  
في الضوء الضامر ساجاتك  
والذكرى بـجلاء إنسان  
سالت من دمه قطرات، في دفتاتك! (١)

وكان القاسم من خلال العبارة الأولى في هذا المقطع، يوجه لوماً وعتاباً لهذه المدينة، التي لم تحضن الشاعر في حياته، وكذلك في موته، وقد كان القاسم واعياً في اختياره هذه العبارة، فمن خلالها أكد موقف السياب تجاه المدينة في ظل الظروف السياسية القائمة التي خضعت لها، فقد شعر السياب بالقرية في بغداد، وقد عبر عن هذا الشعور في مساحة واسعة من شعره (٢).

(١) سميح القاسم، الأعمال الشعرية لتمام، ج ١، ص 328.

(٢) انظر بدر شاكر السياب، قصائد شعري، ص 174، 175، 176، 197.

ولعل القاسم قد أظهر من وراء هذه العبارة، صورة بغداد الحاكم، بغداد التي جعلت ابنها يرفضها، نتيجة ما اقترّف فيها من انتهاك للحريات وسلب للكرامة الإنسانية.

ولكن القاسم لم يقف عند ثوم بغداد طويلاً، فقد رأى مدينة خاضعة تعكس وجه الطبقة المحكومة، وذلك يتضح من خلال لفظ (مأساةك)، فببت هذه المدينة مستسلمة تقبل الفعل، لذا وقف القاسم يطالبها بالتحدي والعنف الثوري، للخلاص من ذلك الواقع الذي تخضع له.

وقد وفق الشاعر في توظيف الازدواج الدلالي في عبارة (تقديّل الأحزان)، ليؤكد أن الأحزان هي الطريق المؤدي للحرية، فمن خلال الآلام، تتولد الإرادة والقدرة على الوقوف في وجه تلك القوة الطاغية، ولعل استخدامه كلمة (المشعل)، ليؤكد أن الأحزان كانت أكبر مساحة من ذلك الأمل المسيطر على نفوس أبناء بغداد، فلا بد لهذا التقدير أن يزداد استعماله، ليقتضي على ذلك الظلام الحالك الذي يصيب تلك المدينة.

بغداد تشرق فيها شمس الحرية بثورة لبناتها ضد الحكم الملكي، وهي تقف إلى جانب الشعب الفلسطيني المناضل، تسانده وتدعم صموده في كفاحه المسلح ضد المحتل الصهيوني، وتشاركه بطولاته ونضالاته، وبالرغم من الصعوبات والآلام التي يتعرض لها أبناء الشعبين (العراقي والفلسطيني) في كفاحهم ضد القوى الطاغية، إلا أنهم مؤمنون بالنصر والتغيير، فهم يمتلكون الإرادة، والقدرة على التحدي والصمود، ويستمدون من ماضيهم المجيد استمرارية المواجهة والكفاح، والقاسم يشيد بدور بغداد وأبنائها في الوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد الأعداء الصهاينة.

كانوا ثلاثة فتية .. قدموا

من فجر بغداد

كبروا، وقالت أمهم لهم

باركك أولادي!

ومضوا .. وفي أحداقهم وهج

من شعلة الماضي

صدوا به دربا لأنقاذي

ومع الهجي .. ولجوا!

----

عبروا .. ثلاثة فتية عبروا

وثلاث طلقات

## وجطام جيحات

صاح الأول: "ويلها! صار عدونا القمر"

صاح الثاني: "لا تخوفي دمعاً .. سننتصر"

وأكمل الثالث: "في نسلنا .. في الموعد الآتي!"<sup>(1)</sup>

ظهرت بغداد في هذا المقطع من خلال خطين مقاطعين التقيا معاً في زاوية رؤية واحدة، وهي تحرير فلسطين من الاحتلال.

وقد بدت بغداد من خلال خطها السياسي، مدينة حققت الحرية لأبنائها بالثورة، وقد أظهر القاسم إيجابيتها بخروجها من نطاق إقليميتها الضيقة لتشارك الوطن العربي قضاياء، وهذه هي البؤرة التي التقى فيها الخط السياسي لبغداد مع الخط القومي، فهذه المدينة ومن خلال أبنائها، حملت هموم الوطن الفلسطيني وآلامه، وكانت له الأمل والمدافعة، وبهذا بدت بغداد مؤرقة بالقضية الفلسطينية، ومصير هذا الوطن، مما جعلها تحتل مكانة متميزة، ليس في قلوب أبنائها فحسب، وإنما في قلوب أبناء الشعب الفلسطيني، "وهنا يتجاوز المكان حيزه الجغرافي المحدد كمكان هندي مغلق ليصبح مكاناً قائماً في المجموعة العصبية للشاعر، تحدد ملامحه ردود أفعال الشاعر تجاه المكان وعلاقته"<sup>(2)</sup>.

وقد وفق القاسم في تصويره الوطن بالأم، يؤكد العلاقة الحميمة التي لا تنفصم بين الوطن وأبنائه، وكلمة (الأم) تسي بالتضحية، وهو ما أراده الوطن من أبنائه، ليعود وجهه المشرق من جديد.

ولعل القاسم كان واعياً في توظيفه الضمير الهاء في لفظ (أمهم)، فقد اختلطت الرؤية من خلال هذا الضمير، وكان الاختلاط مقصوداً، فالوطن هو العراق/ فلسطين اندمجا معاً ليتشكل وجه الوطن المسمي، الذي لا بد أن يتحرر من أيدي القوى الظالمة.

وقد بنى القاسم هذا المقطع على أحد تكتيكات الرواية وهو القص أو الحكاية<sup>(3)</sup>، "ويتخذ التعبير الشعري عن الحدث أحياناً شكل تكتيك السرد القصصي، لكنه الشكل المطعم ببدور الدراما المبني على الصراع بين شائتي الخير والشر ..... فيعمق الإثر في نفوس المتلقين، ويحلبهم على اتخاذ موقف إيجابي"<sup>(4)</sup>، فقد استمال القاسم المتلقي من خلال هذا السرد، وخلق لديه عنصرَي التشويق والإثارة، وقد يندمج المتلقي فيصبح واحداً من شخوص تلك الحكاية.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1/ 226، 227.

(2) أحمد الصلح، ظاهرة المكان في شعر مصطفى وهي تثل "عرار" البنية ودلالة، المحلة الثقافية، 39، 1996، 111.

(3) انظر علي عثري، زاوية، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، 200.

(4) عدنان حسن قسم، ظاهرة التهدي في الشعر الفلسطيني، مجلة الكلمة، ج7، 8، 2001، 49، 80.

واتكأ الشاعر في هذا المقطع على الصور الجزئية (الحركية والصوتية واللونية)، ومن خلالها استطاع أن ينقل الأحداث والمشاهد، بكل عفوية وصدق وقدره على الانتقال من مشهد لآخر، فجاءت صورته تثير المعنى وتريد من قوة الإيهام<sup>(1)</sup>. وعلى مساحة هذا المقطع برز عدد من الأصوات، أحدها صوت الوطن العراقي الذي يحفز أبناءه على الثورة، والوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني. ويظهر صوت الشاعر/ فلسطين الذي ينتظر أبناء الأمة العربية، أبناء بغداد بكل تَشْوَق وأمل، ندعاه في معركته ضد المحتل، وصوت آخر هو صوت العدو الصهيوني الذي يظهر من خلال طلقاته النارية. ولم يظهر القاسم هذه الأصوات بهذه الصورة عتاً، وإنما ليؤكد أن صوت الشعب المناضل أقوى من صوت العدو.

بغداد ارتبطت بعلاقة حميمة مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، فقد كان داعماً لها وناصراً، وقد وقف إلى جانب أبنائها في حركاتهم التصحيحية، وبموته فقدت هذه المدينة ذلك السند وتلك الحماية، التي عهدتها من ذلك الرئيس، والقاسم يؤكد أثر موت جمال عبد الناصر على مدن الوطن العربي، ومن هذه المدن بغداد.

يا قاصداً بغداد  
سلم على أهلي  
وقل لهم: "يا ناس!  
يموت في الجدل!"  
يا راجلاً لمصر  
بُس لي ثري الصريح  
وارفع من الجموع  
سيفاً وقوساً نجر<sup>(2)</sup>

اتسعت بغداد ها لتعبر عن قطر من أقطار الوطن العربي وهو العراق، الذي شعر بالحزن والألم لموت الرئيس عبد الناصر، فجاءت للمدينة تحمل شعور أبنائها، "وتصبح المدينة كالناس

(1) نظمي محمود بركة. الانهاء الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر، 189.

(2) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 14

تعاني مرارتهم، وتتلقى ما يتلقون<sup>(1)</sup>، وبدت بغداد دعامة من دعائم الوحدة العربية. وقد نظم القاسم هذا المقطع على غرار الموال الشعبي، ليؤكد الوحدة العربية، فالشعب ينهل من مخزون ثقافي وشعبي واحد، وله ذاكرة جماعية مشتركة، وهذا يعزز الصلة الوثيقة بين أبناء الأمة العربية، وهذا ما أراد تأكيد القاسم. واتسع صوت الشاعر في هذا المقطع، ليشمل صوت الأمة العربية الحزينة بفقد الرئيس عبد الناصر.

مدينة بغداد في حربها مع إيران، خضعت لمخططات سياسية قمعية من قبل القوة الغربية المتحكمة في الوطن العربي، وقد نفذت هذه القوة المتجبرة، جرفها القاسية بحق هذه المدينة وأبنائها، وأخضعها لانتهاكاتها المستمرة، وذلك لاستنفاذ قدرتها على الصمود أمام الأطماع الغربية، والوطن العربي عامة، وبغداد خاصة لا يستطيع الوقوف أمام القوة الأمريكية سوى بالوحدة العربية، والقاسم يدين تحكم السياسة الأمريكية في الوطن العربي، وهو يؤكد وحدة المشاعر بين الشعبين الفلسطيني والعراقي.

أعرف كل قتيل وجريح في ضاحية

مد بعض المجد الإيرانية

وأعرف ما يحبك في السر وفي العلن

للشعب وللوطن

أعرف ما يرسم للقتل وللسجل

للشق وللحق

للإفك وللشك

للجوك والسفك

للجيش وللطيش

للحكم وللنقط

للحل وللربط

بضاحتي لم أعرفها أكني أعرفها

أعرف فيها تنزه في

(1) «تألف منصور، الإنسان وهزم المدينة في الشعر العربي الحديث»، 121.

ولندا انتظر التقفي القادم ..

انتظر التقفي

يولد في دمشق

مكلاً بالبرق

يولد في بغداد

من حكمة الإجداد

يولد في بيروت

لطفلة تموت<sup>(1)</sup>

تظهر بغداد مكاناً خاضعاً لسياسة غريبة متحكمة فيه، ومن خلال هذه الزاوية، عكست بغداد وجه الطبقة الحاكمة، التي اقترفت بحق هذا المواطن أفظع الجرائم وأقساها، ومن هذا المنطلق، شعر القاسم بغربته من هذه المدينة، فما يحدث فيها لا يتفق ومواقفه، وعبر عن هذا الشعور بعبارة (بغداي لم أعرفها)، ولكن شعور القاسم القومي يؤكد التحامه معها، فهو يرى فيها وجه بغداد الحقيقي، وجه الشعب/ الطبقة المحكومة، وقد رأى فيها قضية الوطن العربي الخاضع للنفوذ والطغيان الغربيين، لذا حمل همومها وآلامها، ولم يكتف الشاعر بدور الراصد لأحداثها والمساند لها، بل انطلق يبحث عن حل، يخرجها من واقعها اللاتم الذي تحياه، وهو في بحثه عن الحل، أظهر موقفه الإيجابي، ووعيه الكامل بدوره في قضايا الأمة العربية، فالقاسم واحد من أفراد الوطن العربي، وكل قضية عربية هي قضيته، فإن البعد العربي في الأدب الفلسطيني كان دائماً ظاهرة أساسية، وليس ارتباط أدب المقاومة الفلسطيني بالراهن بهذا البعد وتعميقه ووعيه، إلا استمراراً لتلك الظاهرة تاريخياً<sup>(2)</sup>.

وقد تواصل القاسم مع الموروث التاريخي، وذلك من خلال استدعائه شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد وفق القاسم في اختيار هذه الشخصية، لأن الوضع القائم في بغداد يحتاج إلى معايير شخصية ثقفي، القادرة على ضبط الأمور، وإعادة القوة للأمة العربية. ولم يكن ورود أسماء العواصم العربية في هذا المقطع، إلا لتدل على الوحدة العربية، وأنها الطريق للخلاص من السيطرة الغربية.

(1) سميح القاسم، كولاج، 40، 41.

(2) غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، 86.



وقد كرر القاسم حرف اللام في هذا المقطع ست عشرة مرة، وهذا الحرف ذو وظيفة مستقلة، وليس من بنية الكلمة الملحق بها<sup>(1)</sup>، وقد قالت عنه نازك الملائكة إنه نوع دقيق يكثر استعماله في شعرنا الحديث<sup>(2)</sup>، وقد وظفه القاسم لإشعار المنلقي بأهمية الكلمة التي تتبعه، فهذه الكلمات في تجميعها، تشكل المحور الرئيس الذي يدور حوله المقطع، ومن خلالها تتكون صورة بغداد الحاكم، وسياسته في هذه المدينة العراقية.

وظف القاسم المفارقة اللفظية في عبارة (بغداي لم أعرفها لكني أعرفها)، عن طريق إعادة إنتاج التراكيب فهو يقدم تركيباً، ثم يعيد إنتاجه بواسطة القلب<sup>(3)</sup>، وهذا النوع من المفارقة يخلل المتلقي، ويحفزه إلى مزيد من العناية بهذه العبارات، ليصل إلى المعنى الذي يريده الشاعر، ولعل القاسم من خلال هذه المفارقة، قد كشف عما يعتل في نفسه من مشاعر متداخلة ومتضاربة تجاه هذه المدينة العراقية، فهو يحمل هذه المفارقة معادلة، ينفي طرفها الأول، من خلال إثبات طرفها الثاني، لتبقى بغداد ذات علاقة حميمة بالشاعر.

في مدينة بغداد يتعرض الأكراد للانتهاكات المستمرة، وانجرام الوحشية من قبل السلطة الحاكمة، دون أن يبدي العالم اهتماماً بوقف تلك الممارسات العنيفة، بحق هذه الأقلية.

ونضني ... ورقاب الأكراد

بين الإنشوية والسكين

من إسطنبول إلى بغداد

ونضني

ونضني

"يا ليلي يا عيني

في القلب صلاح الجين"<sup>(4)</sup>

ظهرت هذه المدينة من خلال كونها مكاناً يضم تلك الأقلية التي تتعرض للعنف والفسوة، ولم يكن استحضار هذه المدينة إلا لطرح قضية الأقليات في الوطن العربي، وكأن القاسم يتحدث عما يعانيه من قهر واضطهاد بممارسة السلطات الإسرائيلية من تمييز طائفي بين أكراد

(1) علام الدين رمضان السند، ظواهر قية في لغة الشعر العربي الحديث، 73.

(2) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 273.

(3) ناصر شبيته، المفارقة في الشعر العربي الحديث، 116.

(4) سميح القاسم، سافرخ من صوري، ذات يوم (تصانيد)، 185.

وغيرهم من الطوائف الأخرى، فالقاسم يقول: "إن ظاهرة الطائفية هذه كانت عبئاً آخر في المعركة إلى جانب أعباء المعركة القومية والإجتماعية"<sup>(1)</sup>.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، فوظف الموال "الذي يحمل معنى النداء المشحون بالعاطفة المركزة المكثفة، يحمل هموم الإنسان، ويعبر عن توجعه الذي يأتي بارزاً من خلال مناداة بالعزير أو القريب"<sup>(2)</sup>، وقد تواصل أيضاً مع الموروث التاريخي، من خلال شخصية صلاح الدين، وقد استحضره ليؤكد السخرية من الواقع الانهزامي الذي تحياه الأمة العربية، ومشاعر السخرية تختزن في داخلها مشاعر الألم والمرارة، من ذلك الواقع الذي تمتن فيه كرامة الإنسان.

بغداد في حرب الخليج، تتعرض لهجوم خارجي من قبل القوات الأمريكية، ولكن هذا الهجوم لم يؤثر في مشاعر الأمة العربية، كما أثر الهجوم الداخلي، الذي نفذته مصر ضد بغداد، فبهذا الهجوم ازدانت آلام هذه الأمة واتسعت جراحاتها، والقاسم يشعر بالألم والحزن نتيجة الشرخ الذي أصاب الوحدة العربية.

بين طائفة قصفتنا، وطائفة سوف تقصفنا -

طائفة

-----

بين بغداد والقاهرة

طفلة جواره

بين جرجي وجرجي

(ساجير إيماناً الغابرة)<sup>(3)</sup>

مدينة بغداد مدينة الحضارة والتاريخ المجيد، كانت تمد الإنسان العربي بالقدرة على الصمود والمواجهة، ولكنها لم تعد كذلك، فقد فقدت إشراقاتها، نتيجة الوضع المأساوي الذي تحياه الأمة العربية، ونتيجة الانكسارات العربية المتوالية، والقاسم يدين واقع المدن العربية المنكوبة.

"بغداد يا بلاد الرشيد"

ماجا تبقى منك، لم أنزله للوتر البليد؟

(1) سميح القاسم، عن الموقف والطن، حياي وتضيق وشعري، 38.

(2) جمال محمد قاسم يونس، لغة الشعر عند سميح القاسم، 73، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1981.

(3) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 395/3، 396.

ماذا تبقى يا طليحلة الشقية من كلام؟  
 ماذا تبقى ... يا كنانة .. يا شام؟  
 ماذا تبقى للحياح..  
 وجمي تخثر في شراييني .. ووجهي مستباح؟<sup>(1)</sup>

يقدم القاسم هذا المكان بوصفه مكاناً زمانياً يرتبط بتاريخ يعينه<sup>(2)</sup>، وتأتي بغداد رمزاً للعضارة العربية، والتراث الأصيل، والتاريخ المشرق، وقد ربط القاسم هذه المدينة بعدد من المدن ذات البعد التاريخي، ليحاكم الواقع المرير الذي تحياه الأمة العربية، فيغدأ التاريخ هي المدينة التي أظهرت الوجه القائم للمدينة العربية المستلبة في الحاضر.  
 وقد كثف القاسم في هذا المقطع أسلوب الاستفهام، لإدانة الأمة العربية، عليها تخرج من سيئاتها وواقعها الانهزامي، وتحاول أن تسترد ذلك الماضي المجيد.

مدينة بغداد، مدينة الخير والخصب والبركة، وهي ذات مكانة متميزة في قلوب الأمة العربية، يلتمس القاسم معها في لحظة عشق صوفية فيراها مدينة حزينة متألّمة، نحترق بالواقع السياسي الذي تحياه، وهو يباركها ويحنّها على مزيد من الصمود والمواجهة.

موشحة بالصباب أطلتُ بروفاً على ليل صحراء جوامع  
 من رمال تجرّ بخوراً ومسكاً. أطلتُ بثمر كثير، تشهّي  
 خطايا الرصيف وغارلها كل باب وقلب: "إلا فاحظيني  
 سلماً! - تمنى الرجال أصابعها نسمة من حبر تبارك  
 أعناقهم وقراشاً يرف على جمر أفواههم. حسدتها الصبايا  
 الجميلات في خضر مستنار. تجسر في شيق عابر يافح

حاصر تنني يناري! وفككت حماري! لأصرخ وجداً  
 ويغمي علي ... مباركة في النساء. مباركة أنت  
 فلتثمري ما يشاء لك الله من ثمر الحب والمعجزات!  
 مباركة في النساء. مباركة أنت فلتبدي كيف شئت  
 الطقوس. مباركة أنت ولتكملي كيف شئت الجمالات!<sup>(3)</sup>

(1) سميح القاسم. الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 150.

(2) اعتدال عتصم. جماليات المكان. مجلة الأناضول، ع2، 1986، 81.

(3) سميح القاسم، سألخ من صورتي، ذات يوم (فصل)، 138، 139.

وبالرغم من أن القاسم في هذا المقطع لم يورد اسم بغداد، إلا أن القصيدة التي أخذ منها هذا المقطع تتحدث عن هذه المدينة، وهي بعنوان (تلك العابرة جسور الأس)<sup>(1)</sup>.  
شخص القاسم هذه المدينة، فرأها امرأة، وبهذا تكون أكثر قدرة على الضرب والعطاء، وهذا ما ألح عليه الشاعر في مقطعه السابق.  
وقد التحم الشاعر مع المدينة التحاماً صوفياً، فتوحد معها، وأكد على الحالات الصوفية التي اعتزته (لأصرخ وجدا ويغمى علي)، وقد وظف القاسم هذا الاستخدام الصوفي، ليؤكد صلته الحميمة بها، وقلقه عليها نتيجة الواقع المرير الذي تحياه.

ومدينة بغداد سوف تتخلص من الآمها وعذابها، وسوف تتعم بالرخاء والأمن والحرية، وذلك في المستقبل القريب، وسوف يعم هذه المدينة العدل، وينتشر فيها الخير، عن طريق حاكم يعيد إليها إشراقاتها المجيدة، والقاسم مؤمن بعودة الحرية والأمن لهذه المدينة في المستقبل القريب.

لبغداد أن تطمئن إلى حاكم

عادل

سوف يولد

بعد ثلاث سنين

ويوم وليدة

على شط رحلة

وتولد بين أصابع رجائه

خمسون مليون نخلة<sup>(2)</sup>

تتضح في هذا المقطع الرؤيا المستقبلية للقاسم، فهو يرى بغداد في المستقبل، مدينة تحمل القيم الإيجابية، وتبثها في ثياب العراق، ولعل هذه الرؤيا التفاؤلية، تؤكد الواقع المرير الذي تحياه المدينة العراقية، وذلك في أعقاب هجوم أمريكا على العراق، وتلك الإجراءات التعسفية التي اتخذتها هذه الدولة الغربية بحق المدينة، ولعل القاسم قد حاول الخروج من ذلك الواقع المؤلم بتلك الرؤيا، ليحقق التوازن الداخلي الذي شعر أنه فقدته في لحظة كانت فيه مساحة ألمه وحزنه أكبر من مساحة تفاؤله.

(1) سمح القاسم، سافرج من صورتي ذات يوم (قصيدة)، 138.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/4، 194.

تواصل القاسم مع الموروث الديني الإسلامي، من خلال اعتياده على الفكرة العامة لإحدى معجزات الرسول محمد (ﷺ)، وهي خروج الماء من بين أصابع يديه<sup>(1)</sup>، وقد جعل هذه المعجزة الخاصة برسوله تتناسب وبينه المدينة العراقية، فربط للخير السدي سبائي به هذا المخلص للمدينة بالنخل، و النخلة وما تمثله في الأرض العربية ... من رمز يندغم في كينونته مع معنى الاستمرار والعطاء ... إنها الإنسان الذي يتشبث بأرضه ويتغلغل في الأعماق، ... وهي التاريخ الذي ينهض من بين التراب، ...، وكما يمتد الرمز بالنخلة إلى الإنسان، فإنه يمتد كذلك إلى الأرض<sup>(2)</sup>.

وقد جاء نهر دجلة ليدعم هذا الخير، وذلك الخصب الذي سنشهد هذه المدينة.

هذه هي بغداد للثورة، بغداد الأكراد، بغداد العنوان الأمريكي، بغداد الأمل، جاءت في شعر القاسم تحمل قصة الأمها وآمالها.

## صنعاء الثورة

ظهرت هذه المدينة اليمنية الشمالية في شعر سميح القاسم، من خلال الحديث عن ثورتها ضد قوى الرجعية والطغيان، وقد أفرد القاسم للحديث عنها، قصيدة بعنوان (أختي صنعاء)<sup>(3)</sup>، ومن خلال هذا العنوان، يتضح موقف القاسم تجاه هذه الثورة، فهو يباركها، ويشيد بها، ويؤكد العلاقة الحميمة بين أبناء الشعبين الفلسطيني واليمني.

ولعل القاسم من "أكثر الشعراء جرأة في التعبير عن فرحه بالثورة اليمنية التي اندلعت في اليمن الشمالي ضد الرجعية"<sup>(4)</sup>، فهو يرى في هذه الثورة، الخطوة الإيجابية للوقوف في وجه المحتل الصهيوني بكل قوة، فانتصار أي ثورة في الوطن العربي هو هزيمة لقوى الرجعية والتخلف والاستعمار، فهم وجه واحد للطغيان والتسلط.

وقد بنت هذه المدينة في شعره من خلال الخطوط التالية:

(1) "حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك بن إسحق بن عبد الله بن أبي ملحة عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله (ﷺ) - وحادث صلاة العصر، فالتفت الناس الوضوء، فلم يحدوه، فأتى رسول الله (ﷺ) بآباء وضوءه فوضعت رسول الله (ﷺ) في ذلك الإناء بهاء، وأمر الناس أن يوضؤوا منه، قال: فرأيت ثماء بنع من تحت أصابعه، حتى توضؤوا من عند أحرهم". البخاري، صحيح البخاري، 80.

(2) عبد العزيز المقالح، صنعاء الحجار، دراسة في قصيدة الانتفاضة، 40.

(3) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 1/ 307.

(4) إبراهيم علان، شعر فلسطيني تحت الاحتلال من العام 1948-1972، 111.

**نقط الأول:** تحدث فيه القاسم عن ثورة هذه المدينة، وأثرها في نفوس أبنائها والأمة العربية، فهي الأمل بالخلاص من قيود السطة الطاغية.

**نقط الثاني:** كتف فيه الشاعر الحديث عن دور الأبناء اليمنيين في تحقيق هذه الثورة، وعن التزام أبناء الشعب المصري مع أبناء اليمن الشمالي، من أجل نشر الحرية في سماء اليمن/ الوطن العربي.

**نقط الثالث:** تناول فيه الشاعر الحديث عن الصعوبات والآلام، التي اعترضت طريق أبناء الشعب اليمني، من قبل قوى الرجعية، وقد كتف القاسم الحديث عن هذه الآلام، ليؤكد إرادة هؤلاء الأبناء، وإيمانهم بالنصر، وأملهم بالحرية.

**نقط الرابع:** عبر فيه القاسم عن أمنيته في المشاركة الحقيقية في هذه الثورة، وولائهم مع هذه المدينة في هذه المرحلة التاريخية من كفاحها.

صنعاء، مدينة الثورة، المدينة الحرة، هي الأمل الذي يشرق في نفوس الأمة العربية، ويحثها على التحرر من قيود الرجعية والقوى المتجبرة، فقد سقطت هذه المدينة بثورتها ضد تلك القوى، خطوط العز الكبرياء، ليس في اليمن فحسب، وإنما في أرجاء الوطن العربي. والقاسم يتواصل مع هذه المدينة روحياً ووطنياً، وهو يبارك هذه الثورة.

لَا يَهْبِرُ بِالشَّابَّاءِ مَسَاءَ

إِلَّا وَتَبْلُ مِنَ الْإِفْقِ الصُّبْحُ الْكَجَلَاءِ

عَيْنُ الْحَرَّةِ

بُنْتُ الثُّورَةَ

أَخْتِي ... أَخْتِي صَنْعَاءُ<sup>(1)</sup>

تظهر صنعاء في هذا المقطع، من خلال تركيز القاسم على بعدها الوطني/ الثوري، مدينة ثائرة، حرة، فادرة على تحديد مصيرها بيدها ورسم فجر الحرية في سماء الوطن/ اليمن، التقديرات استطاعت شعيرة المكان أن تنقل المكان نفسه من كونه عالمياً ينتمي إلى الجغرافيا، إلى عالم نابض، وذلك عندما يندغم بالشاعر والأحاسيس الوجدانية العميقة<sup>(2)</sup>.

اعتمد القاسم في هذا المقطع على الصورة البصرية، لإظهار أثر هذه الثورة في نفوس أبناء الأمة العربية، فقد زينت صنعاء بهذه الثورة، ولعل بؤرة هذه الصورة كلمة (العين)، فالعين

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية لشمسة، ج1/ 307.

(2) موسى رباحة، اللغة، المكان، اللون علامات بارزة في شعرية إبراهيم نصر الله، مجلة فكر، ج 160، 2002، ص 40.

هي الرؤية، وقد جاءت الرؤية هنا مزدوجة، رؤية خارجية، فالقاسم يرى الحرية مصير الأمة العربية، نتيجة الرؤية الداخلية التي تؤكد قوة أبناء الوطن العربي نتيجة ثورة صنعاء.

التحمت صنعاء بالثورة، فكانت بنتاً لها، وقد وفق القاسم في اختيار هذه الصورة، فمن خلالها شخص صنعاء وجعلها ذات مكانة متميزة في وجدان الأمة العربية.

جاءت صنعاء أختاً للقاسم/ الشعب الفلسطيني، وقد ألح الشاعر على هذا القرب الحميمي من هذه المدينة الثائرة، من خلال تكرار لفظ (أختي) مرتين، فالعلاقة وثيقة بين القاسم/ الشعب الفلسطيني وهذه المدينة، فهو يرى أن هذه الثورة سيكون لها أثر في صمود الشعب الفلسطيني أمام المحتل الصهيوني، وهذه "لغة إنسانية وقومية يتخذيها اعتراضه بالقومية العربية وإيمانه بالشعب، ومساندته لها ضد التخلف في كل مكان"<sup>(1)</sup>.

وفق القاسم في اختيار الألفاظ في هذا المقطع، فلفظ (الشباك) الذي رمز به إلى الوطن، مفتوح على الخارج، يرصد تحركات الشعب العربي وحركته النضالية، وهو مفتوح أيضاً على الداخل، يرصد قوة أبناء اليمن، نتيجة إيمانهم بالثورة والتغيير.

وقد رمز بلفظ (المساء) إلى قوى الرجعية والتسلط، فالقوة في أي استخدام خاص للرمز لا تعتمد على الرمز نفسه، بمقدار ما تعتمد على السياق<sup>(2)</sup>، فالسياق لدى القاسم هو الذي يحدد رمزه.

وقد كانت العلاقة بين المكان (الشباك) والزمان (المساء) هي ثبات المكان في وجه الزمان، وهذا يؤكد لتضامن المكان (الوطن) في وجه الزمان (القوى الرجعية)، وهذا ما أرادته القاسم، وهو يدل على رؤيته التفاضلية المنبثقة من إيمانه بقوة الشعب على تحديد مصيره بنفسه.

جاء لفظ (الأفق) الدال على العلو والامتساع والانفتاح، ليؤكد أن الأمل موجود في النفس العربية، وأن مشاعر الحرية في نفس المناضل العربي، قد تولدت نتيجة هذه الثورة.

ولعل توظيف القاسم للألفاظ الدالة على الانفتاح على الخارج في هذا المقطع (الشباك، العين، الأفق)، ليشير إلى أن الثورة سيكون لها امتداد في أرجاء الوطن العربي.

صنعاء ستشرق فيها شمس الحرية، بفضل أبنائها الذين سيجنلون أرواحهم في سبيل تحريرها، فحياة الوطن مرهونة بتلك التضحيات التي يقدمونها، وميسانده هؤلاء الأبناء اليمنيين في مجابهتهم لقوى التحرر أثناء الشعب المصري، وسيتفجر نبع الحرية في الأرض العربية، المتعطشة لمعونة الكرامة والعزة، لأبناء هذه الأمة، وهذا للوطن.

(1) خالد عبد اللطيف زهد، الوطنية والإيمانية في آثار ممدوح لقسم، 16، رسالة ماجستير، جامعة القنص يوسف، 1978.

(2) عز الدين إسماعيل، شعر عربي معاصر، لفناء وهواجر الفنية والمعنوية، 200.

والقاسم يؤكد أن الحرية لا تنال إلا بالكفاح المسلح، ويشير إلى تلاحم الشعبين (اليمنيين والمصريين) في الخلاص من قوى الرجعية.

لَا يَصْبِرُ بِالشَّوَابِكِ صَبَاحٌ  
إِلَّا وَتَطْلُ مِنَ الْإِفْقِ الْمُصَوَّبُ جَرَّاحُ  
جَرَحَ فِي صَدْرِ صَعِيدِي أَسْمَرُ  
جَرَحَ فِي صَدْرِ حُكَيْدِي أَسْمَرُ  
وَجَرَّاحُ فِي صَدْرِ نَصْرِ الصَّعْرَاءِ  
فَلْتَشْرَبْ رَنْبَقَةَ الْحَرِيَّةِ  
فِي سَفْحِ الْجَبَلِ الْإِحْمَرِ  
اتَّسِمِلْ رَيْبِئاً .. فِي عَطْلَشِ الصَّحْرَاءِ  
صَحْرَائِي الْعَرَبِيَّةُ! (1)

يبدأ المقطع بالتناول، وذلك من خلال كلمة (صباح)، وهي المفتاح الرئيس لهذا المقطع، وهي بالإضافة إلى معناها المعجمي، تحمل دلالة الحرية، وتتبق إشرافات هذه الحرية في ثوابي المقطع، وبآتي لفظ (جراح) ليدعم هذا التناول، فالاستشهاد في سبيل الوطن هو الذي سيحقق هذه الحرية.

ولعل توظيف الانزياح الدلالي في عبارة (زنبقة الحرية)، يؤكد أن الحرية لا تنال إلا بالتضحية وبذل الدماء، ومن خلال هذا الانزياح، يؤكد القاسم التواصل، والعلاقة الحميمة بين الشهيد والوطن.

ولعل توظيف الأضداد من خلال الجمع بين لفظي (الربيع والصحراء) يؤكد الانتماء القومي للقاسم، "ولعل مما أذكى حسه القومي موقفه كشاعر عربي من الطائفة الدرزية التي حاولت سلطات الاحتلال نسخها عن انتمائها القومي" (2)، وهو يؤكد هذا الانتماء من خلال عبارة (صحرائي العربية)، والصحراء عند القاسم ليست مساحة، ولا طبيعة، ولا جغرافيا، هي مناخ روحي وحضاري (3)، هي الامتداد للجذور العربية والقومية، لذا يحرص أن تعمي الثورة، لكي تنعم بالحرية، وقد جاء ضمير المتكلم في لفظ (صحرائي) ليؤكد هذا الارتباط، وقد نعت الصحراء بالعربية، ليشير إلى هويتها التي ستنبعث من جديد من خلال ثورة أبناء صنعاء.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1 / 307.

(2) خير ي. منصور، فنكس والمغزل، فب المقاومة في فلسطين المحتلة - الضفة وقطاع، بعد عام 1967، دراسة ومختارات، 42، 43.

(3) رجب فلاح، سميح القاسم أعذا هو المكان. مجلة للكم، ع، 21، 22، 1986، 241.



وقد شحن القاسم عناصر الطبيعة التي وظفها في هذا المقطع بالتفاؤل، وهذا يؤكد رؤية الشاعر المتفائلة بهذه الثورة.

وبالرغم من أن الرثيقة متناه في الصغر أمام لفظي الألق والصحراء، إلا أنها مركّز أساسي في هذا المقطع، فهي تدل على الوجود العربي في هذه الأرض، من خلال تحقيق الثورة، والتضحيات التي يبذلها الأبناء في سبيل الحرية. ولعل استخدام القاسم كلمة (اسمر) في هذا المقطع، يؤكد الصلة العميقة بين الإنسان والوطن، فالمناضل العربي قد التحم بالطبيعة/ الوطن، فحمل مظهراً من مظاهرها.

صنعاء، يلتحم معها في ثورتها أبناء الشعب الفلسطيني، الذين يساندونها وجدائياً وهم يتمنون أن ينطلقوا من مرحلة الإعجاب والإشادة بهذه الثورة إلى مرحلة المشاركة الفعلية، والقاسم يؤكد إعجاب الشعب الفلسطيني بهذه الثورة.

لا تصبر بالشبابك الريح

إلا ويصبح

في قلبي شوق... فوق الشوق!

لأضمد زندي جريح

وأضم الرشاش إلى صجري... أه

يا أروع رجوة نحو الشرق!<sup>(1)</sup>

وظف القاسم مظهراً من مظاهر الطبيعة وهو الريح، ليرمز به إلى ثورة صنعاء، وقد وفق في اختيار هذا اللفظ، فالريح لها حركة ممتدة، ولها وقع على السمع، وتأثير في النفس، وكذلك الثورة التي ستمتد في أرجاء الوطن العربي، وسيكون لها آثار إيجابية.

ولعل صورة (أضم الرشاش إلى صدري)، تدل بالجواني لدى القاسم، فهو لا يتنسى مشاركة أبناء صنعاء في ثورتهم فقط، وإنما يتمنى لو يحرر الوطن فلسطين من سيطرة العدو الصهيوني، ولكن عودته إلى الوعي، جعلته يطلق لفظ التوجع (أه) بأعلى صوته، وقد يكون هذا الصوت (أه) صوت كل من القاسم والوطن فلسطين، التحم معاً وأطلقاه، نبعيراً فيه عن مدى الحزن الذي تعانيه المدينة الفلسطينية في عهد الاحتلال، والعجز الذي يشعره أبناءها في ظل ذلك الواقع المأساوي، واقع الاحتلال

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1/ 307، 308.



اليمن إلى حضارته وإشراقاته المجيدة السابقة.

ركز القاسم على البعدين الاجتماعي والاقتصادي لليمن، فمن عادات أهل هذا الوطن شرب الشاي الأسود ومضغ القات، واليمن بختن ثروة اقتصادية وهي الين. بدأ القاسم المقطع بلفظ (رغم) الذي يدل على المقاومة، وعدم الاستسلام، ومن خلال هذا اللفظ انطلق الشاعر ليعبر عن رؤيته المتفائلة التي يؤمن بها، وهي النصر للثورة، وقد عبر عنها من خلال عبارة (بمعنى المعبود سيعود سعيد)، وقد اختار الفعل في الزمن المستقبل، ليؤكد أن الحرية هي مستقبل الوطن.

هيا القاسم من خلال تصور الجزئية البصرية، القاعدة التي تدل على المعاناة التي تكبدها أبناء الشعب اليمني في ثورتهم، فجاءت هذه الصور مشحونة بالآلم، من خلال أنفاطها التي اختارها الشاعر بعناية، وهي (المسدودة، المشؤومة، قتلى، البومة، مشاقق، العتمة). وقد انطلق الشاعر من هذه القاعدة المؤلمة بتكراره لفظ (أومن) تكراراً أفقياً ثلاث مرات، وكان القاسم من خلال هذا النوع من التكرار، يلغي الفقرة الزمنية بين هذه الكلمات المكررة، فهو يواصل ترديد هذا اللفظ، ليؤكد ليمانه بهذه الثورة، وقدرتها على التغيير. وظف القاسم أسلوب الحذف والإضمار، من خلال تلك النقاط التي فصلت بين (أومن)، لتكون صدى لهذه الكلمة، يتوقع القاسم من المتلقي أن يرددها، فيتشكل نوع من الالتحام والتواصل بين المتلقي والقاسم، ويلتقيان معاً في زاوية رؤية واحدة، وهي الإيمان بهذه الثورة. والقاسم يؤكد التحامه باليمن من خلال إضافته إلى ياء المتكلم، وقد ازداد تأكيد الالتحام، والإعجاب بهذه البقعة من الوطن العربي، باختياره لفظ (المعبود)، فقد شحن اليمن بدلالة دينية، فجاء المكان مقدساً في نفوس أبنائه، ويستحق أن تبذل من أحله التضحيات، لذا سينطلق الأبناء اليمنيون للدفاع عنه.

وكان القاسم يتواصل مع فكرة تقديم القرابين للآلهة قديماً، فكان اليمن هو الآلهة المعبودة وكان أبنائه يقدمون أنفسهم قرابين من أجله، ومن أجل تلك الحرية التي ستسطع في أفقه، وتأتي الصورة المشرقة لهذا الوطن، من خلال خروجه من دائرة الظلام التي عبر عنها القاسم بلفظ (كهوف)، إلى دائرة النور من خلال (الثكنات)، فقد استمدت صنعا/ اليمن ضيائها من نور الثورة.

وتأتي مدينة أسبوط وبور سعيد لتؤكد التحام أبناء المدينة المصرية بالشعب اليمني في ثورته الطامحة إلى التغيير.

هذه هي متينة صنعا، وهذه هي ثورتها، وهؤلاء هم أبنائها الذين السّتم معهم أبناء الشعب المصري لتحقيق أهداف هذه الثورة.

وقد بدت صنعاء من خلال النصوص الشعرية السابقة ذات بعد وطني، فصنعاء هي الثورة، ومن خلال هذه المعادلة المتوازنة اكتسبت المدينة وجهها الإيجابي المشرق، فبدت قريبة من نفوس أبنائها وأبناء الشعب العربي، فهي الأمل بخلاص اليمن الشمالي/ الوطن العربي من قيود التحجر.

## عدن التمرد والغضب

بالرغم من أن مدينة عدن لم تحتل مساحة واسعة في شعر القاسم، إلا أن حضورها كان كثيفاً، من خلال تلك النصوص الشعرية التي وردت فيها.

وقد بدت عدن في شعر القاسم، مدينة ثائرة، داعية إلى إثبات الوجود في هذا الجزء من الوطن (اليمن الجنوبي)، واحتلت مكانة متميزة في وجدان الأمة العربية، لأنها عكست صورة إيجابية مشرقة للمدينة العربية الثائرة ضد قوى الاستعمار البريطاني وأطماعه في الوطن العربي.

وامتدت هذه المدينة في أرجاء الوطن العربي، تدعو لبناءه إلى الثورة، وتحريّر الأرض العربية من قوى السطو والاستعمار.

وقد كثف القاسم حديثه عن دور أبناء المدينة ضد المستعمر، فأظهر بطولاتهم ونضالاتهم، ومن خلال بطولية هؤلاء الأبناء، ظهر وجه المدينة البطولي، واتخذ الشاعر من هذه البطولات القاعدة المثالية التي سيقف عليها أبناء الشعب الفلسطيني في مواجهتهم للمحتل الصهيوني.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم قد رمز إلى مدينة عدن خاصة، ومن اليمن الجنوبي عامة، بلقب ليلي، وذلك في قصيدته "ليلي العدنية"<sup>(1)</sup>، فهذا الرمز يعكس الحب الصادق، والانتماء والإخلاص والعلاقة الحميمة، بين هذا الطرف ليلي/ المدينة اليمنية، والطرف الآخر قسر/ أبناء اليمن الجنوبي/ الزناب الحمر، الذين هبوا للدفاع عن وطنهم، وبهذا تكون مدينة عدن لدى القاسم هي وجه الوطن اليمني الجنوبي المحرر.

عدن في ثورتها ضد المستعمر البريطاني، تقدم الشهداء الذين يقفون أمام هذا المستعمر بكل ما لديهم من قوة، وإصرار على تحقيق النصر، فهؤلاء الشهداء هم الذين سيرسمون مستقبل هذا الوطن وسيحددون مصيره، ومن خلال إشراقات هذه الثورة ونضالات أبناء اليمن الجنوبي والأمة العربية ضد المستعمر الغربي، يستمد أبناء فلسطين الأمل والقوة للصمود، في وجه

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1/ 113.

المحتل الصهيوني، فهم يرون في هذه الثورة، الخلاص من قيد المحتل، الوجه الآخر للمستعمر البريطاني.

والقاسم يشيد ببطولات أبناء الوطن العربي في سبيل تحقيق الحرية للأمة العربية.

ولدينا يا صديقي

أمل يزهر - رغم الشوك - في كل طريق

أمل، زينة من دم أهلي ورفاقي

من نحيا عياق

---

ونحيا بور سعيد

ونحيا عذق ملتعب،

وقفت ماركة متعبه

ونحيا يمن ... حمار سعيد

ولدينا يا صديقي

ورفيقي

بيرق حناه قنلنا بالواو الشروق<sup>(1)</sup>

كثف القاسم حديثه عن نضال أبناء عدن، وجعله محور هذا المقطع، فاكتملت المدينة بعدها الوطني/ الثوري.

ولعل القاسم قد ربط بين هذه المدينة، ومدينة بور سعيد ليؤكد صورة المدينة تعريية المقاتلة في هذا المقطع، فهي المواجهة للمستعمر، للقادرة على استعادة حقوقها المغتصبة، المحافظة على أرضها وهويتها، وكأن القاسم من خلال هذا التأكيد لوجه المنيعة المقاتلة، يؤكد أن عودة الحقوق إلى أصحابها لا تكون إلا بالكفاح المسلح، والثورة ضد المستعمر، وكأنه يوجه رسالة إلى أهل الأرض المحتلة، بأن الحرية لا تنال إلا بالنضال والمواجهة.

ولعل الشاعر قد ألمح إلى البعد التاريخي للمدينة اليمنية، من خلال عبارة (حمار سعيد)، فلفظ (سعيد) يبنى بالخصوصية التاريخية لليمن، فقد كان يطلق عليه قديماً عبارة (اليمن السعيد)، وقد جاء هذا اللفظ ليؤكد جنود هذا الوطن الضاربة في أعماق التاريخ، ويؤكد حضارته وشموخه، وقد وفق القاسم في اختيار لفظ (حمار)، فمن خلاله عكس الصورة المشرقة لليمن في الحاضر، وكان ثورة عدن قد أعانت وجه اليمن التاريخي المشرق.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 1 / 371، 372.

واتكأ التقاسم في هذا المقطع على الصور الجزئية البصرية (أمل يزهر رغم الشوك في كل طريق)، واللونية والشمية (أمل زنتقة من دم أهلي ورفاقي، يبرق حناه قتلتنا بألوان الشروق)، والحركية (وضاحيا عن ملتبهة وقتت ماردة منتصبة)، وقد تلاحت هذه الصور، لإظهار نضالات الشعب العربي، وبطولاته ضد المستعمر، وقد كانت الضحايا هي البؤرة المركزية في هذه الصور، وقد جاءت تدعم صمود الوطن فلسطين أمام المحتل الصهيوني. أضاف الشاعر الضمير الياء إلى لفظي (أهلي ورفاقي)، ليؤكد العلاقة الحميمة بين أبناء الوطن العربي.

وقد جاءت لوحة (زنتقة من دم أهلي ورفاقي) مصبوغة بدم الشهيد "فإن ثراء اللون دلاليًا يسهم في تشكيل لغة شعرية موحية"<sup>(1)</sup>، ووظيفة هذه الصورة "هي تجسيد الحقائق النفسية والشعورية والذهنية التي يريد الشاعر أن يعبر عنها"<sup>(2)</sup>، فالقاسم يؤكد أن عودة الوطن إلى أهله، لا يكون إلا بالتضحيات، وقد رمز إلى الشهيد بالزنتقة، ليؤكد اندغام هذا الشهيد بالأرض، لذا فهو يقدم حياته فداء لها، مؤمنا بأن جذوره ستند في أعناق هذه الأرض، ومن موته ستبعث الحياة من جديد، وستشرق شمس الحرية في وطنه، وكأن القاسم يتواصل بطريقة غير مباشرة بأسطورة تموز، من خلال توظيفه الفكرة العامة لها، التي تؤكد البعث من خلال الموت. ولعل الموقف الأيديولوجي للشاعر قد ظهر في هذا المقطع، من خلال توظيفه لفظ (رفاقي)، فهو يؤكد أن هؤلاء المناضلين رفاقه في الدرب وفي الفكر، هم الذين سيجرون الوطن، وكأنه يشير إلى تلك الثورات التي خاضها الوطن العربي تحت لواء هذا الفكر، وكانت نتائجها الانتصار وتحقيق الحرية، كثورة عدن.

والقاسم يرى أن الفكر الاشتراكي هو الخلاص من قيد المستعمر، وهو الذي سيحقق الانتصار والحرية للوطن.

هذا هو موقف القاسم وهذه هي وجهة نظره، ولكن هل المناضلون الذين سعوا لتحرير بلادهم اقتصر فكرهم فقط على الفكر الاشتراكي؟؟

وهل الإنسان الذي يحمل عبء الوطن وقضيته، يجب أن يكون اشتراكياً فقط؟؟ ومهما يكن فإن الانتماء للوطن، وبذل الروح من أجله ليس قاصراً على فكر دون آخر، فساحة النضال الوطني مفتوحة أمام كل الأحزاب، وأمام كل القوى الوطنية، وليست مقتصرة على فكر محدد بعينه.

مدينة عدن يقف إلى جانبها، ويمساندها في نضالها ضد المستعمر البريطاني أبناء الأمة

(1) محمد حمر محمد أبو حضرة، تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، 98.

(2) علي عثري زيد، عن بضع قصيدة شعرية حديثة، 74.

العربية، الذين يبذلون كل ما في وسعهم لتحقيق الحرية، وبشأت الهوية القومية، والقاسم مؤمن بأن الوطن العربي سينعم بالحرية.

يا رائحين إلى عدن

معكم حبيبي راح

ليعيد لي وجه الوطن

ونهاية الأشباح ... (1)

يدعو القاسم إلى التناول في هذا المقطع، فهو مؤمن بأن نضال أبناء عدن، سيحقق الحرية للشعب العربي، وجاءت عبارة (ليعيد لي وجه الوطن)، لتدعيم هذه الرؤيا، والتأكيد عليها، وتحمل هذه العبارة بين طياتها أيضاً دعوة إلى الاستبسال من أجل تحقيق هذا المطلب الشرعي، مطلب الحرية، ويشيد القاسم بدور المناضلين العرب ويلتحم معهم من خلال لفظ (حبيبي).

ويُشعر القاسم المتلقي بأن مدينة عدن هي انتهاء الغاية المكانية لدى المناضلين، قياساً على سيمود الوطن محرراً، وقد عبر عن هذا المعنى، من خلال توظيفه حرف الجر (إلى)، وكان القاسم يؤثر المناضلين العرب للدفاع عن هذا المكن بكل ما لديهم من قوة.

وقد تواصل الشاعر مع الموروث الشعبي وذلك من خلال توظيفه مطلع الأغنية الشعبية (يا رايحين ع حلب معكم حبيبي راح)، ولكنه غير اسم المدينة في هذا المقطع، فجاءت عدن، وقد فصّح بعض كلمات هذه الأغنية، وانعطف بمعانيها من الدلالة الغزلية إلى الدلالة الوطنية<sup>(2)</sup>، فجاءت معبرة عن الفكرة التي يلح عليها، وهي النضال ضد المستعمر.

ولعل توظيفه الأغنية الشعبية، يؤكد عمق الجذور العربية الممتدة في هذه الأرض، فلا يستطيع أي كيان غريب أن يجتثها، وستظل هي الراسخة في هذه الأرض، كما هو الحال في هذه الأغنية الشعبية، فهي متأصلة في وجدان الأمة ولا يستطيع أحد إلغاءها.

جاءت أداة النداء للبعد (يا)، تشي بموقف القاسم من أبناء الوطن العربي، الذين يخوضون هذه النضالات، فهو متعلق بهم روحياً، وإن كانوا بعيدين عنه مكانياً، فالبعد المكاني ليس حائلاً دون إيذاء المشاعر.

وصوت الشاعر الذي يظهر في هذا المقطع، ليس صوت الذات المفردة، وإنما صوت الجماعة، صوت الأمة العربية التي تشارك هذه المدينة آمالها.

(1) سميت القاسم: الأعمال الشعرية لقصيدة، ج1/ 223.

(2) انظر شوقي أحمد يعقوب أبو زيد، تواصل شعر اللغز الشعبي الحديث والترف، 108، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 1995.

عند تتعرض لجرائم المستعمر البريطاني اليومية المعتادة للقضاء على الثورة، التي يخوضها أبناء هذه المدينة، ففي كل يوم يسقط الشهداء دفاعاً عن وجود هذا الوطن (اليمن)، وحرصاً على المحافظة عليه ضد الأطماع الغربية.

- موسيقى الصباح ... سخيقة  
- السبن قليل يا خنيمة  
فلنشرب قهوتنا اليوم خفيفة

----

اليوم مشير كالمعتاد  
عجدة القتلى في هايخونغ أرتداد  
في عرجة، قتلوا ستة أولاد<sup>(1)</sup>

نظهر عدن مقلقة لرد فعل المستعمر البريطاني وهو القتل، فلا بد إذن وحتى تتكامل المعادلة، أن يكون هناك فعل استوجب رد هذا القتل، ولا شك أنه ثورة أبناء عدن ضد المستعمر البريطاني.

وقد حضرت هذه المدينة من خلال ما تشتهر به اليمن وهو البن، هذه الثروة اليمنية، التي سيطر عليها المستعمر البريطاني، وقد جاءت عبارة (البن قليل يا ضيف)، لتؤكد هذا الاستلاب لخيرات الوطن العربي من قبل هذا المستعمر، وحرمان أبناء الوطن من التمتع بخيراته.

وتأتي كلمة (اليوم) لتدل على أن هذا الوضع الأليم الذي يعاني منه الوطن العربي، نتيجة الاستعمار لن يدوم، وهو وضع مؤقت.

مدينة عدن ومنذ اليمن الجنوبي عامة، تدعو أبناءها للثورة والوقوف إلى جانبها في مجابهتها للمستعمر البريطاني، الذي ارتكب بحق اليمن الجنوبي أفظع الجرائم الوحشية، وهذه المدن مؤمنة بالأمل في تغيير ذلك الواقع المأساوي الذي تحياه.

منذ أق عادة بللي فارسة ذاهك الجواد  
كحل ليلى صار ... باروداً ورملاً وغبار  
وغدا الميل، رجلاه  
وبكت ليلى ... بكت ليلى طويلاً ..  
صبح ليلى لم يكن ماء وملحاً وانكسار

(1) مسجع القاص، الأعمال الشعرية الكاملة، م 130، 131.



كأن جمراً ونجاءات لنار!  
 وصعدت ليلى إلى الحي ... وصاحته:  
 يا لنار الفارس المخبوع بالأيدي الضريبة  
 يا لنارات العروبه  
 يا .. لنارات .. العروبه  
 وعلى ظهر الجواد  
 دُغرت ليلى.  
 قلبى المرح والشيب وهبوا للجهاج!!<sup>(1)</sup>

رمز القسم إلى مدن اليمن الجنوبي بلفظ ليلى، فقد قام بإسقاط التاريخ العربي بأسره على شخصية مناضلة، لتعود هذه الشخصية وقد لخصت تاريخ شعب بأكمله<sup>(2)</sup>، وقد ظهرت المدينة اليمنية في هذا المقطع، محفزة أبناءها على الجهاد، والدخول إلى دائرة الثورة، لتحرير هذا الوطن من أيدي المستعمر، وقد امتدت هذه المدينة في نفوس أبنائها فأصبحت رسالتها رسالتهم. تواصل الشاعر مع الموروث الأبنى بتوظيفه لفظ (ليلى)، ليؤكد العلاقة الحميمة بين أبناء اليمن الجنوبي ووطنهم، فهم يحملون له كل الحب والالتزام، ويشعرون بالمسئولية تجاهه، خاصة في تلك الثورة التي يخوضونها ضد المستعمر البريطاني.

وقد أكسب الرمز هذا المقطع حيوية وحركة، وبث الحياة في شياها، فبدت ليلى شخصية حقيقية ائتمج معها المتلقي، وتوجد صوته مع صوتها، الداعي إلى الثورة، وتحرير اليمن، وقد صاغ القاص هذا المقطع على غرار القصيدة الشعبية، من أجل الدخول إلى قلوب الجماهير والتأثير فيها، وإبداع شعر مثير جميل<sup>(3)</sup>.

وجاءت الصور الجزئية (البصرية والحركية والصوتية)، لتثقل حركة الثورة وامتدادها في نفوس أبناء اليمن الجنوبي، وكلف القاص الصورة الصوتية لتكون أقوى تأثيراً ووقماً في نفس المتلقي، فالصورة الصوتية تدخل المتلقي في دائرة الحدث، وتحته وتطليه باتخاذ موقف إيجابي. ويأتي صوت ليلى ليعبر عن صوت المدينة اليمنية الجنوبية، ويمتد هذا الصوت ليعبر عن المدينة العربية المستباحة من قبل المستعمر، وتصبح ليلى بلا هوية سوى الهوية العربية، تحفز أبناء الأمة العربية للدفاع عنها.

وينطلق (الذئاب الحمر) أبناء اليمن الجنوبي في الدفاع عن وطنهم.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1/ 117.

(2) إلياس خوري، ذخيرة للمفردة، دراسات لغوية، 254.

(3) سميح القاسم، عن الموقف والفن، حقيقى، فضيضى وشعري، 55.

كانساً جرعت به للخل ألوانا  
دماءه بفلاخ البغي ميزانا  
فاحش قلوبك .. حيات وعقبانا  
أطباعك السود إلا بعض قتالنا

جدول من دم تجتاح دقاتنا  
لقد فتحت لدفن التاج كئيبنا

مجد كانت الشمس ما لانت وما لنا  
على التليد الذي شادت ضحاينا<sup>(1)</sup>

جمت سراياها فأشرب من سرايانا  
وأشجج مجاهدك على الجرح الذي عصفت  
أركائ عرشك أينما نقوضها  
يا طامعاً بالجدائب الحمر، ما غنمت

أسطورة الأسد المهرؤم تمجدها  
يا غاربا غسلت بالنار حملته

بلادنا - القدر المحتوم فاطنها  
وطراف المجد أقسمنا نشيده

هذه هي المدينة اليمنية الجنوبية التي كافحت المستعمر البريطاني لإظهار وجه الوطن العربي المشرق، وقد حضرت من خلال الثورة ونضالات أبنائها.

## القاهرة التأخي

جاءت مدينة القاهرة في شعر القاسم، تعكس صورة مشرقة عن المدينة العربية، في مواقفها الإيجابية، وقد ربطها الشاعر بشخصية جمال عبد الناصر فاكتملت ملامح هذه الشخصية، وبدت تحمل هموم الأمة الإقليمية والقومية.

وقد ركز القاسم حديثه عن هذه المدينة، من خلال موقفها تجاه الشعب الفلسطيني، في انتفاضته للباسلة عام 1987، وهي تفتح أبوابها للشعب الفلسطيني، ومن خلال هذا الموقف الإيجابي، يظهر وجه القاهرة الوطني والقومي المشرق، وتتغلغل هذه المدينة المصرية في قلوب أبناء الشعب الفلسطيني، الذين ينظرون إليها بكل حب واحترام.

وقد عرض القاسم للبعد التاريخي لهذه المدينة، وذلك لتحفيز أبناء الشعب العربي على استعادة ذلك الدور الفاعل الذي أداه العرب في فترة عزهم وحضارتهم.

رفض أبناء مدينة القاهرة أن يتنازل الرئيس جمال عبد الناصر عن الحكم، بعد هزيمة حزيران 1967، فهم يرتبطون به أشد الارتباط، وهم يرونه الرئيس الذي استطاع أن يحقق أمل الأمة العربية ببناء السد العالي، وأن يبعث كرامتها وعزتها من جديد، من خلال هذا الإنجاز،

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م / 1 / 38.

وأن يثبت كيانها العربي مما يجعلها قادرة على الصمود أمام الأطماع الغربية، لذا سيظل هو الرئيس الذي يحافظ على عروبة هذه الأمة ووجودها، وسيظل عبد الناصر هو الحامي والداعم والناصر للشعب الفلسطيني في مجابهته للمحتل الصهيوني، فبعد الناصر هو الأمل بالخلاص من قيود الاحتلال، ولئن يتنازل الشعب الفلسطيني عن تحقيق هذا الأمل.

والقاسم معجب بشخصية عبد الناصر، وهو معجب بموقف أبناء القاهرة/ مصر الراضين لتنازل رئيسهم عن الحكم.

ويا "قطر" الصعيد، سمعت صوايا  
 ولئن أنسى الفتى الغناه  
 "يا مسافر القاهرة سلم علي الخالي  
 وقل له عليت جباهنا بسجنا العالي  
 وقل له إزاي تسبب يا أبو البلج بلجده  
 وإزاي تسببني وأنا ما يكملش صوالي؟" (1)

جاءت مدينة القاهرة من خلال الحديث عن شخصية جمال عبد الناصر، فقد عكست الشخصية وجه المدينة، فبدت ذات موقف وطني وقومي، فهي تحرص على العروبة، وقد اتسعت همومها الوطنية لتشمل هموم الشعب الفلسطيني الذي لن تتنازل عن مساندته أمام المحتل الصهيوني.

يتواصل القاسم في هذا المقطع مع الموروث الشعبي، "إنه يغني لقطار الصعيد كما يغني لأبناء الصعيد في مواويلهم المعروفة" (2). وقد طعم هذا الموال باللفظ عامية شيعية مصرية (إزاي، تسبب، ما يكملش، أبو البلج)، ليؤكد هوية الشعب المصري، ويقترب من وجدان هذه الأمة، فيندغم معها من خلال هذه الألفاظ التي تعكس روح هذا الشعب.

وقد أعطى الحوار هذا المقطع شيئاً من الحيوية والحركة، وقد عبر عنه القاسم تارة بالنداء (يا مسافر القاهرة)، وتارة أخرى بالقول الصريح (قل له)، ومن اللافت للنظر أن هذا الحوار قد بدا من طرف واحد وهو القاسم/ أبناء الأمة العربية، وبدا الطرف الآخر متلقياً، ولكنه، حقيقة، قد اندغم صوته في صوت القاسم، فجاء حوار المتلقي صدى لحوار القاسم، وهذا يؤكد موقف أبناء الأمة المصرية والعربية الراضين لتنازل الرئيس عبد الناصر عن الحكم، وقد جاء الاستفهام في العبارتين الأخيرتين للتأكيد على هذا الموقف ووجهة نظر هذه الأمة.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 236.

(2) عبد القادر لقطف، سميح القاسم، شعراء المقاومة بين الفن والالتزام، مجلة المجلة، ج172، 1971، 2.

القاهرة، هذه المدينة التي احتضنت الشاعر الفلسطيني معين بسمو في موته، لم يستطع القاسم الوصول إليها لرؤية صديقه معين، وتوديعه، وذلك بسبب إجراءات المحتل الصهيوني القمعية بحق أبناء هذا الوطن.

والقاسم يشيد بدور القاهرة التي تفتح أبوابها لأبناء فلسطين، وهو في الوقت نفسه يدين سياسة المحتل الصهيوني بتحديد حركة أبناء الوطن داخل وطنهم وخارجه.

حاولتُ أن أتيناكُ

معتذراً لموتك عن حياتي

أخي؟

أجبنني كيف أتني

باب الجنين مشرع

لكر باب القاهرة

سجته في وجه الحنين

نجمهم جاووز .. (1)

تحمل هذه المدينة هموم الأمة العربية والفلسطينية خاصة، وهذا ما يكسبها بعداً وطنياً وقومياً، وقد ربط القاسم بين هذه المدينة وإجراءات المحتل الصهيوني في الوطن فلسطين، وكأنه من خلال هذه الفكرة يؤكد المعاناة التي يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني المتجذر في وطنه، المتشبث بتراب هذه الأرض، في الوقت الذي يشعر فيه الفلسطيني بالحرية في القاهرة.

ولكن القاسم يحاول الوصول إلى القاهرة بكل ما لديه من قوة.

استخفت برعبي الصجري

لم يسعفه غلاء الحين والمصباح

لا طاقية الإخفاء أججتني

ولاً أججتُ أفاعي الساجرة (2)

والقاسم وقد بلغ به العجز كل مبلغ في الوصول إلى القاهرة يطلق هذه الصرخة

حاولتُ

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية لخاصة، م 29/3 ..

(2) نفسه، م 130/3 ..

## سامحني

## وأنقسم

لن آسامحهم لآخر آخره<sup>(1)</sup>

القاهرة ترتبط بعلاقة حميمة مع الشعب الفلسطيني المناضل، فهي تدعمه وتسانده في مجابهته للمحتل الصهيوني في انتفاضته الباسلة، وهي تحفره على المزيد من النضال والطولة، فهذه المدينة كلها أمل وشوق بأن تحقق هذه الانتفاضة التحرر، والخلاص للشعب الفلسطيني من قبضة الاحتلال الصهيوني.

والقاسم يشيد بموقف القاهرة الإيجابي والمساند للشعب الفلسطيني في انتفاضته الباسلة.

وتكبر أفاقنا الجارية

وأشواقنا الثائرة

....

وتهدر

تهجد في القاهرة

بكلمة سر:

أنا سر<sup>(2)</sup>

تظهر هذه المدينة متحركة، وذات موقف وطني، فهي حريصة على تجنر أبناء فلسطين في وطنهم، وعلى كرامة هذا الشعب، لذا فهي تحفر الأبناء على الكفاح المسلح، وموقف هذه المدينة يكسبها القبول من قبل الشعب الفلسطيني.

القاهرة أعلى جمانة، فهي المكان الذي حقق فيه العرب عزهم ومجدهم، والقاسم معجب بهذه المدينة في فترة من فترات تاريخها المشرق.

ولكـرت في شـخـفـ جـواـدي

وانطلقـت ... لآلـهـ عـام!

....

وجعلـت حـاجـرة الـكـنـانة

(1) سمح القاسم الأعمل الشعرية الخاصة، م/30، ص 131.

(2) نفسه، م/30، ص 299.

### في تاج مولانا المعز، جعلتها أغلى جمانه<sup>(1)</sup>

حضرت القاهرة في هذا المقطع من خلال بعدها التاريخي، فهي المكان المست بجذوره في أعماق التاريخ، وهي المكان الإيجابي في الذاكرة العربية، فمن خلاله يستعيد العربي ثقته بنفسه، وينطلق في محاولة منه لاستعادة ذلك التاريخ المشرق.

وقد ركز القاسم على هذه الصورة المشرقة لهذه المدينة التاريخية وذلك للانطلاق لمحاكمة المدينة العربية المعاصرة، محاكمة واقع الضعف والانهزام الذي تحياه هذه المدينة، فالكناشة تحاكم القاهرة المعاصرة، لأنها أفقدتها الصورة المشرقة الإيجابية التي كانت تتمتع بها في فترة حضارتها.

وقد وفق القاسم في نقل المتلقي إلى القاهرة التاريخية، وذلك من خلال الألفاظ (حاضرة الكناشة، تاج مولانا المعز) فهي تحمل وهج لماضي وتلقه.

والقاسم يوجه لمدينة المعز التحية، ويبعث لها بكل الحب.

تجسدت بعضي

مع الفجر

زغوردة للولادة

وتهليلة في سماء النخيل القديم

تكبيره للواء الرسول الكريم

لقلب المعز

وجوهت المعز<sup>(2)</sup>

هذه هي المدينة المصرية، القاهرة، التي احتضنت رئيسها في لحظات ضعفه وأكسبته القوة والثقة، كذلك احتضنت الشعب الفلسطيني في انتفاضته وأكسبته القوة والجرأة، ودفعت إلى التضحية من أجل حرية الوطن المسبي فلسطين، ومن خلال تاريخها المشرق سيحقق المواطن العربي وجوده.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/1، ...

(2) نفسه، ج4/3، 294.

## بورسعيد النجمة الحمراء

جاءت مدينة بورسعيد في شعر القاسم، من خلال حديثه عن الدور الكفاحي الذي خاضته هذه المدينة لصد العدوان الثلاثي.

وقد ركز القاسم على البعد الوطني لهذه المدينة، فبدت بورسعيد في شعره المدينة العربية المحاربة، وأصبحت رمزاً للصمود والتضحية.

وقد ربط القاسم بين الهجوم على هذه المدينة ومذبحة كفر قاسم<sup>(\*)</sup>، وجعل العامل المشترك بينهما هو خضوع المكان عام 1956 لهجمة شرسة من قبل المحتل من ناحية، وتضحية الشعبين المصري والفلسطيني من جهة أخرى. وقد اتخذ القاسم من هذه المدينة القنطرة على الصمود في مواجهة المحتل الصهيوني.

مدينة بورسعيد تتعرض لهجوم قاس وعنيف من قبل العدوان الثلاثي عام 1956، بسبب تأميم قناة السويس، أحد إنجازات الثورة المصرية، ويلتحم أبناء الشعب المصري مع هذه المدينة، للدفاع عنها في معركة هدفها القضاء على عروبة هذا الوطن، وبالرغم مما تكبده بورسعيد من شهداء وجرحى، إلا أن أبناءها يصرون على تقديم مزيد من هذه التضحيات، فاستشهادهم في سبيل هذه المدينة، هو الطريق الوحيد لتحقيق الحرية. والقاسم يربط بين العدوان الثلاثي على مدينة بورسعيد ومذبحة كفر قاسم.

يوم قالوا: سقتلوا قتلى وجرحى  
ما بكيت!

قلت: فوج آخر يمضي  
ومن بيت لبيت

رجت أروى نبا الغلة في العام الجديد  
ومن المحتاج: أبناء عن العام الجديد:  
"مصر بركاك .. وكل الشعب يحمي بورسعيد  
أيها الأخوة .. والنصر أكيد  
يوم قالوا: سقتلوا قتلى وجرحى

(\*) حدثت مذبحة كفر قاسم عشية العدوان الثلاثي على مصر في 29 أكتوبر 1956، انظر حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية،

صحتُ والإدمج في عيني: مرحى

ألف مرحى!!

يوم قالوا .. ما بكيت

ومنت بنبذة أيام على عيد النجاشا

وانتيت

....

وانا يا كفر قاسم

أنا لا أشك الموت - والكفر

ليد ظلت تقاوم! (1)

تظهر بورسعيد في هذا المقطع مدنية محاربة، تتلمح مع أبنائها لإعطاء صورة مشرقة عن المدينة المصرية المناضلة، وقد أظهر القاسم الموقف الإيجابي لأبناء مصر تجاه مدينتهم، ليؤكد أن بورسعيد تشكل في نفوس الشعب المصري خاصة والعربي عامة، رمزا للبطولة.

وقد استعار القاسم من المسرحية واحدا من تكنيكاتها وهو الحوار (2)، وقد أكسب المقطع الحركة والحياة وركز على فكرة أرواحها القاسم، وهي أن الاستشهاد في سبيل الوطن مرحلة ضرورية من مراحل صموده أمام العدو.

تداخلت الصور الحركية والصوتية في هذا المقطع، لإعطاء صورة عن الهجوم الذي تعرضت له هذه المدينة المناضلة، وأثر هذا الهجوم على نفسية الشعب الفلسطيني.

يبدأ المقطع بحدث مؤلم (سقطوا قتلى وجرحى)، ولكن برغم مرارة هذا الحدث، تأتي ردة فعل القاسم عكسية (ما بكيت)، فهو مثقل بجراح كفر قاسم، ويرى في ظل هذه الحالة النفسية التي يعاينها، أن هذه البطولات لا نتيجة لها، أمام قوة طاغية.

ولكن تغيرت لهجة القاسم، من خلال توظيفه (المذيع) في هذا المقطع، فالمذيع هنا يشير إلى صوت الشعب الحاكم، صوت الثورة، صوت الأمة المصرية، لهذا جاءت كلمة (صحت)، فالصيح دليل على أن القاسم قد دخل في دائرة الحدث، وقد استشعر الاهتمام بهذه المدينة، وقد زاد هذا التواصل من خلال عبارة (والأدمع في عيني) فقد اختلطت المشاعر التي يعاينها القاسم؛ فهو يشعر بالفرح ببطولة هذه المدينة المحاربة، وهو يشعر أيضا بالألم على هؤلاء الأبناء الذين يسقطون على ثرى هذا الوطن، مشاعر متداخلة، وتأتي عبارة (مرحى ألف مرحى)، لتغليب

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية لخاصة، ج1/ 281، 282.

(2) انظر علي عشري زاهد، عن بناء القصيدة شعرية الحديثة، 209.



مشاعر الفرح، وتأتي عبارة (ما بكيت) لتأكيد اهتمامه ومبالاته بهؤلاء الأبناء المناضلين وهذا الوطن،

وبهذه العبارة يكون القاسم قد خرج من دائرة اللامبالاة إلى دائرة الاهتمام، ولعل هذا التواصل بهذه المدينة وبطولاتها يكسبه شيئاً من التوازن الذي فقده نتيجة حزنه على شهداء كفر قاسم، فتأتي قوة بورسعيد تمحو ضعف كفر قاسم،

بورسعيد هي الأمل لكل الشعوب العربية التي تسعى نحو الحرية، وتحقيق الانتصار والاعتناق من قبضة الهيمنة الأجنبية.

والقاسم يحفز أبناء الأمة العربية على أن يقتدوا بدور بورسعيد البطولي، ومواجهتها للعنوان الثلاثي وصمودها أمامه.

وانظر إلى الأفق البعيد .. انتظر إلى الأفق البعيد  
فهناك .. كانت ثورة كبرى .. وكانت بورسعيد  
وهناك شيخ ميت .. وهناك ميلاد جديد

----

وهناك منجم أنبياء  
جلسوا القياصرة الطغاة الأغبياء  
وترصدوا .. لتعيش فوق رمادهم شعل النيران<sup>(1)</sup>

اكتسبت بورسعيد في هذا المقطع دلالة رمزية، فقد خرجت هذه المدينة من حدودها الجغرافية، ومن نطاقها المكاني، لتغدو رمزاً للمدينة الثائرة المحاربة.

وقد جاءت هذه المدينة الرمز تدعو إلى التفاؤل بمستقبل مشرق، مليء بالأمل، وتدعو إلى انتصار كرامة الإنسان، ووجوده وعرويته في هذا الوطن، وهي تحت المواطنين على سواصلة كفاحهم ضد المستعمر للوصول إلى الحرية.

ظهر إعجاب القاسم بهذه المدينة، من خلال جعلها أحد الدعامات الرئيسة، لتكون القاعدة التي سينطلق منها الإنسان العربي، لمواصلته طريقه الكفاحي، وقد جاءت هذه القاعدة من خلال عبارة (وانظر إلى الأفق البعيد)، التي تدعو إلى الأمل، وتحمل في طياتها الإصرار والتحدى.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1، 219، 220.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، من خلال توظيفه مضمون أسطورة العنقاء، عن طريق الإشارة إليها بلفظ من ألفاظها، وهو (ترمدوا)، فمن خلال استشهد أبناء بور سعيد، ستولد هذه المدينة من جديد، وتبعث فيها الحياة.

وفق القاسم في توظيف الاتزياح الدلالي في عبارة (منجم أنبياء) فأبناء الوطن العربي هم الثروة الحقيقية لهذا الوطن، وهم الذي سيخلصونه من أيدي الاستعمار.

وهكذا جاءت مدينة بورسعيد إثباتاً للوجود العربي أمام قوى العدوان الثلاثي.

## أسوان الإنجاز الوطني

ظهرت أسوان في شعر القاسم من خلال حديثه عن بناء السد العالي، هذا الحدث الوطني والقومي الذي شهدته هذه المدينة.

فأسوان قد اكتسبت البعد الوطني والاجتماعي من خلال هذا السد، الذي سيثبت الكيان العربي أمام الأطماع الغربية، والمخططات الصهيونية الساعية للقضاء على أي نهضة عربية في أي جزء من أجزاء هذا الوطن العربي، وهو الذي سيحقق الرخاء والخير لأبناء الأمة العربية.

فمدينة أسوان هي السد العالي في شعر القاسم.

أسوان تشهد حدثاً وطنياً مشرقاً وإنجازاً قومياً هائلاً، وحنماً راود الأمة العربية طويلاً، إنها تشهد بناء السد العالي، الذي سيبعث الأمل والحياة في أرجاء الوطن العربي، ويقف الشعب الفلسطيني إلى جانب إخوانه المصريين يشاركونهم هذا الأمل وهذه الفرحة.

والقاسم يؤكد الالتزام والتواصل بين الشعبين المصري والفلسطيني، فالأمال واحدة، والهموم القومية مشتركة.

على نبضات قلبي، أم، كانت تنبض العجالات  
على نبضات قلبي، أم  
وقلبي كما يا أسوان: واحدة من الورشات  
جوالياً وصحات وجرافات  
وقلبي كما،

### بحفلة ترعة أخرى على الخياط<sup>(1)</sup>

جاءت أسوان من خلال بعدها الوطني والقومي، تشهد بناء الذات العربية، وإثبات الوجود القومي، والتحرر من السيطرة الغربية، فبنت للمدينة التي التحمت معها مشاعر الأمة العربية وخاصة الفلسطينية في هذه المرحلة التاريخية الهامة، تثبت وجودها على أرضها. وبهذا خرجت أسوان عن كونها مدينة على الخريطة المصرية، لتصبح وجهاً للوطن المصري لمشرق بهذا الحدث الذي احتضنته.

وقد نقل القاسم صورة واقعية (حركية وصوتية) عن هذا الحدث التي تشهده هذه المدينة، فجاءت الألفاظ (الورشات، الدوايب، الجرافات) تعكس ذلك الواقع المعيش.

وفي أسوان يسهم أبناء الشعب المصري في بناء نهضة الأمة العربية، من خلال بناء هذا الإنجاز الضخم الذي انتشق عن الثورة المصرية وهو السد العالي، هذا السد المميز سيتمتع أبناء الوطن العربي الحرية، وهو سيضيء ثانياً هذا الوطن ببصرة الصمود والمقاومة التي سيلقيها في كل أرض عربية، وخاصة الأرض الفلسطينية، فهو الخطوة الإيجابية التي سيتمتع أبناء الشعب الفلسطيني القوة والثبات والصمود في مجابهتهم للمحتل الصهيوني.

وهذا السد تمجيد لأبطال الأمة المصرية الذين سقطوا في دفاعهم عن الوطن، وهو تمجيد لكل شهيد سقط على ثرى وطنه في سبيل إعلاء الكرامة والعزة العربية.

والقاسم يشيد بدور العمال المصريين في إنشاء هذا السد، وهو يحثهم ويحفزهم على تكملة هذا الإنجاز المميز، الذي سيكون له أكبر الأثر في بعث نهضة الأمة العربية.

يا أسطى سيد!

أين ... وشيد

شيد لي السد العالي

شيد لك

أطفئ ظمأ الخيط الخالي

وامسحنا .. وامسح أهلك

كوباً من ماء

وخجارتاً .. وزهوراً .. وغداً

يا أسطى سيد

أرف الموعود

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 1/ 235.

والقرية في الصحراء العجشي تحلم  
 والبجزة في التلم الصابر تحلم  
 فاصبر إشلأ القمقم  
 وابن .. وشيد  
 يا أسطى سيد  
 باسم ضحايا الأهرام وباسم الأطفال  
 ابن السد الضالي  
 يا مانع حلم الأجيال!!<sup>(1)</sup>

تخضر أسوان من خلال السد العالي، فهو يعطيها بعداً اجتماعياً ولونا نضالياً، وهو السدي  
 سيحقق الحياة الكريمة للأمة العربية جميعاً، وهو السد المنيع الذي سيفوق وجه السيطرة  
 الغربية في هذا الوطن، وهو باعث الأمل في نفس المواطن العربي.

وقد ألمح القاسم إلى البعد الحضاري للمدينة المصرية من خلال لفظ (الأهرام)، فهو يثني  
 بحضارة وتاريخ المدينة المصرية، ويزداد تاريخها إشراقاً في الزمن الحاضر، ببناء هذا السد،  
 فإشراق حاضر المدينة المصرية هو امتداد لتاريخها المجيد.

رمز القاسم بالأسطى سيد إلى كل عمل ساهم في إنشاء السد العالي<sup>(2)</sup>، ويبدو من خلال  
 هذا المقطع إعجاب القاسم بهذا العمل الذي يبني حضارة الأمة العربية، وهذا يتفق مع موقف  
 القاسم الفكري، فهو معجب بهذه الطبقة الكادحة العاملة التي كان لها الفضل في بناء السد، منتمٍ  
 لها من خلال انتمائه للفكر الواقعي الاشتراكي، ولعل القاسم كان مصيباً في إعجابه بهذه الطبقة،  
 فقد استطاعت هذه الشريحة الاجتماعية أن تحقق الإنجازات الهائلة في مصر في عهد الثورة.  
 وقد وظف اللغة التندائية في (يا أسطى سيد)، للإشعار بأهمية المنادى، والدور الجسيم  
 الملقى على عاتقه في تحقيق حلم الأمة العربية.

ولعل القاسم في هذا المقطع قد تواصل مع الموروث الشعبي المصري، فقد بنى مقطعه  
 على غرار إيقاع أغنية شعبية مصرية وهي (هزّ الهلال يا سيد) وذلك للتأكيد على هوية السد  
 العالي.

وقد كان القاسم واعياً في استخدامه الضمائر في هذا المقطع، يتضح ذلك في (شيد لي،  
 شيد لك، امحنأ، امحنأ أهك)، وقد جاء هذا الوعي من خلال التأكيد على أن هذا السد ليس  
 امتيازاً مصرياً وإن كان بأيدٍ مصرية، وإنما هو حلم الأمة العربية جميعاً، وخاصة الشعب

(1) سمح القاسم بالعمل لشعرية لشائنة، ج1/ 217.

(2) مؤتمر الانباء العرب السابع، الشيب شعري، ومشتعلات العصر الحديث، 181.

الفلسطيني، وهذا ما عير عنه غسان كنفاني بقوله: "إن الاختلاط شديد الوعي، في مهمة الأسطى سيد، حيث لا يعرف القارئ لمن يبنى السد العالي، لضحايا الأهرام، أم لأرض العطشى، لم للجبل العربي الأسير في فلسطين المحتلة"<sup>(1)</sup>.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي وذلك من خلال توظيفه حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، بالإشارة إلى لفظ من ألفاظها وهو "تمقم"<sup>(2)</sup>، ولكن القاسم ينعطف بهذه الحكاية التراثية فإذا بالمارد المصري يتخلص من قيود السيطرة الغربية، وإذا به قادر على أن يتخذ قراراته بنفسه، وبهذا يكون الإنسان العربي والمصري خاصة قد شعر بالتححرر الذاتي أمام كل قوة طاغية.

وهذه المدينة ترنو إليها قلوب الأمة العربية محملة بالأمل بإنجاز هذا المشروع لتحقيق الوحدة العربية.

يا رائحين، وخلفكم  
عيناً فتى سهران  
ما زال يقصد طيفكم  
قمرأ على أسواق<sup>(2)</sup>

ومدينة أسوان يسدها العالي استطاعت أن تقف في وجه المحتل الصهيوني، ومخططاته الهدامة التي تسعى إلى إعاقة أي تقدم حضاري، فكان السد هو البداية لصعد السياسة القمعية للمحتل الصهيوني في الوطن العربي.

وتشيد نأبلك في خراعبي  
وإننا أشييد سدي العالي .. وأحلم  
بالمجادس والمصانع والمراعي  
يا من تخاف من المجادس والمصانع والمراعي<sup>(3)</sup>

هذه هي مدينة أسوان التي احتضنت أحد إنجازات الثورة المصرية الكبرى، ألا وهو السد العالي.

(1) غسان كنفاني، الحب الفلسطيني معلوم تحت الاحتلال، 1948-1968، دراسة، 80

(\*) انظر ألف ليلة وليلة، ج1/165.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية لقصيدة، ج1/ 223.

(3) نفسه، ج1/ 380.

## عمان الالتحام المطلوب

ظهرت المدينة الأردنية عمان في شعر سميح القاسم بشكل محدود جداً، وعلى نطاق ضيق، وقد عبر من خلال هذه المدينة عن خصوصية العلاقة التي جمعت بين الشعبين الأردني والفلسطيني، في محاولة منه لتدعيم هذه العلاقة وتأصيلها، بحيث تصبح المدينة الأردنية القوة المساندة للشعب الفلسطيني.

وقد تطرق القاسم بشكل موجز جداً إلى المدينة التي شهدت مولده وهي مدينة الزرقاء<sup>(1)</sup>.

ارتبطت عمان وغيرها من المدن الأردنية بعلاقة حميمة لا يمكن أن تنقسم مع الوطن المسيحي فلسطين، وقد حملت هذه المدينة، هم هذا الوطن وشاركته الألم، ومعاناته التي تكبدها من قبل الاحتلال الصهيوني، فذابت الحدود والفوارق بينهما، وتشكل شعب واحد، وهم واحد، وبرغم هذه الخصوصية التي جمعت بين أبناء الشعبين، إلا أن الأردن لم يستمر بموقفه الإيجابي تجاه الشعب الفلسطيني، والقاسم يلوم الأردن على هذا الموقف غير المبالي تجاه فلسطين وأبنائه.

وجمعي على الأثرى ورد ذا بيل  
عمائق قابليتي ومهذب طفولتي  
فمتى يبيل صدق وروحي الماء  
سلط وجبل السرة الزرقاء<sup>(2)</sup>

لم تأت المدينة الأردنية في البيت الثاني لتعبر عن خصوصيتها، وإنما جاءت وجهاً آخر للوطن الأردن، وقد عكست البعد الوطني والقومي لهذا المكان، فقد كان الأردن هو الداعم والحامي لفلسطين، ولكنه لم يعد كذلك، لذا ركز القاسم على تلك العلاقة الحميمة التي جمعت بين الأردن وفلسطين، ليحفز الأردن، ويثيره لعودته إلى موقفه السابق، وبهذا يعود وجه الأردن مشرقاً بوطنيته وانتمائه للوطن الفلسطيني.

انتكأ القاسم في هذا المقطع على التشبيهات البليغة، وقد جاءت محملة بمشاعر الانتماء والارتباط الوطني الحميم بين هذين الشعبين (الأردني والفلسطيني)، فمن خلال عبارة (جبل السرة) يتداعى إلى الذهن هذا الارتباط الحميم، ومن خلالها أكد القاسم العلاقة الخاصة التي يحملها لمدينة الزرقاء، المدينة التي شهدت مولده.

(1) أنظر زورنت د. كامل السويح، أعلام الأدب العربي المعاصر. سمر وسير ذاتية، 1077/2. شموئيل موزيه ومحمود عاصي، تراجم وآثار في الأدب العربي في إسرائيل 1948-1978، 163، طلعت سفيرو، دليل كتيب فلسطين (1900-1990)، 100.

كشال قاسم فزحون، موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، 631.

(2) سميح القاسم، الممثل وقصائد أخرى، 33، 34.

وقد ظهرت الصورة البصرية المصبوغة باللون، وذلك من خلال (ودمي على الأردن ورد ذابل)، وقد وفق القاسم في سلب هذه الصورة الرائحة، بتوظيفه لفظ (ذابل)، ففعالية الورد وتأثيره، لا يكون إلا بالرائحة الزكية المنبعثة منه، فالدم الفلسطيني النازف في الوطن، لا يجد المساندة والدعم من الأردن، وبهذا تكون التضحيات التي يقدمها أبناء الشعب الفلسطيني أقل تأثيراً أمام العدو الصهيوني.

وقد استخدم القاسم، الاستفهام في هذا المقطع ليدل على تمني التحام الأردن من جديد بقضية الوطن فلسطين.

ولعل عبارة (فمتى بيل صدى ورودي الماء) فيها شيء من البعد عن لغة الشاعر الثقلابية، السهلة، القريبة من النفس.

هذه هي عمان في شعر القاسم، جاءت لتعبر عن موقف اتخذه الأردن تجاه الوطن فلسطين، ولا بد أن يستمر فيه.

## الفصل الثالث

المدينة الأجنبية في شعر سميم القاسم، صمود وهيمنة

- برلين الفكر الأشتراكي
- بريست ليتوفسك التجربة المثمرة
- أثينا المستقبل المشرق
- نل أبيب المدينة اليهودية على أرض فلسطينية
- نيويورك الظلام والاضطهاد
- إسطنبول تجاهل الوجود العربي
- هيروشيفا الجرم في ضمير الإنسانية
- كرمئيل الكيان الصهيوني
- واشنطن ساحة الوجود الإنساني
- باريس المدينة العمياء
- لندن الجرائم ضد الإنسانية
- ديترويت التمييز العنصري
- لاهاي القرارات غير العادلة



## برلين الفكر الاشتراكي

احتلت هذه المدينة مساحة واسعة في شعر القاسم، وقد جاءت من خلال المحاور التالية:

### 1- بطونة المدينة

ركز القاسم على هذا المحور من خلال بعدما الثوري/ الوطني، فبدت ذات صورة إيجابية، من خلال دورها البطولي في الوقوف في وجه النازية، والمحافظة على فكرها وعقيدتها الاشتراكية، وقد حمل أبناء برلين صورة هذه المدينة، فأشرقت من خلال تضحياتهم في سبيلها، وتحملهم المعاناة والالام من أجل المحافظة عليها، وصودهم في وجه القوة النازية، وقد أظهر القاسم العلاقة الحميمة بين هذه المدينة وأبنائها، في محاولة منه، لتحفيز الشعب الفلسطيني على التمسك بالوطن، والدفاع عنه بكل ما لديه من قوة.

### 2- واقع المدينة

جاءت جرائم النازية لتكون الأرضية لذلك الواقع، وقد ركز الشاعر على هذا المحور، فبدت برلين مسئلة، خاضعة لسياسة النازية القاسية الظالمة، وذلك ليؤكد براءة هذه المدينة، وضعفها أمام تلك القوة الجائرة، ولجعل المثقلي يتخذ موقفا حاسما ضد تلك السلطة الطاغية، وإيجابياً تجاه المدينة.

### 3- مستقبل المدينة

حدد القاسم مستقبلها المشرق، من خلال التزامها بالشيوعية، فهو يراها الطريق الآمن للوصول إلى الهدف المنشود، وهو الحرية، وقد جاء البعد الصناعي ليؤكد هذا المستقبل، فهي المدينة التي ستحدد كل القوى، من خلال عملها وإنتاجها ووقوف أبنائها الشيوعيين إلى جانبها.

### 4- العلاقة الحميمة بين برلين وفلسطين

أكد القاسم هذه العلاقة، وذلك لإعطاء صورة مشرقة عن هذه المدينة، وموقف مشرف لها، فهي البقعة التي يشعر بالانتماء إليها فكريا، ويجدها امتداداً له، وهو من خلال هذا المحور، يحفز أبناء الشعب الفلسطيني على الإعجاب بها وفكرها، وكأنه يدعوهم إلى تبني ذلك الفكر، فهو يراه الخلاص من الواقع السيء الذي تحياه الأمة، وهو يراه الطريق الجاد نحو التنوير، هكذا رأى القاسم هذا الفكر، وهكذا عبر عنه.

ومن خلال هذا المحور، أكد الشاعر العلاقة الحميمة بينه وبين هذه المدينة، فهو معجب بها أشد الإعجاب، ملتحم معها حتى أنه رآها أخته.

ومن اللافت للنظر، أن الذات الشاعرة قد برزت بشكل واضح، من خلال حديثه عن برلين، وكأنه يريد التأكيد على موقفه الأيديولوجي، وعقيدته الفكرية من خلالها، برلين عاصمة عظيمة خضعت لسيطرة هتلر، والقاسم يستكر هذا الموضوع.

لنقرأ معاً 'كفاجي' للهر هتلر  
هَذَا السَّيِّدِ الرَّصِيفِ الْمَعْتَوِهِ

لنقرأ معاً  
لِكُنْ بِكَيْفِهِ اسْتَوْعِبْ أَنْ يَجْلِسَ مِثْلَ هَذَا الشَّيْءِ  
عَلَى عَاصِمَةِ عَظِيمَةٍ  
بَيْنَ خُطِّ الطُّولِ 12 وَخُطِّ الْعَرْضِ 52  
قَدِمَ عَلَى كَتِفِ تَيْتَشْ  
وَالْآخَرَى عَلَى عُنُقِ فَاجِنر  
بَيْنَمَا جَبُوبُهُ مَحْشُوءَةٌ بِمَقَاتِيحِ الْقُلُوبِ وَالْمَصَانِعِ<sup>(1)</sup>

وبالرغم من أن القاسم لم يذكر اسم هذه المدينة، إلا أنها قد حضرت من خلال تحديد موقعها الجغرافي، ولعل توظيفه المصطلحات الجغرافية (خط الطول وخط العرض) والأرقام في هذا المقطع، قد أدخل بشعريته هذا المقطع، وأشعر المتلقي بالفجاجة والنقل، ولم تحضر هذه المدينة إلا لإدانة سياسة هتلر النازية فيها.

برلين عانت الآلام، وتعرضت لمساواة قهريّة من قبل النازية، ومقط أبداؤها في سبيل الدفاع عن فكرهم وعقيدتهم، وبرغم تلك الجرائم المرتكبة بحقها، إلا أن الأمل يسيطر على نفوس أبنائها، والقاسم مثالم على واقعها، ولكنه مؤمن بحتمية خلاصها.

بالصمت يا برلين أعلّق حُبّاً  
أَمْ بِالْبُكَاءِ

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4، 42، 43، 44.

ويدي تمر على جدار

شباب من أهوال أمس

وثقوبه المعشوشبات

أحداق من سقطوا.

وليل الرايح يخنق بكل سُمس<sup>(1)</sup>

بدت برلين في هذا المقطع مكاناً وقع عليه الفعل الإجرامي النازي، وذلك بسبب انتمائها وعقيدتها الفكرية، وجاء الجدار أهم معالمها يحمل الأسماء ويشي بواقعها المرير، فنعكس فضاء هذه المدينة حزنها، وقد ركز القاسم على وجهها المتألم، ومن خلاله ظهر وجه النازية البشع. وقد تعاطف القاسم معها من خلال الصور الجزئية التي جاءت لتقلل مشاهد هذه الجرائم المرتكبة بحفا.

ولعل المتابع لمدى القاسم قد تجلت في هذه الصورة (وثقوبه المعشوشبات أحداق من سقطوا)، فمن خلالها جعل الشاعر المتلقي يرى تلك الأحداق، ويشعر كأنها تنظر إليه، وتحمله تلك الرسالة، وهي الدفاع عن الموقف والعقيدة الفكرية مهما كان الثمن، وقد كان القاسم واعياً بجعله تلك الثقوب/ الأحداق معشوشبات، ليوكد أن موقف أبناء برلين تجاه الدفاع عن عقيدتهم الفكرية متواصل ومستمر، ولأن يتوقف، وقد جاء اللون من خلال (معشوشبات) ليخدم هذه الفكرة، ويجعلها نضرة ومشرقة في نفوس أبناء المدينة.

برلين حبيبة القاسم مريضة، وهي لا تنام نتيجة واقعها المأساوي، ولكنها تصبر على المقاومة والتحدي، والقاسم يدين انتهاكات النازية المستمرة للإنسانية فيها،

عما فير الضاية السوداء<sup>(2)</sup> تواجه رقرقاتها

لو تبشر بنهوض الشمس الجديدة

أما حبيبتي فمريضة.. وهي لا تنام

لأن البساطير الثقيلة تسحق ورجة السكينة

وأشعار برتولت برشت تقاوم بالإظافر

بينما بحدود الصليب المعقوف كحجر الرحي

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 249، 250.

(2) الغابة السوداء: غابة ضخمة في جنوب ألمانيا، تحيط بمعسكر يوغنفلد، نغمه، 2/ 193، الهامش.

مخزياً في المطاوي المختنقة بالفراغات السامة

لحم أوروبا المكسورة كبيضه

تحت المهجير الهستيري؛

"جويتش لانج إيدر الس" (\*)

حببتي مريضة. وهي لا تنام

لأى "جيتة" مضرب عن الطعام تحت "شجرة الحكمة" (\*\*)

و"بيتهوفن" الذي استعاد حاسة السمع

يبلل أصابعه بدموع "هاينه"

ثم يجلس إلى البيانو ليعلن غشيه! (1)

استخدم القاسم لفظ (حببتي) ليدل به على برلين، وقد جاءت خاضعة لفعل النازيين، غير قادرة على رد الفعل المطلوب، وبهذا بدت ضعيفة ليس لأنها ضعيفة في ذاتها، بل لأنها تواجه قوة هستيرية قادرة على إخضاع كل قوة أمامها.

بدأ الشاعر المقطع بالتناول، وذلك من خلال تلك العصافير، التي تبشر بالحرية والمستقبل المشرق لهذه المدينة، وقد كان القاسم واعياً من خلال جعله هذا التناول، يصدر من مكان قائم ومؤلم للذات الإنسانية، وهو الغاية السوداء، ليؤكد أن هذه المدينة عانت كثيراً من أجل الحصول على الحرية، وبهذا يكون الفضاء المكاني (لغاية السوداء) هو بؤرة هذا المقطع، الذي ظلل المدينة بألمه وأحزانه، وكثف من جرائم النازية فيها، فبدت برلين مثقلة بجراحها، وقد كان للمعجم اللغوي الذي اختاره القاسم أثر في تكثيف وجهها المتعب، فبرغم أن كلمة (البساطير) قد لا تنتمي إلى ساحة الشعر، إلا أنها "ادخلت بصدق فني في حالتها الشعرية المناسبة" (2)، فجاءت بدلالاتها السلبية تؤكد خضوع المدينة لجرائم النازية، وقد نعتها بلفظ (الثقلية)، ليؤكد أن برلين لم تعد لديها القدرة على تحمل تلك الجرائم، ويأتي لفظ (تسحق) ليجعل المدينة تصل إلى الذروة في عدم التحمل، لهذا لا بد من بدء مرحلة أخرى، وهي مرحلة المقاومة.

ولعل، توظيف الاتزياح الدلالي في عبارة (وردة المكيّة)، ليؤكد حاجة المدينة إلى الهدوء، وبهذا يكشف القاسم عن واقع الضجيج والعنف والفوضى فيها، وهذا يسبب الألم لأبنائها.

(\*) دويتش لانج إيدر الس: ألمانيا فوق الجميع، شعر النازية وبشدها، مجمع الناصر، الأعمال الشعرية تكملة، م2/ 85، الهامش.

(\*\*) شجرة الحكمة: شجرة في لغاية السوداء يقال إن حبيته كذب في ظلها قصيدة يقول فيها إن الحكمة ملتصقة، وعلى سبيل

الشعرية شملها لندوين في إطار بوخلدت، نفسه، م2/ 85، الهامش.

(1) نفسه، م2/ 84، 185

(2) محمد علي طه وأحران، الملاحم الأدبية حول التجربة الفلسطينية للفلسطينيين لم تكتب بعد، مجلة الشرق، ع2، 999، 85.

وقد شخص الشاعر برلين فجعلها حبيبته، وقد أصبحت قضيتها قضيتها، ومن خلال هذا الشخص، يصبح المتلقي أفقر على التفاعل معها، وأكثر تأثراً بواقعها وتقيلاً لها، وقد كشف هذا الشخص عن الشعور النفسي لدى القاسم، فهو منتحم معها أثناء الالتحام، وهو متألم لحالها، مؤرق لواقعها، ولكنه لم يكتف برصد ذلك الواقع، وإنما أكد رفضه والتمرد عليه، وقد تواصل القاسم مع الموروث الأدبي، وذلك بالإشارة إلى شخصية كل من "حيته" ويتيوفن وهاينه<sup>(1)</sup>، وقد جاءوا معادلاً موضوعياً للإنسان الألماني المحب لوطنه، المنتمي إليه، المتألم عليه.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم في هذا التواصل قد حدد مقاومة الإنسان الألماني، فجعلها مقاومة سلبية، لا تتخطى الحزن والألم والغضب، وكان الأولى أن يجعلها مقاومة إيجابية فاعلة. وقد التقط العبارة الألمانية (نويش لاند إبير آس)، ووظفها في هذا المقطع، ليشعر المتلقي بسطرة العدو النازي على هذه المدينة، ومن خلال هذه العبارة، هيمنت الصورة الصوتية في هذا المقطع على باقي الصور الحركية والثوية، وقد ضاع الصوت السلمي (صوت النازية) على الصوت الإيجابي.

كثف الشاعر حروف المد في هذا المقطع، فهي تقوي من إحياء الكلمات والصور<sup>(1)</sup>، وقد جاءت "شعر المتلقي ببطء حركة الزمن، وطول امتداده، وثقل وطأته"<sup>(2)</sup>، وذلك يؤكد الواقع المرير الذي تحياه المدينة، ولجعل المتلقي محاصراً في تلك الجرائم، مما يشعره بتقل ذلك الواقع، ويحفزه على اتخاذ موقف إيجابي تجاهها، وسلي تجاه العدو النازي. ولعل حشد القاسم لأسماء شخصيات في هذا المقطع، قد قلل من تكيفه، وجاء متغلباً بتقافة الشاعر الواسعة، وترى الباحثة أن هذا المقطع بعيد عن الشعرية التي يجب أن تميز الشاعر.

برلين متعبة، حزينة، تودع أبناءها للراجلين إلى الحرب غير العائدين إليها، والقاسم يعلن حبه وانتماؤه لها.

بالجمي يا برلين أكلر حبنا.

أم بالبيكاء!

وإنا أقبل بكفك التنبهي.

وأركع في خشوع

لجلال تمثال.

(\*) هاينريش هاينه: كاتب وشاعر ألماني، أنظر <http://www.bentrafafadain.com/ads6/sh6eir/sh621.htm>

(1) علي مشاري زليد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، 48.

(2) عدنان حسين قاسم، دراست نقدية، 149.

تكملة تسج من شطآن عينيه الجموع  
تمثال أم وجعت أبناءها قبل الصباح  
ومرثوا.  
وما عايناه.  
وعاد الليل منكسور الجناح<sup>(1)</sup>

جاءت برلين في هذا المقطع تحفز أبناءها على التضحية، والدفاع عنها في وجه الأعداء، فبدت ذات وجه إيجابي مشرق، من خلال موقفها البطولي، في غرس حب الوطن في نفوس أبنائها.

ومن اللافت للنظر، أن الذات الشاعرة قد برزت بشكل واضح في هذا المقطع، فالقاسم قد عثر عن حبه وانتمائه لها، وقد وصل به هذا الحب إلى مرحلة التقنين، فقد استمد منها الفكر الذي بناه، فشكلت له امتداداً لأيدولوجيته ومواقفه، وقد أثر هذا على تصويره لها<sup>(2)</sup>، فجاءت برلين أمماً لتؤكد الحنان والانتماء والموقف، هكذا رآها، وهكذا عبر عنها.

وقد اتكأ الشاعر على الصور الجزئية التي تؤكد العلاقة الوثيقة بين القاسم وبرلين، ونسي بذلك المساحة الواسعة من الحب بينهما، وقد اختار مجموعة من الألفاظ لتكون الأرضية الممهدة لتلك العلاقة، فجاءت (حبنا، أقبلي، أركع، خشوع، أم)، وكلها ألفاظ تضي بدلالة الحب والتفاني. ولعل التداخي واضح في هذا المقطع، فالركوع يستدعي الخشوع، والخشوع يستدعي الجلال، وهذه المشاعر الدينية المرهفة، يقدمها القاسم لتلك المدينة الاشتراكية التي يجد بها امتداده.

ولعل المبالغة في مشاعر القاسم، قد تكثفت بشكل واضح من خلال هذه الصورة (وأركع في خشوع لجلال تمثال)، ولعل مسوغ هذه المبالغة، كان النقاء الشاعر مع هذه المدينة في الفكر الاشتراكي، عدا عن إعجابه بموقفها الوطني الصامد أمام القوى الطاغية.

برلين قديسة، صامدة، مستبشرة بالمستقبل، وينبعث (الأمل في جناباتها من خلال ثبات أبنائها وتضحياتهم من أجلها، والقاسم معجب ببطولة أبنائها، ويشيد بمواقفهم.

### الجنود النازيون

يحرقون حلمتي القديسة برلين. وهي تبسم  
لأفق الجيود نهشت مسجساتهم الساخنة

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، 249.

(2) زهير محمود سليمان عزلم عبادات، صورة المدينة في شعر العربي الحديث، 82، رسالة ماجستير، جامعة الزمرك، 1987.

رأس أرنست تالما<sup>(\*)</sup> (من الخلف طبعاً).  
 لم يسمعوا عصفير "الغابة السوداء"  
 وهي تزحف إلى العالم شمس الجديّة  
 لم يشهدهوا في بقع الدم الحار  
 صورة فالتر أولبرشت ورفاقه الفاضلين<sup>(1)</sup>

تظهر برلين في هذا المقطع من خلال بعدها الثوري، فهي المدينة المتمردة التي تكف في وجه النازية، وهي التي تتعرض لرد فعل السلطة القاسي، ورغم ذلك تظل متحدية، قادرة على المواجهة، وقد جاءت تحمل وجه أبنائها الثائرين، المتاضلين من أجلها، لذا ظهر وجهها ممتداً في قلوب أبنائها، منغرساً في وجدانهم.

وقد وظف القاصم المفارقة التصويرية في (بحرقون حلمتي القديسة برلين وهي تتسمد) ليؤكد بطولته هذه المدينة، وصمودها أمام كل التحديات، وهذه المفارقة تضي أيضاً بشراة أفعال النازية.

بدأ الشاعر المقطع بعبارة تدل على القوة القاهرة (الجنود النازيون)، وقد سيطرت هذه القوة على أجزاء المقطع، وانتشرت في شيا، ومن خلالها ظهر الوجه القبيح للنازية، وقد كان القاصم واعياً في اختياره عبارة (من الخلف طبعاً) ليؤكد ذلك الوجه لها، فهي المعادل الحقيقي للجن والبطش وعدم احترام الإنسانية، ومن خلال هذه الصورة القاتمة، بدت صورة برلين المشرقة الصامدة.

وقد استخدم القاصم في هذا المقطع التجانس الاستهلاكي الناقص، وهو تجانس أول أصوات الكلمة مع الصوت الثاني أو الثالث من الكلمة المتواليّة<sup>(2)</sup>، وقد وظف الشاعر نوعاً من أنواعه القائم على تجانس الأول من الكلمة المتواليّة مع الثاني أو الثالث في الكلمة الأولى السابقة<sup>(3)</sup>، وذلك في (الجنود النازيون)، فجاء صوت المجانسة (النون) في أول الكلمة المتواليّة وثاني الكلمة الأولى السابقة، وكذلك في (بحرقون حلمتي القديسة برلين)، فأول (حلمتي) في تجانس مع ثاني (بحرقون)، وقوام هذا التجانس (الحاء).

(\*) أرنست تالما: ذات التوقعين الألمان الذي اغتاله النازيون في معسكر الاعتقال بوخنفالد سبيح القاصم، الأعمال الشعرية الكاملة،

ج 183/2، الجاش.

(1) نفسه، ج 183/2، 184.

(2) مصطفى السعدني، فتيات الأنثوية في لغة الشعر العربي الحديث، 94.

(3) نفسه، 45.

برلين مؤمنة بتخطي وتجاوز واقعها الأليم بالعمل والكفاح، والقاسم متفائل بمستقبلها المشرق.

بالجمت يا برلين أعلن حبنا  
أم بالبيكاء  
وأنا أذاعب شعور طفل  
ضاحك في ظل وروحه  
وأرد على لغتي.  
أرد على المودة بالمودة  
للغابرين من الظلام إلى الضياء  
وإلى أزهار الغناء  
من مصنع  
وصمود جندي  
وعاملة  
وساحة...<sup>(1)</sup>

برلين في هذا المقطع هي مدينة المستقبل، وقد أرسى قاعدة هذا المستقبل المشرق، كل من البعد الصناعي والثوري والوطني، وقد ظهر البعد الصناعي من خلال لفظي (مصنع وعاملة)، هذان اللفظان اللذان يعكسان دلالة إيجابية تنمي باشتراكيه هذه المدينة، وظهر البعد الثوري من خلال لفظ (ساحة)، فهي ميدان الإضرابات والاحتجاجات، وهي المكان الذي يشهد الأحداث السياسية والثورية، وقد أظهر القاسم البعد الوطني، من خلال عبارة (صمود جندي)، وبهذه الأبعاد الإيجابية تشكلت مداميك المستقبل الواعي الفاعل لهذه المدينة، وكأن القاسم من خلال هذه الأبعاد يضع الأساس لكل مدينة، تسعى نحو الحرية والصمود وإثبات الوجود والكيان الإنساني، فهو يؤمن بأن الشعور الوطني، لا بد أن يصاحبه العمل الثوري. حمل الشاعر الأطفال صورة هذه المدينة، ليؤكد ذلك المستقبل المشرق الذي ينتظر برلين، فالأطفال هم الأمل، وهم القوة القادرة على صنع الحياة في المستقبل. وقد جاء هذا اللفظ مدعوماً بقوة تكاثرية أخرى من خلال لفظي (ضاحك ووردة).

(1) سميج للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/249، 250.



وقد وظف القاسم تبادل معطيات الحواس من خلال عبارة (أزهار الغناء)، فأدخل الصوت (الغناء) في مجال الرؤية والشم واللمس، ليؤكد أن جهد أبناء هذه المدينة لن يضيع، وأن آمالهم وطموحاتهم ستتحقق، وسيكون لجهدهم نتائج مثمرة وفاعلة.

برلين ينتمي إليها أبناءها الشيوعيون، ويضحون بحياتهم في سبيلها، ويترعون الألام والعذاب من أجل الحفاظ على وجودها وفكرها، ولن يسمحوا لأي قوة طاغية بأن تملبهم مدينتهم.

وتشقى قبر الموت أصوات بعيدة:  
يا سوري برلين الجديدة  
في الموت بايعناك  
سكيناً على إعتاق أعزاء الحياة

.....

ري الشيوعيون شعرك،  
طبيبهم وطلوبهم،  
ريهم ... بالفرح المقتبس  
والمرارة والصمود  
لا كي يجز غداً  
متجنزون برابرة!<sup>(1)</sup>

تبدو المدينة من خلال سورها قوية، قادرة على التحدي والصمود، محافظة على عقيدتها الفكرية ووجودها الإنساني وامتثالها السياسي، وفي هذه المدينة يتداخل الإنسان مع المكان للمحافظة على الهوية الفكرية، وقد ظهر وجهها المشرق من خلال نضالات أبنائها وصمودهم من أجلها، فهي المدينة القريبة المحبة إلى النفس، لذا تستحق التضحيات.

وقد وظف القاسم ضمير الجمع في (بايعناك)، ليكون واحداً من أبنائها الذي سيدافع عنها في وجه العدو، وبهذا يظهر تعاطف القاسم الواضح معها.

برلين بعثت من جديد بفضل الشيوعية، وسيكون لها المستقبل المشرق بفضل أبنائها الشيوعيين، والقاسم يؤكد فرحته بعودتها إلى المعسكر الشرقي.

(1) سميج للقاسم، الاصل الشعرية الكاملة، ج1/ 251.

برلين!  
 لا لن ينسجوا من شعرك المبعوث.  
 أغطية الجنود  
 غير الشبهيين ساهرة  
 وامسك لن يصوح!  
 برلين!  
 يا اختي التي عاجت إلي من الفضاء  
 بعد اللقاء على الجموع  
 لنا على فرح لقاء!!<sup>(1)</sup>

تختفي برلين في هذا المقطع كمدينة، لتظهر برلين/ الفكر الاشتراكي، ومن خلالها يعكس القاسم موقفه الأيديولوجي، ويعبر عنه بكل صراحة، فهو "يؤكد عقيدته السياسية بما لا يحتمل النيس"<sup>(2)</sup>.

وقد أظهر القاسم العلاقة الحميمة بينه وبين هذه المدينة، فرأها أخته، وليس ذلك إلا تأكيداً على ذلك الموقف السياسي له.  
 وتستشعر الباحثة أن القاسم يستمتع بندانة لفظ برلين، فهو يؤكد من خلاله انتماءه الفكري، وإعجابه الشديد بهذا الفكر، الذي يراه قوة إيجابية قادرة على تغيير الواقع.  
 ولعل الجملة المفصلية التي تنشر ظلالها في هذا المقطع، هي الجملة الخبرية (عين الشبهيين ساهرة)، فمن خلالها انتشر هذا الفكر في ثنايا المقطع، وجعل المدينة برلين الوجه الحقيقي له.

برلين وقفت إلى جانب الإنسان الفلسطيني، وشاركته همومه وآلامه، وشعرت بمعاناته وعذابه، وأمدته بالقوة على الصمود والوقوف أمام العدو الصهيوني، والقاسم يؤكد التلاحم بين كل من برلين وفلسطين.

برلين تعرفني  
 وتذكر قامتي وصوتي  
 برلين تشهد أنني

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 251.

(2) عبد القادر القط في الأدب العربي الحديث، 29

في ليل يوحنا فالد، كنت شريكها  
 في ليل نكيتها بموتي  
 فلتعطني يدها،  
 أقبلها، وأمسحها جيبي  
 وأقول يا اختي التي خبرت عذابني  
 باركيني!

-----

برلين تعرفني  
 وتعرف زوجتي  
 وهموم بيتي،<sup>(1)</sup>

تحتجب المسافات وتختلط الحدود بين هذين المكانين برلين وفلسطين، ويصبحان مكاناً شهد الآلام والمعاناة، ووقع تحت السيطرة الطاغية والعدوان الأثم، ولهذا توحنت مشاعر هذين المكانين، وأصبحت مرآة لصورة واحدة هي المكان المستلب، والقاسم من خلال هذا المزج بين برلين وفلسطين، يود التأكيد على الواقع المأساوي الذي تحياه فلسطين، فتأتي مكاناً ممتداً لبرلين، ويظهر الأعداء الصهليونية وجهاً آخر من وجوه الخازين، وبهذا تشكل برلين وفلسطين قضية واحدة، هي قضية بثبات الوجود الإنساني، والهوية الوطنية، أمام عدو شرس يسعى إلى سحق ذلك الوجود، وتلك الهوية.

وتظهر العلاقة الحميمة بين القاسم/الفلسطيني وبين هذه المدينة، من خلال الصور الجزئية المحملة بالمشاعر والأحاسيس الوجدانية تجاهها.

وقد جعل القاسم برلين تتغلغل إلى ذاته الإنسانية، فتعرفه من خلال دمه وصوته، واتسعت هذه المعرفة، لتصل برلين إلى رصد هموم الإنسان الفلسطيني، وبهذا تتداخلت مشاعر برلين في الذات الفلسطينية، لتخرج مشاعر الذات الفلسطينية تجاه هذه المدينة، فجاءت العلاقة بين هذين المكانين (برلين وفلسطين) علاقة تبادلية.

وقد وظف القاسم أسلوب الحذف والإضمار في هذا المقطع، من خلال تلك النقطة، التي جاءت لتأكيد تلك المباركة، التي يريد القاسم من هذه المدينة.

واللغة في هذا المقطع تتسم بالوضوح لكنه الوضوح الذي لا يطيح بالنص أو الذي يلغي

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 422.

بريقه الشعري، إنه الوضوح الذي يتعارض مع التعقيد واللبس، ..... إذ إن اللغة يمكن أن تكون أسرة في وضوحها كما تكون أسرة في غموضها<sup>(1)</sup>.

هذه هي مدينة برلين في شعر القاسم، جاءت محملة ببطولة أبنائها، وموقف القاسم شديد الإعجاب بها.

### بريست ليتوفسك<sup>(2)</sup> التجربة المشرقة

احتلت هذه المدينة مساحة واسعة في شعر القاسم، فقد خصص لها قصيدة كاملة بعنوان (الحج إلى بريست ليتوفسك)<sup>(2)</sup>، ولعل هذا العنوان يشي بموقف القاسم تجاه هذه المدينة الشرقية الاشتراكية، فهو معجب بها أشد الإعجاب، مشيد بمواقفها البطولية، وهو يراها امتداداً لفكره الاشتراكي، فهي المدينة التي ينتمي إليها فكرياً، وهي الحلم في بعث الأمل بالحرية، والمستقبل الأفضل لكل الشعوب المهفورة.

وقد جاءت تحمل وجهاً إيجابياً مشرقاً من خلال بعدها الثوري، فهي التي سطرت بنضالاتها التاريخ المشرق لبطولة الشعوب المضطهدة، وذلك بصمودها في وجه العدو الهتلري، ومواجهتها أقسى ألوان العذاب والآلام، وقد انطلقت من حدودها الجغرافية لتصبح رمزا للبطولة الإنسانية.

ولعل القاسم قد كتف حديثه عن هذا البعد لتحقيق أبناء الشعوب المهفورة على الإقْداء بها في صمودها، ورفعها للائهزمية، ولعل هذه الدعوة كانت أكثر خصوصية للشعب الفلسطيني، فالقاسم يأمل بأن تصل فلسطين إلى تلك المرحلة التي وصلتها هذه المدينة، في الصمود والتحدى والمواجهة.

أشاد الشاعر بدورها في الاقتصاد الوطني الروسي، فبنت منتجة وفاعلة وذات تأثير في حياة الأمة، وبهذا احتلت مكانة عالية في نفوس أبنائها الذين التحموا معها، من أجل الحفاظ على وجودها، والدفاع عن تلك العراقة والأصالة التي ميزتها تاريخياً، وكلنها قد استمدت قوتها على

(1) مرسى ربنية، لائيهزمية، مقاميها وتجلياتها، 86.

(2) بريست ليتوفسك: مدينة بيلوروسية، قاعدة المنطقة التي تحمل الاسم نفسه، وتقع على نهر (موخافس) أحد روافد نهر بوغ الغربي عند الحدود مع بولندا، تحد المدينة عدة مواصلات برية، وفيها مصانع غذائية وخبزية وقشنة. حدثها الأمل للار يون عام 1944-1945، ثم استردتها الاتحاد السوفييتي عام 1945. انظر مسعود لهنود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج 133/5.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 104/2.

الضمود والمواجهة، من تلك البعد التاريخي، الذي أشار إليه القاسم في القصيدة، فقد امتدت بجذورها في أعماق التاريخ وحاعت قادرة على هزم أي قوة أمامها.

بنت هذه المدينة مكاناً متحركاً "والشعر لا يتعامل مع مكان ميت، بل يفرض كل سكونية فيه"<sup>(1)</sup>، فهي من خلال دورها الإنساني جاءت مثيرة، ومحفزة للشعوب المتهورة على استرداد حريتها، وبمث كرامتها من جديد، وبهذا رصفت الطريق المثلى لتلك الشعوب، للوصول إلى الحرية، وكان الكفاح المسلح هو الخيار الوحيد أمام تلك الشعوب.

يربست ليتوفسك، مزهية الدم ومزهية الزهور، قدمت أسطورة التضحية والفداء بتحديها العدو النازي، نسقت كل التوقعات بصمودها، وقد التحم أبداً مع الموت لتتدب الحياة لها، والقاسم معجب ببطولتها.

يسقط جسدي المفلوج بالسفر والجزن

قطرة دم أخيرة

على رصيف بريست ليتوفسك

انقطاع يرتعش مثل ندبة قديمة

على جسد المدينة المتشابكة كاتساج البيدي

بين الواقع والأسطورة...

ههنا يسقط التوقع

تحطمت الأرقام القياسية

ههنا اندمجت الطفولة بالرجولة

والرجولة بالموت

والموت بالحياة...

ههنا تعطل الإنسا فجاة

عن الإصفاء لأحزان تشايكوفسكي

وراح يقضم طعام الخيل المجففة...

هنا مزقة النعاء ثياب أعراسهن

لأخما حرائق الجراح

ههنا انسحق الإنسا على أعقاب البنادق

(1) ياسين القصور، البنية الشعرية في القصيدة الحديثة، مجلة الأدب، ج3، 1986، 212.

هنا أوقفت وأزهرت وأثمرت

(عقاب البنات)

هنا الختام وهنا البدء

ههنا الإعجوبة الواجدة

مرزهرية الدم ومرزهرية الزهور<sup>(1)</sup>

ظهرت بريست ليتوفسك في هذا المقطع من خلال بعدها الوطني، فهي المدينة الصامدة، المتحدة، المجابهة لذلك العدو النازي، القدرة على الوقوف في وجهه وهزيمته أيضاً، وقد ظهر وجهها البطولي من خلال نضالات أبنائها وتضحياتهم في سبيلها، فقد اندغم الإنسان مع المكان، ليظهر التاريخ النضالي المشرق لذلك المكان، وانعكست سمات الإنسان على المكان، وظلت به بلامحها، فبدا وجه المكان مشرقاً إيجابياً، ولعل القاسم قد كتف إشراق هذه المدينة من خلال بطولاتها، لتكون قدوة لكل المدن التي تتعرض للعدوان، وكأنه يحفز أبناء الشعب الفلسطيني على أن يتمسكوا بوطنهم، ويدافعوا عنه بكل ما لديهم من قوة، أمام العدو الصهيوني، وقد ظهر إعجاب القاسم بها من خلال هذه الصورة المشرقة الإيجابية.

اتكأ الشاعر على مجموعة من الصور الجزئية (الحركية والسلبية والبصرية والثوبية والشمسية) لتشكّل الصورة الكلية لبطولتها وصمودها، وقد جاءت هذه الصورة محملة بمشاعر الحب والانتماء لها، وكانت قاعدة هذه الصورة صمود المدينة وتضحيات أبنائها، فبدا المكان ممتداً في نفوس أبنائه، وبدا أبنائه ملتصقين معه، مزرعين فيه.

أكد القاسم على دور جميع قطاعات الشعب في الحفاظ على المدينة، ولم يغفل العنصر النسائي، ولعله يشير إلى وعي جميع أفراد الشعب بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم تجاه وطنهم، ولعل هذا الموقف يشي أيضاً بفكر القاسم، فهو يرى أن ساحة النضال مفتوحة أمام شرائح المجتمع جميعاً وقاتله، وهي ليست مقصورة على فئة دون أخرى.

ومن خلال هذا المقطع، أكد القاسم أن الحرية لا تنال إلا بالكفاح المسلح، وهذه هي الرسالة الواضحة الموجهة من قبل الشاعر لجميع الشعوب المهجورة، لكي ترد العدوان عنها، ولهذا أكد القاسم على أن الموت ما هو إلا وجه آخر للحياة، فالموت في سبيل الوطن ما هو إلا قاصلة تحول لا نقطة نهاية<sup>(2)</sup>.

ويتضح في هذا المقطع الوعي الإيجابي للشاعر، فقد جعل الأبناء ينطلقون من حزنهم إلى

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 305-304.

(2) محمد علي طه وأحران، الملاحم الأدبية حول التجربة الفلسطينية للفلسطينيين لم تكتب بعد، مجلة الشرق، ج2، 1999، ص6.

العمل الثوري، ولم يتركهم يتقوقعون في دائرة الحزن والسكونية، لأن هذه الدائرة سلبية، تسلبهم الوطن، وتسلبهم القدرة على الصمود والتحرر أيضاً.

بريست ليتوفسك مدينة القلعة الخالدة ومدينة القمح، أصبحت مثالا يحتذى به في البطولة الإنسانية، والقاسم محدد دور هذه المدينة في مسيرة الشعوب.

**بريست ليتوفسك**

**يا حديقة الخبز المسيجة بقامات الشهداء**

**أيتها القلعة الرثة**

**كراية أرهقتها الزواجر.**

**بريست ليتوفسك**

**مارلت قميص الشعوب**

**ومحافة الشعوب ورغيف الشعوب وكتاب الشعوب!**<sup>(1)</sup>

بنت المدينة في هذا المقطع من خلال بعدها الإنساني، فجاءت محفزة ومثيرة للشعوب كافة للوقوف في وجه الطغيان، والتمرد عليه، وكأنها تسعى إلى تعميق تجربتها في الوقوف فسي وجه قوات الغزو الهتلرية، لدى كل الشعوب المستلبة حقوقها، وقد بنت مكاناً متحرراً في النفوس، حاثاً على العمل الإيجابي داعياً إلى مواصلة، فبريست ليتوفسك هي كل مكان يمكن أن يوجد على خريطة العالم، إن وقف في وجه العدو، وأثبت كيانه، وحافظ على وجوده.

وقد أثار القاسم إلى بعدها الاقتصادي من خلال عبارة (حديقة الخبز)، التي تشي بدور هذه المدينة في الاقتصاد الوطني الروسي، وقد عزز هذا البعد من موقعها في قلوب أبنائها، فجاءت الصورة الشعرية المعبرة (يا حديقة الخبز المسيجة بقامات الشهداء)، "إن قوة الصور الشعرية تكمن في إثارة عواطفنا، واستجابتنا للعاطفة الشعرية، ولا تحتاج الصورة إلى أن تكون جديدة لإحداث هذه الاستجابة"<sup>(2)</sup>، فهذه الصورة تؤكد الانتماء بين هذا المكان وأبنائه، وقد اجتمع في هذه الصورة الوعي والشعرية، فالقاسم لم يجعل هذه المدينة مباركة فقط بقمحها مصدر الحياة للإنسان. وإنما بدماء الشهداء أيضاً مصدر الحياة للوطن. وبهذا بنت المدينة مصدر حياة للإنسان والمكان أيضاً فالإنسان دون مكان لا هوية له، ولا كيان، والمكان دون أناس يدافعون عنه ويناضلون من أجله مكان لا حدود له ولا وجود ولا ملامح، وبهذا التحم المكان مع الإنسان لينظر وجه هذه المدينة المشرق.

(1) سميج للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 305.

(2) سميج دي نوبس، الصورة الشعرية، 44.

وإلى جانب هذين البعدين الإيجابيين ظهر البعد التاريخي، من خلال تلك القلعة التي تؤكد عراقة هذه المدينة وأصالتها وامتدادها عبر التاريخ.

وتبدو نيرة الإعجاب بها واضحة لدى القاسم، ولعل ذلك عائد إلى إعجابه بموقفها البطولي، فهو يضمن ذلك الدور الذي وقفه أنباؤها، ويراه الطريق الوحيد للخلاص من العدو، وكأنه يتمنى لو يقف الشعب الفلسطيني في وجه الكيان الصهيوني ذلك الموقف الذي وقفه أبناء بريست ليتوفسك، ولعل إعجابه بها عائد إلى انسجام عقيدته الفكرية مع موقفها الأيديولوجي، فهو ينتمي فكرياً إلى المعسكر الذي تنتمي إليه.

ويظهر الاتجاه الإنساني لدى القاسم واضحاً في هذا المقطع، فهو حريص على الشعوب جميعاً، بغض النظر عن جنسياتها، وهو يرى أن الحرية مطلب شرعي لجميع الأمم عليها أن تصل إليه.

ولعل تكراره لفظ الشعوب الذي أقل هذا المقطع، يؤكد أن هناك كثيراً من الشعوب ما زالت بحاجة إلى انتقطة، وإلى الوعي، وإلى استنهاض هممها. فجاءت بريست ليتوفسك لتقوم بهذه المهمة الإيجابية.

وقد وظف القاسم في هذا المقطع التشابهات البصرية التي جاءت من خلال حروف (الخاء والخاء والجيم) في صورة (حديقة الخبز المسجدة)، وقد وفق القاسم في اختيار لفظ (المسجدة) ليضيء بدلالات الدفاع والحماية والانتماء لهذه المدينة، فأناؤها يحمونها بحياتهم، وقد استخدم الشاعر اللغة الندائية في هذا المقطع، لشعوره بالاعتزاز والفخر بهذه المدينة وقربه منها وانتمائه إليها.

ولعل التوفيق لم يخلقه في طرحه هذه الصورة (أبنا القلعة الرثة كراية أرمقتها للزواج)، فمن خلالها، تستشعر الباحثة أن هذه المدينة متهاوية، متهاكة، ضعيفة، غير قادرة على الوقوف في مواجهة الأحداث، ولعل الألفاظ (الرثة، أرمقتها للزواج) جاءت لتدعم هذه الفكرة المخالفة لما أراد القاسم.

وهذه المدينة يحجب صمودها أبناء الشعبين الياباني والفلسطيني اللذين شهدا جرائم العدو وقسوته وأعماله الوحشية، فثباتها أمام النازية هو الأمل بعودة الوطن المسلوب، والحرية المغتصبة، لكل الشعوب المعهورة، والقاسم يوحد بين الشعوب التي خضعت لمآسي العدو وجرائمه.

يوكيكو يا عزيزتي لثلاثة أيام وإلى الأبد  
أشهد أن اسمك جميل وأشهد أنك جميل  
نضي يدك الشاحبة الصغيره



**في يدي التي لا لونها لها  
وتتمالي نسل على أبطال بريست ليتوفسك  
واحدةً واحداً نسل عليهم  
بينما تحطف دموعنا كحرس الشرف<sup>(1)</sup>**

تأتي هذه المنيّة لتكون نقطة التوازن التي يحتاجها القاسم/ الشعب الفلسطيني في ظروفه القاسية التي تمتّعت فيها كرامته، وتسلب حقوقه نتيجة الاحتلال الصهيوني، ويبدو هذا المكان النقطة المفصلية التي سينطلق منها القاسم لمواجهة أحزانه وآلامه، وهي الأرضية الممهدة للوقوف على بداية الطريق الصحيح للمواجهة وتحدي المحتل.

وقد مزج القاسم بين آلامه/ الشعب الفلسطيني وآلم الشعب الياباني، ليؤكد الواقع المرير الذي تحياه الشعوب المتهورة، فهي تواجه عدواً له وجوه مختلفة، ولكن سياسته واحدة، وهي قهر الإنسان وسحقه.

وتستشعر الباحثة أن هذه المدينة تشكل في نفسية القاسم الحلم الذي يتمنى لو يتحقق في وطنه فلسطين. والشاعر يحس بالقلق والألم والحزن، لأنه يريد أن يصل وطنه إلى تلك المرحلة التي وصلتها هذه المدينة، ولكن أتى له ذلك، والكيان الصهيوني يقف له بالمرصاد.

ولعل تركيز الشاعر في هذا المقطع على الألوان التي جاءت ثنيه ليست مدركات بصرية... بل هي شئت من الإحباطات والمعاني...<sup>(2)</sup>، كان له دلالة، فمن خلال لفظ (الشاحبة) أظهر القاسم الحالة النفسية لذلك الشعب الياباني، فهو يشعر بالانكسار لداخله وعدم قدرته على تحمل ذلك الألم، مما جعله شاحباً.

وقد تجلت آلام الشاعر من خلال عبارة (لا لون لها) التي تؤكد جرائم المحتل الصهيوني بحق أبناء الشعب الفلسطيني، وكان هذا الشعب قد فقد ملامحه وهويته، التي تميزه، فأصبح لا وجود له، ولا كيان، وهذا مما أثار القاسم، وجعله يبحث عن الحماية، وعودة ذلك اللون له، ولم يكن لذلك سبيل سوى إقنائه بتلك المدينة وبطولاتها.

هذه هي المدينة الاشتراكية في شعر القاسم، جاءت تؤكد موقفه الداعم للفكر الاشتراكي، وحرصه الشديد على حبه لوطنه فلسطين، وقد ألح القاسم على البعد الوطني لها، فالصمود والتحدي هما قضية هذا الشاعر أمام ذلك الكيان الصهيوني في وطنه فلسطين.

## أثينا المستقبل المشرق

(1) مسيح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 305، 106.

(2) محمد فؤاد أحمد، رمز الرمزية في الشعر المعاصر، 220.

وقف القاسم عند هذه المدينة في محاولة منه للتذكير بمجد العرب، ودورهم الحضاري في فترة تاريخهم المشرق، فبدا وجه الحضارة العربية الإسلامية مشرقاً وإيجابياً من خلال سلبية هذه المدينة ووجهها القاتم، فقد جاءت تحمل وجه السلطة الحاكمة، فبدت مكاناً مسطواً، متحيراً، قاتلاً للفكر الإنساني، قاضياً على حرية الرأي.

أدان الشاعر وجه هذه المدينة، ولكن هذا الموقف العدائي لأننا لم يستمر لدى القاسم طويلاً، فقد نظر إليها من زاوية أخرى، فإذا هي المكان الذي خضع لجرائم السلطة الحاكمة، وبهذا أظهر الشاعر تعاطفه معها، وحزنه وألمه عليها، وقد حفزها على اتخاذ الموقف الإيجابي للخروج من دائرة الانهزامية، وذلك من خلال الثورة والتمرد والكفاح المسلح.

تجاوزت دعوة القاسم مدينة أثينا لتتطلق في فضاء الوطن فلسطين محفزة أبناء الشعب الفلسطيني على رفض واقع الاحتلال الصهيوني، بل والثورة عليه من أجل تحقيق الحرية.

ركز القاسم على إيمانه بمستقبل هذه المدينة، لأنه مؤمن بإيجابية الإنسان، وقدرته على التغيير، والانطلاق نحو تحقيق الأفضل لوطنه.

أثينا تمارس العنف والقسوة والاضطهاد بحق أبنائها، الذين يحملون الفكر الحر، والرأي المستقل، وهي تصر على أن تقضي على إنسانية الإنسان ووجوده، والقاسم يدين سياسة هذه المدينة تجاه أبنائها، أصحاب الموقف المتمردة.

ههنا أنا... قصي صباحاً يا أثينا

ومعي إليك تحية

من ابن رشيد وابن سينا

لم يطلبوا كتباً،

فقد سمعنا تفانيل المجيبه

واستنكروا تعذيب جالينوس

في "يورا" الرهيبة...

.....

ههنا أنا ... قصي صباحاً.

والغري لي إله سالتك عن حديق

باسم ميكيس!

كسروا على كتفي أرغولي.

### فقلت أقوم أقصد ما جبي

فلعل نابا عنده، لم يكسروه على جيبه<sup>(1)</sup>

ظهرت أثينا في هذا المقطع ذات بعد سياسي، فهي المدينة المتسلطة، المتجبرة المعادية للفكر الحر، القاضية على أي حركة ترمد ضدها، وبهذا حملت أثينا وجه السلطة الحاكمة، فبداهة وجهها منفراً قبيحاً مستبداً، وقد حضرت المدينة التاريخية (يورا)<sup>(2)</sup> لتدعم هذا الوجه القبيح لهذا المكان، فبدت أثينا مرأة يورا، وما حدث في الماضي يحدث في الحاضر.

وقد بدا وجه أثينا الإنساني من خلال أبنائها المستلبة أفكارهم وحريتهم، ولكن أثينا الطاغية/ السلطة الحاكمة هي التي سيطرت على المقطع، ولم تعط فرصة لأثينا/ الإنسان المسحوق بأن يظهر، وبهذا بدا شعور الكره لدى القاسم واضحاً تجاهها، لأنه مع الإنسان وحقوقه وحريته، وقد عمدت المدينة إلى سلب إنسانيتها تلك القيم، لهذا رفضها القاسم.

تواصل الشاعر مع الموروث التاريخي "ولعله أن يكون أكثر الشعراء الثلاثة في الأرض المحتلة احتفالاً بالتاريخ والأحداث التاريخية والإشارات التاريخية"<sup>(2)</sup>، فأشار إلى فترة من تاريخ أثينا<sup>(3)</sup> من خلال (واستكرا تعذيب جالينوس)، ومن خلال هذا التواصل، بشي القاسم بأن الماضي هو امتداد للحاضر، وأن ما يحدث في الحاضر هو صورة فوتوغرافية لما حدث في الماضي، وبهذا تكون أثينا هي المكان الذي التقى فيه الماضي والحاضر في نقطة واحدة، هي اضطهاد الفكر الحر، واستلاب حرية الإنسان، وقد جاءت شخصية (ميكيس)<sup>(4)</sup> امتداداً لشخصية غالينوس، ومن خلالها أكد القاسم فكرته، بأن تاريخ المدينة يعيد نفسه.

وقد تواصل القاسم في عبارة (فعمي صباحاً يا أثينا) مع الموروث الأنبي، من خلال توظيفه جزءاً من بيت عنزة العبسي:

### يا دار عيلة بالجواء تكلمي

وعمي صباحاً دار عيلة واسلمي<sup>(3)</sup>

ولعل هذا التواصل يؤكد الجملة الخيرية (هذا أنا) للشموحة بالافتخار والاعتزاز بالتراث والعروبة، فالقاسم منتم إلى تاريخه العربي، وتراثه المجيد، وهذا ما يعطيه القدرة على الوقوف

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 421.

(\*) يورا: بلاد يقرب بحر الفلمات، الفبار عنهم في الصيف طويل جداً، حتى إن الشمس لا تيب عنهم مقدار أربعين يوماً، وفي

شذاه ليلهم طويل جداً، لعزيب من المعلومات نظر الفزويني، آثار البلاد والخبار للبلاد، 620.

(2) عند الرحمن باعري، شعر الأرض المحتلة في السنين، دراسة في مضامين، 479، 480.

(\*\*) انظر ابن العربي، تاريخ مختصر للبلاد، 36. <http://www.alwatan.org.net/search.htm>.

(\*\*\*) ميكيس: موبسار يوناني، مؤلف موسيقى زوربا، وقد عرف بموقفه الصلبة ضد عسكر البونين، ووقوفه مع فصلا حقوق

الإنسان، وهو من أشهر الشخصيات الدولية للمساعدة بقضية الفلسطينية. <http://www.ashrafalwatan.com/details.asp?>

(3) عنزة، الديوان، 12.

في وجه هذه المدينة الظالمة المستبدّة، وكأنّه يذكرها بأمجادها وتاريخه وتراثه، وقد جاءت شخصيتا (ابن رشد وابن سينا) لتؤكدّا حرية التفكير العربية والحضارة المشرقة أمام الانغلاق الأجنبي.

مدينة أثينا حزينة، باكية، متألّمة، فقد تمزقت بين أطماع شتى، مما أجهدها، وقلل من شأنها، وهي متحصّرة على أبنائها الذين يعانون بسبب وضعها المأساوي، ويقعون في شباك السلطة الحاكمة.

ههنا أنا... فعلمي صباحاً يا أثينا

----

من أنت؟

من طول البكا عشت عيوني يا غريب

وتمرقت رثتي

وقصوا جيّهتي رثيا

على أكتاف قواد المظليين والبوليس

أصحاب القمامة واليخوت

وأنا معلقة على برج الكنيسة

أه. من شعري معلقة. أموت

من أنت؟

أبنائي ضباب في شرايح العنكبوت

حزق ورزء يومهم

والعالم سرتاكي وحزق<sup>(1)</sup>

ظهرت أثينا في هذا المقطع مذبذبة وقّع عليها الفعل من قبل السلطة الحاكمة، فبدت ضعيفة، مستسلمة، منهزمة داخليا، مقهورة بسبب ذلك الواقع الانهزامي الذي تحياه، مما أفقدها قدرتها على الدفاع عن نفسها، وبهذا ظهرت أثينا المدينة التي سلبتها السلطة الحاكمة كداتها ووجودها، مما جعلها تفقد هويتها، وقد وظف القاسم الجمّل -لخبرة لرصد ذلك الواقع المرير- ويبدو تعاطف القاسم واضحا معها، ويشعر المتلقي بفقرتها منها، فهو حزين على حالها، متأمل بأن يتغير واقعها.

(1) سمح للقاسم، الاصل الشعري الكاملة، ج1/ 421، 422

وقد تواصل القاسم من خلال (من طول البكا عشيت عيوني يا غريب) مع الموروث الأدبي، وذلك بتوظيفه شطراً من موشح لابن زهر الأندلسي:

### عشيت عيني من طول البكا وبكا بخصي على بخصي محي<sup>(1)</sup>

ومن الملاحظ أن الشاعر قد غير فقط في ترتيب الألفاظ، فقدم شبه الجملة (من طول البكا) لتكون هي المحور الذي ارتكز عليه هذا المقطع، ومن خلال هذا التقديم، أكد الشاعر ألم هذه المدينة، وحزنها العميق على واقعها، وتعل معرفة المدينة بأسباب حزنها وآلامها هو أول خطوة نحو رفض ذلك الواقع، والتمرد عليه، ومحاولة تغييره، وهذا هو الوعي لدى القاسم، فهو يتطرق من رصد مرحلة الحزن إلى معرفة أسبابه، لتأتي خطوة الخروج من ذلك الواقع المولم للمدينة.

تكثف القاسم الصور الجزئية المؤلمة الحزينة، ليعطي مشهداً متكاملًا عن ذلك الواقع، وقد كانت الأرضية المسببة لهذا المشهد، مجموعة من الألفاظ تلاحمت معاً لتشكّل تلك القاعدة المؤلمة، فجاءت (طول البكا، عشيت عيوني، تمرقت رنتي، قصوا جبتي، معلقة، آء، من شعري معلقة، أموت، شراك العنكبوت، حزن، ورزء) وقد انتشرت إيجاباً هذه الألفاظ في شيايا المقطع، مما صيغه بالألم والحزن.

وقد التفت القاسم لفظاً من ألفاظ هذه المدينة وهو (سرتاكي)<sup>(\*)</sup> ووظفه في هذا المقطع، ليؤكد تعاطفه معها، فقد شعر بقربه منها بسبب آلامها، وأصبح يتكلم بلغتها، وبهذا أصبحت هذه الكلمة قادرة في مكانها على التعبير.

ولعل التركيز على اللغة الاستهامية من خلال عبارة (من أنت)، ليؤكد وضع المدينة، الذي لم تعد لديها القدرة على التواصل مع قضايا الآخرين، والوقوف إلى جانبهم بسبب تلك المحنة التي تحياها.

وتستشعر الباحثة أن صوت القاسم يطغى على صوت أثينا في إطلاق هذا التساؤل، وكأنه يقرر واقعاً مأساوياً يحياه الإنسان العربي، الذي لم يعد له وجود وكيان أمام الأمم الأخرى، وقد جاءت كلمة (غريب) لتؤكد هذه الفكرة، ولعل القاسم من خلال هذا التساؤل، يحفز الإنسان العربي عامة، والفلسطيني خاصة، على أن يسترجع كوائنه واستقلاليته، ويفرض وجوده أمام الواقع الصهيوني، الذي يحاول بكل طرقه الوحشية أن يطمس تلك الهوية العربية، والفلسطينية خاصة.

(1) ابن مضاء الملك، دار الطرّوق في عمل الموشحات، 101.

(\*) سرتاكي: كلمة يونانية بمعنى السعادة.

أثينا لم تقف إلى جانب الإنسان والإنسانية، ولم تدعم المواقف الحرة التي تبناها أبناؤها، ولكن واقعها سيتغير بفضل إنسان هذا العصر، الذي يرفض الخضوع والاستسلام والذل والإهانة، ويؤمن بقدرته على إثبات وجوده، ويقاتل من أجل الحصول على الحرية.

لم تعرفيني يا أثينا!

لم تعرفيني، فالوداع إلى غدٍ

يا أنتجونا!!

سقراط هجدا العصر. يرفض بكأسه

ويهموت باسم آخر

في ساحة الإضراب،

في المنفى،

أو السجن الذي سيصير يوماً محرسة!!<sup>(1)</sup>

تظهر أثينا الجديدة في هذا المقطع تقاوم أثينا القديمة، والقضية موضع الخلاف بينهما، هي حرية الإنسان وإثبات وجوده، ويحضر القاسم أثينا الجديدة على أن تفرض سيطرتها، من أجل أن تثبت وجودها وكيانها المستقلين، ويبدو القاسم واعياً، فأثينا الجديدة تحتاج إلى وقت وجهد من أثينائها، لكي تظهر صورتها الجديدة، لذا فالزمان المسيطر على هذا المقطع هو الزمان الحاضر والمستقبل، أما الزمان الماضي فلا عودة له.

وكان للقاسم ينطلق من هذه المدينة ليعرض قضية الإنسان المستلب حقوقه في أي مكان، ويدعوه ويحفزه إلى استعادة تلك الحقوق وإثبات وجوده.

ويتواصل القاسم مع الموروث الشعبي لأنه يدرك "أن المعطيات التراثية تكتسب لونها خاصاً من القداسة في نفوس الأمة، ونوعاً من التصوق بوجوداتها، لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة"<sup>(2)</sup>، فيوظف أسطورة أنتيغونا<sup>(3)</sup> من خلال الإشارة إليها باللفظ، فتصبح أثينا الجديدة هي أنتيغونا، وهذا التواصل يؤكد النظرة التفاضلية التي يتمتع بها القاسم، فهو مؤمن بأن أبناء هذه المدينة سيقفون إلى جانبها، وقد دعم القاسم هذه الرؤيا من خلال تلك الشخصية التاريخية التي تواصل معها وهي سقراط، فهو يتواصل مع الموقف و "يدع للقارئ حرية

(1) سمح القاسم الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/422.

(2) علي عسري زايد، توظيف التراث في شعرنا المعاصر، مجلة فصول، ج1، ع1، 980، 204.

(\*) أنتيغونا بنت الملك أوديب من أمة جوكست، — عندما الفصح أمر أنها وسمل عييه وهام على وجهه يسكندي النار قوته، اثرث أنتيغون أن تصعبه لتؤنس وحدته وتشاركه مصيره — وتمد مثالا دبراً في التصحية على سبيل الواجب، سبيل عذاب

وعبد الرزق الأصغر، معجم الأساطير اليونانية ورومانية، 89.

استحضار... تلك القصّة وهو أهم أنواع الإيجاز، إذ يعتمد الخلفية الأبيستيمولوجية للقارئ، ولا تتم هذه الآلية إذا كان القارئ غير واع لها<sup>(1)</sup>، وينعطف القاسم بتلك الدلالة، فيتمرد سقراط هذا العصر، اليوناني أو الفلسطيني على وضعه، ويحاول الخروج منه بكل الطرق الثورية المتاحة أمامه، فالنضال والكفاح المسلح هما الطريقتان المؤديتان إلى الحرية، وهذا ما يؤمن به القاسم طريقاً للتغيير، وقد وظف القاسم هذا التواصل كوسائط فنية فريدة في التعبير عما يريد<sup>(2)</sup>.

ولعل القاسم يربط هنا بين واقع أثينا وواقع فلسطين، لتحفيز أبناء الشعب الفلسطيني على الثورة وعدم الاستسلام، ورفض الخضوع للحكم الصهيوني، وقد رسم القاسم الطريق الموصلة إلى الحرية والسيادة على الوطن، وذلك من خلال توظيفه (ساحة الإضراب والمبنى والسجن)، فهذه الأماكن هي طريق النضال أمام هذا الإنسان، للوصول إلى الهدف المنشود وهو الحرية.

ويظهر إيمان الشاعر بالمستقبل من خلال تحويله السجن إلى مدرسة، وقد كان موقفاً في اختيار لفظ (يوماً) فهو لم يحدد ذلك اليوم، ولكنه سيأتي في المستقبل القريب، وقد شحن هذا اللفظ بالدلالة الإيجابية المشرقة بربطه بلفظ (مدرسة)، ليحث الشعب ويحفزه على مواصلة الكفاح، من أجل الوصول إلى ذلك اليوم.

وقد وظف الشاعر حرف النفي (لم) ليؤكد أن مصير هذه المدينة سيتغير، وقد دعم هذه الفكرة من خلال عبارة (إلى غد) فهذا التغيير سيكون في المستقبل القريب، وبهذا يبدو التناؤل واضحا في هذا المقطع لإيمان القاسم بدور الإنسان في تغيير مصير واقعه.

هذه هي أثينا التي قضت على حرية الإنسان، وأطلق منها الإنسان ليحررها، فاصطدم مع الممكن في إصرار منه على استعادة تلك الحرية.

### تل أبيب المدينة اليهودية على أرض فلسطينية

جاءت هذه المدينة في شعر القاسم لتعكس مياسة العدو الصهيوني في الأرض المحتلة، فبدت ذات وجه سلبي قاتم من خلال تلك الجرائم التي يفترفها هذا العدو بحق أبناء هذه الأرض.

ومن خلالها أدان القاسم موقف الأمة العربية، التي تخلت عن دورها بالوقوف إلى جانب هذا الشعب، ودعم صموده في أرضه، وكأن الشاعر من خلال هذه الإدانة، يحث الشعب الفلسطيني على أن يتخذ قراراته بنفسه، وأن يعتمد في حل قضيته على جهوده، فهو المخول

(1) أحمد ناصح: قصائد في شعر لرواد، 94.

(2) أنس داود: الأنشودة هي الشعر العربي الحديث، 441.

الوحيد في التحكم بمصيره، ولا يكون ذلك إلا بالتصمود في وجه العدو الصهيوني من خلال الكفاح المسلح.

وقد ربط الشاعر بين هذه المدينة وبين المدينتين التاريخيتين (سدوم وعمورة)<sup>(\*)</sup>، وذلك ليكشف الواقع المأساوي الذي يحياه الشعب الفلسطيني، مما يجعله يتخذ موقفا إيجابيا برفض ذلك الواقع، ومحاولة الخروج منه وتغييره.

مدينة تل أبيب تمارس العنف والجرائم الوحشية بحق الشعب الفلسطيني المحتل، دون أن تردعها أية قوة أو قيمة إنسانية.

### يا إشعياء الحزين

----

انهض اليوم وضح في تل أبيب  
 "أله ويل للذي لا يطلب الرب  
 "ويهمني نحو مصر  
 "جامعا للشرق أعواد الخليل<sup>(1)</sup>.

تمندت تل أبيب في هذا المقطع لتصبح الكيان الصهيوني إسرائيلي، ومن خلال هذه المدينة ظهرت سياسة هذا الكيان، المعادي للشعب الفلسطيني، المصير على القضاء على وجوده، المسبب لكل آلامه وعذابه ومعاقبته.

تواصل القاسم في هذا المقطع مع الموروث الديني اليهودي، وذلك باستحضاره شخصية النبي إشعيا<sup>(2)</sup>، ولعله قد اختار هذه الشخصية بالذات لوصفها "موقفا إنسانيا نابعا من حرصه على العدل، ونشدان المثال في الحياة"<sup>(2)</sup>.

(\*) سدوم وعمورة: مدينتان على البحر الميت؛ يفسد دمارهما لاعتونا إلى غضب الله لشدة ما لفرتا من الضلالي، سمح الناس الأعمال لشعرية الكلمة، ج1/ 78، التماس.

(1) نفسه، ج1/ 140.

(2) إشعيا: ينزل إشعيا بين جميع أنبياء إسرائيل كذلك، عليهم جميعا، وموضوع سرده: الخلاص بالإيمان؛ انظر الحراف اليهود نحو الوثنية، ورفض كل تحالف مع الأتباع خوف من انتقال عدوى الأوثان. لمزيد من المعلومات انظر صموئيل حبيب وآخرون، دائرة المعارف الكتابية، ج1/ 306، مري من، عويدي، معجم الحضارات المسماة، 96.

(2) أحمد جبر شعث، الأمطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، 210.



وقد حضر ليكون معادلاً لصوت الإنسانية الطالبة بوقف جرائم الاحتلال الصهيوني تجاه شعب الأرض المحتلة، وكان القاسم قد تداخل مع تجربة هذه الشخصية، فبدأ الحزن مسيطراً عليهما، وذلك بسبب الواقع المأساوي الذي يحياه الشعب الفلسطيني في عهد الاحتلال. وضمن القاسم من الموروث الديني اليهودي العبارة التالية: "ذهب بع كل مالك وأعط الفقراء كنزاً في السماء، وتعال اتعني حاملاً الصليب"<sup>(1)</sup>، فجاءت في شعره (ألف ويل الذي لا يطلب الرب ويمضي نحو مصر حاملاً للشرق أعواد الصليب)، وقد جاء هذا التواصل دعوة من القاسم لوقف تلك الجرائم المقترفة بحق الشعب الفلسطيني، فتكون لهذه الدعوة أثر في نفوس مستمعيه.

ومدينة تل أبيب ازدهرت وأُثبتت وجودها في الوقت الذي تخطى فيه العرب عن الدفاع عن فلسطين، والوقوف إلى جانبها ومناصرتها، وقد ألم هذا الوضع أبناء الشعب الفلسطيني الذين قرروا بتخلي كل ما لديهم من أجل هذا الوطن، والقاسم يدين الموقف العربي تجاه الوطن المحتل.

يرفض الموت أه يقبل الموت- سياق يا صاحبي

ياسمين الصبا ذابل في رياض الحبيب

وأزدهت تل أبيب

وبكى سيد العاشقين

وكبا سيد العارفين

فاعجز الصب في موته الصاحب

لجدي موعظ صارم،

طعنة... وعلى رسله ينبجن

حين حاورته جدي هاتجا

<sup>1</sup> إنه خلصة المختلس

جسدي، خلصة المختلس!<sup>(2)</sup>

جاءت هذه المدينة تثبت وجود الكيان الصهيوني في الأرض المحتلة، ووجودها يؤكد الواقع الأليم الذي تحياه الأمة العربية، ومن خلال هذا الواقع الذي ظهرت فيه الدولة المعادية مزدهرة، أدان القاسم ضعف الأمة العربية واستسلامها وانزاعها أمام ذلك الكيان.

(1) مرفق، إسماعيل، 20، 21.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 2/ 374.

أدك الشاعر هذا الواقع وتلك الإدانة من خلال المفارقة التصويرية (باسمين الصبا ذابل في رياض الحبيب وازدهت تل أبيب).

مزج القاسم بين المادي والمعنوي في (باسمين الصبا)، وقد أشعر المتلقي بالدلالة الإيجابية من خلال هذا المزج، ولكنه سرعان ما سلبه هذه الدلالة من خلال كلمة (ذابل) التي كانت لها دلالة مسبطة على هذا المقطع، فمن خلالها سلب الكيان الفلسطيني قدرته على الوقوف أمام ذلك العدو الصهيوني، وبهذا بدت الانهزامية الفلسطينية واضحة من خلال وجود الكيان الصهيوني المعادي المتمثل بمدينة (تل أبيب)، وهذا مما أقلق الذات الفلسطينية وحفزها لتتخذ الموقف الحاسم تجاه هذه المدينة/ الكيان الصهيوني، وهو الكفاح المسلح، وكان القاسم من خلال هذا المقطع يدعو الشعب الفلسطيني ليحط قضيته بنفسه، وألا ينتظر الحل من الآخرين.

تلاعب القاسم بالألفاظ من خلال الجنس الذي يعمل على تكثيف تلازم الصلة بين الكلمات التي توجد أصلاً علاقات دلالية، وهكذا فهو يكتف من تأثيرها<sup>(1)</sup>، فيد الجفاس الناقص بين (بكي وكيا)، ومن الملاحظ أن هذين الفعلين أحدهما يفود إلى الآخر، فالكاء يسبب الكوة، وقد يحدث العكس أيضاً، وهذا يدل على قدرة القاسم على اختيار ألفاظه الملائمة للفكرة.

تواصل القاسم مع الموروث الأدبي، فوظف ألفاظاً من موشح أسان الدين بن الخطيب

جاءك الغيث إذا الغيث همي يا زماج الوجل بالإنجلس  
لم يكن وصلك إلا حطماً في الكرى أو خلسة المختلس<sup>(2)</sup>

وقد جاء هذا التواصل من خلال عبارة (إنه خلسة المختلس) ليؤكد تشوقه إلى وطنه، ويستمد من ذلك التشوق القدرة على الوقوف أمام ذلك العدو.

مدينة تل أبيب تهزأ من واقع الأمة العربية، وتسخر من انكساراتها المستمرة، وتخاذلاتها المتواصلة، فقد تركت هذه الأمة مدينة بيروت تكف وحيدة في معركتها ضد المحتل الصهيوني، والقاسم يدين واقع الأمة العربية الضعيف.

على شاشة التلفزيون

أبجرت مجهك في جنوء قبيلة مشمسة

وحانت بقربك جنة طفلة

وقرصة قل

(1) طارق رجب، متاعب تقنية في أدب مسيح القاسم، 27.

(2) أسان الدين بن الخطيب، قديون، م 2/ 792

وأفواه قتلى المحبة والشوق  
مقفورة -

أخ ... أبواق حزني وخوفي  
تجلجل بالدم

مامن سميع وما من مجيب

سوى قهقهات سكارى سدوم

وهزء عمورا وتل أبيب<sup>(1)</sup>

تأتي تل أبيب لتشكل انهماكاً داخلياً للذات العربية عامة، والذات الفلسطينية خاصة، فمن خلالها يضمحل الكيان العربي ويتضاءل، وبهذا يحدث التخلخل في نفسية الإنسان الفلسطيني، الذي لا يجد سوى الاعتماد على نفسه في حل قضيتة.

وقد وفق القاسم في الجمع بين المدينة المعاصرة (تل أبيب) والمدينتين التاريخيتين (سدوم وعمورا) ليؤكد أن وجه المدينة المعاصرة هو امتداد للمدينة التاريخية، فالوجه واحد للمدينة المعديّة وإن اختلف الزمان والمكان، وقد جاءت هذه المدن تحمل كل المعاني السلبية، وقد بدت صورتها غاية في التسوء من خلال الألفاظ التي وظفها القاسم لتلك الفكرة، فجاءت (القهقهات وسكارى وهزء)، وقد اجتمعت في زاوية حادة، هي انتهاك القيم والأخلاقيات الإنسانية.

ولعل الصورة الصوتية هي المسيطرة على هذا المقطع، فمن خلالها يزداد الألم، ويشعر الفلسطيني بقول ذلك الواقع المرير الذي يجياه، فذبذبات تلك القهقهات تخلخل الذات الفلسطينية، وتشعرها بعدم التوازن، وتزداد تلك الذبذبات علواً لتعمق جرح تلك الذات وتوسع حجمه، وتزيد امتداده، وفي مقابل تلك القهقهات تظهر سكونية الموقف العربي، الذي يعكس سلبيته والسحابة من ساحة المواجهة.

مدينة تل أبيب لن تسمع إلى دعوات شارلي بيطون<sup>(\*)</sup> بوقف الحرب، ولن تستجيب لتلك الدعوات المنطلقة لصالح الإنسانية والشعبيين اليهودي والفلسطيني، والقاسم معجب بموقف شارلي بيطون الداعي إلى رفض الحروب، وعدم استباحة الشعوب.

لن تسمع يا شارلي بيطون  
غير بطول الحرب المقروعة في نقع الغزوات

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م450/2.

(\*) شارلي بيطون: أحد قادة منظمة اليهود السود التي تمثل قراء اليهود الشرقيين، وهو أقصى اليسار الصهيوني وأكراهه.

نشر في 2001-3/ Arabici@news.net/Isaamane

من تل أبيب إلى جليل البنات  
 قلتُ فوجدتُ  
 وقلتُ فوجدتُ  
 وأهلك من أهلي  
 يا شارلي<sup>(1)</sup>

لم تأت هذه المدينة إلا للحديث عن هذه الشخصية التي كرهت الحرب ودعت إلى وقفها، ويبدو قل أبيب مصرة على الحرب، غير مبالية بآراء أبنائها الذين يتدينون سياستها ويحتونها على التوقف عنها.

هذه هي المدينة المعادية جاءت لتثبت الوجود الصهيوني في الأرض المحتلة، وقد أثار وجودها الكيان الفلسطيني، مما حفزه على الثورة عليه، من أجل استعادة الوجود الفلسطيني على أرضه.

### نيويورك الظلم والاضطهاد

بدأت هذه المدينة في شعر القاسم من خلال بعدها الاجتماعي مكاناً يمارس الظلم والاضطهاد بحق أبنائه الزنوج، وقد كثف القاسم هذا البعد لإظهار الوجه الحقيقي لهذه المدينة التي تدعي الإنسانية، وتحمل شعار الحرية، وقد ثار الشاعر على سياسة التمييز العنصري التي تمارسها من خلال تضامنه مع موقف تلك الشريحة الاجتماعية (الزنوج)، في دعوة منه لرفض تلك السياسة، بل والتمرد عليها.

جاء البعد السياسي لها من خلال إشعالها حرب فيتنام، وإجبار أبنائها على خوض تلك الحرب تحقيقاً لمصلحتها الخاصة، دون إبداء أي مشاعر إنسانية تجاه هؤلاء الأبناء الذين خسروا أرواحهم في تلك الحرب، وذلك الشعب الذي لم يكن منها سوى الآلام والعذاب والمعاناة، وقد ركز القاسم على هذا البعد لإسقاط وجهها الإنساني الذي تدعيه.

أعلن القاسم موقفه العدائي تجاهها، قال الشاعر الملتزم اشتراكياً لا يمكن أن يحس بالانسجام مع المدينة الغربية، ممثلة الحضارة الغربية<sup>(2)</sup>

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/3.

(2) إحسان عبد، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، 1405 .

وقد ظهر البعد الإنساني لدى القاسم واضحا، من خلال تضامنه مع إنسان هذه المدينة، فهو حريص على إنسانية الإنسان بغض النظر عن الجنسية التي يحملها.

مدينة نيويورك التي تدعي الحرية، تمارس الاضطهاد والقمع والتمييز العنصري بحق مواطنيها الزنوج، وهي غير آبهة لتلك الدعوات الإنسانية المنطلقة في أرجاء العالم، المطالبة بوقف انتهاكات حقوق الإنسان.

من أين تبتلعك العواصف؟  
يا مسرح "الجزيبدا" في نيويورك!  
فالزنجي .. جوعا .. وخائفا ..  
وبذئاب "كوكلوس كلان" ملء الضاب  
.. والقيار جارفا!  
وفرائص "التمثال" راجفة  
وقلب الليل راجف  
والريح جامحة  
وموج البحر .. واقف!<sup>(1)</sup>

عكست نيويورك في هذا المقطع وجهاً من وجوه أمريكا، وقد بدا هذا الوجه من خلال البعد الاجتماعي الذي اكتسبته هذه المدينة، نتيجة سياسة التمييز العنصري، فجاءت نيويورك ذات وجه سلبي، وظهرت صورتها الحقيقية، مدينة هادئة للكرامة الإنسانية، سالبة لحقوق مواطنيها، قائلة للوجود الإنساني.

وفق القاسم في تثبيت هذه الصورة القبيحة الكالحة لنيويورك خاصة وأمريكا عامة، من خلال توظيفه عبارة (كوكلوس كلان)<sup>(\*)</sup>، فهي تضيئ بتلك الجرائم المقررة بحق الإنسانية في هذا المكان.

وقد ظهر في هذا المقطع خطان متقاطعان، شكلا الصورة الحقيقية لمدينة نيويورك، فقد شكل الخط الأول الزنوج، وقد اتسع هذا اللفظ ليشمل الإنسانية المسحوقة، والشعوب المهضومة والمضطهدة في كل مكان.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/309.

(\*) كوكلوس كلان، حركة عنصرية تنصاع، تحميا للضياء على كل زنجي أسود في أمريكا. ولكل هذه الفصيلة لا تكون ملائيم ببصاء تحملي أصابعهم، فلا تظهر منها سوى العمود، ثم تقوم بحملات التخريب والقتل ضد السود في أمريكا، أراجيم علان.

لشعر القمطي تحت الاحتلال (من لعام 1948 - العام 1972)، قايماش، 128.

أما الخط الآخر فهو القوة القاهرة المتجبرة، وقد جاءت من خلال (توكولوس كلان) التي حملت وجه نيويورك الفاتل، والسلطة الحاكمة فيها، وقد تقاطع هذان الخطان في بؤرة مركزية واحدة، هي وجه نيويورك المجرم، فإذا كان هذا هو حال نيويورك مع أبنائها، فكيف سيكون حالها مع الشعوب الأخرى؟؟

أظهر القاسم شعوره الإنساني في هذا المقطع، فهو متعاطف مع هؤلاء الزوج، وكأنه من خلال قصبتهم ومعاناتهم، يطرح قضيتهم المحلية، قضية الإنسان الفلسطيني أمام الكيان الصهيوني، فهو يشعر بالمرارة التي تعترى الفلسطيني أمام ذلك العدو، الذي يمارس بحق ذلك الإنسان أفظع الجرائم وأقاسها.

وظف الشاعر معلمين من معالم هذه المدينة، وهما مسرح الجزيذ وتمثال الحرية، ومن خلال هذا التمثال أكد القاسم أن الحرية في هذه المدينة مفقودة، فهي مدينة الشعارات الكاذبة، التي تسحق المعاني الإيجابية، وقد عبر عن هذه الفكرة بكل إيجاز وتكثيف من خلال هذه الصورة (وفرانس التمثال راجعة).

ومن اللافت للنظر، أن القاسم قد استعان بالطبيعة لتشكيل رموزه الشفافة في هذا المقطع، وكأنه يؤكد أن الطبيعة أقوى من سياسة الإنسان، وقد جاءت رموزه محملة بمشاعره وحالاته النفسية، فالعواصف هي الدعوة الإنسانية التي لن تسمعها نيويورك، وقد وظف هذا اللفظ بما فيه من قوة وإيحاء، ليؤكد أن جبروت نيويورك قد سلب هذه العواصف دلالتها وقدرتها على التأثير، وقد رمز بالغاب إلى نيويورك، وبالليل إلى الزوج، وبالريح إلى سياسة التمييز العنصري، وموج البحر هو ردة الفعل من الآخرين إزاء سياسة أمريكا العنصرية.

وكان الشاعر واعياً في إنهاء المقطع بالصورة الجزئية (وموج البحر واقف)، ليؤكد أن هذه المدينة لن تغير موقفها السلبي، بل ستمضي في سياستها القمعية، تجاه هؤلاء الزوج، وهذا مما يزيد الكراهية والعداوة في نفوس الشعوب المسحوقة ضدها، وهذا ما أراد القاسم، فكانه يشد هم تلك الشعوب على تكوين موقف إيجابي ضد سياستها، فهي رمز القهر الإنساني.

وفق القاسم في توظيف أسلوب الاستهزاء الدال على النفي (من أين تبلغك العواصف)، وأسلوب النداء للبعد (يا مسرح الجزيذ)، ليؤكد أن المسافة شاسعة بين الدعوات الإنسانية وهذه المدينة، وتكون النتيجة عدم وصول تلك الدعوات.

وظف الشاعر في هذا المقطع، المشابهات البصرية، فجاءت الخين والعين في (تيلفك العواصف)، والجيم والحاء في (جوعان وخائف)، والحاء والجيم في (والريح جامدة)، والجيم والحاء في (موج البحر).

وقد اعتمد حرف العطف الواو، للربط بين الجمل الخبرية، ليؤكد واقع الزنوج المأساوي فيها.

مدينة نيويورك، زانية، جاهلة، تدعى الانتصار في تلك الحرب التي أشعلتها في قبساتم، من أجل مصالحها الخاصة، وقد دفعت ثمنًا باهظًا لها، وكبدت أبناءها خسائر فادحة، وقد تركت هذه الحرب آثارًا سلبية على هذه المدينة.

في منتصف الطريق:

بين هيتلر ونوايدي نيويورك الليلة

---

لقد ضللتك أيتها المدينة الزانية

متلبسة بالجرم المشهور

في ساحاتك المزدانة بالإعلام وأقواس النصر

شهدت أعياض مشوهي الحرب

واكبت الجنازة واشتركت في مراسم الدفن

رايت اليتامى الصغار وهم يضعون أكاليل الزهور

على أضرحة آبائهم المطفأين كالعقاب السجائر

رايت عيون الخنازير الغلاظ وهي تلحق سيقان الإراجل

رايت البرنسمم وهواة جمع البانكنوت

وهم يجفون جموعهم التي لم تسلم

بينما تعزف الموسيقى العسكرية

التشييد القومي<sup>(1)</sup>

جاءت نيويورك في هذا المقطع من خلال يعديها السياسي والاجتماعي، تمثل وجه السلطة الحاكمة بكل أفعاله، وألماعه في خيرات الشعوب الأخرى، وقد بدت خارج دائرة الإنسانية، فهي غير مبالية بما تكبده أبناءها من آلام وأحزان في تلك الحرب التي أشعلتها، وقد دعم هذا الوجه القبيح لها، تلك الفئة الاجتماعية المستغلة للفرص، التي لا تأبه إلا بمكاسبها الخاصة، فقد جاءت تلك الشريحة لتكون مرآة لنيويورك، وقد جاء أبناء هذه المدينة ليكونوا هم الضحية، التي دفعت الثمن من أجل مصالح السلطة الحاكمة، وبهذا سقطت صورة المدينة التي تدعي المثالية، واحتفائها بأبنائها، لتظهر صورة المدينة القاضية على كل القيم الإنسانية، وهكذا عرّى القاسم نيويورك وكشف عن حقيقتها القبيحة ووجهها الزائف.

(1) سميج للقائد، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4/40-42.

ظهر الشعور العدائي لدى القاسم واضحاً في هذا المقطع تجاه هذا المكان، ولعل ذلك يعود إلى سياسة أمريكا القمعية تجاه الشعوب، فهي تستيحيها وتهدر كرامتها من أجل مصالحها الخاصة، وهي المدينة المعادية للشعوب الطامحة إلى الحرية، وقد يعود ذلك أيضاً إلى موقف القاسم الوطني، فهو محب لوطنه، منتم له، ويرى أن الكيان الصهيوني ما هو إلا امتداد لهذه المدينة/ أمريكا، فهما يقاطعان في بؤرة واحدة وهي الاستبداد والطغيان. ولعل القاسم من خلال هذا الموقف يعبر عن ضمير أمته وشعبه الرافض لسياسة تلك المدينة.

اعتمد الشاعر في هذا المقطع على المفارقات التصويرية، ليؤكد التباين في مواقف تلك الشرائح الاجتماعية في المدينة، وقد انطلق منها لإدانة واقعها والسخرية منها. كثف الشاعر الصور البصرية ليؤكد أن صورتها واضحة تمام الوضوح في عيني كل إنسان، فهي غير قادرة على تزييف الحقائق، والإنسان أوعى من أن يُخدع من قبل هذه المدينة التي اعتادت دوماً على تقديم صورتها كما تريد هي، وليس كما هي في الحقيقة. ولعل تعاطف القاسم مع أبناء الشعب الأمريكي يؤكد بأن القاسم لا يكن العداء لأمريكا أو لشعبها، وإنما لتلك السياسية الإجرامية التي تقترنها تلك الدولة بحق الشعوب. وظف القاسم في هذا المقطع لفظين أعجبيين هما (البنسنم والبانكنوت) "إما بقصد مخاطبة الوافدين من الغرب بلغتهم التجارية الربوية، وإما بقصد التهمك الذي لا يجد المكيل إلاه متنبأ"<sup>(1)</sup>.

نويورك ستفقد أبناءها الذاهبين إلى الحرب، الذين كانوا يبعثون فيها الحياة والحركة والبهجة، والقاسم حزين على واقع الإنسان فيها.

**وانصب على الأشباح النار.. وإبكي!!**

' من يجرع في بارات نيويورك الوسكي؟'

" من يلقي في المقهى حلوة؟"

" من ينشد في الشارع غنوة؟"

' من يحرق في أمريكا؟ من يزرع؟'

" من يحرق في فيتنام ويزرع؟"

' من يبقى في المصنع؟'

" من يبقى؟"

(1) أطوار ثلاث، سميح القاسم من الغضب شعوري إلى الثورة الثورية، 55.



## يا آلهة الموت امحقني في أمريكا..

يا آلهة الموت المحقق!!<sup>(1)</sup>

تختفي مدينة نيويورك المدينة الأمريكية ذات الوجه القبيح، المشتركة في حرب فيتنام في هذا المقطع، ليظهر المكان الأليف الذي يحتضن الإنسان، وينتمي إليه، ويحرص على تواجده، وبقائه واستمراره فيه، فهذا المكان دون الإنسان لا وجود له ولا فاعلية، والإنسان بامتداده في هذا المكان هو الذي يعطيه الحياة، وبهذا جاءت نيويورك لتعكس الوجه الإنساني المشرق المتفائل بالحياة والأمل الذي يتسلل نتيجة الوضع السياسي القائم في أمريكا، فنيويورك التي عكست صورة الإنسان والمكان هي التي ستدفع ثمن هذه الحرب.

وقد كثف القاسم أسلوب الاستفهام في هذا المقطع، ليدل على ثورته على الحرب، ولومه وتقريعه من أشعلها، وهذه الأسئلة التي جاء محورها الإنسان، تؤكد قلق الشاعر على مصير الإنسان والإنسانية، سواء في أمريكا أم في فيتنام، وهذا هو الهم المؤرق للقاسم، فهو حريص على مستقبل الإنسان ووجوده في المكان.

وانكأ القاسم على الصور الجزئية الحركية والصوتية لتؤكد صورة المدينة وفاعليتها قبل الحرب وسكونها بعدها.

ولم يظهر الشاعر هذا الوجه الإنساني لهذه المدينة إلا ليندين سياسة أمريكا التي تمارس الظلم بحق الشعوب.

فنيويورك لدى القاسم ما هي إلا وجه أمريكا المعادي للذات الإنسانية.

## إسطنبول تجاهل الوجود العربي

توقف القاسم عند هذه المدينة ليرثي مجد العرب الدائر، والدور الحضاري الذي شهنته هذه الأمة في فترة من فترات تاريخها المشرق المجيد، وقد انطلق الشاعر من خلالها ليندين الواقع العربي المرير، ويرثي لوجود العربي المضطهد، ولكيان السلوب المهتد، فهذه المدينة جعلت الإنسان العربي يواجه حقيقة، ويشعر بمدى الانهزام بين ماض عريق وحاضر مؤلم، ولهذا فقد بدت معادية للذات العربية، وقد اشتهر كل من السلطة الحاكمة والشعب في إظهار ذلك الوجه القبيح لها، وذلك ليكتف واقع رفض هذه المدينة للإنسان العربي، على يستيقظ، ويحاول أن يستعيد وجوده، ويثبت ذاته أمام كيان يود القضاء عليه.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 215.

ربط الشاعر بين إسطنبول وقضيته الوطنية، في محاولة منه لتأكيد الألم والمرارة التي يستشعرها الإنسان الفلسطيني، وتكثيف مشاعر الضياع التي تسيطر عليه، لعل ذلك يكرن حافزاً للتحدي والصمود والمواجهة، من أجل إعادة هويته الفلسطينية وملامحه المميزة الخاصة.

وقد أظهر القاص الشعور العدائي لهذه المدينة تجاه الشعب الفلسطيني، فهي تتجاهل وجوده، ولا تقدم له الدعم في مواقفه الوطنية، في الوقت الذي تفتح فيه أبوابها للوجود الغربي، لهذا شعر القاص بالفنور منها، وأحجم عنها، ومع هذا فقد حاول أن ينظر إليها من خلال وجهها الإنساني، فرأى صورة أبنائها المتمردين على أوضاعها السياسية، ولكن صورة هؤلاء الأبناء الإيجابية حجمتها صورة السلطة الحاكمة والشعب الذي رفض ذلك الوجود الغربي.

وبهذا بدت إسطنبول مؤلفة للذات العربية، محفزة إياها بطريقة غير مباشرة على إعادة دورها الحضاري من جديد.

إسطنبول تتجاهل أثر الوجود العربي وامتداده فيها، في الوقت الذي تفتح فيه أبوابها للوجود الأجنبي، وفيها يشعر الإنسان العربي بالعربة والألم والسخرية والتعب، ويتلقى الخيانة من أبنائها، ولا يجد له مكاناً فيها، ولذاها غارقون في آلامهم وأحزانهم.

(أبواب إسطنبول تجهلني

وتجهلني المواخير الكثيبة والمادح

وتشيع عن وجهي الوجوه المغارقة

في الشاي والحزق المجاهد.

وتميل عن حربي النصايا

والمقاهي والمجادح

وبخونتي حمال امتعتي

ويشتم سائق التكسي أبي

لم يعجب البقشيش بحضرتي.

فمال علي، بياع حزين؛

- اليوم شرف بيتنا الأسطول،

شرفنا الجنود الشقر

فالأشعار شيء آخر،

ما سعر زوجتك الفقيده؟

ها، هاها، هها، ما سعرها.

أرغيف خبز أم قصيده؟  
 وأجوس (دخلة الشوارع)  
 باحثاً عن وجه صاحب  
 أوتاج في ظل المساجد  
 بين أقدام الأجانب  
 وثنام من تعبي أنام  
 على التمرق والحقائب...<sup>(1)</sup>

ظهرت إسطنبول في هذا المقطع، من خلال صورة الطبقة الحاكمة، فبدت ذات وجه سياسي، يرحب بالوجود الغربي، على حساب الوجود العربي، بل يرفض هذا الوجود ويجهله. وقد جاءت مقالة للذات العربية، شكلت ألماً لها، فهي المكان الذي فقدت فيه هذه الذات وجودها، وأصبح هذا المكان معادلاً للغربة وعدم الانتماء والضعف والتجاهل، ولعل القاسم من خلال هذه الرواية يؤكد ضعف هذه الذات وتضائل وجودها، ونسحابها من أمكنة كانت تهيمن عليها، وكأنه يشي بذلك الواقع المرير الذي تحياه الأمة العربية بسبب انكساراتها، ولعل هذا يحفز المثقلى على رفض ذلك الواقع، ويؤثره على استعادة ذلك الوجود، وإثبات الكيان العربي من جديد.

قدم الشاعر هذه المدينة من خلال فضائها، فجاءت الأماكن المفتوحة والمغلقة لتؤكد الوجود العربي فيها، وتغلفه في أعماقها في الماضي، أما في الحاضر فلم تجد هذه الذات العربية سوى الغربة والرفض، وقد شكل فضاؤها عناصر ضاغطة على تلك الذات لتكشف عن تضائلها وانهازميتها وضعفها.

وظهر وجهها الاجتماعي من خلال للعنصر الإنساني فيها، وقد بدا إما عنصراً مستسلماً للمسلطة الحاكمة، عاجزاً عن اتخاذ أي موقف ضدها، وقد ظهر من خلال (الوجوه الغارقة في الشاي والحزن المداخن)، فحزن هذه الشريحة كان سلبياً لأنه لم يستطع أن يجعلها تبرز على واقعها في محاولة لتغييره، وإما عنصراً سلبياً يزيد من ألم الشاعر وإحساسه بالغربة، وذلك من خلال (وبخوتني حمال أمتعتي وبشتم سائق التكتسي أبى)، وقد اكتسب هذا العنصر الإنساني تصرفاته السلبية من خلال وجوده في هذا المكان، فالمكان هيمن على تصرفات هذا الإنسان وضمها بطابعه، فبدت صورة إسطنبول من خلال تصرفات أبنائها ذات وجه معاد للذات العربية.

(1) سميح القاسم، الاصل الشعرية الكاملة، ج1، 420:419.

ربط القاسم بين هذه المدينة وقضيته الوطنية من خلال عبارة (ما سعر زوجتك الفقيدة)، ليزيد من قتامة ذلك الواقع الذي يحياه الإنسان الفلسطيني، فهو قد سلب وطنه، وقد سلب المكان الذي كان يشعر فيه بالوجود العربي، مما أشعره بالتدخل وعتم التوازن، فالأرض الصلبة التي كان يقف عليها، ويستمد ثباته منها قد اهتزت تحت قدميه، بسبب واقع الأمة العربية المنهزم.

وفوق القاسم في يده هذا المقطع بلفظ (أبواب)، فهذا اللفظ مفتوح على الخارج والداخل أيضاً، فالخارج هو إسطنبول التي تجهل هذا الوجود، وقد أثر هذا الخارج (التجاهل) على الداخل، على تقسية الإنسان العربي، فجعلها ترى حقيقتها، فهي ضعيفة، منهزمة، غير قادرة على إثبات وجودها في هذا المكان كما كان سابقاً.

جمع القاسم بين (المواخير والمأذن) من خلال التطبيق ليؤكد أن جميع الأمكنة ذات سياسة واحدة في هذه المدينة، وهي سياسة تجاهل للوجود العربي.

وقد تلاحقت الصور الحزنية النصرية والحركية والصوتية لإعطاء صورة واقعية عن الواقع المؤلم للإنسان العربي في هذه المدينة، ولعل شاعرية القاسم تتضح في هذه الصورة (ارتاح في ظل المساجد، بين أقدام الأجانب)، فوجود الأجانب في هذه الصورة قد سلب السكنية من المسجد، وبهذا لم يجد القاسم الراحة في هذا المكان.

وظف القاسم المسميات العامة من خلال استخدامه لفظ (البقيش) ليلتحام مع الطبقة العامة في المجتمع ويتكلم بلغتها، وحين نطالعنا مثل هذه المفردات نكون أمام خطاب جمالي يتولد من داخل عناصر اللسان الاجتماعي، بكل ما يمثل من خبرات، وما يمتلك من أنساق معرفية وجمالية، ونكون مع بنية عميقة - على سبيل التشبيه - يتحد فيها كل من المرسل والمتلقي داخل صيرورة إبداعية جماعية<sup>(1)</sup>.

كثف الشاعر في هذا المقطع المشابهات البصرية، فجاءت الجيم والخاء في (وتجهئي المواخير) والخاء والحاء في (ويخونني حمال)، أما الحاء والجيم ففي (وتسبح عن وجهي) و (باحثاً عن وجه صاحب) و (ارتاح في ظل المساجد)، والشين والسين في (ويشتم سائق التاكسي أبي) و (اليوم شرف بيتنا للأسطول)، أما السين والشين ففي (فالأسعر شيء آخر)، و (وأجوس أرسفة الشوارع).

إسطنبول تُصَوِّر فيها الكرامة الإنسانية، ويخضع إنسانها صاحب الفكر الحر لأقصى ألوان العذاب والألم من قبل السلطة الحاكمة، وهي لا تقف مع الإنسان الفلسطيني، ولا تدعم موقفه في قضيته الوطنية، والقاسم يدين سياستها القمعية تجاه أبنائها الأحرار الذين يعارضون سياستها.

(1) محمد فكري الحجاز، سمات الاختلاف، الخصائص الجمالية لمستويات بناء النص في شعر الحديثة، LIO.

هكذا الفتى البجوي،  
يسأل عن صديق باسم نازم  
عيناه من يوسفورنا  
ويذاه جذعا سروتيي!  
ويقول إن صديقه يأتي المدينة كل عام  
متفقداً شوق الفصول إلى المواسم  
لا علم لي، وعصي شريطنا تلوح في الظلام!  
لا علم لي، يا أيها البجوي.  
بالجم والعقيدة  
ما زال جلد الكباش بجلتني الوحيد!

.....

.....

إنساق إسطنبول بجهلني،  
ويجهل زوجتي! (1)

ظهرت إسطنبول في هذا المقطع من خلال عصي الشرطة، فهي المدينة التي تقتل الحرية، وتسلب الحقوق الإنسانية، وبهذا عكست صورة السلطة الحاكمة فيها، وإسطنبول أيضاً هي الأبناء الوطنيون المتمردون على واقع تلك السلطة، المؤمنون بغد أفضل لمدينتهم، وتلاشي الصورة الإيجابية لهذا المكان، من خلال سيطرة الصورة السلبية على هذا المقطع، صورة السلطة الحاكمة، ولم يأت القاسم بالصورة الإيجابية إلا ليكسب وجه إسطنبول/ السلطة المزيد من العنف ونقسه والبطش، مما يجعل المتلقي يأخذ موقفاً حاسماً تجاه هذه المدينة، ويرفض سياستها الجائرة، ويحفز أبناءها على مزيد من الصمود والتصدي.

ومن خلال هاتين الصورتين (عيناه من يوسفورنا، ويذاه جذعا سروتيي)، أكد القاسم علاقة التماهي بين أبناء هذه المدينة الأحرار والوطن، فقد اكتسب هؤلاء الأبناء كيانهم من هذا الوطن، وقد تدخل الوطن معهم، وتجشروا فيه، فأصبحوا هم الوطن، والوطن هم، وبهذا يصبح المكان هو الإنسان، والإنسان هو المكان، كلاهما ممتد في الآخر، متشكل به، متحد معه، منتم إليه.

(1) سميج للقاسم، الاصل الشعرية الكاملة، ج1/420، 421.

وقد كان القاسم دقيقاً في اختيار ألفاظ هاتين الصورتين، فجاءت (عيناه) لتؤكد أن حب الوطن هو المسيطر على رؤية هؤلاء الأحرار، و(جذع) لتشي بقوة الانتماء لهذا الوطن الذي عبر عنه بالسروة.

وبهذا تكون صورة "مزيجا من الشعور والحس من واقع الموجودات العياني، وواقع الفنان النفسي"<sup>(1)</sup>.

ويعكس القاسم رؤيته التفاضلية من خلال صورة (متفقداً شوق الفصول إلى المواسم) التي ظهر فيها "حسن استخدامها لعناصر الطبيعة وتوظيفها، توظيفاً عقلانياً"<sup>(2)</sup>، فهو يمتلك الأمل بأن يتحرر الإنسان من ذلك الواقع الذي يحياه، وكأنه يحفز على الثورة والتحرر ليس في إسطنبول فحسب، وإنما في أي مكان يخضع فيه الإنسان للسيطرة والاضطهاد، ولعل القاسم بحث الشعب الفلسطيني على الصحة واليقظة وعدم الاستسلام لواقع الاحتلال المرير.

وبالرغم من أن صورة (وعصي شرطتنا تلوح في الظلام) صورة مطروقة غير جديدة، إلا أنها اكتسبت تأثيرها وفاعليتها في السياق، من خلال عبارة (لا علم لي) التي تكررت مرتين في المقطع، وذلك لتؤكد سيطرة السلطة الحاكمة على نفسية الإنسان المهجورة، وكأن المتلقي من خلال هذه العبارة، يستمع إلى الحوار الداخلي الذي يعتل في نفس الإنسان المسحوق، ويكشف عن واقع الهيمنة واستلاب الحرية، فهذا الإنسان تحت ظل تلك السيطرة غير قادر حتى على الهمس بينه وبين نفسه بتلك الحقيقة (وهي معرفته بالأحرار).

ويتواصل القاسم مع الموروث الأدبي، وذلك من خلال توظيفه شخصية نازك<sup>(3)</sup>، ليكون معادلاً للإنسان الوطني المنتمي لوطنه الغيور عليه، الرفض لواقعه، المحاول لإصلاحه، ولعل موقف الشاعر الأيديولوجي هو الذي جعله يستحضر هذا الشاعر بالذات، فكلاهما ينتميان إلى الاتجاه نفسه، والموقف والفكر.

وتظهر لغة القاسم الحادة المواجهة من خلال عبارة (إنسان إسطنبول يجهلني) وعبارة (ويجهل زوجتي)، فهذه اللغة تخلق الإنسان الفلسطيني الذي فقد كيانه وامتداده، ولعلها تحفزه على أن يستعيدهما.

(1) سيد عبد الحميد ناجي، الصورة الشعرية، مجلة الأتارك، ع: 8، 1984، 5.

(2) المنصف وناس، شاعر ميمح القاسم تسيابية الرؤى وخنين الأطفال، مجلة الشعر، ع: 4، 1983، 42.

(\*) ناعمة حكمت: شاعر تركي شير، ولد عام 1902 لعائلة ثرية ومتنفذة، عارض الانهضة التركية، وشارك في حركة أتاتورك

التجديدية، عارض لتتظام الذي شأه أتاتورك وسجن في السجون التركية حتى 1950م، فر إلى الاتحاد السوفيتي، وهو شاعر

شوعي، أنعاده ممنوعة في تركيا، توفي عام 1963م.

نشر <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

هذه هي إسطنبول كما رآها القاسم، جاءت معبرة عن واقع الذات العربية، في محاولة منه لتجاوز تلك الواقع من أجل مستقبل يفرض فيه الإنسان العربي وجوده.

## هيروشيما الجرح في ضمير الإنسانية

حابت هذه المدينة في شعر القاسم، لتمثل المدينة المنكوبة التي وقع عليها الفعل الإجرامي، من قبل قوة طاغية تسعى إلى سحق الإنسان، فبدت هيروشيما مستسلمة، ضعيفة، خاضعة لذلك الفعل المدمر للإنسان والمكان معاً.

وقد وقف القاسم معها، وأبدى شعور الحزن والألم على واقعها، وذلك لأنه مع الإنسان المسحوق في كل مكان، وضد القوة الطاغية التي تستبيح الكرامة الإنسانية.

ومن خلالها انطلق الشاعر ليعبر عن قضية وطنه المسلوب، وشعبه المتألم الذي يتعرض لأقسى أنواع العذاب من قبل الكيان الصهيوني، وقد ربط الشاعر بين هذين المكانين (هيروشيما وقلسطين) ليؤكد أن الهم الإنساني واحد، وأن سياسة العدو واحدة، مهما اختلفت جنسياته، وتعددت أساؤه.

ومن اللافت للنظر أن القاسم في حديثه عنها أظهر قلقه، وتخوفه على مصير وطنه، فهو يخشى من أن يكون هذا المكان صورة لمستقبل وطنه فلسطين، ولهذا جعل هذه المدينة تحت، بطريقة غير مباشرة، أبناء الشعب الفلسطيني على رفض واقع الاحتلال، ومحاولة بزل الجهود للوقوف أمامه للحفاظ على وطنهم.

مدينة هيروشيما، مدينة الرماد الحر، مدينة المشوهين، مدينة الأوبئة والقحط، تستغيث من تلك الهجمة الشرسة التي تعرضت لها من قبل العدو الأمريكي، وهي تختزن الآلام والعذاب والجراح، والقاسم يدين تلك الهجمة العدوانية عليها، ويظهر حزنه وألمه على الواقع المأساوي الذي تحياه.

طفل بلا رجل، بلا عين، ومخلوق بلا وجه،

وأشباح من الإنسان المشوه تستغيث

وتتقهقه الأوبئة والقحط الخبيث؛

كل الإناث هنا عواقر

كل الرجال هنا معقمة ... فאלقوا العبء

## عن إكتاف مجراث مسافر! هكذا الرماد المر لم ينبت سوى الورد المحجر والدم المسود والريح المسمم والخناجر<sup>(1)</sup>

وبالرغم من أن القاسم لم يذكر اسم هيروشيما في هذا المقطع، إلا أن القصيدة التي أخذ منها تحمل عنوان "هيروشيما"<sup>(2)</sup>، وتظهر من خلال الجرائم المرتكبة بحقها من قبل العدو الأمريكي، فتبدو هيروشيما مدينة مسحوقة، منكوبة، وبهذا أصبحت تمثل المكان المستلب أمام قوة طاغية لا تعترف بالإنسانية، وقد جاءت تحمل قضية الإنسان في كل مكان، غير القادر على الوقوف في وجه الطغيان.

ومن اللافت للنظر أن صورة هيروشيما في هذا المقطع تكتزن بصورة أمريكا، فحضور هذه المدينة المنكوبة يستلزم حضور تلك الدولة التي قامت بذلك الفعل الإجرامي بحقها. ويكتسب هذا المكان القبول لدى المتلقي، ويشعر باندماجه معه، ويحمل عبء قضيته التي أرقّت الإنسانية، في الوقت الذي يحس فيه بالنفور من تلك القوة الجائرة. كنف القاسم الصور الجزئية البصرية واللونية والصوتية والذوقية التي تولد الشعور ولا تصفه، وتثيره ولا تقرر<sup>(3)</sup>، ليحاصر المتلقي في واقع هذه المدينة المأساوي، ويحثه على أن يتخذ موقفا تجاهها، وتجاه تلك القوة المدمرة.

وفق الشاعر في اختيار أداة النفي (لم) الخاصة بالزمان الماضي، ليؤكد أن واقعها السلبي لن يندم، وأن هذا الشعب قادر بقوة وإصراره على أن يتخطاه في المستقبل. وقد كان الغمت في هذا المقطع ذا تأثير واضح في الإيحاء بمثل ذلك الواقع المرير الذي تعانيه المدينة، فمن خلال نعت الورد بالمحجر، سلب القاسم الحياة من ذلك الورد، وبهذا سلب التناول من حياة هذه المدينة، أما نعته الرماد بالمر فليؤكد الواقع المرير الذي يعانيه المكان، ولتكون تلك الجريمة ماثلة أمام الإنسان في كل وقت، مما يزيد الألم، وقد نعت الدم بالمسود ليظهر فظاعة تلك الجريمة المرتكبة بحق المكان، وقد نعت الريح بالمسمم ليكتف تلك الألام والعذاب الذي يعانيه الشعب في هذا المكان.

وبهذا يكون القاسم قد أثقل هذا المقطع بعناصر تزيد من كآبة الموقف وذلك ليشي بكثافة تلك الجريمة بحق الإنسان والإنسانية، فيتمثل شعور قوي لدى المتلقي برفض ذلك الظلم ومحاولة صدّه والوقوف ضده.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 209.

(2) نفسه، ج1/ 209.

(3) محمد توح أحمد، الرمز الرمزية في شعر المعاصر، 345.



ومدينة هيروشيفا تشكل جرحاً عميقاً في وجدان الإنسان الفلسطيني، ودمارها وانتهزاميتها أمام تلك القوة الطاغية، سقط الأمل والحلم الفلسطيني، في الصمود والوقوف أمام العدو الصهيوني، في الأرض المحتلة، والقاسم يؤكد تأثر الشعب الفلسطيني بمأساة هذه المدينة وبشرائها آلامها ولحزائها.

هيروشيفا تعاقبني

بولاداتها الشائكة

هيروشيفا تعاتبني

بنباتاتها الشائكة

كيف أفهمها إنني مت في موتها؟

هيروشيفا تجالبنني

كيف تفهمني؟

يوم تاه جناح الإله الأخير على أفقها

غبت في التيه، منخطفا واحدا

أحدا واحدا

لم يزل تائها في خطى أمه التائهة

هيروشيفا تخاطبني

أخ من صخب الروح في موتها

أخ من صمتها

هيروشيفا التي

أذكركتني، وما أذكركت لعنتي.. (1).

تظهر هيروشيفا في هذا المقطع مؤرقة ومقلقة للإنسان الفلسطيني، وكأنه من خلالها يستشرف المستقبل الأليم الذي ينتظر المكان والإنسان في الأرض المحتلة، في حالة استسلامهما للكيان الصهيوني، وبهذا تحتجب هيروشيفا، ليظهر وجه الوطن المنكوب بغض النظر عن جنسيته.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، 370-371.

وقد بدت محفزة للإنسان الفلسطيني على رفض الاحتلال، داعية إياه إلى الصمود في الأرض المحتلة، حتى لا يلقى المصير نفسه الذي واجهته تلك المدينة. ويرتبط القاسم بعلاقة حميمة مع هذا المكان الذي يعكس مأساة شعب ومدينة، ولعله قد ربط بين هذا المكان وفلسطين، ليؤكد الواقع المرير الذي يحياه الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني، وبهذا تصبح هيروشيفا هي الوطن المسمي، غير المدافع عنه، الذي يحفز أبناءه على التحدي والمواجهة والصمود في وجه الأعداء، ويلومهم على تقصيرهم في الدفاع عنه.

ومن اللافت للنظر أن المنولوج الداخلي قد اتخذ مساحة واسعة في هذا المقطع، وذلك ليعبر القاسم من خلاله عن قلقه على واقع وطنه، فهو من ناحية يرفض «الاستسلام للكيان الصهيوني، ويتردد على أن يكون مصير وطنه مماثلاً لمصير هذه المدينة، وهو من ناحية أخرى يرى أنه مقصر في الدفاع عن هذا الوطن، وهذا ما أشعره بالألم والقلق وعدم الاتزان، فاتخذ هذا التنكيك الحديث (المنولوج الداخلي) لإظهار هذه الأفكار، وتبرير موقفه أمام نفسه أولاً، وأمام هيروشيفا/ الوطن ثانياً، وكأن القاسم يحمل نفسه/ الشعب الفلسطيني مسؤولية سقوط ذلك الوطن فلسطين في أيدي الأعداء، وقد اتخذ الشاعر من هيروشيفا القاعدة التي انطلق منها للحديث عن قضية الوطنية وهمه الوطني المؤرق.

ولعل اللغة الصوفية التي بدت في هذا المقطع من خلال (غبت في التيه منخطفاً ولجداً أحداً واحداً)، تؤكد تلك الانهزامية التي استشرها الإنسان الفلسطيني بسقوط هيروشيفا/ الوطن، وكان لا بد أن يشعر هذا الإنسان بتلك الانهزامية، حتى يستطيع الوقوف ومواجهة المحتل، وقد جاءت عبارة (وما أدركت لعنتي) لتشي بتلك اليقظة التي أرادها القاسم لذلك الشعب، فهذا الوعي كان لا بد أن يحدث بعد أن تجرع هذا الشعب تلك المرارة، وذاق ذلك الألم من قبل المحتل الصهيوني.

وقد جاءت الأسئلة الاستفهامية التي أفادت التعجب، ليشعر القاسم من خلالها بالتوازن النفسي الذي فقدته نتيجة ما حل بهذه المدينة، وكأنه من خلال تلك «الأسئلة» ينفى عن نفسه تهمة التقصير في الدفاع عن الوطن.

هذه هي المدينة المنكوبة (هيروشيفا) جاءت لتعبر عن واقع سياسي عاشته، وتجسدت الأمة، ومن خلال هذا الواقع المأساوي الذي كلفه القاسم بوساطة الصورة الجزئية التي حملت صورة هذا المكان، أظهر الشاعر الوجه القبيح للدولة المستبعدة، وقد كشف الشاعر الصورة الواقعية لهذا المكان، ليجعل المتلقي وكأنه يشاهد هذه الأحداث المؤلمة بأم عينيه، فيكون الشعور بالتعاطف مع هذه المدينة، وبالفور من تلك القوة الطاغية (أمريكا).

## كرمنيل<sup>(١)</sup> الكيان الصهيوني

جاءت هذه المدينة في شعر القاسم من خلال قصيدة بعنوان (كرمنيل)<sup>(١)</sup>، وقد أطلق عليها اسم "مدينة الحقد والجور والجماع"<sup>(٢)</sup>، ومن خلال هذه التسمية، عكس القاسم رؤيته لها، فهي المدينة الإسرائيلية التي أوجدها الكيان الصهيوني على الأرض الفلسطينية، فجاءت رمزاً للدولة الصربية (دولة إسرائيل)، وقد جاءت لتتجسم الكيان الفلسطيني على أرضه، وهذا مما أثقلت الذات الفلسطينية، وأشعرها بالألم والمرارة، فهي من ناحية رافضة لذلك الوجود الغريب على أرضها، ومن ناحية أخرى عاجزة عن سحقه، والقضاء على امتداده، وبهذا بدت هذه المدينة مستقلة لهوية الذات الفلسطينية، وسلامتها ووجودها واستمرارها في أرضها.

جاءت كرمينيل لتحمل التحدي لتلك الذات، مما أشعرها بضعفها وتخلخلها وإنهزامها، وقد حاول القاسم أن يخرج الفلسطيني من ذلك الواقع المرير الذي يحياه، وذلك بانغماسه في الأرض والتحامه معها، فتكون هي القوة التي تشحنه بالقدرة على الصلابة والمواجهة ذلك الكيان المعادي.

ركز القاسم على مصير هذه المدينة، فجعلها مرتبطة بالقضاء، وذلك في محاولة منه لتحفيز أبناء الشعب الفلسطيني على مواصلة التحدي، والصمود والمواجهة من أجل الوصول إلى تلك النتيجة (فناء المدينة).

وقد جاءت لتظهر سياسة العدو الصهيوني في الأرض المحتلة، فهو يسلب الأرض من أصحابها الشرعيين، ويرتكب أفظع الجرائم الوحشية بحق الفلسطينيين من أجل القضاء على وجودهم، وهويتهم المحلية، وهو يسعى بشتى الطرق والوسائل إلى إثبات وجوده في أرض ليست ملكاً له.

اندغم صوت القاسم مع صوت الشعب الفلسطيني، في التعبير عن رفض هذه المدينة ووجودها على الأرض الفلسطينية.

كرمنيل تمثل الإنسان الفلسطيني في كل وقت، فهي تتحدى وجوده، وتشعره بالألم والتفكك، ولكنه مؤمن بحتمية زوالها، والقاسم يدين سياسة المحتل الصهيوني، القائمة على محو

(١) كرمينيل: وهو اسم المدينة التي ابتاعها الإسرائيليون في الجليل فوق أرض سلوبها من عرب قرى دير الأسد و"البعلة" و"كحف"، ضمن خططهم لتحويل الجليل، غرس كفادي، الأوب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، 97.

(٢) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 90.

(3) نفسه، ج1/ 90.

صباح مساء  
 يطالعنا .. وجهها والسماء  
 ونبتسم .. لا بسملة الإغبياء  
 ولكنها بسملة الإنبياء  
 تحذاهم صالب تافه  
 يغطي الشمس .. ببعض رداء! (1)

جاءت هذه المدينة لتشكل رمزاً للوجود الصهيوني في الأرض الفلسطينية المحتلة، وقد بدت مكاناً استلابياً، يشعر فيه الفلسطيني بسياسة الاضطهاد التي يمارسها الكيان الصهيوني بحق، كما يشعر بسياسة المحتل القمعية الجائرة الهادفة إلى إلغاء وجود هذا الفلسطيني على أرضه، وبهذا حملت الوجه السياسي للمحتل الصهيوني، فبدت مكاناً معانياً للذات الفلسطينية. ومن اللافت للنظر، أن القاسم قد انطلق من شعور الكره تجاهها، إلى شعور الإيمان والأمل بالمستقبل، وبين هذين الشعورين، بدت مساحة واسعة من أحاسيس الألم واليأس والقلق سيطرت على الشاعر، ولكنه حاول اجتيازها، ليكون قادراً على المواجهة بطريقة إيجابية فاعلة، وقد جاء الإيمان بقاء هذه المدينة داعماً لشعور الكره، ليحفز القاسم الشعب الفلسطيني على المقاومة، والدفاع عن هذا الوطن، من أجل القضاء على ذلك الوجود الغريب في الأرض المحتلة.

بدأ الشاعر واعياً في هذا المقطع، وذلك بإقراره بوجود هذا الكيان، فمن خلال هذه الحقيقة المؤلمة/ الوجود الصهيوني، سينطلق الفلسطيني نحو رفض هذه الحقيقة والتفرد عليها، والعمل على استرداد الكيان الفلسطيني المفقود، وهذا ما أراده القاسم.

بدأ الشاعر هذا المقطع بعناصر تدل على الزمن (صباح مساء)، ليؤكد أن قضية إلغاء الوجود الفلسطيني، هي الهم المؤرق لهذا الشعب، وهي القضية التي تشغله وتكرهه في كل وقت، فهي حياته ووجوده ومصيره.

وفق القاسم في جمعه بين وجه المدينة والسماء في عبارة (يطالعنا وجهها والسماء)، ليؤكد أن وجه العدالة لا بد أن ينتصر في مقابل توجه الظالم، فالشعب الفلسطيني يدافع عن حقه في أرضه، ولا بد له من الانتصار في وجه الكيان الغاصب، فهو مؤمن بعدالة قضيته وهذا ما يدفعه إلى الاستمرارية في الدفاع والمواجهة.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/90.

وقد كشف الشاعر أحاسيس الأمل المتباعدة في وجدان الفلسطينيين، من خلال لفظ (الشموس)، فهي العنصر الأكو، وهي التي ستفرض وجودها أمام تلك السياسة الظالمة، سياسة المحتل القاهرة.

واتكأ الشاعر على مظاهر الطبيعة الزمانية (صباح مساء) والمكانية (السماء والشموس)، ليثني بأنه مهما طال الزمان، فإن المكان سيظل موجوداً، والمكان هو امتداد الإنسان الفلسطيني ووجوده في هذه الأرض الخالدة.

كرمينل مدينة القصور والملهي، بنيت على أطلال شعب منح أرضه كل الحب، وشيدت على جثث الأبناء الفلسطينيين الذين قدموا أرواحهم فداء لأرضهم، ولكنها ستتهار لأن الأرض الفلسطينية ستفرض وجودها على ترابها الطاهر، والقاسم يؤكد عودة الوجود الفلسطيني وسيادته على أرضه.

غداً .. يا قصوراً وست في القبور

غداً يا ملاهي .. غداً يا شقاء

ستتذكر هذا المترايب سيذكر أنا منحناء لروح الدماء

وتتذكر ههنا المخجور رعاة بنوها بأدعية من جحقاء

وتتذكر أنا ..

هنا سفر تكوينهم ينتهي

هنا .. سفر تكويننا ... في ابتداء<sup>(1)</sup>

ظهرت المدينة من خلال قصورها وملاهيها آيلة للسقوط، لأن دعائها واهية، فالأرضية التي ارتكزت عليها كرمينل/ الوجود الصهيوني هي إلغاء الوجود الفلسطيني، وفي مقابل هذه المدينة ظهرت الأرض الفلسطينية ممتدة، متخثرة في أعماق أبنائها، وبهذا بدت المدينة المعادية ضعيفة من خلال قوة تلك الأرض الفلسطينية.

وقد كان القاسم واعياً عندما استحضر الأرض الفلسطينية من خلال التراب المضخخ بدماء الشهداء، والصخور الثابتة ثبات الوطن والإنسان الفلسطيني، وذلك ليؤكد تغلغل أبناء هذا الوطن في خلايا هذه الأرض، وتوحدتهم معها، فيصبحان كياناً واحداً، 'هذا الاندماج المشقي في الأرض من ميزات الشعر الفلسطيني'<sup>(2)</sup>، وبهذا تتشكل العلاقة بين الإنسان والأرض 'إنه وعي الأرض،

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/90.

(2) جبرا إبراهيم جبرا، قنار والجوهر، دراسات في الشعر، 162.

بوصفها امتداد الإنسان في المكان، ووعي الإنسان لنفسه بوصفه امتداداً لها في الزمن<sup>(1)</sup>، ومن خلال هذا الانصهار في الوطن يستطيع الفلسطيني التوفيق، بثبات وصلابة في وجه هذا المكان المعادي، المستلب للحق الفلسطيني.

وبتكرار لفظ (غدا) ثلاث مرات، يفتح المقطع على المستقبل الذي يحمل الرؤيا التغايرية، وقد جاءت هذه الرؤيا من خلال خطين متعامدين، شكل الخط الأول الصراع الحاد مع الذات الفلسطينية، وأما الخط الثاني فقد جاء من خلال التضحيات، التي قدمها أبناء الشعب الفلسطيني، لتحقيق تلك الرؤيا المتفائلة، وهي الغناء للوجود الصهيوني، فالتسامح قد وضع الحل لأناء الشعب الفلسطيني، ودعاهم إلى مزيد من التضحية والتبذل من أجل تحقيق وجودهم.

دعم الشاعر هذه الرؤيا بعدد من الألفاظ التي شحنها بدلالات تؤكد مصير هذه المدينة، فجاءت كلمة (يست) لتشي بالسكون وعدم الفاعلية، وقد دعمت كلمة القبور هذا المصير، فالقبور حيز مكاني يوحي بالضيق والغناء، وهذا هو المال الذي ينتظر الوجود الصهيوني.

وفق القاسم في التركيز على ثنائية العالي والمنخفض، والمتسع والضيق من خلال تلك الصورة، التي تحولت فيها القصور إلى قبور، وذلك لتأكيد تلك الرؤيا.

ولعل القاسم من خلال الحذف والإضمار في هذا المقطع، قد جعل المتلقي يشاركه في تلك الرؤيا المستقبلية، وكأن صوت المتلقي قد اندغم مع صوت القاسم، وقد توحد المتلقي بالأرض، وبدأ أحد أبنائها الذي يذكرها بتضحياته في سبيلها، ليكون لديها موقفاً إيجابياً، وترفض ذلك الوجود الغريب على ترابها المقدس بدماء الشهداء.

اتسع لفظ (غدا) في هذا المقطع، ليشير إلى أن قضية إلغاء الوجود الفلسطيني ليس محصوراً في مكان بعينه، وإنما هي سياسة الدولة للصهيونية في كل مكان في هذا الوطن.

ولعل شعرية القاسم تبدو واضحة من خلال هذه الصورة (وتذكر هذي الصخور رعاة بنوها بأدعية من حذاء) فهذه الأرض الفلسطينية تعرف أبناءها من خلال نبرات أصواتهم، قههم الذين تعاملوا معها ككيان إنساني، حادوه وأحبوه وتواصلوا معه، لذلك عرفت لغتهم واتخذتها لغتها، ونفرت من اللغة الأخرى الغربية عنها، هذه هي الأرض الفلسطينية امتداد في ذات أبنائها، لذا لن يقوم عليها أي كيان غريب.

هذه هي المدينة التي أشعرت الفلسطيني بالخطر الذي يهدد كيانه، ومن التالقت للنظر أن القاسم عندما تحدث عنها، لم يطلب الحماية والعون من الدول العربية، بل توقع في فلسطينية، ولعل ذلك لأنه وجدها الحماية الوحيدة أمام ذلك الكيان المستلب لوجوده.

(1) إيهاس حوري. الذائفة المفقودة، دراسات نقدية، 231

## واشنطن ساحة الوجود الإنساني

ظهرت واشنطن في شعر القاسم تحمل وجه أمريكا، وجه الدولة المتسلطة سياسياً، الهادئة لكل القيم الإنسانية.

تحدث القاسم عن وجهها المادي، المسرف في ماديته، الأجوف من كل بعد إنساني، فظهرت متقدمة علمياً، سخرت ذلك التقدم من أجل استباحة الشعوب، لذا أعلن الشاعر إدلتكه لذلك التكدم، لأنه لم يحقق للإنسانية سوى المزيد من الدمار والآلام.

وقد ركز القاسم على العلاقة التلازمية بين هذه المدينة والكبان الصهيوني، فهما وجهان لسياسة واحدة، وهي إخضاع الشعوب، وارتكاب المجازر بحق الإنسانية، لذا كثف الشاعر مشاعر العذائية تجاهها، فقد حملت وجه المحتل وسياسته الإجرامية.

واشنطن صماء، لا تستجيب للدعوات الإنسانية المطلقة لوقف جرائمها بحق الإنسان، وهي تدعي الإنسانية، وتباهي بمجازاتها العلمية، في الوقت الذي تسحق فيه كرامة الإنسان ووجوده، وتستعثر بكل القيم والأخلاقيات، والقاسم يدين موقف أمريكا تجاه الشعوب المقهورة، ويدين التقدم العلمي الذي لم توظفه هذه الدولة لصالح الإنسانية.

من أين تبلغك الرسالة؟

من أين .. يا واشنطن الحمراء ..

تحت تهجيرك

من أين؟

في قتيانك مذبحة، وأنت تصحرين

كعكا - وأدوية .. إلى القمر الحزين!

وتكنسين على دم الجرحى .. الزباله ..

من أين .. تبلغك الرسالة؟! (1)

تمددت واشنطن في هذا المقطع لتمثل أمريكا، وقد حضرت من خلال بعدها السياسي والحضاري، فهي المدينة التي خاضت حرباً عنيفة ضد فيتنام، وارتكبت المذابح بحق الشعوب المضطهدة، واستطاعت من خلال إنجازاتها العلمية أن تصل إلى القمر، وقد بدا وجهها قاسياً مادياً أجوف من الإنسانية، وجهاً ملطخاً بدم الشعوب المقهورة، مما جعل صورتها قاتمة في

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 304.

نفس الإنسان الذي يحترم إنسانيته، ويدافع عن كرامته، وقد وفق القاسم في جعل الوجه الحضاري داعماً للتوجه السياسي لها، فاتحدا هذان الوجهان معاً في نقطة واحدة، وهي تحقير الإنسانية.

"والشاعر لا يعارض التقدم العلمي والصناعي، ولا يعارض أن تهتم الدول بمصالحها، ولكن ليس على حساب المشاعر والعلاقات الإنسانية"<sup>(1)</sup>.

رصد القاسم مستقبل واشنطن، فهي لن تتغير، وستظل سادسة في غيها، ولن تستجيب لأية دعوة إنسانية، وهذا سيجعل في نهايتها، لأن إلغاء الإنسانية من حضارة أية أمة هو أول خطوة في طريق القضاء.

اتكأ القاسم في هذا المقطع على المفارقة التصويرية (في فيتنام مذبحه وأنت تصدّرين كعكا وأدوية إلى القمر الحزين) يؤكد امتحان هذه المدينة لكرامة الإنسان، وقد كانت الصورة مؤلمة، مثقلة للذات الإنسانية، ليستقرها على اتخاذ موقف حسم تجاهها، ويأتي الألم مباشرة للمتلقى من خلال لفظ (الزبالة)، الذي يشي بأن الإنسان في نظر واشنطن/ أمريكا كمية مهملة لا أهمية لوجوده، وأنها لا تأبه بالإنسانية المعذبة بسببها، ولا تقيم لها أي وزن، ولعله يشي أيضاً بأن واشنطن/ أمريكا هي المسيطرة على العالم، وأن الدول الأخرى لا قيمة لها.

وقد كانت الكلمة المفتاح في هذا المقطع (مذبحه)، ومن خلالها بدأ وجه واشنطن الحقيقي، فهي الموت، "ويبقى الإصباح أمريكا بالموت في علاقة حميمية هو الوجه السافر لصورة أمريكا"<sup>(2)</sup>، وقد كثف القاسم ملامح هذا الوجه القبيح من خلال توظيفه اللون، فجاءت كلمة الدم لتدعم الوجه المجرم لها، وبهذا ظهر كره القاسم لهذا المكان، وإدانتته له.

وقد وظف القاسم آلية الإسقاط النفسي، من خلال نعتة القمر بالحزين، لجعل الطبيعة تشاركه آلامه وهمومه، مما يقلل من تلك المعاناة التي يستشعرها، نتيجة توظيف هذه المدينة لتقدمها العلمي من أجل استباحة الشعوب.

ولعل توظيف لفظي (كعكا وأدوية) يؤكد أن أمريكا قد شاركت في كثير من الحروب، وسببت المجاعات، ولم تقدم يد العون للأمم التي استباحتها، وبهذا تبدو صورة هذه المدينة منفردة، مما يجعل المتلقي يرفضها ويشعر بكرهه لها؛ وهذا ما يريده القاسم.

(1) علي يوسف الحسين أو الرب، جهد الإنسان في الشعر الفلسطيني الحديث 1967-1990، 222، (رسالة ماجستير، جامعة

البحر، 1991).

(2) نفسه، 218.



يتخذ الكيان الصهيوني واشنطن قدوة له في سياسته التي ينتهجها في الأرض المحتلة، فيرتكب أفظع الجرائم بحق الشعب الفلسطيني، والقاسم يحث هذا الكيان السافر وراء واشنطن، بأن يتوقف عن تلك السياسة الجائرة بحق ذلك الشعب.

اسمعوا يا آل إسرائيل صوته الأنبياء  
واسمعوا يا آل هاروق النجاء  
نصبر الأمر لكل الملحددين الأشقياء  
ولكل الجبييرين الإثقياء:  
اعبدوا أصنام واشنطن، قوموا واعبدوها:  
خالطوا أوفاق يوق القاتله  
واجصلوا إبنائكم قريباؤ آي "بي. سي".  
وفي القلب احفظوها  
باسمها .. ديكوا البيوت الإلهه  
واريقوا تحت رجليها الحصاه  
وعلى إقدام كنعار السجود، يا آل يهودا،  
ولما ياتس إندا حارت مغانيكم، صخاري فاجله!  
هللوييا .. هللوييا! (1).

تتلاشى واشنطن في هذا المقطع ليظهر الوجه السياسي لأمريكا، فيبدو وجهاً قاضياً على معاني الوطنية، مستأصلاً كل مشاعر الحب والانتماء للوطن، ويأتي هذا الوجه القبيح المنفر لوشنطن من خلال تلك السياسة القمعية، التي ينتهجها الكيان الصهيوني في الوطن المحتل، وبهذا تصبح إسرائيل امتداداً لوشنطن/ أمريكا في طغيانها وجبروتها وتحكمها بالشعوب المقهورة، وتأتي مدينة بون لتدعم ذلك الثنائي الإجرامي، وتستزج الوجوه الثلاثة معاً ليشكل وجه العدو بكل جبروته.

وقد كان القاسم واعياً من خلال هذه الرؤية، فهذه الوجوه تلتقي جميعاً في زاوية منفرجة، هي القتل وسلب الإنسان حقوقه الشرعية، واغتصاب وطنه.  
والقاسم في دعوته لمحاربة الكيان الصهيوني، فهو يدعو حقيقة لمحاربة الوجه الآخر له أمريكا، والكفاح المسلح ضد وجه من وجوه العدو، هو كفاح ضد الوجوه الأخرى.

(1) سميح للقاسم، الاصل الشعري الكاملة، ج1/ 136، 137.

اعتمد الشاعر في هذا المقطع على المفارقة اللفظية، وقد كان فعل الأمر هو الأرضية الخصبة التي نمت من خلالها تلك المفارقة، وذلك في (اعبدوا، قوموا، اعيدوها، خالطوا، اجعلوا، احفظوها، دكوا، أربقوا، اسجدوا)، وقد سلب القاسم هذه الأفعال دلالتها الأمر، وشحنها بدلالة النهي، ومن هنا اكتسبت تلك الدعوة قوتها، لوقف كل الممارسات القسرية بحق الشعب الفلسطيني.

جاءت الصور الجزئية لتؤكد جرائم المحتل بحق هذا الشعب، ومن خلالها ظهرت صورة واشنطن، ولعل هذه الصور تحفز المتلقي على رفض هذا الواقع المأساوي والعمل على تغييره. تواصل القاسم مع الموروث الديني المسيحي من خلال توظيفه لفظ (هللوييا) المنشور في ثانيا الكتاب المقدس، وذلك ليؤكد أن دعوته لا بد أن يُسمع إليها، ولا بد أن تجد قبولاً من قبل بعض الساسة الإسرائيليين.

ولعل الشاعر من خلال هذه الدعوة يؤكد الصورة القبيحة للكيان الصهيوني، ويشير إلى جرائمه المرتكبة في الأرض المحتلة، وكأن القاسم في هذه الدعوة التي يطلقها يدين كل من العدو الصهيوني وأمريكا، الوجهان المعادلان للحرمة.

هذه هي واشنطن كما راها القاسم.

## باريس المدينة العمياء

جاءت هذه المدينة في شعر القاسم تحمل وجهين متناقضين، جاء الوجه الأول من خلال السلطة الحاكمة، فبذت باريس مرادفا للاستعمار، وبهذا ظهر وجهها السلبي، المضطهد للشعوب.

وقد ظهر الوجه الآخر لها من خلال العنصر الإنساني فيها، فبذت باريس ذات وجه إيجابي مشرق، من خلال تلك الدعوات المناهضة لسياساتها، التي نادى بها أنصارها من الأدباء والمفكرين.

كثف الشاعر وجه باريس السلطة الحاكمة، لأنه هو الوجه المسيطر عليها، ومن خلاله حفز المتلقي على اتخاذ موقف منهض لها.

ربط القاسم بين هذه المدينة وسياسة العدو الصهيوني، فهما وجهان لسياسة واحدة، وهي سياسة إخضاع الشعوب المظهرة، ومن خلال دعوته إلى مقاومة باريس، يكون قد دعا إلى مقاومة ذلك المحتل، وقد أظهر القاسم عدانيته لها، لأنها لم تحترم الإنسان والإنسانية.

وانطلق الشاعر من هذه المدينة لي طرح قضية أرقته، وهي خروج الفلسطيني من وطنه، فجاءت باريس تحمل معنى المنفى، وبدت مكاناً معادياً للشاعر، لأنها استلبت من الوطن فلسطين أبناءه، ومن خلالها أطلق القاسم دعوته بالتجنز في الوطن، وعدم الخروج منه مهما كانت قوة المعاناة.

باريس عمية، تمارس الظلم والاضطهاد بحق أبناء الشعب الجزائري المحتل، وهي ترتكب أفظع الجرائم وأقساها بحق الإنسانية، وفيها تنطلق الدعوات الرافضة لتلك السياسة التي تنتهجها بحق الشعوب المقهورة والمضطهدة، والقاسم يدين هذه السياسة في الوقت الذي يعلن فيه إعجابه بموقف جان بول سارتر

أطلقها .. تاراً .. في وجه الإعداء

أطلقها .. بكلمتك الحمراء

ما يكلم علي الدنيا باستيل

ما يكلمت قنباؤ .. وسيارط .. وكلاء

يا إنل فتجبل

في عتمة باريس العمياء

أطلقها .. من أعماق الإنسان

بكلمتك المغروسة في وهراق

في هافانا .. في هارلم .. في كل مكان

بكلمتك الموقرة الخضراء

أطلقها!<sup>(1)</sup>

ظهرت صورة باريس في هذا المقطع من خلال خطين متوازيين، جاء الخط الأول يعكس البعد السياسي لها، فبدت رمزاً للاستعمار والاضطهاد والتهمر الإنساني، وأصبحت مكاناً معادياً للشعوب المستعمرة، ومن خلال هذا البعد السياسي، ظهر وجه السلطة الحاكمة فيها، وبهذا لم يلق هذا المكان قبولا لدى الشعوب التي تحلم بالحرية وتأمل بالتحرر لأن هذا المكان سالب لهما، أما الخط الثاني فعكس الصورة المشرقة لها، من خلال أحد مفكريها وأدبائها وهو سارتر، الذي وقف ضد سياستها، وأصر على دعم الحرية ونضالات الشعوب المقهورة في فترة من حياته.

(1) سميج للقاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، 212، 213.

وبالرغم من أن حيز الصورة السلبية لباريس كان محدوداً، إلا أن قناتمة هذه الصورة انتشرت في أجزاء المقطع، وجاءت أكثر حضوراً وتأثيراً في نفس المثقلى من صورتها المشرقة، فستبها طغت على نورها، وذلك لما تحمله هذه المدينة من وجه قبيح يمثل الاستعمار. وقد جاءت الأرضية الممهدة لهذه الصورة السلبية مجموعة من الألفاظ (باستيل، قضبان، سباط، دماء، عممة، العمياء) تتابكت معاً وجاءت مشحونة بدلالات القهر والعذاب والاضطهاد والجرائم، وكل المعاني السلبية التي تقهر الإنسان وتقضي على إنسانيته ووجوده. وفق القاسم بالإشارة إلى معلم من معالم هذه المدينة ليكون مرآة لها، فجاء الباستيل ليشكل في المقطع بؤرة مركزية مفصلية هي بؤرة سلب الحرية.

وبرغم قناتمة صورة باريس، إلا أن الشاعر ومن خلال رؤيته التفاضلية، حث العنصر الإيجابي في هذا المقطع وهو الإنسان على التغلب على العنصر السلبى وهو المكان، لتتصير إرادة الإنسان على المكان المعادي للذات الإنسانية، التي تسعى نحو الحرية، ولهذا وظف القاسم التكرار الراسى والعمودي للفظ (أطلقها)، لكي تنتشر تلك الدعوة المناهضة لسياسة باريس الظالمة، ضد الشعوب المقهورة في ثنايا هذا المقطع، فتكون القوة المواجهة لتلك السياسة الظالمة.

ظهر الاتجاه الإنساني لدى القاسم واضحاً في هذا المقطع، من خلال دعوته إلى تحرير الإنسانية في كل مكان، وليس في حيز محدد بعينه، ومن اللافت للنظر أن الشاعر قد كثف اللون ودلالته في هذا المقطع، لأنه أكثر إيحاءً وقدرة على التأثير في نفس المثقلى "أغنى معنى وظلاً من التعبير السردى المباشر"<sup>(1)</sup>، فجاءت الكلمة (الحرراء) لتشي بدور الثورة في الوقوف في وجه القوة المستعمرة، (ودماء) لتؤكد الجرائم المرتكبة بحق أبناء الشعوب المضطهدة، والتضحيات التي يبذلها هؤلاء الأبناء للحفاظ على كيانهم، واستقلالية بلادهم، و(كسكك المورقة الخضراء) لتؤكد تأثير تلك الدعوة، ليس في نفوس الشعوب المقهورة حسب، وإتفا في نفس السلطة الحاكمة المستعمرة أيضاً.

ولعل الظلمة المسيطرة على المقطع بظلمة باريس وانهاكاتها لحقوق الشعوب، جعل القاسم يستخدم عبارة (يا أنيل قنيل)، فالتقطع بحاجة ماسة إلى ذلك التور، الذي سيدد ظلام هذا الاستعمار.

وفق الشاعر في ثعت باريس بالعمياء، يؤكد أنها سائرة في غيها، غير مستحبة لتلك النداءات الداعية إلى وقف سياستها الجائرة بحق الشعوب المضطهدة.

(1) سامين عساف، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، 133.

باريس من المدن التي لجأ إليها الشاعر الفلسطيني محمود درويش، وأقام فيها فترة من الزمن، ولكنه ظل يحمل وطنه في داخله، وهذه المدينة تمارس القمع والاضطهاد بحق الفلسطينيين المقيمين فيها، وانقسم يدعو الشعب الفلسطيني إلى التجنر في الوطن، وعدم الإقامة خارجه.

لباريس وجهاً

وجهه لحيفاً

ونحن شقيقاؤ

قماً وأسفاً<sup>(١)</sup>

تظهر باريس هنا المدينة المعادية للإنسان الفلسطيني بالرغم من إقامته فيها، وتأتي وجهاً من وجوه المنفى، وهي تشكل امتداداً لمياسة العدو الصهيوني في الأرض المحتلة، فباريس ما هي إلا وجه من وجوه العدو الصهيوني، وهذا الطرح الذي جاء به القاسم يؤكد وعيه، فمهما اختلفت جنسية الدولة الاستعمارية إلا أن سياستها واحدة، وهي قهر الذات الإنسانية المطالبة بحريتها واستقلاليتها.

ويؤكد القاسم من خلال هذا المقطع أن الآلام في الوطن يمكن أن يحتملها الإنسان الفلسطيني، أما آلام المنفى والغربة، فتشكل نقلاً أكبر على الإنسان، يصعب عليه تحملها، لذا لا بد من تحمل المعاناة في الوطن، لأنها أول خطوة في الصمود، وتحديد المحتل، وستتبعها الخطوات الإيجابية الأخرى، أما اللجوء إلى المنفى فهو خطوة سلبية، لا يحق للإنسان الفلسطيني أن يقدم عليها، لأنه سيخسر من خلالها الوطن، هكذا رأى القاسم باريس.

## لندن الجرائم ضد الحرية

لم تحتل لندن مساحة واسعة في شعر القاسم، وذلك لأنه أفاض في الحديث عن بريطانيا، فجل القضايا التي أراد أن يطرحها عنها جاءت من خلال حديثه عن بريطانيا، لهذا لم تشكل هذه المدينة في شعره سوى حيز محدود جداً، إلا أنه قد استطاع من خلاله أن يعكس صورة مكثفة عنها، فبدا وجهها السياسي الكئيب من خلال جرائمها المقترفة بحق الإنسان والشعوب، وقد ركز القاسم على دورها الاستعماري وأمثانها لكرامة الإنسان، وتقييد حريته، وبهذا ظهرت صورتها منفردة، لدى كل إنسان يسعى نحو الحرية، ويكره الطغيان.

(١) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 43/2.

وتحدث القاسم عن تقدمها الصناعي، في إشارة منه للتأكيد على وجهها الإجرامي، فهي لم توظف هذا التقدم لصالح البشرية، وإنما لاستعمار الشعوب، لذا جاء وجهها الصناعي يدعم وجهها السياسي.

لندن هي الأرضية التي انطلق منها القاسم للحديث عن قضية صديقه الشاعر محمود درويش، واغترابه في أماكن متعددة بعيداً عن الوطن، ومن هذه الأماكن كانت لندن ذات الوجه المعادي للشعب الفلسطيني.

أبدى الشاعر مشاعر الكره والغضب الشديدين تجاهها، وذلك لأنها مارست الإرهاب بحق الشعب الفلسطيني، وكانت السبب في ضياع وطنه، وفي الوقت نفسه اتهمت القاسم بالإرهاب، وسجنته نتيجة شعره الذي ادعت أنه يحرض على الإرهاب<sup>(1)</sup>.

لندن مدينة الضباب، أقامت صرح تقدمها الصناعي على جثث القتلى، واستباحة الشعوب المتهورة، وارتكاب الجرائم الوحشية بحق الإنسانية، عبر تاريخها الطويل غير المشرف، والقاسم يدين تلك السياسة الاستعمارية لبريطانيا.

يطلي:

على بقع الزيت والطحلب النتر

في التيمز

يطفو الضباب

لهبات المصانع والأعم المستباحة

يطفو السناج الملوّث بالدم والجرخات القلبية

في التيمز

فجراً

قبيل قطار الضواحي

على يقع الدمج والشحم تطفو جُراع

تجف الصفاير من برج "بيج بن"

ويطفو على الماء وجه

يميل مع الموج شيئاً قسيتاً

يعالج منسّر ستوكلي مفاتيح بلكانه الأثري

(1) محادثة هاتفية مع الشاعر سميح القاسم بتاريخ 2006/01/19.

## وعاملة تستريح قليلاً

....

تطفو على السطح

في التيمز

جثة مقترب أسير

ثقوب الرصاص يمر بها السمك الميت<sup>(1)</sup>

حضرت لندن في هذا المقطع من خلال أبرز معلم من معالمها وهو ساحة (Big Ben)، وقد تمدنت هذه المدينة واتسعت حدودها الجغرافية لتصبح بريطانيا، وقد بدت في صورة معادية للذات الإنسانية، وذلك من خلال بعديها السياسي والحضاري، فظهر وجهها الاستعماري المنتهك لحرية الشعوب وكرامتها، وبدت قاتلة للإنسانية، وقد نفر القاسم من هذا الوجه وركز على بشاعته، ولعل ذلك يعود إلى موقفه العدائي من هذه المدينة/ بريطانيا، فهي المدينة التي مارست بحق شعبه أسوأ كارثة، وهي التي ضيعت وطنه، وقدمته لقمة سائغة للمحتل الصهيوني، وبهذا يكون شعوره العدائي نتيجة موقفه الوطني.

وقد جاء وجهها السياسي مسيطراً على وجهها الحضاري، فظهر تقدمها الصناعي مادياً قاتلاً لروح الإنسان، لأنه بني على قاعدة الاستعمار، وقد ازداد هذا التقدم بازدياد جثث السحقين، فناء هذا الصرح الصناعي مطلقاً بدم الإنسانية، لهذا أدان القاسم هذا التقدم ورفضه، ولكن هذا لا يعني أنه أدان كل تقدم صناعي أو اتخذ منه موقفاً عدائياً، وإنما يعني أن الشاعر ضد التقدم الحضاري، الذي يبنى على استعمار الشعوب، واستغلال خيراتها، وسحق كرامتها ووجودها، وهذا ما فعلته لندن/ بريطانيا.

وظف القاسم في هذا المقطع مظهراً من مظاهر الطبيعة، وهو نهر التيمز، وقد جاء يعكس وجه المدينة المحمل بأنامها وشروها وجرائمها، فتحول مصدر الخير والعطاء والحياة التي يشكلها النهر، إلى مصدر للقتل، لوجوده في هذا المكان، 'فالمكان وشيأواه يملك القفرة على أن يعكس ذات صاحبه'<sup>(2)</sup>، وبهذا اندغم النهر مع المدينة، وأصبحاً وجهاً واحداً وهو وجه السلطة القاتلة، وقد وفق الشاعر في سلب هذا النهر دلالاته الإيجابية، وإكسابه الدلالة السلبية لتكثيف الصورة الفنيحة لهذه المدينة.

استعان الشاعر بعدد من الصور الجزئية الواقعية التي خاطبت مختلف الحواس، وقد تداخلت معاً لإعطاء لوحة كئيبة عن لندن، وذلك ليكثف إحساس التفور لدى المتلقي منها، ويظهر

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3/ 283.

(2) مها حنين يوسف عوض، شمس المكان في الرواية الفلسطينية (1948-1988)، 41، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1991.

الوجه الحقيقي الإجرامي لها، ولعل توظيفه شخصية (مستر ستوكلي) أكدت تلك الواقعة في هذا المشهد الذي رسمه.

وفق القاسم في سلب أهل المدينة ومن يقيم فيها المشاعر الإنسانية، فجعلهم يرون ذلك المشهد الإجرامي تون إبداء أي ردة فعل، بل استمروا في أفعالهم، وكأن هذا المشهد من الواقع المألوف في حياتهم، وهذا يؤكد أن المكان بقسوته وإجرامه، قد صيغ الإنسان بعلامحه، فأصبح الإنسان مرآة للمكان يعكس قسوته وجرائمه.

لندن إحدى المدن التي أقام فيها الشاعر الفلسطيني محمود درويش فترة من الزمن، وفيها لم تفرق درويش صورة الوطن، فهو مغم بحبه والخوف عليه، والشاعر يخاف على صديقه من هذه المدينة التي قد تغدر به، ويحفزه على العودة إلى الوطن.

لندن وجهها  
وجهه لحيها  
وشعر رقيقا  
جبا وخوقا<sup>(1)</sup>

بنت لندن في هذا المقطع قاسية، فهي المنفى، وهي المدينة التي اغترب فيها درويش عن وطنه، فبنت مكانا مرفوضا لدى القاسم.

وقد وظف الشاعر في هذا المقطع تكل على موقف لندن العدائي تجاه الفلسطينيين، وهي كلمة (خوفا)، فهي تنفي بتلك الجرائم التي اقترفتها لندن/ بريطانيا بحق الإنسان الفلسطيني، وبهذا تشكلت الصورة السلبية لها في نفس الشعب الفلسطيني، فهي المكان غير الآمن لهذا الإنسان.

وبرغم قلة أسطر هذا المقطع إلا أنه مكثف في دلالاته وإيحاءاته، وهذا يؤكد قدرة القاسم في توظيفه اللغة.

هذه هي لندن، الوجه المعادي للذات الإنسانية، القاضية على كل قيمة إيجابية، فهي معادل للاستعمار والاضطهاد والإجرام والقتل، ولم تستطع من خلال تقدمها الصناعي أن تمحو ذلك الوجه القاتل لها بل جاء هذا الوجه يؤكد وجهها الأثم.

## ديترويت التمييز العنصري



حضرت هذه المدينة في شعر القاسم في مساحة محدودة جداً، وقد جاءت لتعبر عن وجه أمريكا الاجتماعي والسياسي، فهي المدينة التي مارست التمييز العنصري ضد مواطنيها الزنوج، وهي التي ساقطت أبناءها إلى الحرب في فيتنام ليواجهوا مصيرهم المحتوم، وبهذه الصورة العدائية أظهر القاسم وجهها، ومن خلاله أذناها، وأظهر مشاعره العدائية تجاهها.

في مدينة ديترويت، يخضع المواطنون الزنوج لأقسى ألوان العذاب والتمييز العنصري والاضطهاد، ومنها يساقون إلى فيتنام للمشاركة في الحرب من أجل أن تحقق أمريكا مصالحها الخاصة، والقاسم يدين هذه المياسة القهريّة التي تمارسها أمريكا بحق مواطنيها الزنوج.

ومايك - يا حبيبتي ...

مخرج وراقص طروب

ومايك - رُنْجِي من الجنوب ..

أمس، أتى أخوه، في كتيبة جديدة

وقال إِنْ أَمَه

خلفها في الكوخ، في ديترويت

أرملة .. وحيدة

وقال إِنْ - أَمَه يا حبيبتي -

أباه .. مرقوه في مظاهرة!!

ويظل جاري مايك، ظل ساهماً خزين

كأنّ الصباح رائعا، في غابة الكمين

وبائسا حار النهار، بائسا

في غابة الكمين

حين رأيت مايك يهوي،

أحمر الجبين<sup>(1)</sup>

ظهرت ديترويت في هذا المقطع تمثل الوجه الحقيقي لأمريكا، وقد بدا وجهها سياسياً واجتماعياً كئيباً وسلبياً، فهي المدينة التي تمارس الظلم بحق أبنائها الزنوج، وتدخلهم في حرب ليس لهم شأن بها، وتهدر مشاعرهم الإنسانية، وقد وفق القاسم في جعل هذا المكان عدائياً

لأبنائه، ليس ضمن حدوده المكانية حسب، وإنما خارجه أيضاً، وذلك ليكون وجه هذه المدينة أشد قسوة، ولوقع أثره في نفس المتلقي، مما يحفز على رفضه واتخاذ موقف حاسم بشأنه.

وقد تغلغل القاسم إلى أعماق الذات الإنسانية، فرصد تلك العدائية المفرطة التي يشعر بها المواطن اللزجي تجاه مدينته، وقد شكلت قاعدة هذه العدائية هذه الصورة المعبرة (أنه مزقوء في مظاهره)، فمن خلالها ظهر وجهان متناقضان، الوجه الأول هو وجه المدينة من خلال السلطة الحاكمة، وقد عر عنه القاسم من خلال الضمير الواو في (مزقوء)، أما الوجه الآخر فهو وجه المدينة، وقد جاء من خلال تلك الشريحة الاجتماعية التي نفعت الثمن، وهي شريحة الزوج، وقد عبر عنها بلفظ (أباه)، وقد تغلب وجه السلطة الحاكمة على الوجه الآخر.

ومن اللافت للنظر، أن القاسم جعل جيل الآباء هم الذين عبروا عن عدائيتهم تجاه ديترويت/ أمريكا بطريقة إيجابية، أما جيل الأبناء فقد كانت عدائيتهم سلبية ساكنة، فهم قد اكتفوا بالحرز والألم فقط، ولم ينطلقوا ليمتدروا على ذلك الواقع الأليم، وقد وفق القاسم في جعل هؤلاء الأبناء يدفعون حياتهم ثمناً لسياسة هذه المدينة، وكان الشاعر يطالب هؤلاء الأبناء بأن تكون عدائيتهم كأبنائهم إيجابية، فيثورا على ذلك الواقع من أجل تغييره.

ولعل شاعرية القاسم كانت واضحة في ربطه بين هذه المدينة وصورة الأممية، وذلك ليحمل هذه المدينة الوجه الإجرامي بحق هذه الفئة المظلومة، وبهذا الربط يظهر القاسم موقفه العدائي تجاهها، ويبيد تعاطفه مع أبنائها، فالشاعر يعلن "رفضه للحروب وبخاصة العدوانية منها، وسوق الشغب إليها وقوداً لأهداف ظالمة"<sup>(1)</sup>.

هذه هي مدينة ديترويت في شعر القاسم، جاءت تحمل التمييز العنصري لأبنائها، وجاءت تحمل مشاعر القاسم العدائية تجاهها.

## لاهاي المقررات غير الفاعلة

لم يأت القاسم بهذه المدينة إلا للحديث عن محكمة العدل الدولية، وبهذا ثلاثت لاهاي فسي شعر القاسم لتظهر محكمتها، وقد أظهر الشاعر الصورة السلبية لها، فهي عاجزة عن اتخاذ أي قرار إيجابي بحق الشعب الفلسطيني لأنها خاضعة للقوى الطاغية، مستسلمة لها، وبهذا فقدت دورها الذي ادعته لنفسها، وبنت تابعة للقوى المهيمنة.

عرض القاسم من خلال لاهاي قضية خاصة بالشعب الفلسطيني، وهي قضية اللجوء عن الوطن، ولم يربط الشاعر بين هذه المدينة/ المحكمة وقضية اللاجئين الفلسطينيين، إلا ليؤكد أن هذه

(1) عبد الباق عراقي، صورة التهديد في شعر الفلسطيني المعاصر، 438.

المحكمة ليس لها وجود، وعلى الشعب الفلسطيني أن يحل قضاياها بنفسه، وألا يدع الآخرين يتحكمون بمصيره.

وقد أظهر الشاعر إحساسه تجاه هذه المحكمة، فهو غير مبال بوجودها، ويراهم حيزاً مكانياً لا قدرة له ولا فاعلية.

مدينة لاهاي غير قادرة على الوقوف في وجه الكيان الصهيوني، الذي يرتكب أفظع الجرائم بحق الإنسان الفلسطيني، ومحكمتها عاجزة عن اتخاذ أي قرار فعلي، يدين تلك السياسة القمعية للمحتل الصهيوني، في الأرض العربية المحتلة، والقاسم يسخر من هذه المحكمة، لعدم قدرتها على الوقوف أمام القوى الطاغية.

يشعل القاتل الشهم سيجارة الكنت- فاخرة كنخ سايز

ينفث الحقة في وجه محكمة العدل

(لاهاي مشغولة بزهور الربيع الجيدة<sup>(1)</sup>)

حملت هذه المدينة وجه محكمة العدل الدولية، فبذت في هذا المقطع ضعيفة مستسلمة، ذات موقف انهزامي تجاه الشعب الفلسطيني والشعوب المضطهدة الأخرى، وبذت متخلية عن الدور المنوط بها أمام تحكم القوى المسيطرة، وبهذا فقدت وجودها، وسلبت مصداقيتها.

ولعل القاسم من خلال إظهاره الصورة الحقيقية لها، يحفز أبناء الشعب الفلسطيني على أن يتخذوا قرارهم بأنفسهم، دون اللجوء إلى ذلك الكيان الوهمي الذي لم يأخذ، ولن يأخذ أي قرار إيجابي يساند فيه الشعب الفلسطيني في مجابهته للمحتل الصهيوني.

وقد ربط الشاعر بين هذه المحكمة والمحتل الصهيوني ليظهر وجهه القبيح وسياسته المتبجحة تحاها، فهو يتحداها، ويصر على مواصلة جرائمه، وبهذا يعكس القاسم رؤية الكيان الصهيوني، فهو لا يشعر بوجود أي قوة يمكن أن تكف في وجهه، وتثنيه عن مواصلة جرائمه.

وفق الشاعر في التفاظ صورة تؤكد سخريته من هذه المدينة/ المحكمة من خلال عبارة (لاهاي مشغولة بزهور الربيع الجديد) فهذه الصورة تضي بقافة هذه المحكمة، وعدم مباليتها بالقضايا المصيرية، وعدم فاعلية قراراتها في حالة اتخاذها.

وعلى سطح مدينة لاهاي، استغاث اللاجئ الفلسطيني بتلك المحكمة لكي تعيده إلى دياره، ولكنها لم تستمع لنداءاته، التي ذهبت عبر الفضاء، وظل لاجئاً، والقسم يدين هذه المحكمة التي لم تتخذ قراراً إيجابياً بحق الإنسان الفلسطيني اللاجئ.

على سطح "لاهاي" ناجيت لم يسمعون ولم يفهموني ولم ..  
ترجلت. جاست خطاي الثقيلة سطح الكر  
ومارس جسمي جميع طقوس المجاعة والمجزرة

---

وظلت دمانني على سطح لاهاي والكلمة القاتلة<sup>(1)</sup>

جاءت لاهاي ومحكمتها في هذا المقطع لي طرح القاسم من خلالها قضية سياسية مفصلية، تشكل أرقاً وألماً للشعب الفلسطيني، وهي قضية اللجوء، هذه القضية التي أفقدت الإنسان الفلسطيني حقه في وطنه وفي أرضه، وجعلته منغياً بلا امتداد ولا جذور، وقد أظهر القاسم الوجه القبيح لهذه المدينة، من خلال سلبية محكمتها.

والقاسم عندما حمل هذه المدينة مصير اللاجئين الفلسطينيين من خلال عبارة (وظلت دمانني على سطح لاهاي والكلمة القاتلة) لم يكن يطلب حلاً منها، بل يعري موقف تلك المحكمة غير الأبوية بأي قضية إنسانية، وخاصة إن كانت تلك القضية مرتبطة بشعب فلسطين.

هذه هي لاهاي التي لن يأمل القاسم بأن تتخذ في يوم ما قراراً إيجابياً بحق الإنسان الفلسطيني لأنها فاقدة لتلك القدرة.

(1) سميح القاسم، الاصل الشعري الكاملة، ج 4 / 20، 21.

## الفصل الرابع

### المدينة التاريخية في شعر سميم القاسم، إحياءات ورموز

- أروك الجذور الممتدة
- بابل الدمار والقهر
- طبقة الشموخ والتحمدي
- سدوم وعمورة الطغيان المتجدد
- مكة المجد والعزة
- روما الأرض الخالدة
- المدينة المنورة الأمل بالتحور
- إرم الوطن داخل الوطن
- شجراز الماضي المجيد
- قرطبة جدة العرب الحزينة
- طليطلة الاتعاط بالماضي
- قشتالة الامتداد الحضاري

## أوروكة<sup>(\*)</sup> الجذور الممتدة

جاءت هذه المدينة في شعر القاسم، لتعبر عن واقع المدينة العراقية، وبدت ذات صورة إيجابية مشرقة، من خلال تفاعلها مع أبنائها، وحثها إياهم على الوقوف إلى جانبها في محتها، ومحاولة تخليصها من آلامها وأحزانها.

ولعل القاسم قد استحضّر هذه المدينة التاريخية، ليؤكد أن العراق ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وإن تستطيع أي قوة مهما عظمت، أن تمحو ذلك المكان عن الخريطة.

مدينة أوروكة، قلقة، حزينة، على أبنائها الذين غادروها، وتنتظر عودتهم بفارغ الصبر، ليحققوا لها مجدها، ويعيدوا إليها حضارتها، والقاسم حزين على واقع هذه المدينة، ويأمل خلاصها من آلامها.

وتطل من أسوارها "أوروكة"

لأثبة على قلق الجهات

أيضود من كهف الغيوب؟

متى يعود؟

تقاظت "جلجامش" الصبوات

واحتشجت عليه قيامة الموتى

وتجربة السبات

أيضود؟ كيف؟ متى؟ وأين؟

إلا سبيل إلى النجاة؟<sup>(1)</sup>

تحتضّر هذه المدينة لتكون رمزاً للمدينة العراقية التي تُشهد واقعاً انهزامياً، وتخضع لظروف سياسية واجتماعية قاهرة، وهي تضع كل ثقتها في أبنائها، منتظرة منهم، المزيد من التضحيات لأجلها.

(\*) أوروكة، المدينة السومرية الشهيرة التي حافظت على سمها في العهد العربي - الإسلامي بينة الأوركا، (لورقاء)، وتقع بقاياها الآن على نحو 220 كم جنوب شرقي بغداد، صلاح عداية وآخرون، حضارات عالمية، الهامش، 57.

(1) سمح القاسم، سلخوخ من صورتي ذات يوم، (إفصاف)، 196، 197.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، من خلال توظيفه أسطورة جلجامش<sup>(\*)</sup>، وقد جاءت هذه الشخصية معادلاً موضوعياً للمواطن العراقي، الذي سيمسى من أجل تغيير واقع مدينته، بكل ما لديه من قوة، متحملاً كل الآلام التي سيواجهها، وقد وفق القاسم في اختيار هذه الشخصية، فمن خلالها أكد مكانة الوطن في نظر الإنسان العراقي، وسر تميزه لديه، فهو من أجله ولأجله سيجتاز كل مراحل العذاب.

كثف القاسم في هذا المقطع الأسئلة التي تنشي بذلالة التمني، ليؤكد قلق المواطن العربي على مصير هذا الوطن، ولإظهار العلاقة الحميمة بينه وبين أبناء الشعب العربي، فهم يحملون له أصدق المشاعر، ويتمنون خلاصه من واقعه المأساوي، لأنه جزء من الوطن العربي الذي ينتمون إليه.

اندغم صوت المدينة العراقية وصوت القاسم والمنلقي، لتصبح تلك الأسئلة على جميع الألسنة العربية، وبهذا يظهر الشعور القومي لدى القاسم واضحاً.

مدينة أوروك تغسل وجهها، وتبارك وجودها في نهري دجلة والفرات، وهي مؤمنة بعودة أبنائها، حاملين لها رايات الحرية والخلود، باعثن في أجوائها الخير والعطاء والأمان.

"أوروك" تغسل وجهها  
في ماء دجلة والفرات  
فجراً.  
وتهرع للقاء  
سبحه يوماً ما  
يوجد لجناتها المجهوم.  
سوقه يفرح من ترحاله  
"جلجامش" المسحور بالأسرار  
والمسكوك بالجنار.  
فجراً ما يعود  
بين الأياكل والإفاعي والأسود  
في كفه قلب الحياة  
فجراً

(\*) جلجامش: ملك أوروك، وكان من أقوى الملوك المومريين، وقد سافر في رحلة طويلة للحصول على الخلود. تمزج من المعلومات

وبين ضلوعه سر الخلود.

"أوروك" تغسل قلبها

في ماء بجلة والقرات...<sup>(1)</sup>

تبدو المدينة العراقية متفائلة بمستقبل مشرق يحمل لها المجد والخلود، وذلك بفضل التحام أبنائها معها، وتضحياتهم من أجلها.

ويبدو المقطع محملاً بدلالات التناؤل، التي تعكس الرؤيا التناؤلية للقاسم، بعد مشرق لهذه المدينة، فمن خلال لفظ (فجراً) أزال الشاعر الظلام عن هذه المدينة، واستشرف مستقبلها، وقد جاء عدد من الألفاظ ليدعم هذه الرؤيا التناؤلية، وخاصة لفظ (يعود) الذي كرر أكثر من مرة لتأكيد تلك العودة.

وقد جاءت الصور المشرقة لتخدم تلك الرؤيا وتثبتها في نفس المتلقي، ولعل القاسم قد قصد توظيف عبارة (وتهرع للفاة)، ليؤكد أن العراق عربي، وأن مسؤولية الدفاع عنه من واجب الأمة العربية جميعاً.

هذه هي أوروك القاسم، إيجابية رغم كل الظروف القاسية التي تخوضها، متفاعلة مع أبنائها، مؤمنة بهم، ومتفائلة بالمستقبل المشرق، الذي سيحمل لها الخلاص.

## بابل<sup>(2)</sup> الدمار والقهر

وظف القاسم مدينة بابل في شعره، من خلال جانبها السلي القاتم، فقد استحضّر فترة الدمار والخراب لهذه المدينة، وذلك لرصد واقع المدينة العربية المستباحة من قبل السلطة الحاكمة أو المستعمر.

وقد انطلق القاسم من خلال بابل لإدانة الأمة العربية، وتعرية مواقفها، لتحفيزها على رفض الواقع الأليم، والعمل على تغييره.

مدينة بابل تسطر عليها السلطة الحاكمة، وتمارس العنف والاضطهاد بحق شعبيها، الذي ليس له القدرة على الوقوف في وجه تلك السلطة، والقاسم متألم على واقع أبناء هذه المدينة.

(1) سميح القاسم، ملفرّج من هورثي ذات يوم، (قصائد)، 197، 198.

(2) قدمت على نهر الفرات، وقد نزلها الكلدانيون في الزمن الأول، وقامت فيها حضرة عظيمة، ويكتب فخرت مع الزمن. الطر

بقوت الحموي، معجم البلدان، ج 3/309



يا نمل بأبـل إـن في مـولايكمـو شـوقاً  
لأسرار السماء!  
فتكـدسوا قبل الصبـاح  
هـتـشيدون سبيل مـولايكمـو لأبواب السماء  
بيـعوا حلي زواجـتكم  
جزوا عـداً تـذهي تـجد لها حبالاً أو سياطاً  
أو مشانق للعصاة الأشقياء  
واستسلموا للريح إـن هـجـت عرائشكم  
وقـفـت الكروم الخضر...  
إـن الله يـرزقكم عـداً من عـنـده الخير الكثير!  
وإذا استباح السـداء ألافـاً من الأطفـال  
فاستلقوا على أعتاب بـرجكم العتيـب  
وعزـموا تـحمل نـساءكمـو تـوائـم ...  
إـن ربكمـو على كـل قـجير<sup>(1)</sup>

تأتي بابل رمزاً للمدينة العربية التي تعكس وجه السلطة الحاكمة، فتتأثر بالقرن السياسي والاجتماعي ضد شعبيها، وبهذا حملت وجه المدينة العربية المعاصرة، وجه المدينة التي تمتلئ فيها حرية أبنائها وتهدر حقوقهم.

لجأ القاسم في هذا المقطع إلى نبرة السخرية والتهكم، ليظهر ثورته وألمه على ذلك الواقع المهيّن، الذي يحياه الإنسان العربي، في هذه المدن، التي تسيطر عليها سلطة طاغية متجبرة. وتواصل القاسم من خلال عبارة (إن ربكمو على كل قدير) مع الموروث الديني الإسلامي، من خلال الإشارة إلى جزء من آية وردت في القرآن الكريم في مواضع متعددة، وهي «إن الله على كل شيء قدير»<sup>(2)</sup>، لتأكيد ذلك الواقع.

مدينة بابل، شهدت الدمار والتخراب، وتعرضت للغزو والقصص من قبل العدو، ولكن أحداً لم يأبه بها.

يا أيها الأحياء والأموهات  
هل لي بـيـنكمـو ماوي  
فإنني قادم للتو من أنقاض بابل

(1) سميت القاسم، الأعمال الشعرية المختارة، 204/1، 204.

(2) سورة البقرة، آية 20، 109، سورة النحل، 77.

يا أيها الأموات والأحياء  
هل لي عنكم زاد  
فإني عائداً لخراب بابل  
حجاً إلى القبر الجماعي الحبيب<sup>(1)</sup>

جاءت هذه المدينة من خلال دمار حضارتها، لتكون رمزاً لمدينة بيروت، المدينة المستهتقة من قبل العدو الصهيوني، للقضاء على الوجود الفلسطيني فيها.

ولعل الشاعر قد ربط بين هاتين المدينتين، ليؤكد المصير الذي ينتظر بيروت، إن لم يقف أحد إلى جانبها، ويساندّها، والقاسم من خلال هذه المدينة، أذان الأمة العربية، التي تركت تلك المدينة تجاه العدو الصهيوني وحدها.

وقد كثف القاسم في هذا المقطع الالفاظ الدالة على البعد التاريخي لبابل، وذلك من خلال عبارتي (أنقاض بابل، وخراب بابل)، فمن خالهما، يعود المتلقي إلى تلك المدينة، ويسحضر الدمار، ولكنه يجدّه أمراً واقعاً في دمار بيروت.

وفق القاسم في اختيار اللغة في هذا المقطع، ويتضح ذلك من خلال عبارتي (يا أيها الأحياء والأموات، يا أيها الأموات والأحياء)، فقد قدم (الأحياء) في العبارة الأولى، عندما كان لدى الفلسطيني الأمل في أن تقف الأمة العربية إلى جانبه في مدينة بيروت، وترد عنه العنوان، وقدم (الأموات) في العبارة الثانية، ليؤكد أن الطريق الوحيد أمام الفلسطيني هو الكفاح المسلح، لهذا فهو يستمد القوة من هؤلاء الشهداء، الذين سقطوا في المخيمات الفلسطينية في بيروت، فهؤلاء الأموات هم حقيقة الأحياء.

مدينة بابل، مطموح بها من قبل الغزاة، وقد استطاعوا أن يسيطروا عليها، ويحكموا بها في فترة ماء، ولكن هذا الخضموع لن يدوم، فلا بد أن تتحرر من تلك السيطرة.

في قديم الزمان  
ملك مستبد مخائلاً  
صاح في سكرة العنفوان  
"تلك صيغون في طرفه الجولجان"  
تلك مصر وبابل  
ثم جاز الزمان  
في هجير الزلازل

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م 2/ 467، 468.

## وانطوى في جسيم اللظى والجحافل

ملك من قديم الزمان<sup>(1)</sup>

حضرت بابل من خلال وجهها المشرق، وحضارتها العظيمة التي شادت في فترة من تاريخها، لتكون رمزاً للمدينة العربية المطمّوع بها من قبل المستعمر الغربي، وقد جاءت كل من صيغون<sup>(\*)</sup> ومصر، لتؤكد تلك الفكرة.

وقد وفق القاسم في اختيار هذه المدينة، ليعبر من خلالها عن وجهة نظر المستعمر تجاه المدينة العربية، فهو يراها المدينة التي ستحقق له العظمة والحضارة إن استولى عليها. والقاسم يمتلك الرؤيا الثاقولية، فهو لم ينه المقطع إلا بنهاية ذلك الملك/ المستعمر، وهذه النهاية هي البداية الحتمية لمستقبل المدينة العربية المشرق، المتحرر من قيود الاستعمار. امتدت مدينة بابل عبر التاريخ، لتحمل هموم المدينة العربية المعاصرة، وقضاياها الاجتماعية والسياسية.

## طبيعة<sup>(\*\*)</sup> الشموخ والتحدى

جاءت مدينة طيبة في شعر القاسم، لتعبر عن المدينة الفلسطينية التي تتعرض لوانع مرير، من قبل الاحتلال الصهيوني، وبرغم ذلك، فقد بنت ذات صورة إيجابية، وذلك من خلال تفاعل أبنائها معها، من أجل تخليصها من ألقها الأليم.

مدينة طيبة اقتحمها العدو بكل ما لديه من قوة ووحشية، في محاولة منه لتدميرها، والتضاء على أبنائها، ولكنها لم تستسلم، ولم تخضع لسياسته، فهي مؤمنة بأن أبنائها سيقفون إلى جانبها في محنتها، ويخلصونها من أعدائها، والقاسم مجرب بصمود أبناء هذه المدينة في وجه العدو.

## يوم شجوا باب طيبة

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2/ 397.

(\*) صيغون: جزيرة في البحر الميت، وكان صيغون مكاناً عليها، وكان صيغون عذائب ومصانع كثيرة، أنظر العمري، الروض المعطار في خبر الأقطار، 373.

(\*\*) طيبة: هي عاصمة يوتراء، وكانت أشهر المدن في الأساطير اليونانية، ويسمى تأسيسها إلى الشعب الأسطوري قديموس، وتسمى سميت قلعها باسمه. وقد جدد لسوارها الأحرار زيتون وألفيون، ويقال إن طيبة هي مسقط رأس ديونيزوس وهرقل، وقد أصبحت فيما بعد مسرحاً لحربين كبيرتين هما حرب الرؤساء السبعة ضد طيبة وحرب الألبهوبين، وهي في الأساس التوابنة مقر سلسلة من الملوك الذين قسوا عليهم الذعر بأحكامهم، مثل لاللاكوس ولابوس وأوديب وأيتيوكليس وتوليبس، سيبل عثمان وعبد الرزاق الأصغر، معجم الأساطير اليونانية والرومانية، 213.

عمرت قلبي قلوب الإلهه  
وعلى أهداب أحبابي النيام  
والشفاه الوالهه  
فتجت لي بابها السري طيبه  
فلتقم قائمة الريح الغربية  
ولتمارس موتها الريح الغربية  
موتها القاجم من تمثال أصي  
عندما يفرز ورد الدمع.  
في عروقه لحمي! (1)

جاءت طيبة لتكون رمزا للفلسطين، الأمانة الوادعة التي استباحها العدو الصهيوني، في محاولة منه للقضاء على الوجود الفلسطيني فيها، وقد بدت في صورة مشرق، فهي المنبئة الشامخة، المتحدبة للاحتلال بأبنائها، وقد تغلغل هذا المكان في الذات الفلسطينية، فبدا متحركاً يحفز أبنائه على الدفاع عنه، لتخليصه من الامة، فكانت العلاقة الحميمة بينه وبين أبنائه، هي السباج الأمن الحامي لهذا المكان، من اختراق الأعداء الصهانية له.

وقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي، فوظف أسطورة نابوي (2) في هذا المقطع، ولكنه انعطف بالدلالة التراثية لهذه الأسطورة، قايّن نابوي الفلسطيني لم يمت، وتلك تؤكد أن الفلسطيني لن يهزم من قبل المحتل الصهيوني، لأنه صاحب الحق شرعي في هذه الأرض.

اتكأ القاسم على الرمز الشفاف الواضح في هذا المقطع، فرمز بالريح الغربية إلى العدو الصهيوني، وقد وفق في نعت الريح بالغربية، ليؤكد غربة هذا العدو عن الأرض الفلسطينية، وهذه الغربة تنقذه حقه في هذه الأرض، التي يدعي ملكيتها، وقد رمز بأصمى إلى الأرض الفلسطينية. هذا المكان الذي منح الفلسطيني القدرة على الصمود ومواجهة المحتل.

وظف الشاعر الانزياح الدلالي في عبارة (ورد الدمع)، ليؤكد أن أحزان الشعب الفلسطيني لن تنوم، وأن تضحياتهم ستكون لها نتيجة مثمرة وهي الحرية.

هذه هي طيبة لدى القاسم، بدت مشرقة من خلال دور أبنائها وتضحياتهم من أجلها.

(1) سمح القاسم الأعمال الشعرية الكاملة، ص 79/2.

(2) نابوي: هي بنت تامل وروحة أفعول منك طيبة، ولدت سبعة أولاد وسبعة بنات، وحين سمعت نابوي، ملكة طيبة، بمصر ع يذنها السبعة وبناتها السبع افتحمت وأغرست في الحبيب، حتى رضى لهاها زلمى كغير الآلهة ومحلها تمثالا من الصخر، تسع من عينيه الدموع.. انتظر سيل عثمان وبعد الدراق الأصفر، معهم الأسطير اليونانية والرومانية، 429، 430.

## سدوم وعمورة الطغيان المتجدد

جاءت هاتان المدينتان في شعر القاسم رمزاً للكيان الصهيوني وجرائمه المقترفة في الوطن المحتل، فقد أسقط القاسم انحرافات هاتين المدينتين الاجتماعية والأخلاقية على ذلك العدو، لتزداد صورته كآبة وقمامة وبطشاً، مما يحفز أبناء الشعب الفلسطيني/ العربي على رفض هذه الصورة، ومحاولة القضاء عليها والخلاص منها.

وقد ربط القاسم بين هاتين المدينتين والكيان الصهيوني، ليؤكد أن مصير المحتل هو الفناء والذوال، كما حدث لسدوم وعمورة، وهذا الربط يمنح الأمل لهذا الشعب، ويشعره بالقوة، ويحفزه على مواصلة الكفاح المسلح، ليحقق هذا المصير المحتوم.

سدوم وعمورة مدينتا الضلال والغواية، مارسا الأضطهاد والعنف والقسوة بحق الإنسان الفلسطيني، فقد شردته من أرضه للسيطرة عليها، وأبناء هاتين المدينتين يستمتعون بالجرائم الوحشية التي يرتكبوها ضد أبناء الشعب الفلسطيني، والقاسم يستنكر تلك الجرائم.

على 'سديم' سديم من غوايتها وفي "عمورة" عرس المساجر الإفسر  
خمسوق مجزرة خمسوق مقبرة من سيرة أقحمت بالنار في السير  
وقوم لوط سكارى خمرة عجمت من بؤيوي ومن قلي ومن شمري<sup>(1)</sup>

وفق القاسم في الربط بين هاتين المدينتين والكيان الصهيوني، فهو من خلال استكحاء هذين المكانين القديمين يجسد "واقع حاضري مرفوض سياسياً واجتماعياً وأخلاقياً"<sup>(2)</sup>. وقد تلاعب القاسم بالألفاظ من خلال الجناس الناقص في (سدوم وسديم)، وقد جاء به ليكنف معنى الغواية والضلال الذي يسود الكيان الصهيوني.

وهكذا بدت سدوم وعمورة في صورة سلبية قاتمة، حمل ملامحها القبيحة العدو الصهيوني، قادت صورته كصورة هاتين المدينتين.

## مكة المجد والعزة

ارتبطت هذه المدينة الدينية التاريخية في شعر القاسم بالواقع المعيش الذي تحياه الأمة العربية، فقد عكس الشاعر من خلالها واقع المدينة العربية المنهزمة، التي لم توفر الحماية

(1) سمح القاسم، المعتل وفصله آخرى، 12.

(2) قادة عدي، دالة المدينة في خطاب شعري العربي المعاصر، دراسة في إشكالية تنافلي الجمالي المكان، 265.

والأمان لأبنائها، وكأنه يدين هذه المدن، التي لم تستطع الوقوف، والصمود في وجه القوى الطاغية، المسيطرة على الوطن العربي.

جاءت هذه المدينة تحمل هموم الوطن الفلسطيني المسلوب من قبل الصهاينة، ولعل الشاعر قد ربط بين هذه المدينة المقدسة والأرض الفلسطينية، ليؤكد قدسية تلك الأرض، ومكانتها في نفوس الأمة العربية والإسلامية، مما يحفزها ويثيرها للدفاع عنها، واستعادتها من أيدي المعتصب الصهيوني.

وقد كثف القاسم الإشارات الدينية في حديثه عن هذه المدينة، فوظف حادثة الهجرة لتكون الخط الموازي لهجرة الفلسطيني إلى وطنه، وقد استحضّر المكان الذي ارتبط بالرسالة السماوية، وهو غار حراء، لينطلق من خلاله الفلسطيني إلى وطنه، حاملاً رسالة العودة المباركة إلى الديار.

مكة تخضع لسيطرة الأعداء الذين يعيشون فيها فساداً، والأمة العربية ستقف إلى جانبها في محنتها، وتخلصها من آلامها وأحزانها، وتحقق لها الحرية والأمن والاستقرار، والقاسم مؤمن بدور الأمة العربية الإيجابي تجاه هذه المدينة.

و "مكة"

تصبح تحت رحمة الغزاه

لكن جيشاً لجبا

يقبل من تيماء

براية حمرأ

يشهر "سيّد الله"

ويقفز الغزاه

وتخضب الصحراء<sup>(1)</sup>.

تختفي دلالة مكة -المدينة- لتظهر الأرض الفلسطينية، وقد كان القاسم واعياً عندما جعل المدينة التاريخية تيماء/ المدينة العربية هي المنقذ والمحرر لمكة/ فلسطين من آلامها، وذلك ليكتف دلالة الماضي في المقطع من ناحية، ول يؤكد أن عبء تحرير الوطن فلسطين مسؤولية كل إنسان عربي.

تواصل القاسم مع الموروث التاريخي، عن طريق توظيفه لقب "سيّد الله" ليشير به إلى بطل من أبطال المسلمين، الذي كان له دور رائد في تحقيق العزة والمجد للأمة الإسلامية، ألا

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 2، 336، 337.

وهو خالد بن الوليد، ولعل الشاعر قد استحضر هذه الشخصية، لذكر الأمة العربية بذلك الدور المثقلى على عاتقها تجاه فلسطين، فهو يريدنا أن تتمثل بتلك الشخصية في مواقفها الحاسمة والشجاعة.

وظف القاسم اللون في هذا المقطع لما له من دلالة وتأثير في نفس المثقلى، فجاءت كلمة (حمره) تعكس دلالة إيجابية، فهي تشير إلى التضحيات التي سيقدّمها أبناء الشعب العربي من أجل استعادة الوطن فلسطين من أيدي الأعداء الصهاينة، وهي تعكس أيضاً موقف الأمة العربية التي تؤمن بأن الكفاح المسلح، هو الطريق الوحيد لاستعادة ذلك الوطن.

أما كلمة (الصحراء) فقد فقدت دلالتها السلبية، وهي القفر والجذب، واكتسبت دلالة إيجابية من خلال لفظ (وتخصب) لتؤكد أن الأرض العربية ستشرق فيها شمس الحرية، بفعل تحرير الوطن فلسطين.

وقد جاءت الصورة (الحركية والبصرية واللونية) في هذا المقطع، لتدعم رؤية القاسم وتجعلها حقيقة واقعة، مما جعل هذه الرؤيا قادرة على إثارة أحاسيس المثقلى، وتيقنه بالنصر والتحرر.

مكة لم تعد المكان الذي يشعر فيه الإنسان العربي بالآمان، ولم يعد يلجأ إليه، للاحتساء به في لحظات ضعفه.

فلا مكة مكّتي

ولا جلق قبلي

ولا غرسى القاهرة<sup>(1)</sup>

جاءت المدن التاريخية في هذا المقطع لتؤكد الواقع المرير الذي تحياه المدينة العربية المعاصرة، فقد أصبحت تشكل انهماكاً آخر للإنسان العربي، ولذا بدت في صورة سلبية قائمة، مما جعل القاسم/ المواطن العربي يرفضها، وينادي واقعها في محاولة منه لإثارتها، وتذكيرها بدورها الذي يجب أن تنهض به تجاه أبنائها من ناحية، وتجاه أبناء الشعب الفلسطيني من ناحية أخرى.

مكة هي المكان الذي نطلق منه الإنسان العربي المسلم، ليحقق أمجاده وعزته، ويؤكد دوره في تغيير الواقع الرديء، الذي كانت تحياه البشرية، وهذا المكان قد بعث الإنسان العربي

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 133.

من جديد، وألقى على عاتقه عبء رسالة تغيير العقائد التي كان يتمسك بها، والقاسم معجب بدور هذه المدينة الإيجابي في تغيير حياة البشرية.

قروناً يا أبي تاجرت بالإطياب والخز  
قروناً يا أبي غامرت حتى عدت بالكنز

عرفت الله في حراء

مجمعت اللآلئ في مكة

وجبت الأرض تخصيبها .. من الصجر<sup>(1)</sup>

انطلق القاسم من حدود الزمان والمكان، ليلتقي بهذه المدينة التاريخية، ذات المكانة الدينية الهامة في نفوس الأمة الإسلامية، فهي بؤرة الرسالة السماوية التي حملها سيد المرسلين محمد (ﷺ)، وهي المكان الذي قلب المفاهيم، وأسند للإنسان العربي المسلم، الدور الإيجابي الفاعل، في بعث وتحقيق الحضارة الإسلامية في العالم.

وقد حضرت مكة لتكون الأرضية الممهدة لبث الثقة في نفوس الأمة العربية، وقد بدت نقطة التوازن في مسيرة حياة الإنسان العربي، وكأن القاسم من خلالها يحفز المواطن العربي على استعادة ذلك الدور الإيجابي، ليخرج من واقعه الأليم الذي يحياه، واقع الضعف والهزائم المتكررة.

حضرت هذه المدينة من خلال (غار حراء)، وقد كان القاسم واعياً باستحضاره هذا المكان، الذي يهتز له ضمير الإنسان العربي، ليؤكد ميلاد الشعب العربي من جديد، وقدرته على السجدة والصمود، أمام كل القوى التي تسعى إلى القضاء عليه. ولعل مكة في هذا المقطع تشير إلى الأرض العربية التي تخوض الثورات، وتشهد حركات التمرد، وترفض الخنوع والإذعان للقوى الطاغية والسلطة الوهمية.

ركز القاسم في هذا المقطع على لفظ (أبي) الذي رمز به إلى التاريخ والتراث<sup>(2)</sup>، والامتداد الحضاري، وذلك ليؤكد أن الإنسان العربي له مجد خالد، وتراث ممتد عبر الأجيال، ولا يمكن لأحد أن ينتزعه منه إذا هو حافظ عليه، فهذا المقطع دعوة موجهة من القاسم للأجيال العربية، لتنهض بعبء الحفاظ على الهوية العربية والحضارة الإسلامية.

(1) صبح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/ 326.

(2) انظر صبح القاسم، عن الموقف والفن، جيلاني وفهمي وشعري، 57.



ومن مدينة مكة، ومن غار حراء، سيبعث الإنسان الفلسطيني الذي تكبد آلام الغربة واللجوء، ليحرر وطنه، ويرسم مستقبله المشرق بنفسه، والقاسم مؤمن بعودة الفلسطيني اللاجئ إلى وطنه.

أبصره يبصره في "حراء"

لا بيت عنكبوت

لا حمامه

أبصره

يخرج صرعى الأرض والفضاء

ممتلياً الآله

في كفله رايته الحمراء<sup>(1)</sup>

تخضر مكة في هذا المقطع من خلال بقعة من بقاعها وهي غار حراء، وهو بتركيزه على هذا المكان "إنما يستفيد من اهتزاز لا يزال صدها في أسماع الناس"<sup>(2)</sup>، ولا يزال أثره في أفئدتهم، وقد جاء القاسم بهذه البقعة التاريخية المقدسة، التي شهدت نزول الوحي على سيدنا محمد (ﷺ) لتكون عودة الفلسطيني اللاجئ إلى وطنه مقدسة، ول يؤكد أن هذه العودة ستحقق نتائجها المثمرة، وهي تحرير الوطن من أعدائه.

تواصل القاسم مع الموروث الديني الإسلامي من خلال توظيفه بعض الإشارات في حادثة هجرة الرسول محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة، وهذه الإشارات (بيت عنكبوت وحمامة)، ولكنه انعطفت بدلالاتها التراثية من خلال حرف النفي (لا)، ليؤكد أن الفلسطيني اللاجئ المسرد عن وطنه، لم يجد الحماية والأمن من الدول العربية، وأنه قد تُرك وحيداً في مجابهته للعدو الصهيوني، وفي هجرته من وطنه، وكان الشاعر من خلال هذا الانعطاف، يلوم الأمة العربية على موقفها السلبي من قضية اللجوء الفلسطيني، ويؤكد أن الحل الوحيد بيد الفلسطيني، وذلك من خلال عودته إلى الوطن، ومجاهته للمحتل.

كان القاسم واعياً عندما جعل الإنسان الفلسطيني بمنزلة النبي ليس في هجرته من بلده، بل في هجرته إلى بلده.

(1) سمح القاسم الأعمى الشعرية للشاعرة، 338/2.

(2) ديز أدبية، جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، 184.

جاءت ثنائية المتخفّض (الأرض) والعالّي (الفضاء) لتؤكد نقطة الإيمان الفلسطيني ورفضه اللجوء والاستمرار فيه، لذلك فقد اتخذ الموقف السليم، وهو إثبات الوجود على أرضه، ليتمكن من إثبات وجوده في كل مكان.

هذه هي المدينة المقدسة التي لم تأت لتعبر عن نفسها، وإنما جاءت لتشي بواقع الأمة العربية، وقد حملت قضايها المعاصرة، وحاولت أن تربط بين الماضي المجيد للأمة الإسلامية بحاضر مرير، فقدت فيه تلك الأمة وجودها، عليها تستيقظ من سباتها، وتعيد مجدها السابق.

## روما الأرض الخالدة

اختفت الدلالة المكانية لهذه المدينة في شعر القاسم، فلم تعد تشكّل المدينة التاريخية ذات الحدود الجغرافية على خريطة العالم القديم، وإنما جاءت رمزاً للأرض الفلسطينية الباقية الخالدة، رغم كل محاولات المحتل الصهيوني لطمس هويتها المحلية، والقضاء على الوجود العربي فيها.

روما تسيطر عليها القوى الطاغية المستبدة التي تكتم الأقواء، وتقضي على الحريات، وفيها يتعرض الإنسان صاحب الفكر والرأي، لأقصى ألوان العذاب والتكدير.

أيها الرب .. فكّر ما شئت .. واجزم وتحكم!

بكامة الإيمان في روما جريمته!

آه يا صيرج أوزوريس .. في مصر القجيمة<sup>(1)</sup>

تأتي روما في هذا المقطع لتكون المعادل الموضوعي للوطن الفلسطيني المستباح من قبل المحتل الصهيوني، الخاضع لسياسة التمييز والتعذيب.

وقد دعم القاسم الجرائم التي يتعرض لها الفلسطيني في وطنه المحتل، من خلال تواصله مع الموروث الشعبي، فوظف أسطورة أوزوريس<sup>(2)</sup> ليؤكد ذلك العذاب الذي يتعرض له أوزوريس الفلسطيني من قبل المحتل الصهيوني.

(1) سمح القاسم الأعمال الشعرية الكاملة، ج 1 / 290

(\*) أوزوريس: ولد في طيبة في مصر العليا، صار ضحية مؤامرة دبرها أخوه سيت الذي اغتله قوه لخنه، وسقط أوزوريس صريعاً تحت ضربات المفاتيح. وتضرع زوجته المنحلسة على حكمه وتملأها إلى مصر، وسمح بإعادة العودة إلى حنة زوجها الميت وتمثل أسطورة أوزوريس الموت والعودة إلى الحياة دون انقطاع. انظر نطفي الخوري، معجم الأساطير، ج 1 / 82، 83.

روما تتعرض للاضطهاد والظلم على يد نيرون، ويخضع أبنائها لهجمة قاسية وشرسة، ويرغم ما تنكبه من آلام وأحزان إلا أنها ستظل خالدة في نفوس أبنائها، فهم ممتنون لها، ويؤمنون بحتمية انتصارها على حاكمها، والقاسم يؤكد انتصار إرادة الحياة، واستمرارية وجود الشعب الفلسطيني على أرضه، وانحدار قوى الاحتلال الصهيوني.

- روما احترقت يا مجنون!

روما أبقي من نيرون!

- روما لن تفهم أشجارك

روما تحفظها عن غيب

- روما ستقطع أوتارك

الحاني تصعد من قلبي<sup>(1)</sup>

وتحتل روما خصوصية الاستخدام الدلالي عند سمح القاسم، في محاولة للاحتيال على مقص الرقيب الصهيوني، ولتصبح روما دلالة إيجابية للوطن كله، ودالة على التجدد والاستمرار في الحياة<sup>(2)</sup>.

فروما ما هي إلا فلسطين التي جبلت في قلوب أبنائها، وتشكلت في ملامحهم، وحملوها في قلوبهم، لذا ستبقى خالدة في نفوسهم.

وظف القاسم في هذا المقطع معادلة غير متوازنة الأطراف، جعل طرفها الأول روما/ الأرض الفلسطينية، أما الطرف الآخر فهو نيرون/ لمحتل الصهيوني، وقد قصد الشاعر إلى اختلال مقياس الموازنة، ليؤكد أن الأرض هي الباقية أمام المحتل الذي سيضمحل، ويقت وجوده أمام تلك القوة الثابتة.

وقد اعتمد القاسم في هذا المقطع على الحوار، ومن خلاله ظهر صوتان، صوت الشاعر المتمسك بالأرض، المدافع عنها، وصوت آخر يمثل وجهة نظر العدو، الذي يريد أن يقتل من حماس الشاعر وحمه لوطنه، ويقع به أنه لا جدوى له من نضاله<sup>(3)</sup>، ومن خلال هذا الحوار تتضح أبعاد الموقف، وتضجع في نفوسنا صورته، وهذا هو سر التأثير المتزايد لهذا الأسلوب حين يستخدم في القصيدة<sup>(4)</sup>، وقد كانت المباشرة والوضوح أهم سمات هذا المقطع.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1/ 337.

(2) عد المرصوف، المنيعة في الشعر العربي الحديث، 141.

(3) نظير علي عثري، زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، 209.

(4) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي معاصر، لقضاياها وهواجره الفنية والمعنوية، 299.

روما تنادي أبناءها لكي يخلصوها من واقعها المأساوي الذي تحياه، وهم يلبسون النداء، ويستبلسون في الدفاع عنها، ويكتنون تاريخها المجيد بتضحياتهم المشرفة، والقاسم معجب بدور أبناء هذه المدينة في الدفاع عنها.

نكبة التيه التي أوجدت بنا      فطرقنا في الحجى بابا فبابا  
عمقت سكينها في جرحنا      وجرت في جحنا سماً وجابا

ومن الأعماق من تربتنا      هتف التاريخ .. والمجد أهيا  
فإذا يامنا مشرقة      بجم .. من لونه أعطى الترابا  
وإذا دوعا نداء جارح      طاب يوم الناري نيروق طابا<sup>(1)</sup>

وتلغى الصورة الصوتية على هذا المقطع، ليصبح صوت روما/ الأرض الفلسطينية هي صرخة في ضمير كل إنسان عربي، تحفزه على الثورة على العدو الصهيوني، وتدعوه إلى الصمود، والوقوف في وجهه، والقضاء عليه.

وقد وظف القاسم تبادلاً معطيات الحواس في عبارة (نداء جارح)، فأدخل الصوت المسموع في دائرة اللمس، وذلك ليؤكد فعالية ذلك الصوت، ولقرء في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني، فمن خلال هذا النداء سسمع تلك الصرخة، ويبه أبناء الوطن للمقاومة وثبة ذلك النداء.

روما ستعود إلى مجدها وحضارتها، وستحيا من جديد بفضل أبنائها.

دوعا أحترقنت قبل قرو  
لكن الجحر الجارب في أرنه  
لم يفقد في النكبة معنى نبجه  
دوعا تاجت .. يا نيروق<sup>(2)</sup>

وفق القاسم في اختيار لفظ (الجذر) في هذا المقطع، ليؤكد تغلغل الإنسان الفلسطيني في هذا الوطن، هذا التغلغل الذي يؤكد العلاقة الحميمة والشرعية بين الفلسطيني ووطنه، لذا ستعود هذه الأرض إلى أهلها الشرعيين.

(1) سمح القاسم: الأعمال الشعرية لخاصة، م/30.

(2) نفسه، م/89.

وقد جاءت الصورة في هذه القصيدة من خلال البناء التوقيعي "بناء الصورة الكلية للقصيدة من خلال صورة واحدة، ونتيجة لهذا فإن القصيدة تقدم فكرة أو انطباعاً أو صورة باقتصاد شديد"<sup>(1)</sup>، فالقاسم يقدم صورة الأمل في قلب المواطن الفلسطيني في الأرض المحتلة.

هذه هي روما القاسم، الأرض الفلسطينية الخالدة الباقية في النفوس، والباقية على الخريطة الفلسطينية، والمتجذرة في الذاكرة الجماعية العربية، ولن تستطيع أي قوة قاهرة أن تزيلها، وتلغي وجودها.

## المدينة المنورة الأمل بالتححر

يدت المدينة المنورة في شعر القاسم في صورة إيجابية مشرقة، فقد جاءت رمزاً للمدينة الفلسطينية، التي ستشهد انتحار العدو الصهيوني عن أرضها بفضل أبنائها، الذين سيضحون من أجل نصرتها، فهم الأتصار الجدد، الذين سيحققون رسالة التمسك بالوطن.

المدينة المنورة تشهد تهديداً من العدو الذي يسعى إلى إخضاعها لسيطرته، ولكنها ترفض تلك السيطرة، وذلك التهديد، وتهزمه بمعاونة أبناء الشعب العربي، الذين يهبون لتجديدها، ويقفون إلى جانبيها وينصرونها، والقاسم مؤمن بخلاص هذه المدينة.

أرى على مشارف "المدينة"

سجادة عملاقة

أرى بقايا القاتل الهجين

أرى جثثاً تشهد احتراقه ..<sup>(2)</sup>

اتخذ القاسم المدينة التي شهدت استقبال الرسول محمد (ﷺ) ومناصرتة في دعواته المماوية، رمزاً للمدينة الفلسطينية، وقد يدت متمردة رافضة للخضوع والاستسلام، ومصرة على القضاء على المحتل، فهي تراه محاية لا بد أن تزول، حتى وإن كانت عملاقة، وهذه الرؤيا هي التي تدعم الشعب الفلسطيني، في صموده ومقاومته للمحتل.

(1) صالح أبو أصبح، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام 1948 حتى 1975، دراسة نقدية، 96.

(2) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 2/ 337.

ولعل الربط بين المدينة المنورة وفلسطين، يؤكد أن مستقبل هذا الوطن سيكون مشرقاً، كمستقبل الدعوة الإسلامية، التي حققت قوتها، وأرست دعائمها في المدينة المنورة، فالوطن الفلسطيني سيشهد الأمن والهدوء والاستقرار، بعد خلاصه من المحتل.

وقد ركز القاسم على الصورة البصرية من خلال الفعل (أرى) الذي كرره ثلاث مرات في المقطع، ليؤكد أن هذه الرؤيا ما هي إلا الحقيقة، التي ستتحقق في الأرض الفلسطينية، في المستقبل القريب، وهذه الرؤيا ما هي إلا دعوة موجهة للشعب العربي، للنهوض والاستبسال في الدفاع عن هذا الوطن.

المدينة المنورة انهارت، واستشهد أبناؤها في سبيل الدفاع عنها، واستبيحت أماكنها المقدسة من قبل الأعداء، الذين عاثوا فيها فساداً، وهي نقف وحيدة في محتها الأليمة.

**واستشهد الأنصار ... وانهارت مجيئتهم**

**وشرعت المساجد للصو ص المارقين؛**

**و' الله أكبر' لكنة جوفاء**

**تطلقها نفايات المسوخ التافهين؛**

**فاركب بحيركم يا محمد؛**

**وتعال .. لي في الشمس معبد!!<sup>(1)</sup>**

جاءت المدينة المنورة لتعكس صورة المدينة الفلسطينية التي وقفت وحيدة في مواجهة المحتل، وقد حملت الأمة العربية مسؤولية هذا الانكسار والانهازم الذي نجاها، وقد بلغ القاسم قمة الألم والتوتر، عندما جعلها تنهار، وذلك لإشعار الأمة العربية والإسلامية بالخطر الذي يتهدها، من قبل العدو الصهيوني، فهو النمار للقيم الإسلامية وللوجود العربي، وقد ألح على هذه الفكرة، من خلال التركيز على لفظ (المساجد)، فهذه الكلمة لها دلالة إيجابية في النفوس، فهي المكان المقدس الذي له حرمة عند المسلمين، ولا بد من صونه والحفاظ عليه، وقد جعله الشاعر مكاناً مستباحاً من قبل المحتل، ليزيد في حدة تعرية الواقع الرديء، الذي تحياه المدينة الفلسطينية في عهد الاحتلال، وذلك لتشكيل ردة فعل من الأمة العربية والإسلامية، وتسانی موازسة للفعل الإجرامي الذي يقرقه المحتل في الأرض الفلسطينية.

تواصل القاسم في هذا المقطع مع الموروث الديني الإسلامي، من خلال توظيفه بعض الألفاظ والعبارات الدينية، جاءت (استشهد، الأنصار، المساجد، الله أكبر، محمد)، ولعل هذا

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م، 207/1، 208.

التواصل، يؤكد هوية الأرض الفلسطينية، وانتماءها التاريخي، فهي عربية إسلامية، ولا بد للشعب العربي والإسلامي من الوقوف إلى جانبها، والدفاع عنها أمام العدو لتبقى عربية. ومن اللافت للنظر، أن القاسم قد استطاع الخروج من دائرة الألم والثوم والإدانة، إلى دائرة البحث عن حل، فقد جعل الفلسطيني المتمرّد الرافض ذلك الواقع، هو امتداد لرسول البشرية محمد (ﷺ)، فالرسول الفلسطيني هو الذي سيبعث هذه المدينة من جديد، من خلال مهمته الجديدة، وهي الدفاع عن هذا الوطن.

يثرب تغلق أبوابها في وجه اللاجئين، وترفض استقبالهم، وتندّم الدعم والعون لهم، في الوقت الذي تشعر فيه مكة بالحيرة، وتخضع لسياسة قهرية من قبل العدو.

والإلح هجرتنا بكون نبوة أخرى- ولا أنصار- يثرب أوجعت  
أبوابها .. لقرينش ما شاءت ومكة لا تزال  
مفتوحة للإبواب تبحث عن نزال  
بين الإجابة والسؤال  
بين الحقيقة في رسالتها الجديدة والخيال<sup>(1)</sup>

اختفت دلالة المدينة المنورة لتظهر المدينة العربية التي رفضت استقبال اللاجئين الفلسطينيين في أرضها، ولم تقف إلى جانبهم في محنتهم، محنة مغادرة الوطن، والقاسم من خلال هذه المدينة، يدين واقع الأمة العربية، التي تغلّت عن الفلسطينيين في أحلك ظروفهم، فبدت المدينة المنورة/ المدينة العربية ذات موقف سلبي.

وبشي هذا المقطع برؤية القاسم الراضة للخروج من الوطن، فهو يرى في هجرة الرسول محمد (ﷺ) من مكة إلى المدينة هجرة إيجابية، في حين أن هجرة الفلسطيني من وطنه هجرة سلبية، لأنها أفقدته وجوده في أرض لا ينتمي إليها، وأفقدته الوطن الذي ينتمي إليه، ولعل القاسم في هذا المقطع قد حمل الفلسطيني، مسؤولية اللجوء عن الوطن، وحثه على البقاء فيه. وجاءت مدينة مكة في المقطع، لترمز إلى الأرض الفلسطينية، التي تتعرض لسياسة قهرية من قبل المحتل الصهيوني.

ولعل الجمع بين هاتين المدينتين يؤكد أن الإنسان الفلسطيني مرفوض من قبل العدو الصهيوني، كما هو مرفوض من قبل الأمة العربية.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، د 386/4، 387.





## إرم (\*) الوطن داخل الوطن

جاعت هذه المدينة في شعر القاسم لتعبر عن رؤية تفاؤلية للشاعر، فقد وضع المداميك الرئيسة لوطنه من خلالها، فأرم هي فلسطين المحررة من الاحتلال، القائمة على العدل والنضلة، وتحقيق السعادة للبشرية، والطريق للوصول إلى هذه المدينة مرصوفة بالتضحيات.

أرم ذات العماد هي المدينة الحلم للإنسان الفلسطيني، فيها سيجد السعادة والهناء، وسيخلص من آلامه وأحزانه التي أثقلت كاهله، من قبل المحتل الصهيوني.

يجثم الحزن على قلبي .. ويضرب بالبكاء  
غير أن الشمس .. والبركاك .. والقتلى  
على شطآن أنهار الدماء.  
أبدأ تجذب وجهي بالتداعيات الخفية  
لمكان خلوه أسوار الشقاء  
إرم في ذات العماد!!  
إرمي .. امنحها من كل قلبي للعباد  
ثم أنهار قريرا، عبر وجع الرماح<sup>(1)</sup>

تخضر إرم في هذا المقطع لتكون رمزا للمدينة التي يحلم بها القاسم، فأرم هي الوطن المحرر، الذي سيحقق الأمان والاستقرار لأبنائه، وهي بؤرة التحرر من كل أشكال السيطرة والتسلط، وهي مركز إشعاع الحرية لكل الشعوب، التي تسعى نحو تحقيق الوجود وإثبات الذات.

ولعل القاسم قد أراد أن تتشكل هذه المدينة الحلم، داخل الأرض الفلسطينية، لأن الهروب منها إلى مكان آخر، هو موقف مرفوض تماما لدى القاسم، فهذه المدينة الحلم هي البحث عن الوطن داخل الوطن، وتعبير عن تشبث به<sup>(2)</sup>.

وهذه المدينة، ستحتضن أبناء الشعب الفلسطيني على مزيد من التضحيات، وبذل النفس من أجل الوصول إليها.

(\*) إرم ذات العماد: يروي أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، كانت في اليومين حضرموت وصنعاء، وقد بناها شاد بن عاد، لمزيد من المعلومات، انظر لطفي الخوري، معجم الأساطير، ج3/33.

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1/57، ...

(2) جاك حنا على مصحف، الشعر الفلسطيني الحديث، 269.

تواصل القاسم مع الموروث الديني الإسلامي، وذلك من خلال تضمينه الآية القرآنية "إرم ذات العماد"<sup>(1)</sup>، التي وُصِفَتْ بِـ "التي لم يخلق مثلها في البلاد"<sup>(2)</sup>، وقد جعل القاسم هذه المدينة ملكاً خاصاً له، من خلال إضافتها إلى ضمير المتكلم، وكأنه يؤكد أن فلسطين الحلم الخالية من الاحتلال ملك للشعب الفلسطيني، لأنه هو الذي سيوجدتها من خلال تضحياته.

كان القاسم واعياً باستخدامه لفظ (العباد)، فقد رأى أن تحرير الوطن فلسطين، سيجقق الأمن والهدوء لجميع الشعوب الأخرى، قضية فلسطين هي قضية إنسانية تُوَرِّق الشعوب التي تسعى نحو الحرية، والحفاظ على حقوق الإنسان.

ومدينة إرم التي تحمل بها الإنسانية، مدينة تحقق السعادة للبشرية جميعاً، وهي مدينة تسعى نحو الفضيلة، والقاسم حريص على أن تنعم البشرية بالسعادة.

**البشرية: إرم .. تريد القافلة؟!**

**الشاعر: إرم .. علي أرض جديدة**

**إرم .. سعيدة**

**إرم .. ولكن فاضلة<sup>(3)</sup>**

تأتي إرم في هذا المقطع رمزاً لسعادة الإنسان وكنهه<sup>(4)</sup> في سبيل الوصول إليها، وقد وضع القاسم دعاءات هذه المدينة "وكنّا كانت تتحرك في خاطره تلك البذور التي تحركت في خاطر أفلاطون حين تولدت عنها جمهوريته، أو تلك البذور التي تحركت في نفس أفارابي حين تولدت عنها مدينته الفاضلة"<sup>(5)</sup>.

وقد جعل القاسم الدعامة الأولى لمدينة الحلم هي الأرض الجيدة، وقد تكون إرم في كل مكان، لذا ستعتمد إرم، وقد تكون في داخل الذات الإنسانية، تحريضاً على بناء مستقبل جديد، يحمل الحرية والخلاص من العبودية.

أما الدعامة الثانية، فهي تحقيق السعادة في هذه المدينة لكل من يسعى للوصول إليها، ومن خلال هذه الدعامة، يؤكد القاسم الشقاء الذي يسيطر على البشرية، ولكن إرم ستحرر من كل أسباب العبودية.

(1) سورة الفجر، آية 7.

(2) سورة الفجر، آية 8.

(3) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، 1/197.

(4) حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية نوره وولعه، ج2/227.

(5) عبد الرحمن باعدي، شعر الأرض المحتلة، دراسة في الموضوعات، 480.

والدعامة الثالثة هي الفضيلة، وقد اعتمد القاسم على هذه الركيزة ليحقق لمدينته الاستمرار وعدم الفناء،

والقاسم يرفض إرم القديمة، تلك التي قد تكون "رمزاً لإسرائيل، فإسرائيل هي الجنة الزائفة المزورة التي لا بد أن تنهار على صانعيها"<sup>(1)</sup>، وهو يسعى نحو تشكيل إرم الجديدة، إرم الفاضلة، إرم التي تسعى نحو الحرية،

هذه هي إرم القاسم، شكلها لكي تكون المركز الذي سينطلق منه الفلسطيني لاستعادة وطنه، وتحريره من أيدي الأعداء الصهاينة، لتصبح إرم الحلم حقيقة.

## شيراز الماضي المجيد

حضرت هذه المدينة في شعر القاسم لتعكس ماضي الأمة العربية المجيد المشرق، ولتكون المكان الذي سيمنح الإنسان العربي قدرته على الصمود ومواجهة التحديات.

وقد وظف القاسم الصورة الإيجابية لها، ليكشف الواقع المأساوي الذي تعانيه الأمة العربية، فقوة الماضي قد أظهر ضعف الحاضر، فشيراز هي مجد العرب الذي لا بد أن يستعاد.

إلى متينة شيراز وصل العرب المسلمون أثناء الفتوحات الإسلامية، وفيها، أثبت العرب وجودهم.

قروناً يا أبي تاجرت بالإطياب والخير

---

وعدت إلي من شيراز

بالخيلاج والنهوند، والخير

صغيراً كالأ تارخي ... وكأ بعمره عزي

وانت تعبتي، أنت شقيقتي .. حتى عدت بالخير<sup>(2)</sup>

حضرت هذه المدينة لتلبي بقوة العرب، وقدرتهم على إشادة الحضارات، وتحقيق الانتصارات، في فترة كانوا فيها أصحاب السيادة والقرار، والقدرة على اتخاذ المواقف الحازمة،

(1) رحاء النقاش، أمهات معاصرون، 276.

(2) مسجع القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/ 1، 326.

وقد بدت وكأنها رمز لتاريخ العرب المجيد وحضارتهم المشرقة، وقد انطلق منها القاسم ليعيد واقع الأمة العربية، فجاءت شيراز لتكون النقطة المركزية التي سيقف عندها الإنسان العربي، ليستعيد أنفاسه، في محاولة منه لإعادة مجده الحضاري السابق.

وقد حالف القاسم التوفيق عندما قدم لفظي (الدباج والنهوند) على لفظ (الخبز)، وذلك ليؤكد الرفاهية والحياة الرغدة، التي كان ينعم بها الشعب العربي في فترة عزه، فالمتطلبات الكمالية قد جاءت قبل المتطلبات الرئيسية، وذلك في محاولة منه لترغيب الأمة العربية في استعادة ذلك الازدهار الاقتصادي والاجتماعي الذي ساد المجتمع العربي في ظل القوة والسيادة، وكان الهاجس الملح على الشاعر، هو عدم التفریط بهذه المرحلة من حياة الأمة العربية الإسلامية.

ولعل استخدام اللعنين (تعبت وشقيت)، يؤكدان أن الحضارة التي وصل إليها العرب في فترة ما من حياتهم، لم تكن أمراً سهلاً، وإنما احتاج إلى الكد والتعب، وهذه رسالة موجهة للأبناء، لكي يمثلوا دور أجدادهم وآبائهم في بذل الجهود، من أجل الحفاظ على التاريخ المشرق، ومن أجل استعادة الوطن المسبي فلسطين.

في مدينة شيراز، كتب العرب تاريخهم، وحققوا سيادتهم، والقاسم يشيد بدور الأمة العربية في تحقيق الحضارة.

ولكُرتُ في شِعْهِدِ جَوَاجِي،

وانطلقْتُ .. لِإِلَهِ عام!

عمرت في شيراز قصراً

وابتليت يا صبيهاً

رجهات معرفة،

وعدت إلى الحجاز بطيلاً

وعلى دمشق رفعت رايات النهار، مع الإذاع

وجعلت حاضرة الكنانة

في تاج مولانا المعز، جعلتها أغلى جمانه

وبنيت باسم الله - قرطاجنة العرب العظيمة

وتلوت فاتحتي على أنقاض أوروبا القديمة

وبنيت جامعة ومكتبة، ونسقت الجداول،

وهتفت:

يا أحفاد طارق.

كونوا المنائر .. واغسلوا أجفان أوروبا البهيمه<sup>(1)</sup>.

اجتمعت المدن التاريخية في هذا المقطع، لتكرن شاهداً على الحضور العربي الإسلامي المميز في بقاع مختلفة من العالم، في فترة حقق فيها العرب المسلمون أمجادهم، وبسدت هذه المدن الامتداد التاريخي والجغرافي الحقيقي للإنسان العربي، فالعرب قد أثبتوا وجودهم في تاريخ كل أمة، وفي حضارة كل شعب.

شبراز والمدن القارية الأخرى، اجتمعت لتؤكد مجد العرب وحضارتهم، في دعوة صريحة من القاسم لاستعادة ذلك المجد.

## قرطبة جدة العرب العزينة

جاءت هذه المدينة في شعر القاسم تعكس قوة الأمة العربية وهيمنتها في فترة حضارتها ومجدها.

وقد امتدت عبر الحاضر لتعبر عن المدينة الفلسطينية، وقد التحم معها للقاسم، وأبدى شعوره الإيجابي تجاهها، فهي الامتداد لحضارة الإنسان العربي، وهي السكان الذي أثبت فيه وجوده.

ومن خلاله انطلق الشاعر ليدين واقع الضعف والانحزام الذي تحياه الأمة العربية، وذلك من أجل استعادة تلك السيادة التي شهدها العرب في فترة عزهم.

وعلى باب قرطبة، استشهد المناضلون دفاعاً عن حكمهم في الحياة، وإثبات وجودهم، فقد تعلقوا بهذه المدينة، لأنها امتداد لهم، وإثبات لهويتهم وحضارتهم، والقاسم حزين على واقع الشعب الفلسطيني الذي يجابه قوة عظمى.

وعلى باب قرطبة استشهد الصقر واشتد قصف الغزاة

على تلك اللاجئين

--

أيها الميت الرائع

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م، 147/1، 148.

لم تحافظ على الملك مثل الرجال

فابك مثل النساء

إبك مثل النساء

إبك يا سيدي المفتدي

ليس غير المفتدي .. هـ .. هـ .. هـ<sup>(1)</sup>

استدعاء قرطبة في هذا المقطع يحيل إلى "أمجاد العرب التي تواصلت لقرون في هذه الحاضرة، ويحبل أيضاً إلى مأساة سقوطها، لكنها رغم تناقض الإحالتين، تظل في الضمير الفلسطيني رمزاً لتحقيق الغايات ... وأتمونجا للبناء والتجديد الثقافي والحضاري، ... ورمزاً للهبة العربية التي نفتدها اليوم، ... ومنازة علم تشر بأصالة الثقافة، وحرية الفكر"<sup>(2)</sup>.

وقد حضرت لتكون رمزاً للأرض الفلسطينية، ومن خلال هذا الرمز أسقط القاسم الماضي على الحاضر، فجاءت قرطبة امتداداً للمدينة الفلسطينية، ولكن ليس في مأساة ضياعها، وإنما في المقاومة وإثبات الوجود وبناء الحضارة، وكأن القاسم يحفز الأمة العربية على أن تحافظ على الوجود العربي في فلسطين، وألا تسح للتاريخ بأن يكرر نفسه في هذا الوطن.

فقد خرج الإنسان العربي من التاريخ (الزمن) بسقوط قرطبة، ولا يمكن للإنسان الفلسطيني أن يخرج من الجغرافيا (المكان) بانتهزامه أمام المحتل الصهيوني، لذا لا بد من المقاومة والاستمالة، في سبيل إثبات الوجود في الوطن المحتل.

تواصل القاسم مع الموروث التاريخي من خلال الإشارة إلى شخصية الصقر عبد الرحمن الداخل، وقد جعله القاسم معادلاً موضوعياً للإنسان الفلسطيني، الذي سبحق وجوده في فلسطين، ويبدو إعجاب الشاعر بهذه الشخصية، التي كان لها قدرة على بناء الحضارة في الدولة الأندلسية.

وفي مقابل هذه الشخصية الإيجابية، تواصل القاسم مع شخصية أخرى سلبية، وهي شخصية أبي عبد الله الصفي، التي حملها مسؤولية ضياع الوطن، وتسليمه إلى الأعداء.

وقد جاءت عبارة (لم تحافظ على الملك مثل الرجال فابك مثل النساء)، لتتقاطع مع الموروث الأدبي من خلال مقولة عائشة التالية "أجل فلتبك كالنساء، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال"<sup>(3)</sup>.

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/374-375.

(2) محمد عبد الله المحيني، أعدهم نهاء استدعاء الأندلس الفلسطيني الحديث، 227.

(3) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وشروع العرب المتكسرين، 267.

فضياع الوطن هو ضياع الشخصية، وضياع الهوية، ولعل القاسم قد وظف شخصية أبي عبد الله الصغير، لتكون رمزاً للحكام العرب الذين لم ينهضوا بمسؤولية الدفاع عن فلسطين، مما كان له الأثر في احتلالها، وتحكم الكيان الصهيوني بها.

وفق القاسم في إنهاء المقطع بعبارة (ليس غير الصدى)، ليؤكد أن من يضيع وطنه لن يقف أحد معه، ولن يجد من يساعده ويساعده على استرداده، فيكفي ضياع وطن واحد (الأندلس)، ولا يجدر أن تكون فلسطين أندلساً ثانية، لذا لا بد من الاعتاط بالدروس التاريخية السابقة، وألا يقف منها الإنسان العربي موقف المنفرج غير المبالي، بل يجب أن يكون إيجابياً، مانعاً من حدوثها مرة ثانية.

مدينة قرطبة، جذة العرب الحزينة، ينتمي إليها الإنسان العربي، ويرتبط معها بعلاقة حميمة، فهي المكان الذي أثبت فيه وجوده وذاته وكيانه، والقاسم يشيد ويفتخر بالعلاقة الحميمة بينه وبين هذه المدينة.

ليلاً .. أحج إليك يا حبي القجيم  
 ليلاً .. بلا باقات أزهار،  
 بلا تحف ثمينة  
 يا جدتي  
 يا جدة العرب الحزينة!  
 في حلة الإفرنج، يا حبي القجيم  
 أولجت .. لا كتبي مفرقة على حد الأسنة  
 أولجت .. تنقل كاهلي الملهوون مجنة  
 والجرح رحمانى الرحيم  
 يا زاهد أجدادي وزاوي،  
 في الطريق، إلى المنيم ..  
 شلت دمشق، يدى، لكنى شفيت  
 يوم استرجت على يديك  
 حبيتي يا قرطبة!  
 فقالت كنانة يؤبؤي  
 فرجعت لي بهري مغافى عاشقاً  
 يا قرطبة!  
 ضيعت في بضداد صوتي، ثم كاد

## إننا التقينا في شوارعك الرؤى

يا قُرطبة! (1)

تأتى قرطبة في الشعر الفلسطيني لتكون حاضرة العلم والثقافة ودار الخلافة<sup>(2)</sup>، وقد بدت في صورة إيجابية مشرفة، فهي المكان الذي احتضن العرب، واندمج معهم، وتشكلت حضارته من خلالهم.

وظف القاسم في هذا المقطع المفارقة التصويرية ذات الطرفين التراثيين "وهو نمط أكثر تعقيداً وعمقاً من المفارقة ذات الطرف التراثي الواحد، إذ في هذه المفارقة التصويرية ذات الطرفين التراثيين يكون لطرفي المفارقة أو لأحدهما أكثر من مستوى دلالي، بأن يحمل مع دلالاته التراثية دلالة أخرى معاصرة رمزية، وهكذا تتم عملية المقابلة في هذه المفارقة على مستويين؛ حيث تتم أولاً بين الدلالة التراثية للطرفين، ويتم ثانياً بين الدلالة التراثية لأحدهما والدلالة المعاصرة الرمزية في الآخر، وبهذا تزداد المفارقة عمقاً وتأثيراً عن طريق هذه المقابلة المزوجة التي تبرز التناقض بين الطرفين مرتين"<sup>(3)</sup>.

فقد جاءت قرطبة ممثلة الحضارة العربية لتقف أمام سقوط عواصم الخلافة العربية (دمشق، كنانة، بغداد)، وقد جاءت هذه العواصم التاريخية لتشي بالواقع المرير الذي تعيشه المدن العربية المعاصرة، ولتشير إلى السياسة الفهرية التي يخضع لها المواطن العربي الحر في هذه المدن، فتأتي قرطبة ذات وجه مشرق متألق يزيد من قتامة واقع هذه المدن، وكأن القاسم من خلال استحضاره هذا المكان (قرطبة)، يحاكم ذلك الواقع الذي فقد فيه الإنسان كرامته وعزه وعجده.

والقاسم قد أظهر منزلة قرطبة، فجعلها مقدسة من خلال لفظ (أحج)، ولعله من خلال هذا اللفظ يوجه اللوم والعتاب للأمة العربية التي كانت سبباً في ضياعها، لذا فقد بدأ المقطع بظرف الزمان (ليلاً) ليحيى بأن أبناء الأمة العربية غير قادرين على مواجهتها.

مدينة قرطبة نداء جراح في ضمير الإنسان العربي، وهي تحثه على التمسك بالأرض وعدم التفرط بها.

## سلطانة الحرّ المصروش باسمينا

(1) سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/423.

(2) انظر محمد عبد الله المعيني، حضور الأندلس في الحب الفلسطيني الحديث، مجلة عالم الفكر، 28، م. 4، 2000، 36.

(3) علي عسري زائد، عن هذه القصيدة شعرية الحديثة، 155.



فوق، أكتاف الزمآن  
 يكونني لنا .. يا قرطبة  
 يكونني لهم .. يا قرطبة  
 لا بأس .. ما داممت جودك  
 صيحة في مهرجان! (1)

بنت قرطبة ذات دور إيجابي فاعل، فهي المحفز والمثير للإنسان العربي كي يبلى عزه من جديد، ولا يكون ذلك إلا بالتححرر الداخلي أولاً، ومن ثم تحرير البلاد من الاحتلال والقوى الطاغية الداعمة له ثانياً.

وقد جاءت صور القاسم في هذا المقطع محملة بدلالات التقاول، وذلك لأن هذا التقاول هو الخطوة الأولى في الطريق الصحيح، طريق التحرر.

ولعل الشاعر قد أظهر مدى امتداد قرطبة في كيان وضمير كل إنسان عربي، من خلال استخدامه عبارة (جذورك صيحة)، فالجذور تنعمق في الأرض، والصيحة تترك أثراً عميقاً في النفس، لذا لا بد من الإصغاء إلى تلك الصيحة.

هذه هي مدينة قرطبة، الماضي المجيد، والحاضر الذي يجب أن يحافظ عليه.

### طليطلة الانتعاش بالماضي

جاءت هذه المدينة الأندلسية في شعر القاسم رمزاً للضياع والسقوط، وقد عكست واقع الانهزام والانكسار الذي تحياه المدينة العربية المعاصرة، وكانت نتيجة هذا الواقع المرير، ضياع فلسطين.

ومن خلال هذه الرؤيا، انطلق القاسم لإدانة الأمة العربية التي لم تتعظ بالدروس التاريخية السابقة، مما جعل هذه المدينة تشكل ألماً وجرحاً في نفسية الإنسان العربي، فهي المصير الذي ينتظر متبنيته المعاصرة إن لم يدافع عنها.

طليطلة ضاعت من أيدي العرب لأنهم لم يحافظوا عليها.

ماذا تبقى يا طليطلة الشقية من كلام؟  
 ماذا تبقى .. يا كنانة .. يا شام؟

(1) سمح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، م/423/1.



تبدو هذه المدينة مكاناً متحركاً ومؤثراً في الذات العربية/ الفلسطينية، فهي تبث هذه الذات كل المعاني الإيجابية، لتتطلق في مسيرتها النضالية، وتحقق الحرية للوطن السليب. ويتضح في هذا المقطع علاقة القاسم الحميمة بهذه المدينة، فكأنه يراها فلسطين، ذلك الوطن الذي سلب من أيدي الأمة العربية، كما ضاعت تلك المدينة، ولكنه سيعمل جاهداً لإعادته من جديد، ومن خلال تلك العودة، ستعود قشتالة، سيعود المجد العربي مرة ثانية، ولكنه في هذه المرة أقوى.

وتأتي الألفاظ في هذا المقطع محملة بدلالات الإصرار على العودة، والانتصار، والتفوق. وقد طغت على هذا المقطع الصور الحركية إيا قشتالة التفتي إلي ومسدي بيدك أوتار الأغاني، أت أنا لكي أمضي، وأمضي كي أعود إليك) واللونية والشمية (والباسمينه لا تعيش، مغتسل بماء الورد، في كفي كافور ومسك)، والسمعية (ومسدي بيدك أوتار الأغاني المجدبة، ويطفح الشهود في بلدي الموشح بالأغاني)، ليجعل تلك العودة أمراً واقعاً محسوساً ومرئياً أيضاً.

هذه هي قشتالة التي ستلتقي فيها أمجاد العرب قديماً وحديثاً.

ومن الجدير بالذكر أن القاسم قد تحدث عن غرناطة وإشبيلية، وقد وردتا هاتين المدينتين من خلال ربطهما بالمدن الفلسطينية، وقد تحدثت الباحثة عن هاتين المدينتين في الفصل الأول من هذه الدراسة<sup>(\*)</sup>.

(\*) انظر الفصل الأول، 98، 107.

## الخاتمة

حاولت الباحثة في هذه الدراسة تتبع المدينة في شعر سميح القاسم، وقد توصلت إلى النتائج التالية:

- جاءت المدينة الفلسطينية ذات حضور كثيف في شعر القاسم، إذا ما قورنت بالمدن الأخرى التي ترقف عندها، وقد احتلت مدينة القدس الصدارة بين جميع المدن، وذلك لمكانتها الدينية في النفوس، ولما تحمله من أبعاد وطنية وسياسية.
- حملت المدينة الفلسطينية معنى الوطن والأرض والانتماء، وقد التحم معها القاسم، واندمج بها قهري وطنه المستباح، وهي أرضه المسلوقة، وقد ربط القاسم بين المدينة الفلسطينية والأم ليكون الانتماء لهذه المدينة أعمق أثراً في نفسه.
- بنت المدينة الفلسطينية من خلال بعدها الوطني، وقد استقى الشاعر هذا البعد، من خلال الواقع المعيش الذي تحياه المدينة المحتلة، فتحدث عن نضالات أبنائها في سبيل تحريرها، وعن جرائم المحتل الصهيوني بحقها، وقد رأى في نضالات أبنائها الجانب المشرق الإيجابي، ورأها صامدة وشامخة أمام كل التحديات التي تعترضها، وكان «الأمل هو المسيطر على رؤية الشاعر للمدينة المحتلة، وقد رسم القاسم طريق التحرر لهذه المدينة من خلال الكفاح المسلح، واعتماد الفلسطينيين على أنفسهم في تحرير مدنهم.
- أرخت بعض المدن الفلسطينية لبعض الأحداث الوطنية التي شهدها تلك المدن، فجاءت صورة تلك المدن من خلال هذه الأحداث، فقد جاءت نابلس لتسجل أحداث الاعتقالات التي شهنتها المدينة عام 1974، وسجلت غزة الحدث الوطني وهو الانتفاضة عام 1987.
- لم ينفك القاسم إلى فضاء المدينة الفلسطينية، فهي لم تشكل له معالم مادية، وإنما هي الأرض، قضية وشعب.
- اتحدت مدن الداخل الفلسطيني مع مدن عام 1967، وسقطت الحدود الوهمية التي أقامها المحتل في الأرض الفلسطينية، فالهم الذي يورق مدن الوطن جميعاً هو المحتل، والقضية التي تجمع أبناء الوطن هي الأرض، والمستقبل الذي يوحد بينهم هو الأمل بتحرر الوطن من قبضة الاحتلال.

- جاءت المدينة العربية ذات وجه إيجابي مشرق، من خلال صمودها ومواجهتها لقوى الاستعمار، ومن خلال ثوراتها التي احتضنتها ضد قوى التخلف والجمود، فكانت صلتاء وعدن وبورسعيد وجهاً مشرقاً لهذه المدينة، ومن خلال هذا الوجه المشرق ظهرت ظلال قائمة لوحه المدينة العربية وجه السلطة الحكيمة والطبقة المحكومة، ولكن هذه الصورة كانت أقل كثافة من صورتها الإيجابية، وقد اتخذها القاسم محطة وقف عندها لرصد واقع الأمة العربية، وإدانة تلك الأمة والحكام العرب المسؤولين عن ذلك الواقع الرديء الذي تحياه تلك المدن، وبرغم ذلك إلا أن القاسم قد التحم بالمدينة العربية، وحمل همومها، وتشاركها قضايها.
- التحمت المدينة العربية مع المدن الفلسطينية، وأصبحا كياناً واحداً على خريطة العالم العربي، وقد رأى القاسم أن الوحدة العربية هي طريق الخلاص من التحكم الغربي في الوطن العربي.
- كان القاسم قوميًا في نظريته للمدينة، فهو لم يلتفت إلى مدينة الزرقاء التي شهدت مولده إلا بشكل محدود جداً.
- إن عدم حضور مدينة عربية في شعر القاسم لا يعني غيابها، فهي موجودة وحاضرة من خلال أي مدينة عربية حضرت بكثافة في شعره.
- جاءت المدينة الأجنبية تحمل صورة عن موقفها الفكري، وتطورها الحضاري، وسياساتها تجاه الإنسانية، وقد عبر القاسم عن رؤيته لهذه المدن من خلال عقيدته الفكرية، وموقفه الوطني، وانتمائه القومي، فقد رأى في المدينة الاشتراكية امتداداً له، لانتمائه إلى عقيدتها الأيديولوجية كما في برلين وبريست ليتوفسك، وقد رفض المدينة الغربية ذات التطور الحضاري المادي المسرف لمواقفها ضد الإنسانية، وقد أظهر شعوره العدائي تجاه المدينة الإسرائيلية التي أقامت فوق أرض فلسطينية، ورأى فيها تهدياً للوجود الفلسطيني، والهوية المحلية والقومية، كمدينة كرميل وتل أبيب.
- ركز القاسم من خلال المدينة التاريخية على البعد الحضاري للمدن الإسلامية، وخاصة المدينة الأندلسية، وذلك لإسقاط ماضي هذه المدن المجيد على واقع المدينة العربية المعاصرة، فتظهر المفارقة واضحة بين ماضٍ مجيد، وحاضر رديء، وليس ذلك لرصد واقع المدينة العربية المعاصرة فقط وإنما لمحاولة الخروج من ذلك الواقع، ومحاولة تغييره.

- ربط القاسم مصير المدينة المعاصرة ومصير بعض المدن «تاريخية، كسدوم وعمورة، وذلك ليؤكد فكرة الفناء لبعض المدن كتل أبيب.
- أنشأ القاسم مدينة الحلم/ إرم على أرض واقعية، وفي داخل الوطن الفلسطيني، وذلك لإيمانه بأن الوطن سيكون لأبنائه.
- استعان القاسم في حديثه عن المدينة ببعض التكنيكات الفنية، التي كان لها أثرها في تعميق الجانب الفني في شعره، فقد كان التواصل بالموثوث أهم سمة فنية ميزت أسلوب الشاعر في حديثه عن المدينة، فالتراث له القدرة على اختراق الماضي، واتخاذة محوراً للحاضر، والانطلاق به إلى المستقبل، وقد خدم تواصله بالموثوث القضية التي أراد التعبير عنها، وهي قضية المدينة.
- وقد استطاع الشاعر من خلال صوره الفنية المعتمدة على اللون والصوت والحركة أن يرصد واقع المدينة، ويظهر ملامحها، ووجهها الذي تتميز به، وقد وظف القاسم الرموز الشفافة، فجاءت ملائمة للأفكار التي عرضها.
- وترى الباحثة أن شعر القاسم مازال يخزن كثيراً من الموضوعات التي تستحق الدراسة ومنها الطبيعة، وصورة الأم، والآخر.

## قائمة المصادر والمراجع

### القرآن الكريم

### المصادر

- 1- الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت. 874هـ).
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاهرة، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 1992 (16-1).
- 2- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت. 356هـ).
- الأغاني، دار الثقافة، ط.3، بيروت، 1962 (1-25).
- 3- ألف ليلة وليلة، دار الهدى الوطنية، ط.1، بيروت، 1981 (1-4).
- 4- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت. 256هـ).
- صحيح البخاري، المكتبة العصرية، ط.4، بيروت، 2000 (1-5).
- 5- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت. 1093هـ).
- خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط.1، القاهرة، 1986 (1-13).
- 6- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت. 626هـ).
- معجم البلدان، دار صادر، (د.ط)، بيروت، 1957 (1-5).
- 7- الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت. 900).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- 8- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (ت. 776هـ).
- الديوان، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، ط.1، الدار البيضاء، 1989 (1-2).
- 9- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت. 808هـ).
- المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط.3، القاهرة، (د.ت) (1-3).
- 10- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن عباس (ت. 283هـ).
- الديوان، تحقيق حسين نصار، (د.ط)، 1981 (1-6).
- 11- ابن سناء الملك، أبو القاسم هبة الله بن جعفر (ت. 608هـ).
- دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جونت الركاوي، دار الفكر، ط.3، دمشق، 1980.
- 12- ابن شداد، عترة (ت. 22ق. هـ).
- الديوان، تحقيق فوزي عطوي، دار المعرفة، ط.1، بيروت، 1968.

- 13- الثنفرى، عمرو بن مالك (ت نحو 70ق. هـ).  
الديوان، دار صادر، ط1، بيروت، 1996.
- 14- الصنوبري، أحمد بن محمد بن الحسن الغنبي (ت. 334هـ).  
الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، (د.ط)، بيروت، 1970.
- 15- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت. 310هـ).  
تاريخ الأمم والملوك، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، القاهرة، (د.ت) (1-5).
- 16- ابن العبد، طرفة (ت. 70 ق. هـ).  
الديوان، دار صادر، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- 17- القاسم، سميح:  
- أرض مروغة حريركاند لا بأس (قصائد)، مؤسسة إبداع للنشر، (د.ط)، الناصرة، 1995.  
- الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، ط1، بيروت، 2004 (1-4).  
- سأخرج من صورتي ذات يوم (قصائد)، مؤسسة الأسوار، ط1، عكا، 2000.  
- عن الموقف والنق حياتي وقصيتي وشعري، دار العودة، (د.ط)، بيروت، (د.ت).  
- كلمة الفقيه في مهرجان تأبيته (سريية)، مؤسسة الأسوار، ط1، عكا، 2000.  
- كولاچ، دار الحوار، ط2، اللاذقية، 1984.  
- الممثل وقصائد أخرى، مؤسسة الأسوار، ط1، عكا، 2000.
- 24- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود (ت. 682هـ).  
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (د.ط)، بيروت، (د.ت).
- 25- الكتبي، محمد بن شاكر (ت. 764هـ).  
فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، (د.ط)، بيروت، 1973 (1-5).
- 26- المقرئ، أحمد بن محمد (ت. 1041هـ).  
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، (د.ط)، بيروت، (د.ت) (1-10).
- 27- ملحمة جلجامش، ترجمة عبد الغفار مكاوي، جامعة الكويت، (د.ط)، الكويت 1994.
- 28- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت. 711هـ).  
لسان العرب، دار صادر، (د.ط)، بيروت، 1968 (1-15).
- 29- أبو نواس، الحسن بن هاني (ت. 195هـ).  
الديوان، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، (د.ط)، بيروت، 1984.



## المراجع

- 1- إبراهيم، حافظ:  
الديوان، محمد أمين دمج، (د. ط)، بيروت، 1969 (1-2).
- 2- أحمد، محمد فتوح:  
- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط. 2، القاهرة، 1978.  
- واقع القصيدة العربية، دار المعارف، ط. 1، القاهرة، 1984.
- 4- إسماعيل، عز الدين:  
الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، ط. 3، بيروت، 1981.
- 5- أبو أصعب، صالح:  
الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام 1948-1975، دراسة نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د. ط)، بيروت، (د. ت).
- 6- أمين، أحمد:  
- لجر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط. 10، بيروت، 1969.  
- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مكتبة النهضة المصرية، ط. 2، القاهرة، (د. ت).
- 8- باشلار، غاستون:  
جماليات المكان، ترجمة غالب خلساء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 3، بيروت، 1987.
- 9- البرادعي، خالد محي الدين:  
الغناء الألبدي دراسات ونصوص، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د. ط)، دمشق، 1977.
- 10- بركة، نظمي محمود:  
الاتجاه الرومانسي في الشعر القنسطيني المعاصر، دراسة موضوعية وفنية، الفجر لطباعة والنشر والتوزيع، (د. ط)، 1994.
- 11- جبراء، جبورا إبراهيم:  
- الرحلة الثامنة: دراسات نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط. 2، بيروت، 1979.

- النار والجوهر، دراسات في الشعر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.3، بيروت، 1982.

13- الجزائر، محمد فكري:

لسانيات الاختلاف، الخصائص الجمالية لمستويات بناء النص في شعر الحداثة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، القاهرة، 2001.

14- الجعدي، محمد عبد الله:

أعندكم نبأ؟ استدعاء الأندلس في الأدب الفلسطيني الحديث، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 2002.

15- الجبوسي، سلمى الخضراء:

الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ترجمة عبد الواحد تولوة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، بيروت، 2001.

16- حبيب، صموئيل وآخرون:

دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة، ط.1، القاهرة، (د.ت) (1-8).

17- حجازي، أحمد عبد المعطي:

الديوان، دار العودة، (د.ط)، بيروت، 1973.

18- حمودة، أحمد عبد الرحمن وآخرون:

موسوعة المدن الفلسطينية، دائرة الثقافة (د.ط)، (د.ت).

19- حوطش، عبد الرحمن:

شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (د.ط)، الرباط، (د.ت).

20- الحيدري، بلند:

الديوان، دار العودة، ط.2، بيروت، 1980.

21- الخالدي، صلاح عبد الفتاح:

مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم، ط.4، دمشق، 2004.

22- الخباص، عبد الله عوض:

القدس في الأدب العربي الحديث في فلسطين والأردن في القرن العشرين (1900-1984) في الشعر والقصص والرواية والمسرحية، ط.1، 1995.

23- أبو خضرة، سعيد جبر محمد:

تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.1، بيروت، 2001.

- 24- الخطيب، أحمد موسى وآخر: ظواهر حديثة في شعر المقاومة، شعر أحمد الريماوي نموذجا، منشورات الهيئة الإدارية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ط.1، السعودية، 1996.
- 25- خليل، إبراهيم: الانتفاضة الفلسطينية في الأدب العربي، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ط.1، عمان، 1989.
- 26- خوري، إلياس: الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.1، بيروت، 1982.
- 27- الخوري، لطفي: معجم الأساطير، دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية)، ط.1، بغداد، 1990 (1-2).
- 28- الخوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية، الشركة العربية للموسوعات، (د. ط)، بيروت، 1996 (1-20).
- 29- داود، أسد: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، مكتبة عين شمس، (د. ط)، القاهرة، (د. ت).
- 30- الداية، فايز: جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، ط.2، بيروت، 1990.
- 31- الدباغ، مصطفى مراد: بلدنا فلسطين، دار الهدى، (د. ط)، كفر قرع، (د. ت) (1-10).
- 32- دي لويس، سيسل: الصورة الشعرية، ترجمة أحمد نصيف الجناحي وآخرون، دار الرشيد للنشر، (د. ط)، بغداد، 1982.
- 33- ربابعة، موسى: الأسلوبية، مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط.1، إربد، 2003.
- 34- رجب، طارق: متاحف نقدية في أدب سميح القاسم، الوادي للطباعة والنشر، (د. ط)، حيفا، 1995.
- 35- رشوان، حسين عبد الحميد أحمد: - المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب الجامعي الحديث، (د. ط)، الإسكندرية، 1982.

- مشكلات المدينة، دراسة في علم الاجتماع الحضري، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، (د. ط)، الإسكندرية، 1997.
- 37- الرصافي، معروف:  
الديوان، دار مكتبة الحياة، ط. 6، بيروت، 1957.
- 38- رضوان، عبد الله:  
المدينة في الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة، (د. ط)، عمان، 2003.
- 39- رماني، إبراهيم:  
المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً، 1962-1925، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط)، القاهرة، 1997.
- 40- الروشدة، سامح:  
— إشكالية التلقي والتأويل، دراسة في الشعر العربي الحديث، منشورات أمانة عمان الكبرى، ط. 1، عمان، 2001.
- الفناء في الشعر العربي الحديث (دراسة في النظرية والتطبيق)، مطبعة كنعان، ط. 1، إربد، 1995.
- 42- زايد، علي عشري:  
عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار القصص للطباعة والنشر، (د. ط)، القاهرة، 1978.
- 43- الزركلي، خير الدين:  
الديوان، مؤسسة الرسالة، ط. 1، بيروت، 1980.
- 44- الزقراطي، إبراهيم وآخرون:  
الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط. 1، دمشق، 1984 (1-4).
- 45- زيدان، رقية:  
التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، مؤسسة الأسوار، ط. 1، عكا، 2001.
- 46- سرحان، نمر:  
الحكاية الشعبية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د. ط)، بيروت، 1974.
- 47- سعد، فاروق:  
من وحى ألف ليلة وليلة، منشورات المكتبة الأهلية، ط. 1، بيروت، 1962 (1-2).
- 48- السعدني، مصطفي:  
البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، (د. ط)، الإسكندرية، 1987.

- 49- سقيرق، طلعت:  
دليل كتاب فلسطين (1900-1990)، دار الفرق للطباعة والنشر و لتوزيع، ط.1، دمشق، 1998.
- 50- سمرين، رجا:  
تحت المجهر، مجموعة من الأبحاث والمقالات النقدية، دار البيراع للنشر والتوزيع، ط.1، عمان، 2003.
- 51- السوافيري، كامل:  
الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، مكتبة الإنجلو المصرية، ط.1، القاهرة، 1973.
- 52- السباب، بدر شاكر:  
أنشودة المطر، دار العودة، ط.2، بيروت، 1981.
- 53- السيد، علام الدين رمضان:  
ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د. ط)، دمشق، 1996.
- 54- أبو شاور، سعدي:  
تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.1، بيروت، 2003.
- 55- شيانة، ناصر:  
المفارقة في الشعر العربي الحديث (أمل دنقل، سعدي يوسف، محمود درويش نموذجاً) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.1، بيروت، 2002.
- 56- الشدياق، أحمد فارس:  
الساق على الساق في ما هو الفارياق، منشورات دار مكتبة الحياة، (د. ط)، بيروت، (د. ت).
- 57- شعث، أحمد جبر:  
الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، ط.1، خانوبس، 2002.
- 58- شلحت، أنطوان:  
سميح القاسم من الغضب الثوري إلى النيوعة الثورية، منشورات الأسوار، (د. ط)، عك، 1983.

- 59- الشمالي، عبده:  
دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، دار صادر، ط.5، بيروت، (د. ت.).
- 60- شوقي، أحمد:  
الشوقيات، دار الكتاب العربي، (د. ط.)، بيروت، (د. ت.) (1-4).
- 61- الشيخ، خليل:  
باريس في الأدب العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.1، بيروت، 1998.
- 62- الصانع، عبد الإله:  
دلالة المكان في قصيدة النثر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، دمشق، 1999.
- 63- صادق، دولت أحمد وآخر:  
جغرافية السكن، دار البيان العربي، ط.1، جدة، 1983.
- 64- العارف، عارف:  
المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، ط.1، القدس، 1961.
- 65- عباس، إحسان:  
اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط.2، عمان، 1992.
- 66- عيودي، هنري س:  
معجم الحضارات السامية، جروس برس، ط.1، طرابلس لبنان، 1988.
- 67- عثمان، اعتدال:  
إضاءة النص، قراءات في الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.2، القاهرة، 1998.
- 68- عثمان، سهيل وآخر:  
معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د. ط.)، دمشق، 1982.
- 69- عدلانة، صلاح وآخرون:  
حضارات عالمية، مكتبة دار الفكر، (د. ط.)، القدس، 2003.
- 70- عراق، عبد البديع:  
صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر، مؤسسة الأسوار، ط.1، عكا، 2002.

- 71- صاف، ماسين:  
الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 1982.
- 72- عطا الله، عيسى:  
قاتلوا في المعث، جمعية الدراسات العربية، (د. ط)، القدس، 1985 (1-2).
- 73- عفاقي، قادة:  
دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، اتحاد الكتاب العرب، (د. ط)، دمشق، 2001.
- 74- علان، إبراهيم:  
الشعر الفلسطيني تحت الاحتلال (من العام 1948 - العام 1972)، مطبعة الشهابية، ط.1، الشارقة، 1995.
- 75- عنان، محمد عبد الله:  
دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، مكتبة الخاسحي، ط.4، القاهرة، 1987.
- 76- عوض - السيد حنفي:  
سكان المدينة بين الزمان والمكان، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، (د. ط)، الإسكندرية، 1997.
- 77- أبو غالي، مختار علي:  
المدينة في الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د. ط)، الكويت، 1995.
- 78- غنوم، محمد أحمد:  
المدينة، دراسة في الأثروبولوجيا الحضرية، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، الإسكندرية، 1987.
- 79- غيث، محمد عاطف:  
علم الاجتماع الحضري، مدخل نظري، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، الإسكندرية، 1982.
- 80- غيث، محمد عاطف وآخر:  
المجتمع الحضري، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، الإسكندرية، 1986.
- 81- الفاخوري، حنا وآخر:  
تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، ط.2، بيروت، 1982.

- 82- فتح الباب، حسن:  
سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط)، القاهرة، 1997.
- 83- فرهود، كمال قاسم:  
موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، مكتبة كل شيء، ط.3، حيفا، 1998.
- 84- قاسم، عدنان حسين:  
- التصوير الشعري، التجربة الشعرية وأدوات رسم الصورة الشعرية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط.1، طرابلس ليبيا، 1980.  
- دراسات نقدية، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، (د. ط)، طرابلس ليبيا، (د. ت).  
- لغة الشعر العربي، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط.1، طرابلس ليبيا، 1981.
- 87- القاضي، محمد:  
الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب، (د. ط)، تونس، 1982.
- 88- القط، عبد القادر:  
في الألبم العربي الحديث، مكتبة الشباب، (د. ط)، القاهرة، 1978.
- 89- قمحية، مفيد محمد:  
الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط.1، بيروت، 1981.
- 90- الكتاب المقدس، ترجمة فاندريك والبستاني، (د. ط)، شتوتغارت، 1996.
- 91- الكركي، خالد:  
الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، دار الجيل، ط.1، بيروت، 1989.
- 92- كنفاني، غسان:  
الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948 - 1968، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.2، بيروت، 1981.
- 93- كيوان، سهيل:  
هوميروس من الصحراء، مؤسسة الأسوار، ط.1، عكا، 2000.
- 94- مؤتمر الأدباء العرب السابع:  
الأدب العربي ومشكلات العصر الحديث، المؤسسة العامة للصحافة، (د. ط)، بغداد، 1969.



- 95- محمود، حسني:  
شعر المقاومة الفلسطينية، دوره وواقعه في الأرض المحتلة 1948-1967، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، (د. ط)، عمان، (د. ت) (1-4).
- 96- مصطفى، خالد علي:  
الشعر الفلسطيني الحديث 1948-1970، دار الشؤون الثقافية العامة، ط.2، بغداد، 1986.
- 97- مطران، خليل:  
الديوان، دار الكتاب العربي، ط.3، بيروت، 1967 (1-4).
- 98- المقالح، عبد العزيز:  
صدمة الحجارة، دراسة في قصيدة الانتفاضة، دار الآداب، ط.1، بيروت، 1992.
- 99- الملائكة، نازك:  
قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط.7، بيروت، 1983.
- 100- مفورده، لويس:  
المدينة على مر العصور، ترجمة إبراهيم نصحي، مكتبة الإنجلو المصرية، (د. ط)، القاهرة، 1964.
- 101- منصور، خيرى:  
الكف والمخز، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، الضفة والقطاع بعد عام 1967، دراسة ومختارات، دار الحزبة للطباعة، (د. ط)، بغداد، 1984.
- 102- منصور، مناف:  
الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث، مركز التوثيق والبحوث، (د. ط)، بيروت، 1978.
- 103- موسى، فاروق:  
القدس في الشعر الفلسطيني الحديث، منشورات مجلة مواقف، (د. ط)، الناصرة، 1996.
- 104- موريه، شموئيل وآخر:  
تراجم وآثار في الأدب العربي في إسرائيل، 1948-1978، بيت الكرامة، المركز العربي اليهودي، (د. ط)، حيفا، 1978.
- 105- ناهم، أحمد:  
التناس في شعر الرواد، دراسة، دار الشؤون الثقافية العامة، ط.1، بغداد، 2004.
- 106- النجار، محمد رجب:  
جها العربي شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د. ط)، الكويت، 1978.

- 107- النقاش، رجاء:
- أدباء معاصرون، مكتبة الإنجلو المصرية، (د. ط)، القاهرة، 1968.
- 108- النواب، مظفر:
- الأعمال الشعرية الكاملة، دار قنبر، (د. ط)، لندن، 1996.
- 109- هلال، محمد غنيمي:
- النقد الأدبي الحديث، دار العودة، (د. ط)، بيروت، 1986.
- 110- الورقي، السيد:
- لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، (د. ط)، القاهرة، 1998.
- 111- ياغي، عبد الرحمن:
- الأدب الفلسطيني الحديث، دار الكتائب العربي، (د. ط)، 1969.
- شعر الأرض المحتلة في الستينات، دراسة في المضامين، شركة كاطسة للنشر والترجمة والتوزيع، ط. 2، الكويت، 1982.
- 113- اليسوعي، روبرت ب. كامبل:
- أعلام الأدب العربي المعاصر، سير وسير ذاتية، الشركة المتحدة للتوزيع، ط. 1، بيروت، 1996.

## الدوريات

- 1 الأسطة، عادل:
- القدس في الشعر العربي المعاصر، مجلة الشعراء، عدد 22، رام الله، 2003، 37-56.
- 2- بدوي، محمد عبده:
- الشاعر والمدينة في العصر الحديث، عالم الفكر، مجلد 19، عدد 3، الكويت، 1988، 181-226.
- 3- بولس، حبيب:
- آليات الحداثة وملامحها في قصيدتنا المحلية، مجلة الكلمة، عدد 7، 8، رام الله، 2001، 49-58.
- 4- الجعدي، محمد عبد الله:
- حضور الأندلس في الأدب الفلسطيني الحديث، مجلة عالم الفكر، مجلد 28، عدد 4، الكويت، 2000، 7-46.
- 5- دراج، فيصل:

- نحية إلى سميح القاسم في عيد ميلاده الستين: الإبداع الشعري في الهوية الوطنية، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد 40، بيروت، 1999، 136-149.
- 6- رباحة موسى:  
اللغة، المكان، اللون علامات بارزة في شعرية إبراهيم نصر الله، مجلة أفكار، عدد 160، عمان، 2002، 36-42.
- 7- زايد، علي شعري:  
توظيف التراث في شعرنا المعاصر، مجلة فصول، مجلد 1، عدد 1، القاهرة، 1980، 204-218.
- 8- أبو زيد، شوقي أحمد:  
الشاعر سميح القاسم، الشعر العربي فن خارق ومعجز، مجلة الأقاليم، عدد 1، 2، بغداد، 1993، 130-132.
- 9- أبو شمالة، فايز:  
القدس في الشعر الفلسطيني والعربي، مجلة الشعراء، عدد 22، رام الله، 2003، 57-97.
- 10- حله، محمد علي وآخرون:  
الملاحم الأدبية حول التجربة النضالية للفلسطينيين لم تكتب بعد، مجلة الشرق، عدد 2، شفا عمرو، 1999، 84-92.
- 11- عثمان، اعتدال:  
جماليات المكان، مجلة الأقاليم، عدد 2، بغداد، 1986، 76-99.
- 12- العلاقي، علي جعفر:  
المدينة في الشعر، دراسة في موقف الشاعر العراقي الحديث من المدينة، مجلة الأقاليم، عدد 5، بغداد، 1986، 45-60.
- 13- العيد، يمني:  
جمالية المكان والحنين إلى المدينة المفقودة، مجلة الآداب، عدد 9، 10، بيروت، 1997، 76-82.
- 14- فتوح، رفيف:  
سميح القاسم أهذا هو المكان، مجلة الكرمل، عدد 21، 22، رام الله، 1986، 237-247.
- 15- قاسم، عدنان حسين:  
ظاهرة التحدي في الشعر الفلسطيني، مجلة الكلمة، عدد 7، 8، رام الله، 2001، 73-90.

- 16- القط، عبد القادر:  
سميح القاسم، شعراء المقاومة بين الفن والالتزام، مجلة المجلة، عدد 172، القاهرة، 1971، 2-10.
- 17- المصلح، أحمد:  
ظاهرة المكان في شعر مصطفى وهبي التل "عرار" البنية والدلالة، المجلة الثقافية، عدد 39، عمان، 1996، 102-114.
- 18- المقالح، عبد العزيز:  
الصوت الفلسطيني في قصيدة الانتفاضة، مجلة الآداب، عدد 4-6، بيروت، 1991، 2-13.
- 19- موسى، إبراهيم نمر:  
توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، مجلد 33، عدد 2، الكويت، 2004، 117-154.
- 20- ناجي، مجيد عبد الحميد:  
الصورة الشعرية، مجلة الأقلام، عدد 8، بغداد، 1984، 4-13.
- 21- وناس، المنصف:  
الشاعر سميح القاسم المنيابة الرؤى وحنين الأطفال، مجلة الشعر، عدد 4، تونس، 1983، 42-46.

### الرسائل الجامعية

- 1- أبو الرب، علي يوسف الحسين:  
البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث، 1967-1990، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد الأردن، 1991.
- 2- أبو زيد، شوقي أحمد يعقوب:  
التواصل بالتراث في أعمال سميح القاسم الأدبية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان الأردن، 1992.
- 3- تواصل الشعر الفلسطيني الحديث بالتراث، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان-الأردن، 1995.

- 4- زهد، خالد عبد اللطيف:  
الوطنية والإنسانية في آثار سميح القاسم، رسالة ماجستير، جامعة القديس يوسف، بيروت- لبنان، 1978.
- 5- عبيدات، زهير محمود سليمان عزام:  
صورة المدينة في الشعر العربي الحديث، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد- الأردن، 1987.
- 6- عوض الله، مها حسن يوسف:  
المكان في الرواية الفلسطينية (1984 - 1988)، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد- الأردن، 1991.
- 7- المجالي، محمد أحمد محمد:  
المدن العربية المقاتلة في الشعر الحديث (القدس، بيروت، البصرة)، 1948 - 1988، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان- الأردن، 1989.
- 8- يونس، جمال محمد قاسم:  
لغة الشعر عند سميح القاسم، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد- الأردن، 1981.

#### المقابلات الشخصية

- القاسم، سميح:  
المدينة في شعره، 03/09/2005، الخليل.  
محادثة هاتفية مع الشاعر بتاريخ 2006/01/19م.

#### الإنترنت

- (<http://www.a.wikipedia.org/wiki/>)
- (<http://www.alwaraq.net/search.htm>) 36.
- (<http://www.asharqalawsat.com/details.asp?>)
- (<http://www.bentahrafedain.com/adab/sheir/sh21.htm>)
- (<http://www.islamonline.net/arabic/news2001-3>)

## ملخص باللغة العربية

اكتسب موضوع المدينة أهمية في الشعر العربي الحديث عامة، وفي الشعر الفلسطيني خاصة، وذلك لأن المدينة عكست منطلقات هؤلاء الشعراء الفكرية، وآراءهم السياسية، وانتماءاتهم القومية، فكانت هي المكان الذي انطلق منه هؤلاء الشعراء، ليعبروا عن قضاياهم وتجاربهم الحياتية.

وقد اختارت الباحثة موضوع (المدينة في شعر سميح القاسم) لأنه من خلال المدينة، عبر عن همومه الوطنية، وقضايا الإنسانية، ومواقفه القومية، وانتماءاته الأيديولوجية، وقد كان لتحويلات المدينة أثر واضح في شعره، فمن خلال هذه التحويلات، تحدثت عن قضايا الإنسان والمكان معاً، فظهر وجه الوطن، وهموم المواطن.

وقد جاء المنهج التحليلي متلائماً مع هذه الدراسة، فاستطقت الباحثة التلصص الشعري، وحاولت سبر غوره، وربطته بعدد من العلوم الإنسانية، لكشف رؤية الشاعر للمدينة، وقد انتفعت بالمنهج الجمالي في تلمس المواطن الفنية في النص، فجاءت الدراسة الموضوعية والفنية مرتبطة معاً.

جاءت هذه الدراسة في مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة.

أما المدخل فعنوانه: المدينة مفهوم وامتداد، وتحدثت فيه الباحثة عن مفهوم المدينة من خلال عدة علوم، وأعطت فكرة عن المدينة من خلال لاشأتها وسماتها وموقف الفلاسفة والمفكرين منها، وتطرق إلى امتداد المدينة في الشعر العربي القديم لتؤكد أن هذا الموضوع لم يكن موضوعاً جديداً في الشعر العربي الحديث، وتوقفت عند مجموعة من الشعراء المعاصرين الذين تحدثوا عن المدينة، وأظهرت مواقفهم تجاهها.

وقد جاء الفصل الأول بعنوان: المدينة الفلسطينية حضور وامتداد، ومن خلاله عرضت الباحثة إحدى عشرة مدينة، وهي (القدس وحيفا ونابلس ويافا وعكا وغزة وقرق ووالخليل والناصرة وأريحا وجنين)، وقد تحدثت عن كل مدينة على حدة، لتظهر رؤية الشاعر الخاصة لكل منها، وعكس هذا الفصل صورة الواقع المعيش للمدينة الفلسطينية، وأثر تحولاتها في نفسية القاسم، وبرغم الجرائم التي اقترفت بحقها، إلا أن الشاعر أظهر المدينة الفلسطينية في صورة إيجابية، فهي مثال الصمود والشموع وذلك من خلال تضحيات أبنائها، وقد كان البعد الوطني هو الوجه المسيطر على هذا الفصل، فالمدينة الفلسطينية ما هي إلا الوطن.

وقد ركز القاسم في هذا الفصل على إظهار العلاقة الحميمة بين مدن الداخل الفلسطيني ومدن الضفة الغربية وغزة، ليؤكد أن فلسطين وطن واحد لا يتجزأ.

ومن خلال صمود المدينة الفلسطينية ظهرت صورة العدو الصهيوني، وسياسته القمعية في الأرض المحتلة.

وقد بدت مدينة القدس ذات مكانة متميزة لدى القاسم، وظهرت في مساحة واسعة من شعره.

والفصل الثاني بعنوان المدينة العربية واقع وطموح، تحدث فيه الباحثة عن ثماني مدن، وهي (بيروت وبغداد وصنعاء وعدن والقاهرة وبور سعيد وأسوان وعمان)، وقد كان البعد السياسي هو بوصلة الشاعر في هذا الفصل، فظهرت المدينة العربية تعاني واقعاً سياسياً مريعاً حاولت الخروج منه، فكانت الثورات ضد قوى الطغيان والتجبر والاحتلال، وقد تشابه وجه المدينة العربية لدى القاسم، فجاءت إما مدينة خاضعة لسياسة قهرية كبيروت وبغداد، وإما مدينة محاربة ثائرة، تخوض التضاملات من أجل التحرير كبور سعيد وصنعاء وعدن، وقد ركز الشاعر على العلاقة الحميمة بين مدن فلسطين والمدن العربية، فهو يرى في الوحدة العربية الخلاص من الاحتلال.

وقد عرضت الباحثة في الفصل الثالث/ المدينة الأجنبية صمود وهبنة، ثلاث عشرة مدينة، وهي (برلين وبريسك، ليتوفسك، وأثينا، وتل أبيب، ونيويورك، وإسطنبول، وبيروشيما، وكرميل، وواشنطن، وباريس، ولندن، وديترويت، ولاهاي)، وقد جاءت المدينة الاشتراكية ذات صورة إيجابية بصمودها وتلاحم أبنائها معها، فظهرت امتداداً للقاسم في انتمائه الفكري، وعقيدته السياسية، وأظهر إعجابه الشديد بها، ومن هذه المدن برلين وبريسك ليتوفسك وقد بدا الوجه الأثم للمدينة الأجنبية من خلال استباحة الشعوب المضطهدة واستعمارها، وكبت الحريات، وسلب الحقوق، وقد عكست المدينة الأمريكية والأوروبية ذلك الوجه القبيح، وقد نفر منها القاسم، وأبدى شعوره العدائي تجاهها.

وقد ظهرت المدينة اليهودية التي أقيمت على أرض عربية، عبرت عنها كل من تل أبيب وكرميل، وقد كانت هاتان المدينتان الهم المؤرق للقاسم/ الشعب الفلسطيني، لأتهما رمز للكيان الصهيوني ووجوده في الأرض الفلسطينية.

وقد خصصت الباحثة الفصل الرابع للحديث عن المدينة التاريخية، من خلال ثلاث عشرة مدينة، وهي (أوروك، وبابل، وطيبة، وسدوم، وعسيرة، وسكة، وروما، والمدينة المنورة، وإرم،

وشيراز، وقرطبة، وطليطلة، وقشتالة)، وقد جاء هذا الفصل ليعبر عن إحياءات المدينة التاريخية ورموزها، فأسقط القاسم ماضي هذه المدن على المدينة المعاصرة فبدت إما امتداداً لها كسدوم وعصورها، اللتين عكستا صورة المدينة اليهودية، وإما رمزاً للمدينة المعاصرة كروما التي رمزت إلى الأرض الفلسطينية الخالدة، وإما لمحاكمة المدن المعاصرة وإذانتها، وإظهار الواقع الأليم الذي تحياه الأمة العربية، وكانت المدن الأندلسية هي المنطلق لتلك الإدانة.

وقد توصلت الباحثة إلى عدد من النتائج جاءت من خلال القائمة، ومن أهمها:

- كانت المدينة الفلسطينية ذات حضور كثيف في شعر القاسم إذا ما قورنت بالمدن الأخرى، وقد بدت في شعره من خلال البعد الوطني، فجاءت مدينة مناضلة من أجل الحرية.
- أرخت بعض المدن الفلسطينية لبعض الأحداث الوطنية التي شهدتها تلك المدن، فقد جاءت نابلس لتسجل أحداث الاعتقالات التي شهدتها المدينة عام 1974، وسجلت غزوة الحدث الوطني وهو الانتفاضة عام 1987.
- جاءت المدينة العربية في شعر القاسم ذات وجه إيجابي مشرق، من خلال صمودها ومواجهتها لقوى الاستعمار، ومن خلال ثوراتها التي احتضنتها، وقد التحمت المدينة العربية مع المدينة الفلسطينية لتشكل المدينة المتحررة من قوى التسلط والاحتلال.
- حملت المدينة الأجنبية في شعر القاسم صورة عن موقفها الفكري وتطورها الحضاري، وسياستها تجاه الإنسانية، وقد عبر القاسم عن رؤيته لهذه المدن من خلال عقيدته الفكرية وموقفه الوطني، وانتمائه القومي.
- ركز القاسم من خلال المدينة التاريخية على البعد الحضاري للمدن الإسلامية، وخاصة المدينة الأندلسية، وذلك لإسقاط ماضي هذه المدن المجيد على واقع المدينة العربية المعاصر.
- استعان القاسم في حديثه عن المدينة ببعض التكنيكات الفنية التي كان لها الأثر في تعميق الجانب الفني في شعره، وقد كان للتواصل بالموروث أهم سمة فنية ميزت أسلوب الشاعر في حديثه عن المدينة، وقد استطاع الشاعر من خلال صوره الفنية المعتمدة على اللون والصوت والحركة أن يرصد واقع المدينة، ويظهر ملامحها، وقد وظف القاسم الرموز الشفافة فجاءت ملائمة للأفكار التي عرضها.



## ABSTRACT

*The researcher chose to write about (The city in Sameeh AL-Qasim poetry), as through his poetry he expressed his national concerns humanitarian issues, national and ideological positions. Here, the face of the city appeared through both man and place.*

*The study came in a foreword, an introduction, four chapters and a conclusion.*

*In the **first chapter**, the researcher talked about the Palestinian city from point of view of presence and extension and private characteristics of each city. Accordingly, the Palestinian city appeared in a positive and beamy portray. The national dimension was the prevailing face in this chapter, and the Palestinian city appeared as face of the state.*

*AL-Qasim focused on the close relation between cities of 1948 and cities in the West Bank and Gaza strip to emphasize that the Palestinian state is one unity that couldn't be integrated.*

*The picture of Zionist enemy and its aggressive policy in the occupied land appeared through the solidarity of the Palestinian city.*

*The **second chapter** expressed the Arab city reality and ambition. The political dimension was the prevailing aspect on AL-Qasim in his poetry. The Arab city appeared here suffering a political existence and tried to escape it through revolutions and facing tyranny powers. AL-Qasim stressed the close relation among those cities and cities of Palestine. The Arab world is one side in the face of occupation.*

*In the **third chapter**, the researcher talked about foreign city. The socialist city in its solidarity and courageous people came as an extension to AL-Qasim in his political and thought belief. AL-Qasim*

*showed his great admiration in that city. On the other hand, the American, European and the Jew cities reflect the ugly face of domination over oppressed people. The poet disgusted those cities.*

*The researcher, in the **fourth chapter** discussed the historical city. Those cities showed the modern model. AL-Qasim employed some of those cities to imitate modern cities, condemning them and showing the horrible reality the Arab people exist.*

*The researcher concluded a number of results stated in the conclusion*

*In the Name of God, the Compassionate, the Merciful*

**Hebron University**

*High Studies Deanary*

*Arabic Language Dept*

**AL-Madina in the Poetry of Samih AL-Qasim**

*Presented by/*

**Eman Shalib Sha'ban Maraqa**

*Supervised by/*

**Dr. Nadir Qasim**

*Associate Prof. in Modern Literature*

*This thesis has been presented as a completion to master  
degree requirements in the Deanary of High Studies of  
Arabic Language Department*

Aug. 2006